

الطبعة الأولى
أخلاق الحروب
في السنة النبوية
لا إله إلا الله محمد رسول الله
دكتور راغب السرجاني
مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة

أخلاق الحروب

في السنة النبوية





الطبعة الاولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

رقم الإيداع: ٨١٤٧/ ٢٠١٠م

دار الكتب والوثائق القومية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

السرجاني، راغب
أخلاق الحروب/ تأليف: راغب السرجاني
ط١ - القاهرة : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠
(٤٦٦ص)، ٢٤ سم تدمك: ٤ ٧٧٧ ٤٤١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - أخلاق الحروب ٢ - الأخلاق الإسلامية
٣ - الأخلاق العسكرية
أ - العنوان ١٧٤.٩٣٥٥٠٢

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٥٢٢٤٢٠٧ - ٠١٢٦٦٣٤٤٠٤٣

www.Iqraakotob.net

E-mail:iqraakotob@yahoo.com

رؤية

أحلم بيوم يصل فيه التاريخ الإسلامي الحقيقي – دون تزوير – إلى كل إنسان على وجه الأرض – مسلمًا كان أو غير مسلم– ليعلم الجميع أن الدين الإسلامي الرائع صنع تاريخًا عالميًّا رائعًا كذلك، وليعلم الجميع أيضًا أن هذه الأمة لها جذور أعمق من أن تستأصل، وليدرك كل مطلع على هذا التاريخ أن هذه الأمة العظيمة ستبقى حية ما دامت على الأرض حياة، وستعود إلى صدارة الدنيا حتمًا كما كانت قبل ذلك، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.



مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل الله فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد..

فمنذ أن بدأ الوحي في التنزُّل على رسول الله ﷺ، إلى أن أتمَّ الله عزَّ وجلَّ هذا الدين، وامتنَّ به على المسلمين قائلًا سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. منذ ذلك الحين وحياة الرسول ﷺ تمثل النموذج التطبيقي الكامل الشامل لكلِّ ما جاء في القرآن الذي بلغ الذروة في الكمال والإتقان، وبلغ الغاية في الإبداع، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وبيَّن حكمها، وطريقة التعامل معها، يقول تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

جاءت السُّنَّة النبوية إذن تبين حكم القرآن في كل أمر، وتوضح الحلال من الحرام؛ حتى لا تترك شيئًا غامضًا يُزيغ المسلمين عن الجادَّة، حتى يقول الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه العرباض بن سارية رضي الله عنه: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»[1].

وقد كان من لوازم شمول الإسلام، وكون سُنة الرسول ﷺ هي المفسرة لأحكام القرآن أن كثَّف الله عزَّ وجلَّ كل الأحداث التي من الممكن أن تواجه المسلمين في أي زمان وفي أي مكان، وذلك في ثلاثٍ وعشرين سنةً فقط؛ حتى يتحقق التوجيه الإلهي الحكيم: ﴿لَقَدْ كَانَ

(١) ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (١٧١٨٢)، والحاكم (٣٣١)، وقال الألباني: صحيح. السلسلة الصحيحة (٩٣٧)..

لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

لقد مرَّ الرسول ﷺ في فترة رسالته بكل الظروف التي يمكن أن تواجه الأمة الإسلامية في كل زمان ومكان؛ فهذه ظروف حرب وهذه ظروف سلم، وهذه أيام غنى وهذه أيام فقر، وهذه فترات قوة وهذه فترات ضعف. وتعامل الرسول ﷺ مع كافة أنماط البشر؛ فهذا مؤمن وذاك جاحد، وهذا هين لين سهل، وذاك فظ غليظ، وهذا صغير وذاك كبير، وهذا رجل وتلك امرأة. لقد كان هذا التنوع ضروريًّا؛ لكي يمنحنا الرسول ﷺ منهجًا عمليًّا في التعامل مع البشر؛ لأننا أمة منوط بها تبليغ الإسلام للبشرية كافة في كل زمان ومكان، وتحت أية ظروف.

ولقد تعامل رسول الله ﷺ مع كل الأمور التي واجهته بطريقة فذَّة، وبسُنَّة مطهرة أخرجت لنا كنوزًا هائلة من فنون التعامل، ومن آداب العلاقات، وقد برز في كل دقائق حياته العنصرُ الأخلاقيُّ، كعنصر مؤثر تمامًا على كل اختيار من اختياراته ﷺ، فلا يخلو - حقيقةً - أيُّ قول أو فعل له ﷺ من خلقٍ كريم، وأدب رفيع، بلغ إلى هذه الذروة، ووصل - بلا مبالغة - إلى قمة الكمال البشري، الأمر الذي نستطيع أن نفهم منه قوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»[1].

وهكذا فلا يخلو موقفٌ ولا حدثٌ ولا قولٌ ولا ردُّ فعلٍ من بروزٍ واضح لهذه الأخلاق الحميدة، حتى في المواقف التي يصعب فيها تصور الأخلاق كعاملٍ مؤثرٍ، وذلك كأمور الحرب والسياسة، والتعامل مع الظالمين والفاسقين والمحاربين للمسلمين والمتربصين بهم..

لقد كان من المستحيل عند أهل السياسة والاقتصاد والحرب والقضاء أن يضبطوا تعاملاتهم في هذه المجالات بالضوابط الأخلاقية والإنسانية، ولكن جاءت حياة الرسول ﷺ، وسيرته العطرة لتنطق في كل لفتة من لفتات حياته بالالتزام بتلك الضوابط، ولا غرو،

---

(١) الحاكم عن أبي هريرة ﷺ (٤٢٢١)، وقال: صحيح على شرط مسلم. ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. والبيهقي في سننه الكبرى (٢٠٥٧١)، وقال الألباني: صحيح. السلسلة الصحيحة (٤٥).

فهذا الخُلُق هو الذي وصفه الله ﷻ بالعظمة، حيث قال في وصفه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

لقد أثبتت سيرة الرسول ﷺ أنَّ الالتزام بالقواعد الإسلامية المثالية التي وردت في كتاب الله ﷻ ليس ضربًا من الخيال، أو تحتاج إلى عالمٍ مثالي خالٍ من الشر والرذائل، بل هو أمر ممكن؛ لأنها قواعد واقعية إضافةً إلى كونها مثالية، قواعد يمكن تطبيقها والحياة بها كما استطاع الرسول ﷺ أن يحيا بها، ولأنها هي أصلح القواعد لتنظيم حياة البشر، وأنها الدليل الواضح لمن أراد الهداية بصدق، كما كانت حياته ﷺ ترجمة صادقة لكل أمر إلهي، وقد صَدَقَت ووُفِّقت أم المؤمنين عائشة[1] ﵂ في وصف أخلاقه ﷺ عندما قالت: **كان خُلُقُهُ القرآن**[2].

ولكنْ لأنه ليس كل مَن يرى يبصر؛ فإنَّ هذه الأخلاق العظيمة، والشمائل الجليلة لم تمنع نفرًا من البشر أن ينكروا فضل رسول الله ﷺ، ويكذِّبون ما علمه جميع البشر من جميل خلاله، بل ساقهم الكِبر والعناد إلى التطاول على رسول الله ﷺ، والإساءة إليه.

وهذا النكران والجحود لفضل رسول الله ﷺ ليس له من سببٍ إلا الحقد أو الجهل؛ فالحاقد لا ينقصه علم ولا دراية.. إنه رأى الحق بوضوح، ولكنه آثر - طواعيةً - أن يتَّبع غيرَه، أمّا لماذا خالف وأنكر فللأسباب كثيرة: فهذا محبٌّ لدنياه، وذاك مؤثرٌ لمصالحه، وهؤلاء يتَّبعون أهواءهم، وأولئك يغارون ويحسدون..

إنها طوائف منحرفة من البشر لا ينقصها دليل، ولا تحتاج إلى حجة، وفيهم قال ربنا ﷻ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

وهذه الطائفة موجودة في كل زمان، وهم أعداء الصلاح وأهله أينما كانوا، وهم الذين

---

(١) هي أم المؤمنين عائشة بنت الصديق ﵄، زوج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة. كانت أحب زوجاته ﷺ إلى قلبه، وكانت من أعلم الصحابة، توفيت سنة ٥٨هـ. انظر: الإصابة: الترجمة (١١٤٤٩)، أسد الغابة ٦/ ١٩١.

(٢) أحمد (٢٥٣٤١)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨١١).

ينشرون الفحشاء، ويروجون للموبقات... إنهم كبار الضُّلاَّل في كل عصر، وعتاة المجرمين، ورءوس الفتنة، يَضِلُّون ويُضِلُّون، ماتت ضمائرهم، وانتكست فطرتهم؛ فصاروا يرون الباطل حقًّا، والهداية ضلالًا؛ فاختاروا لأنفسهم ولأقوامهم طريق الضلال والغواية، وأعرضوا كل الإعراض عن كل دليلٍ يقود إلى خير، ووجَّهوا جلَّ اهتمامهم إلى حرب المصلحين والشرفاء!

ومن هذا الفريق كان فرعون وهامان وقارون، ومنه كان أبو جهل وأُبي بن خلف وأبو لهب، ومنه كان كسرى وقيصر، ومنه كان حُيي بن أخطب وكعب بن الأشرف..

مِنْ هؤلاء مَنْ تزيّا بزيِّ الملوك والسلاطين، ومنهم مَنْ تزيا بزي الأحبار والرهبان.. منهم مَنْ أمسك السيف وقاتل، ومنهم مَنْ أمسك القلم وطعن.. منهم اليهودي والنصراني والمشرك والمجوسي، ومنهم الملحد الذي ينكر الألوهية أصلًا، بل إن منهم المسلم ظاهرًا المنافق باطنًا!! وما قصة عبد الله بن أبي ابن سلول[1] عنَّا بخافية. إنه فريق خطير يحتاج المسلمون دائمًا إلى كشف أوراقه، وإلى فضح مخططاته ومؤامراته، وإلى تحذير العالمين من شروره وآثامه.

وقد مَنَّ الله ﷻ على المسلمين بأن جعل أهل هذه الفِرقة - التي تحفل بقيادات الكفر من أمثال: فرعون وهامان وقارون، وأبي جهل، وأُبي بن خلف، وأبي لهب، وكسرى، وهرقل - قِلَّة في بحر الذين يحاربون الإسلام، ويكذبون الأنبياء والمرسلين.. إنَّ هذا البحر حافل بنوع آخر غير هذه الفِرقة، هذا النوع الآخر الذي يمثل السواد الأعظم من المكذبين الجاحدين لرسالة الرسل، هو «عموم الناس» الذين لم يعرفوا الدين من مصادره الصحيحة، إنما صُوِّر لهم على أنه بدعٌ منكرة، أو تقاليد بالية، أو أفكار منحرفة، فانساقوا كالقطيع وراء الأبالسة، وساروا في ركابهم إلى هاويتهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا!!

إنهم الجهلة الذين لم يعرف العلم إلى عقولهم سبيلًا، أو البسطاء الذين يفتقرون إلى شرح

---

(١) عبد الله بن أبي ابن سلول، وسلول المذكورة هي أمه، وعبد الله هو رأس النفاق في المدينة المنورة، وهو الذي رجع بثلاثمائة من المنافقين في أحد، وتوفي سنة ٩هـ. وكفن في قميص الرسول ﷺ. انظر: الكامل في التاريخ ١/ ٢٩٣، تاريخ الأمم والملوك ١/ ٤٦٩.

وتوضيح، أو حتى العقلاء الذين يحتاجون إلى دليلٍ وبرهان.

إن هذا الفريق الثاني يحتاج ببساطة إلى «العلم».

إنَّه لا يحارب الإسلام عن عداءٍ ورغبةٍ في الحرب، ولا يطعن في الرسول ﷺ بُغضًا له، أو عن عقيدةٍ وفكرٍ وتصميم.

إنهم المساكين من العوام الذين يقودهم سادتهم إلى حتوفهم كما تُقاد الأنعام لا تستطيع لنفسها شيئًا!!

إنها الشعوب التي يحركها القادة كما تحرك الريح أوراق الشجر؛ فتلقي بها في أي مكان!!

إنهم «عموم الناس»!

ما أكثرهم!!

وراجعوا التاريخ وتدبروا صفحاته..

هذه الشعوب التي طالما قُهرت على الذل والعبودية والقهر، ونشأت على أن ملوكها من سلالة الآلهة كما آمن الشعب الفارسي قرونًا طوالًا، وأن الدين الصحيح هو دين مزدك[1] وأتباعه، ثم لما وصلتهم رسالة الإسلام، وعرفوا أخلاق النبي ﷺ والمسلمين الحقيقية، وسمعوا ما نُقِل إليهم من أقوال الرسول ﷺ الحكيمة، ما كان منهم إلا أن دخلوا في دين الله أفواجًا طائعين مسلمي قيادهم إلى الله ﷻ ونبيه ﷺ، لقد كان الحق والعدل الذي جاء به الإسلام هو ما يتمنَّاه عامَّة الفُرس؛ فلما جاءهم أقبلوا عليه إقبال الشغوف المحب، ومصداق ذلك ما رواه الطبري عن أبي عثمان النهدي، قال: لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس؛ حبسوه واستأذنوا رستم في إجازته، ولم يغيروا شيئًا من شارتهم تقويةً لتهاونهم؛ فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم في زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، وبُسُطُهم على غلوة لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليهم غلوة، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي

---

(١) مزدك: فيلسوف فارسي معروف، ظهر في أيام كسرى قباذ والد أنو شروان، ودعا قباذ إلى مذهبه فأجابه، واطَّلَع أنو شروان على افترائه فطلبه فقتله، وكان قد أحل النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركاء فيها.

حتى جلس معه على سريره ووسادته؛ فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه؛ فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قومًا أسفَهَ منكم؛ إنّا معشرَ العرب سواءٌ؛ لا يستعبد بعضنا بعضًا إلا أن يكون محاربًا لصاحبه؛ فظننتُ أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أنْ تخبروني أنَّ بعضكم أرباب بعض، وأنَّ هذا الأمرَ لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتموني.. اليوم علمتُ أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون، وأنَّ مُلكًا لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول؛ فقالت السُّفلة: صدق والله العربي، وقالت الدهاقين: والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أوَّلينا؛ ما كان أحمَقَهم حين كانوا يُصَغِّرون أمر هذه الأمة».

لقد فقه عوام أهل فارس من كلام المغيرة ﷺ أنَّ دين الإسلام هو دين المساواة بين البشر، ومن ثَمَّ أقبلوا عليه، في حين شعر الدهاقين (وهم رؤساء الفلاحين) بالقلق؛ لأنهم يدركون شوق الرَّعية إلى هذه المساواة.

إننا - والله - لا نحتاج إلى إكراهٍ في الدين، ولا نسعى إلى إرغامٍ على عقيدة، فضلًا عن أننا مأمورون بالامتناع عنهما، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

لقد تبيَّن لشعب فارس الرشدُ من الغي، لقد رأوا الحق وميَّزوا بينه وبين الباطل بوضوح، واختار جُلُّ الشعب طريق الفطرة التي زرعها الله ﷻ في سويداء قلوب عباده ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وأسلم غالب شعب فارس، ولم يستمر في الإنكار والتكذيب والمقاومة إلا رءوس الكفر وأئمة الضلال.

وما قلناه عن شعب فارس ينطبق على شعوب الشام ومصر وشمال أفريقيا، بل وعلى نصارى الأندلس والأناضول وشرق أوروبا، وكذلك ينسحب على شعوب شرق وغرب أفريقيا، وعلى أندونيسيا وأرض الملايو والهند وغيرها..

إنَّ السواد الأعظم من الناس يكفيه أن تعرض له حقيقة الإسلام، وأخلاق الرسول ﷺ وشمائله الكريمة ناصعة دون تجميل - إن كان ثمَّة إمكانية للتجميل - ليندفع نحو الإسلام

مهرولًا عن يقين صادق.. من هنا نفهم ما ذكره ربنا ﷻ في كتابه محمدًا بوضوح وظيفة الأنبياء: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

ومن هنا كان تقصير المسلمين في تبليغ دعوة الإسلام هو المنفذ الذي ينفذ منه أئمة الكفر والفساد والغواية؛ ليعرضوا الإسلام على الناس حسب أهوائهم، ليضلُّوهم، ويُلَبِّسوا عليهم دينَهم.

إن قيادة الناس للهداية مسئولية جسيمة أمام الله ﷻ، والمتكاسل عنها على خطر عظيم؛ لأنه يدفع الناس دفعًا إلى البحث عمَّن يقودهم ويأخذ بأيديهم، ولو كان جاهلًا!!

يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

فالتخلي عن قيادة الناس وهدايتهم إلى الحق هو نقيض المهمة التي أوكلها الله ﷻ إلى المؤمنين، فلقد قال الصحابي الجليل ربعي بن عامر[2] ﷺ وهو يشرح ببساطة دور المسلمين في الأرض، ومهمتهم في الحياة.. لقد قال في إيجاز حكيم: «إن الله ابتعثنا لنُخرج مَن شاء مِن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَور الأديان إلى عَدل الإسلام».

فهذه المهمة هي رحمة من الله ﷻ بالبشر، والنكوص عنها هو ما دفع الكثيرين من الناس إلى حربنا، فالمرء عدو ما يجهل، فما بالك بمن لا يجهلك فحسب، بل يعرف عنك - من المصادر الزائفة - ما يسوءك، ويشوه صورتك.

إننا نحتاج إلى إبراز مواطن العظمة والكمال في ديننا، وفي حياة نبينا ﷺ. نحتاج أن نتحدث عن أنفسنا بأنفسنا، وأن نكتب عن أخلاقنا بأقلامنا، وأن نتحدث عن رسولنا ﷺ بألسنتنا. لقد دخلتُ أكثر من مكتبة عملاقة في أوروبا وأمريكا لأرى الكتب التي تتحدث

(١) البخاري: كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم (١٠٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (٢٦٧٣) عن عبد الله بن عمرو.

(٢) ربعي بن عامر: صحابي جليل من صحابة النبي ﷺ، شهد فتوح فارس، وبعثه سعد بن أبي وقاص إلى رستم رسولاً، وولاه الأحنف لما فتح خراسان على طخارستان. انظر: الإصابة (٢٥٦٧).

عن الإسلام، أو عن رسولنا ﷺ باللغة الإنجليزية، وباللغات الأخرى، فوجدت العشرات بل والمئات، ولكن - يا للأسف - معظمها كُتبت بأيدٍ غير مسلمة!!

فقليل أنصف ودافع، وكثيرٌ ظَلَمَ وجَحَدَ وكَذَّبَ وافترى..

والسؤال: أين المسلمون؟!

أليس من ميادين الجهاد العظيمة أن يُكتَب عن دين الإسلام وعن رسوله ﷺ ما يشرح الجمال والكمال والجلال لعباد الله أجمعين؟!

ألا يجب أن نغطي هذا المجال من كل جوانبه وبكل تفصيلاته؟!

ألا يجب أن نصل إلى الشعوب المسكينة التي أعماها الجهل، وغطَّى الرانُ على قلوبها، فما رأت عظمة الإسلام وأخلاقه وتشريعاته؟!

ألا يجب أن تُترجم كل هذه الفضائل إلى كل لغات العالم المشهورة وغيرها حتى نقيم حُجَّة الله على خلقه؟

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

لا بد لنا أن نشعر بالتقصير ونحن نرى «عموم الناس» يعيشون حياتهم ليأكلوا ويشربوا ويتمتعوا فقط، وهم عن عبادة ربهم غافلون لاهون؟!

إننا محاسبون يوم القيامة عن هؤلاء الذين كرهوا الإسلام، وكرهوا خير البشر محمد ﷺ؛ لأنهم لم يسمعوا عنه إلا من وسائل الإعلام اليهودية وما شابهها، ولم يقرءوا عنه إلا بأقلام المغرضين والملحدين؟!

إن المهمة بعد ثقيلة، والتبعة جد عظيمة..

إن العالم يحتاج لكمال شريعتنا، ويفتقر إلى قيادة رسولنا ﷺ، وليست مهمة البلاغ بالهينة؛ فالأعداء متربصون، وإبليس لا يهدأ، والمعركة على أشدها، ولكن كل ذلك لا يخيفنا، فنُصب أعيننا قول ربنا يُثبِّتَ قلوبنا، ويرسخ أقدامنا: ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وبين أيدينا هذا البحث - الذي أسأل الله أن يجعله خالصًا لوجهه - نفتح فيه صفحةً واحدةً من الصفحات المبهرة في ديننا، وفي سيرة رسولنا الكريم ﷺ.. نَصِف فيها كيف كانت أخلاقه ﷺ في مجال الحروب، وهو مجال قلَّما تجد فيه أخلاقًا عند عموم القادة، غير أنه عند رسول الله ﷺ شيءٌ آخر تمامًا!!

إنها صفحة بيضاء نقية، ما أحسب أن الفلاسفة والمنظِّرين والمفكرين قد تخيلوا مرة في أحلامهم أنها يمكن أن تكون واقعًا حيًّا بين الناس، حتى إن أفلاطون[1] في جمهوريته، والفارابي[2] في مدينته الفاضلة، وتوماس مور[3] في مدينته الفاضلة الثانية (اليوتوبيا)، لم يصلوا في الأحلام والتنظير إلى عُشر معشار ما كان عليه رسولنا ﷺ في حقيقته وواقعه.

ويا ليت المسلمين يدركون قيمة ما في أيديهم من كنوز فيدرسونها ويُطبِّقونها، ثم ينقلونها إلى مشارق الأرض ومغاربها؛ ليسعدوا وتسعد بهم البشرية، وليكونوا سببًا في هداية الناس لرب العالمين.

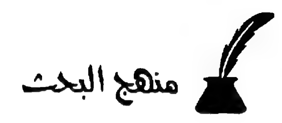
* * *

---

(١) أفلاطون: فيلسوف يوناني، وأحد أعظم الفلاسفة الغربيين، حتى إنَّ الفلسفة الغربية بكاملها اعتُبِرَت أنها ليست إلا حواشٍ لأفلاطون. عُرف من خلال مخطوطاته التي جمعت بين الفلسفة والشعر والفن. وكانت كتاباته على شكل حوارات ورسائل وقصائد. من أشهر كتبه جمهورية أفلاطون، وذكر فيه وصفًا خياليًّا لما يتصوره للمدينة المثالية.

(٢) أبو نصر محمد الفارابي (٢٦٠ - ٣٣٩هـ): فيلسوف أتقن علوم الفلسفة، وبرع في العلوم الرياضية، وكذلك الطب وإن لم يمارسه. يُنسب إلى فاراب، وهي جزء مما يعرف اليوم بتركستان. من أشهر كتبه: المدينة الفاضلة.

(٣) توماس مور: كاتب وفيلسوف وسياسي إنجليزي، اشتهر بكتابه المدينة الفاضلة (اليوتوبيا). ولد سنة ١٤٧٨م وتوفي سنة ١٥٣٥م.



منهج البحث

هذا البحث الذي بين أيدينا يتناول موضوعًا من أهم الموضوعات التي نحتاج إليها في زماننا هذا بل وفي كل الأزمنة، فهو يناقش قضية أخلاق الحروب، فالعالم الآن بشتى طبقاته وبلاده وسكانه يعاني من حروب فعلية، أو تهديد مستمر بحدوث حرب، وأصبحت القسوة، والعنف سمات رئيسية من سمات الحياة، مما يُحتِّم على العالم أن يقف وقفة ويفكِّر، إلى أي هاوية يتجه الناس إذا استمر الحال على ما هو عليه؟! وهذا أمر يوضِّح أهمية البحث الذي نحن بصدده.

فإذا كان الموضوع خاصًّا بأخلاق الحروب في حياة الرسول ﷺ، فإنه يكتسب أهمية خاصة، وذلك لكون البحث يناقش أرقى وأعلى مستوى في الأخلاق عرفته البشرية، وهي الأخلاق التي جعلها الله ﷻ مقياسًا للناس، فإنه قال في كتابه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]،فهذا الخُلُق الذي وُصِف بالعظمة لابد أن يُدْرَس ويُعرَّف للعالم أجمع، فإن كل طائفة من البشر تُعرِّف عموم الأخلاق من منظورها وحسب مصالحها، ولذلك وجب أن يكون هناك معيار ثابت لهذه الأخلاق يحتكم الناس إليه عند الاختلاف، وهذا المعيار هو رسول الله ﷺ.

ويضيف إلى أهمية الموضوع، تلك الهجمات الشرسة التي تستهدف رسولنا العظيم ﷺ، والتي يطلقها الآن الكثير من الغربيين والشرقيين، بل وأحيانًا من أبناء المسلمين العلمانيين، والذين يحزنهم أن يجدوا رسول الله ﷺ قدوة، ليس للمسلمين فقط ولكن للبشر أجمعين، وليست رسوم الكاريكاتير الدنماركية منا ببعيدة، وليست كلمات البابا الكاثوليكي في ألمانيا عنا بخافية، وليست الافتراءات المشاهدة على صفحات الجرائد، وعلى شاشات الفضائيات بقليلة!! إن الخطب جلل، وإن الكارثة عظيمة، وما أشد خسارة البشرية لو جهلت قيمة خير مخلوق، وأعظم رسول، وأرحم من سار على هذه الأرض. إنَّ مهمة المسلمين ثقيلة حقًّا.

وهي لا تكمن في الدفاع عن الرسول ﷺ فقط - وإن كانت هذه من أجلّ المهام - ولكن مهمة المسلمين في الأساس هي التعريف بهذا الرسول الرحيم ﷺ، حتى نستنقذ به الملايين والبلايين ممن عاشوا حياتهم وهم لا يعرفونه، وممن عَبَدَ الله على غير علم، فضَلَّ وأضلَّ.

ومن هنا فإنَّ دور هذا البحث لا يقتصر على تعريف المسلمين بنبيهم، وإنما يتخطى ذلك إلى نفع البشرية جمعاء بهذا الجانب الرائع من سيرته ﷺ.

وكان في أمنيتي عند الشروع في هذا البحث أن أحصي كل المواقف الأخلاقية في حروب الرسول ﷺ، إلا أن هذا الحصر والاستقصاء يبدو مستحيلًا؛ إذ إن هذا الحصر بمعناه الدقيق يعني - تقريبًا - الحديث تفصيليًا عن كل حروبه، فإنه لا تخلو غزوة ولا سرية من مواقف رائعة تبرز فيها الأخلاق السامية بشكل واضح، ومن ثم فقد سدَّدْتُ وقاربْتُ، بأن قمت بجمع ما وجدت أن له علاقة مباشرة بفكرة البحث، وهو عرض الصورة الفذة، والطريقة المبهرة، التي تعامل بها ﷺ مع كل من حاربه على اختلاف عقائدهم وقبائلهم وبيئاتهم وظروفهم.

وعلى عكس ما يكون في كثير من الأبحاث من صعوبة نتيجة قلة المصادر التي لها علاقة بالموضوع، فإن هذا البحث كانت صعوبته لأمر مخالف تمامًا!! لقد كان من التحديات الكبرى التي واجهتني في هذا البحث وفرة المصادر والمعلومات بشكل لافت للنظر.. فهناك المئات والآلاف من المجلدات التي كُتبت بأيدي علماء وفقهاء المسلمين - بل وبأيدي غير المسلمين - والتي تصف حياته ﷺ وصفًا دقيقًا، شمل كل دقيقة من دقائق الحياة، وهو ما لم يحدث قبل ذلك - ولن يحدث أبدًا - مع أي شخصية أخرى غيره ﷺ..

ولأجل هذه الوفرة في الكتب والمصادر فقد جعلت لنفسي منهجًا في الاعتماد على هذه المصادر، ويتلخص ذلك المنهج فيما يلي:

أولًا: الاعتماد بشكل رئيسي على ما جاء في القرآن الكريم من تحديد لآداب القتال، وإسقاط هذا المفهوم على حياة الرسول ﷺ، وكذلك نقل الآيات التي نزلت بخصوص مناسبات معينة لها علاقة وثيقة بموضوعنا، والاعتماد في شرح هذه الآيات وفهم

معانيها على كتب التفسير الموثقة، مثل التفاسير التي كتبها الطبري وابن كثير والقرطبي رحمهم الله جميعًا، وغير ذلك من التفاسير القيِّمة حسب الحاجة.

ثانيًا: الاعتماد بشكلٍ رئيسي - قدر الإمكان - على ما صحَّ من مروياتٍ في كتب السنَّة المعتمدة، وأولها بلا جدال صحيح البخاري ثم صحيح مسلم، وبعد ذلك كتب السنة العظيمة، كسنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه والبيهقي وغيرهم، وكذلك كتب المسانيد وفي مقدمتها مسند أحمد بن حنبل.

ولم يكن النقل عن هذه المصادر مجردًا من التوثيق والتصحيح، فقد حرصت على البحث عن تقييم علماء الحديث الثقات - سواء من الأقدمين أو المعاصرين - هذه المرويات، ولم أُثبِتْ في هذا البحث إلا ما قرأت تصحيحًا له - أو قبولًا على الأقل - من عالمٍ معتبرٍ، أو محدِّثٍ ثقة.

ثالثًا: يأتي بعد كتب السنة الموثَّقة كتب المغازي والسير والدلائل والشمائل، وهي كتب كثيرة، وبها أحداث متوافرة، ولكن يعيبها أن بها الكثير من الضعيف، بل والكثير مما لا أصل له، ومن ثم كان حرصي في هذا البحث - قدر المستطاع - على عدم النقل عن أحد هذه الكتب إلا بعد رؤية تصحيح للرواية في الكتب التي اهتمت بذكر صحيح السيرة، أو كتب السيرة التي حرص فيها أصحابها على نقد الروايات، وعلى تقديم الصحيح على الضعيف، بالإضافة إلى كتب السيرة التي علَّق عليها، وخرَّج مواقفها علماءُ الحديث المعتبرون.

رابعًا: أعرضت في هذا البحث عن كل موقفٍ أو حديثٍ لم أقف على تخريجٍ له.

خامسًا: بعد ذكر الموقف أو الحديث كنت أعلق عليه وأذكر المستفاد منه، وما أضافه لفِقْهنا لأخلاق الحروب في السنة النبوية، وهذا التعليق على الحديث كان أحيانًا نتيجة استنباط مني، أو رؤية خاصة بي، وأحيانًا أخرى كان نقلًا عن أحد العلماء الذين ألَّفوا في هذا الموضوع، وفي الحالة الأخيرة كنت أُثبِتُ الكتاب الذي نقلت عنه هذه الرؤية.

وبعد أن قمت بجمع مادة البحث قمت بصياغتها في أربعة أبواب على النحو التالي:

جعلت **الباب الأول** في هذا البحث كمقدمة للموضوع قبل الدخول في تفصيلات الأخلاق النبوية، وقد قسَّمت هذا الباب إلى أربعة فصول، كان **الأول** منها يوضح أهمية الأخلاق في ميزان الشرع الإسلامي، ودورها في بناء الأمم، ثم تحدثت في **الفصل الثاني** عن نظرة الإسلام التكريمية للإنسان بصفة عامة؛ لنَفْقَه بعد ذلك الخلفيات التي على أساسها يتعامل رسول الله ﷺ أخلاقيًا مع بشرٍ كفروا بالله ﷻ! أما **الفصل الثالث** فقد أطلقتُ عليه اسم «حتمية الحروب» وأكدتُ فيه على أن الحرب كثيرًا ما تكون ضرورة، ثم إنها ستبقى حتمًا إلى يوم القيامة، ومن ثم فيجب التعامل معها كحقيقة، وفي **الفصل الرابع** والأخير في هذا الباب ذكرت بإيجاز طرفًا من نظرة المجتمع المعاصر لرسول الله ﷺ لمسألة الحروب، سواء في بلاد العرب، أو في الدول والممالك الموجودة آنذاك، ليدرك الجميع مدى عظمة الأخلاق النبوية، والتي تميَّزت برحمة ظاهرة في بيئة شديدة القسوة!

أما **الباب الثاني** فباب رئيس في البحث، وهو الباب الذي فصَّلت فيه في الحديث عن أخلاق رسول الله ﷺ في الحروب، وهو أمر عجيب، فلا أحد يتخيل أن الأطر الأخلاقية يمكن أن تحيط بقضايا الحرب والقتال، ولكن في هذا الباب سنوضِّح أن الجانب الأخلاقي، والبعد الإنساني لم يختف من حياة رسول الله ﷺ حتى في الصدامات الحربية، مما يعتبر شيئًا فريدًا في حياة البشر. وقد جاء هذا الباب – كسابقه – في خمسة فصول.

في **الفصل الأول** تحدثتُ عن أخلاقه ﷺ قبل البدء في الحرب، ووضَّحتُ فيه الرؤية الإسلامية للسلام والحرب، وأكَّدتُ فيه على أن المسلم لا يبدأ أحدًا أبدًا بقتال، وشرحت فيه الدوافع التي من أجلها قاتل الرسول ﷺ. أما **الفصل الثاني** ففصلٌ كبير يتحدث عن أخلاقه ﷺ أثناء ممارسة القتال، وتمَّ في هذا الفصل التعليق على عدله، ورحمته، وحَقْنه للدماء، ورفضه لمبدأ التخريب، ووفائه في وعوده، وعدم إكراهه لأحد على اعتناق الإسلام. وفي **الفصل الثالث** ناقشتُ أخلاقه ﷺ بعد انتهاء القتال سواء في حالة تحقيق النصر، أو عدم التمكن من تحقيقه، أما **الفصل الرابع** فقد أفردتُه للحديث عن أخلاقه ﷺ في زمان الهدنة بعد

الحرب، وفي **الفصل الخامس** تحدثتُ عن جانب رائع من أخلاقه ﷺ وهو الخاص بتعاملاته مع زعماء ورسل الدول والقبائل المحاربة له.

وفي **الباب الثالث** شرحت صورة من أروع صور الأخلاق في التاريخ، وهي أخلاقه ﷺ في التعامل مع الأسرى، وهي الأخلاق التي فاقت كل النظم والقوانين الحديثة، ولم - ولن - يأتوا بمثلها، مهما ابتدع الناس من قوانين وأحكام. وقد قسمت هذا الباب إلى فصلين، تحدثتُ في **الأول** منهما عن وضع الأسرى قبيل الفترة التي بُعث فيها رسول الله ﷺ لتظهر قيمة الأخلاق النبوية في هذه البيئة القاسية، أما **الفصل الثاني** فقد فصَّلتُ فيه في الحديث عن أخلاقه ﷺ مع الأسرى كترسيخ مبدأ العفو، وحسن المعاملة والرحمة، والاهتمام براحة الأسير البدنية والنفسية.

وكنت عند هذا الحد قد انتهيت من البحث، ولكني آثرت أن أضيف إليه بابًا آخر لتتضح به الصورة أكثر وأفضل فكان **الباب الرابع**. ولقد تحدثت في هذا الباب عن رؤية غير المسلمين لأخلاق الحروب، وكما يقول الله ﷻ: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء﴾ [آل عمران: ١١٣]، فإننا ندرك أنَّ من غير المسلمين من اعتاد الظلم والقسوة، ومنهم من نظر بعين الإنصاف إلى مصادر الأخلاق الحقيقية في هذا العالم وتحدَّث عنها. وعلى هذا فقد جاء هذا الباب الأخير في فصلين:

الفصل الأول منهما يبحث أخلاق غير المسلمين في مجال الحروب؛ لنرى كيف يحارب غيرنا مقارنةً بحروبنا، ولنعرف البون الشاسع بين أحكام الشريعة الإسلامية، وأحكام القوانين الوضعية هنا وهناك، وكما يقولون: الضِدُّ يُظهِر حُسنَه الضدُّ! وقد حرصت في هذا الفصل أن أجمع بعض المواقف المشهورة سواء في التاريخ أو في واقعنا المعاصر، ولم أقصد فيها الاستقصاء والحصر، فهذا يحتاج إلى بحوث ومجلدات عملاقة!

وأما **الفصل الثاني** فقد ذكرت فيه صورة مغايرة للأولى، وهي شهادات بعض العلماء المنصفين من غير المسلمين، سواء كانوا غربيين أو شرقيين، لأخلاق رسول الله ﷺ العالية في حروبه وسائر حياته، وكما يقول ربنا ﷻ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦].

وقد جاءت بعد هذه الأبواب الستة خاتمة لهذا البحث أوضحت فيها إجمالًا المستخلص من كل تلك الفصول السابقة، وأنصح فيها نفسي والمسلمين أن يحملوا هذا الدين العظيم إلى كل بقعة من بقاع الأرض؛ فإن البشرية - بحقٍّ - في احتياج ماسٍّ إليه، وأجزمُ أنَّ علاج كل مشاكلها يكمن بين جنباته.

وقد أثبَتُّ بعد الانتهاء من كتابة البحث كل المراجع والمصادر التي عدتُ إليها، وذلك بعد أن صنَّفتها إلى مجموعات بحسب المادة، وقد رتبت المصادر أبجديًا على اسم المؤلف، متجاهلًا أداة التعريف «ال» وذلك لتسهيل الوصول إلى المرجع المطلوب. وقد أثبَتُّ كذلك لكل مرجع الاسم الكامل له ولمؤلفه، وكذلك - قدر الإمكان - دار الطباعة والنشر، وبلدها، وسنة الطبع، ورقم الطبعة، كما حرصت على ذكر أسماء المحققين أو المترجمين إن وُجدت.

هذا وقد اجتهدت أن أُطَعِّمَ هذا البحث ببعض الأمور التي ترفع من قيمته، وتُثري مادته، وتُسهِّل فهمه، وتُيسِّر الطلب فيه، فزودته ببعض الخرائط والصور والأشكال البيانية، كما قمت بشرح غريب الكلمات، وكذلك ضمَّنته بعض التراجم المهمة، خاصة لأعلام المسلمين وعلمائهم، ليعرف المسلمون والعالم هذه النجوم المتألقة.

وفي نهاية البحث قمت بعمل عدة فهارس لتسهيل البحث عن أية معلومة، فبالإضافة إلى فهرس الموضوعات التقليدي، أضفت فهارس للآيات القرآنية، وللأحاديث النبوية، وكذلك للأعلام الذين ورد ذكرهم في البحث والصفحات التي تردد فيها اسم هذا العلم، كما فهرست أيضًا للأعلام الذين تُرجم لهم، كما أضفت فهرسًا للأماكن والمدن، وفهرسًا للخرائط والصور والأشكال. ولإتمام الفائدة فقد زوَّدت البحث بمعجم كشَّاف للكلمات يُسهِّل الوصول إلى معظم الكلمات التي وردت في البحث.

وأخيرًا، فإنني أعتذر عما سقط مني سهوًا دون تعمدٍ من مواقف عظيمة لرسولنا الكريم ﷺ، أو من أقوال حكيمة له، أو من أحكام فقهية مهمة لم يخطر على بالي أن أسجلها؛ فإن النقص من طبيعة البشر، والكمال على إطلاقه لا يكون إلا لله ﷻ..

وعزاني في القول الموفَّق للعماد الأصبهاني[1]: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غَدِه: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زِيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل.. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

***

(١) العماد الأصبهاني: هو محمد بن صفي الدين الأصبهاني، كان أديبًا وفقيهًا شافعيًّا، نشأ بأصبهان وقدم بغداد في حداثته، وتعرف بالعادل نور الدين محمود، وكذلك بالسلطان صلاح الدين.

الباب الأول

قبل الحديث
عن أخلاق الحروب

قبل الحديث عن أخلاق الحروب يجدر بنا أن نعرف بعض الأمور التي قد تُسهِّل علينا فقه هذا البحث، وتُيسِّر الاستفادة منه على النحو الأمثل، ورغم أنها مقدمة سريعة مختصرة لما بعدها إلا أنني آثرتُ أن أجعلها في فصول منفصلة لتيسير الطلب فيها، ولسهولة العرض للموضوع.

وعلى هذا فقد جاء هذا الباب في خمسة فصول هي:

الفصل الأول: الأخلاق وبناء الأمم

الفصل الثاني: الإنسان في المنظور الإسلامي

الفصل الثالث: نظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية

الفصل الرابع: حتمية الحروب

الفصل الخامس: الحروب زمان بعثة النبي ﷺ

الفصل الأول

الأخلاق وبناء الأمم

ليست الأخلاق من مواد الترف، التي يمكن الاستغناء عنها، بل هي أصول الحياة التي يرتضيها الدين ويحترم ذويها[١]؛ لذا ربط رسول الله ﷺ خيرية المسلم بحسن الخلق؛ فعن عبد الله ابن عمرو ﵁ قال: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «خِيَارُكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا»[٢]. من هنا كان حسن الخلق هو ركن الإسلام العظيم الذي لا قيام للدين بدونه، ولا حضارة ولا تقدم بغيره؛ فالإسلام إنما جاء ليغير الإنسان من السيئ إلى الحسن أو الأحسن، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الضلال إلى الهدى، ومن نظم العباد ومناهجهم إلى نظام الله ﷻ ومنهجه.

والإسلام نظام أخلاقي، لكل عبادة فيه هدف أخلاقي واضح؛ يقول الله ﷻ في شأن الصلاة: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ويقول ﷻ عن الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] ويقول ﷻ عن الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»[٣]. ويقول ﷻ عن الحج: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ

---

(١) محمد الغزالي: خلق المسلم ص١٣.

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٥٦٨٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ (٢٣٢١)، والترمذي (١٩٧٥)، وأحمد (٦٨١٨)، وابن حبان (٤٧٧)، والبزار (٢٤١٧)..

(٣) البخاري: كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم (١٨٠٤)، أبو داود (٢٣٦٢)، الترمذي (٧٠٧)، ابن ماجه (١٦٨٩)، أحمد (٩٨٣٨)..

الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى..﴾ [البقرة: ١٩٧].

يقول الإمام الغزالي[١]: حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق. وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه، وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق؛ فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض[٢].

وحسن الخلق أعلى درجات الإيمان وأتمها؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[٣]، وعن عائشة ﷺ، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»[٤].

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ»[٥]، واستوعب أبو الدرداء ﷺ هذا الدرس جيدًا، ولذا سمعناه يقول: «إنَّ العَبْدَ المُسْلِم يُحْسِن خُلُقَه حتى يُدْخله حُسْن الخُلق الجنة، ويُسِيء خُلُقَه حتى يُدْخله سُوء خُلُقِه النَّار..».

وحسن الخلق لا يؤسَّس في المجتمع بالتعاليم المرسلة؛ أو الأوامر والنواهي المجردة؛ إذ لا يكفي في طبع النفوس على الفضائل أن يقول المعلم لغيره: افعل كذا، أو لا تفعل كذا.

---

(١) حجة الإسلام زين الدين أبو حامد الطوسي الشافعي، ولد عام ٤٥٠ هـ بالطابران، عمل بطوس ثم نيسابور، ودرَّس في النظامية، ثم تركها وسلك طريق الزهد والعزلة، ثم عاد إلى نيسابور ولزم التدريس. من مصنفاته المستصفى في أصول الفقه، وإحياء علوم الدين. توفي في ٥٥٠ هـ بالطابران. الوافي بالوفيات ١/ ١٢٠.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين ٢/ ٢٦٩.

(٣) أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وقال: حسن صحيح. وأحمد (٧٣٩٦)، والدارمي (٢٧٩٢)، وابن حبان (٤٧٩)، والحاكم (٢)، وقال: صحيح على شرط مسلم. ولم يخرجاه، وأبو يعلى (٤٢٤٠)، وابن أبي شيبة (٢٥٣١٩)، وقال الألباني: صحيح. صحيح الجامع (١٢٣٠).

(٤) أبو داود (٤٧٩٨)، واللفظ له، وأحمد (٢٤٦٣٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٩٩٧)، وقال الألباني: صحيح. صحيح الجامع (١٦٢٠)..

(٥) الترمذي (٢٠٠٣)، وقال: حديث حسن صحيح. وقال الألباني: صحيح. صحيح الجامع (٥٧٢٦)..

فالتأديب المثمر يحتاج إلى تربية طويلة، وتعهد مستمر. ومن هذا المنطلق حرص الرسول ﷺ على غرس هذا المعنى في نفوس صحابته الكرام فقال: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا»[1]. ومن هذا المنطلق أيضًا كان رسول الله ﷺ لا يقول شيئًا إلا فعله، ولا يأمر بشيء إلا وكان له تطبيق واقعي في حياته، فصار بذلك أسوةً حسنةً في كل الأمور، ولن تصلح تربية إلا إذا اعتمدت على الأسوة الحسنة.

إن الرجل السيئ لا يترك في نفوس من حوله أثرًا طيبًا، ولابد – ليحصل التابع على قدر كبير من الفضل – أن يكون في متبوعه قدر أكبر، وقسط أجل[2]. لذلك قال تعالى في حق رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]، وشعر الصحابة بذلك وأحسُّوه وعايشوه، فعن أنس رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا»، وعنه قال: «لقد خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ، لِمَ صَنَعْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ لِمَ تَرَكْتَهُ؟»[3]. ويؤازر هذا ما قالت خديجة رضي الله عنها له ﷺ حين بُعث: «أَبْشِرْ فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»[4]. بل يكفيه ﷺ وصف ربه خلقه بالعظيم في قوله عز وجل يخاطبه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ولقد زرع رسول الله ﷺ هذا المعنى زرعًا في قلوب أصحابه فسألهم يومًا: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ

---

(١) الترمذي (٢٠١٨)، وقال: حديث حسن. وقال الألباني: حديث حسن. السلسلة الصحيحة (٧٩١).

(٢) الغزالي: خلق المسلم، المقدمة ص ١٥.

(٣) البخاري: كتاب الوصايا، باب استخدام اليتيم في السفر والحضر إذا كان صلاحًا له ونظر الأم وزوجها لليتيم (٢٦١٦)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا (٢٣٠٩)، والترمذي (٢٠١٥)، واللفظ له، وأحمد (١٣٣٩٧)، والدارمي (٦٢).

(٤) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠)، وأحمد (٢٥٩٠٧)، وابن حبان (٣٣)، والطبراني (١٤٦٧).

الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[١].

فسوء الخلق مع الناس – أيًّا كانوا مسلمين أو غير مسلمين – يكون سببًا في ضياع الحسنات، والعقاب بالنار يوم القيامة، ولا ينفع هنا صوم ولا صلاة، فإن هذه العبادات على عِظَمِ قدرها – لا تنفع العبد ما لم تؤثر على سلوكياته وأخلاقه.

يقول رسول الله ﷺ: «من لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»[٢]، والأحاديث في هذا المعنى لا تنتهي.

فكان تعامل النبي ﷺ الراقي مع كل خلق ومبدأ أرد غرسه في نفوس أصحابه فذًّا ورائعًا فكان ﷺ الأسوة القدوة في كل الأمور.

لقد كانت معضلة حقيقية عند كثير من المتعاملين بالسياسة أن تنضبط تعاملاتهم بضوابط الأخلاق، ولكن الدارس للسيرة النبوية يجدها واضحة في كل مواقف السيرة بلا استثناء، وقد أثبت رسول الله ﷺ أن القواعد المثالية الراقية التي جاءت في كتاب الله ﷻ ما هي إلا قواعد عملية قابلة للتطبيق، وأنها صالحة لتنظيم حياة البشر أجمعين، وأنها الدليل الواضح لمن أراد الهداية بصدق. كما كانت حياته ﷺ ترجمة صادقة لكل أمر إلهي، وقد صَدَقَت ووُفِّقت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في وصف أخلاقه ﷺ عندما قالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»[٣].

لذلك لم يكن مستغرَبًا أن ترى رسول الله ﷺ - وهو الزعيم الأول في المدينة المنورة، والمحمَّل بالأعباء الجسام – تجده لا يأنف ولا يستنكف أن يمشي مع الأرملة والمسكين؛

---

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨)، وأحمد (٨٨٢٩)، والطبراني في الأوسط (٢٧٧٨)، وأبو يعلى (٦٤٩٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٣).

(٢) البخاري: كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به (١٨٠٤)، أبو داود (٢٣٦٢)، الترمذي (٧٠٧)، ابن ماجه (١٦٨٩)، أحمد (٩٨٣٨).

(٣) أحمد (٢٤٣٤١)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٨)، وقال الألباني: صحيح. صحيح الجامع (٤٨١١).

فيقضي لهما حاجتهما»[١]. إن الأولويات لتتغير تمامًا إذا دخل العامل الأخلاقي في الحساب.

إن الإسلام لم يأت لكسر الأصنام فقط، وإن كان هذا من أجلِّ مهام الإسلام وأعظمها، ولكنه جاء كذلك ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن براثن العمى والجاهلية إلى سعادة الهدى والخير، وليست الجاهلية في عين رسول الله ﷺ هي السجود للأصنام، أو عبادة الشجر والحجر فقط، وإنما هي أيضًا سوء الأخلاق وانهيار القيم. لذلك أنكر رسول الله ﷺ على صاحبه أبي ذرٍّ ﷺ لما عيَّر بلالًا ﷺ بأمه، وقال له: يا ابن السوداء؛ فاعتبر ذلك من الجاهلية، وقال له: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»[٢]. ولما ظهرت بوادر صراع بين المهاجرين والأنصار سمَّى رسول الله ﷺ عن ذلك جاهليةً، فقال لأصحابه وهو يعدِّل لهم الموازين: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالُوا يَا رَسُولَ الله: كَسَعَ[٣] رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ[٤]»، وكذلك عندما أوشك صراعٌ أن يبدأ بين الأوس والخزرج قال لهم رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، اللهَ اللهَ، أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمُ اللهُ لِلْإِسْلَامِ وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ[٥]»، وهكذا كان ينظر رسول الله ﷺ إلى حقائق الأشياء. إن الجاهلية لم تكن جاهلية لاختلال الجوانب العقائدية فيها فقط، بل كانت جاهلية كذلك لشيوع مساوئ الأخلاق، ورذائل العادات والتقاليد.

إن الله ﷻ لم يجعل خيرية هذه الأمة مقرونة بإيمانها به سبحانه فقط، وإن كان هذا من

---

(١) النسائي: كتاب الجمعة، باب ما يستحق من تقصير الخطبة (١٤١٤)، والدارمي (٧٤)، وابن حبان (٦٤٢٤)، والطبراني في الصغير (٤٠٥)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب ما يُنهى من السب واللعن (٥٧٠٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (١٦٦١)، وأبو داود (٥١٧٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (١٧٩٦٥)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٥٥٥٤).

(٣) الكسع: هو ضرب دبر غيره بيده أو رجله. وقيل: هو ضرب العجز بالقدم.

(٤) البخاري: كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية (٣٣٣٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا (٢٥٨٤)، واللفظ له، والترمذي (٣٣١٥)، وأحمد (١٥١٦٨)، وابن حبان (٥٩٩٠).

(٥) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٣٣٥، ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٩٤.

أعظم أسباب خيريتها، ولكن جعلها في الأساس مرتبطة بأداء الدور الأخلاقي المنوط بها. والوصول بهذا الدور إلى الناس أجمعين، في بلاد المسلمين وفي غيرها. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ..﴾ [آل عمران: ١١٠]، لقد قدَّم الله ﷻ قضية الأمر بالمعروف، وهو كل حسنٍ من الأخلاق، والنهي عن المنكر، وهو كل سيئ من الأخلاق، على قضية الإيمان بالله سبحانه! أليس في هذا لفت نظرٍ للمسلمين لهذه القضية المحورية في أصول هذه الأمة ودعائم قيامها؟!

لقد قصر النبي ﷺ بعثته - كما تبيَّن لنا - على إتمام مكارم الأخلاق، وفي الوقت نفسه نفهم أن الإسلام جاء ليقيم دولة عظيمة، وصرحًا مجيدًا، وحضارةً خالدة على مر التاريخ، فأصبح هذا يقتضي - بلا أدنى ريب - أن يكون الخلق الرفيع هو أساس هذا الصرح؛ ومن هنا فالدعوة إلى مكارم الأخلاق ليست من أجل تكثير الحسنات فحسب، بل هي المدخل الرئيس لبناء أمة قوية ظافرة تقتدي بها الأمم الأخرى، وتسير على هداها، كما أن غياب هذه الأخلاق هو غيابٌ للأساس الذي بدونه ينقضُ البناء ويتهدم، ولهذا نجد أن رسول الله ﷺ عندما فكَّر في بناء أمته استعان أول ما استعان بأصحاب الأخلاق الحميدة، والخلال النبيلة، حتى وإن كانوا يعبدون الأصنام في فترة من فترات حياتهم، فنجد أوائل المسلمين هم أبو بكر وعثمان وزيد بن حارثة وخديجة وعليٌّ رضي الله عنهم أجمعين، وهم جميعًا عُرِفوا في أقوامهم بحسن العشرة، وطيب النفس، وجمال الخُلُق. ثم جاء من بعدهم قومٌ كرام آخرون أمثال أبي عبيدة وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وغيرهم وغيرهم رضي الله عنهم وأرضاهم. إنها ليست مصادفة أبدًا أن يكون البناء على أكتاف أصحاب الأخلاق السوية، والخصال الرفيعة.

إن رسول الله ﷺ عبَّر عن ذلك بقوله الحكيم الذي يكشف فيه استراتيجيته في الانتقاء والاختيار. يقول الرسول الحكيم ﷺ: «**تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا**»[1]. ألا ما أحكمها من رؤية، وما أعظمها من نظرة!! ولعله من هنا استوحى أمير الشعراء أحمد شوقي بيته الشهير الموفَّق:

---

(١) البخاري: كتاب المناقب، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ (٣٣٠٤). ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب خيار الناس (٢٥٢٦)، وأحمد (١٠٨٠١)، وابن حبان (٥٧٥٧).

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والتجوال في تاريخ الأمم يثبت صحة هذه النظرة؛ فكلما ازدهرت الأخلاق في عصر ارتفع شأن هذه الأمة، وذلك ما رأيناه في عهد الصديق أبي بكر، والفاروق عمر رضي الله عنهما؛ فانتقلت الأمة من نصرٍ إلى نصر، وتوسعت فصارت حدودها تملأ ما بين المشرق والمغرب، وعندما شُغِل المسلمون بأنفسهم، وحدثت بينهم الصراعات والانقسامات ضعفت شوكتهم، وقلَّت حيلتهم.

والمراجع لكل مراحل الازدهار في تاريخنا سيجد أن المجدِّد الذي أصلح اللهُ على يديه حالَ الأمة كان مُهْتَمًا كل الاهتمام بعنصر الأخلاق في بناء أمته، ويكفي أن تراجعوا سِيَرَ المجدِّدين من أمثال عمر بن عبد العزيز وهارون الرشيد وعبد الرحمن الناصر ومحمود الغزنوي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ويوسف بن تاشفين وسيف الدين قطز ومحمد الفاتح وغيرهم. إن هذه حقائق لا خُلْف لها، ولا استثناء فيها.

وعلى الناحية الأخرى عندما ضُيعت الأخلاق وانتشر المجون في أواخر الدولة العباسية وقعت الأمة الإسلامية تحت أقدام التتار، ونالت الأندلس ذات المصير أيام سقوطها، بعد فساد أهلها وأمرائها. بل إن العجيب أن هذه السُّنَّة ليست قاصرة على المسلمين، بل هي عامة على جميع الأمم؛ فالدولة الرومانية لم تسقط إلا حينما انهارت فيها الأخلاق، وحديثًا سقط الاتحاد السوفيتي لانتشار الإباحية والفساد المالي والإداري، ولعل غياب موازين العدالة والقيم الأخلاقية الرفيعة في المجتمع الغربي الآن ينذر بانهياره قريبًا.

إنه يجدر بنا ألا نغادر هذا المقام إلا وكلمات أعظم البشر في آذاننا وقلوبنا وعقولنا، يُوسِّع فيها من مفاهيمنا عن العمل الصالح والعبادة المتقبَّلة. يقول رسولنا الكريم ﷺ: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»[1].

ألا حقًّا ما أعظم هذا الدين!!

---

(١) الترمذي (١٩٥٦) وقال: حديث حسن غريب. وابن حبان (٥٢٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٩١)، والطبراني في الأوسط (٨٣٤٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٣٧٧)، وقال الألباني: صحيح. صحيح الجامع (٢٩٠٨).

الفصل الثانى

الإنسان في المنظور الإسلامي

إنَّ نظرة الإسلام للإنسان تختلف تمام الاختلاف عن نظرة غيره من الأديان التي جعلت اختلافات اللون والجنس والدين عاملًا من عوامل التفرقة بين البشر، فالنظرة الإسلامية للإسلام نظرة عادلة، لا تفرِّق بين البشر على أي أساسٍ ينفي حقوق بعض البشر لأي عاملٍ مهما كان؛ فالنفس الإنسانية بصفة عامة مُكَرَّمَةٌ ومُعَظَّمَة.. وهذا الأمر على إطلاقه، وليس فيه استثناء بسبب لون أو جنس أو دين، قال تعالى في كتابه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

فقد كرَّم الله ﷻ البشر مسلمهم وغير مسلمهم، ورزق الجميع من أصناف الطيبات، وفضَّل الجنس البشري مطلقًا على غيره من الأجناس.

وكانت هذه الرؤية هي المنطق الذي تعامل به رسول الله ﷺ مع الناس جميعًا؛ ولا غرو فقد حفلت نصوص الشريعة بالاحترام والتقدير والرحمة والرأفة للبشر جميعًا حتى المحاربين للإسلام.

لقد كان رسول الله ﷺ يتعامل مع نفوس بشرية مُكرَّمة، فلا يجوز إهانتها أو ظلمها، أو التعدي على حقوقها، أو التقليل من شأنها، وهذا واضح بَيِّن في آيات القرآن الكريم، وكذلك في حياة الرسول ﷺ.

فالشريعة تأبى الظلم في كل صوره، والنهي عن ذلك واضح في آيات وأحاديث لا تحصى، وهو مرفوض إلى يوم القيامة.. بل يقول الله ﷻ في صفة الحساب يوم القيامة: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧] والأمر هنا على إطلاقه أيضًا؛ فلن تظلم «نفس» يوم القيامة، أيًّا كانت هذه النفس، مؤمنة بالله أو كافرة به.

مسلمة كانت أو نصرانية أو يهودية، أو غير ذلك من الملل والنحل الأخرى..

إن الظلم شيءٌ مقيت، وإن الله ﷻ قد حرَّمه على نفسه جلَّ وعلا، وحرمه كذلك على كل عباده.. فيروي أبو ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما روى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا»[1].

ومن هنا جاءت نصوص الشريعة تحذر من أشكال الاعتداء على غير المسلمين؛ فيقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]. فالأمر هنا عام، يشمل نفوس المسلمين وغير المسلمين؛ فالعدل في الشريعة مطلق لا يتجزأ. وما أجمل ما ذكره القرطبي[2] رحمه الله تعليقًا على هذه الآية عندما قال: «وهذه الآية نهيٌ عن قتل النفس المحرَّمة، مؤمنة كانت أو معاهدة، إلا بالحق الذي يوجب قتلها»[3]. ثم ذكر رحمه الله عدة أحاديث نبوية تشير إلى هذا المعنى، منها على سبيل المثال ما رواه أبو بكرة ﷺ عن رسول الله ﷺ، قال: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا فِي غَيْرِ كُنْهِهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[4].

وما أبلغ وأروع الموقف الذي علَّمنا إياه رسول الله ﷺ عندما مرت به جنازة يهودي..

فقد روى الإمام مسلم عن ابن أبي ليلى أَنَّ قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ[5] وَسَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ[6] كَانَا

---

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧)، وأحمد (٢١٤٥٨)، وابن حبان (٦١٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٠).

(٢) محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي المالكي القرطبي، من كبار المفسرين، وهو صاحب التفسير المشهور (الجامع لأحكام القرآن). مات بمنية بني خصيب من الصعيد الأدنى في مصر سنة ٦٧١هـ. انظر: الأعلام ٥/ ٣٢٢.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ١٣٢.

(٤) أبو داود (٢٧٦٠)، والنسائي (٤٧٤٧)، وأحمد (٢٠٣٩٣)، والدارمي (٢٥٠٤)، والحاكم (٢٦٣١)، وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، والطيالسي (٨٧٩)، وقال الألباني: صحيح. صحيح الجامع (٦٤٥٦).

(٥) قيس بن سعد بن عبادة، أحد دهاة العرب وأهل الرأي والمكيدة في الحروب، وكان شريف قومه، وكان من النبي ﷺ بمكان صاحب الشرطة من الأمير، وقد أعطاه الرسول ﷺ الراية يوم فتح مكة، ومات بها سنة ٥٩ أو ٦٠ هـ. انظر: أسد الغابة ٤/ ٢٧٢، الإصابة، الترجمة (٧١٧٦)، الاستيعاب ٣/ ٣٥٠.

(٦) سهل بن حنيف بن واهب، شهد بدرًا وكل المشاهد مع رسول الله ﷺ، وثبت يوم أحد، استخلفه علي ﷺ حين خرج من المدينة إلى البصرة، كما شهد مع علي صفين، وولاه على فارس. مات بالكوفة سنة ٣٨هـ. انظر: الاستيعاب ٢/ ٢٢٣، أسد الغابة ٢/ ٣٣٥، الإصابة، الترجمة رقم (٥٣٢٣).

بِالْقَادِسِيَّةِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا جَنَازَةٌ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ[١]، فَقَالا: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا»[٢].

ألا ما أروع هذا الموقف حقًّا!!

هذه هي النظرة الإسلامية للنفس البشرية..

إن رسول الله ﷺ في هذا الموقف زرع في نفوس المسلمين التقدير والاحترام والرحمة لكل نفس إنسانية، وذلك على الإطلاق؛ لأنه فعل ذلك وأمر به، حتى بعد علمه أنه يهودي..

وذلك رغم ما رواه التاريخ من كفر اليهود بالنبي ﷺ رغم قيام الحجج أمامهم على صدقه، بل واعترافهم - فيما بينهم - بنبوته، ورغم ما كان منهم من تكذيب للنبي ﷺ، وتأليب للمشركين عليه وعلى المسلمين، ومحاولتهم اغتياله ﷺ أكثر من مرة.

ومع كل هذا التعنُّت اليهودي إلا أن رسول الله ﷺ يقف لجنازة رجل منهم، وهو رجل غير معروف، لكيلا يقال إنه – أي اليهودي - أسدى معروفًا مرة للمسلمين، أو كان ذا خلق حسن، ودليل ذلك أن الصحابة عيَّنوه بصفته لا باسمه، ثم إن رسول الله ﷺ برر وقوفه بقوله: «أليست نفسًا؟» ولم يذكر فضيلة معينة له.

هذه هي النظرة الإسلامية الحقيقية لكل البشر.. إنها نظرة التقدير والتكريم..

إنه الاحترام الحقيقي للنفس البشرية..

وهذا الاحترام لم يكن للحظة عابرة، بل طال وقوف رسول الله ﷺ حتى اختفت الجنازة.. ففي رواية مسلم عن جابر بن عبد الله ؓ قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ لِجَنَازَةِ يَهُودِيٍّ حَتَّى تَوَارَتْ[٣]. وتخيل معي هذا الموقف الجليل وجنازة اليهودي تمرُّ، والرسول ﷺ

---

(١) أي من مجوس فارس.

(٢) مسلم: كتاب الجنائز، باب القيام للجنائز (٩٦١)، والنسائي (١٩٢١)، وأحمد (٢٣٨٩٣)، والطبراني في الكبير (٥٦٠٦)، وأبو يعلى (١٤٣٧)، وابن أبي شيبة (١١٩١٨)، والبيهقي في سننه الكبرى (٦٦٧٢).

(٣) البخاري: كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي (١٢٤٩)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة (٩٦٠)، واللفظ له، والنسائي (١٩٢٨)، وأحمد (١٩٢٨)، والبيهقي في سننه (٦٦٧٠).

وأصحابه ما زالوا واقفين!

إن هذا الموقف قد رسَّخ في أذهان الصحابة - والمسلمين من بعدهم - أن الإسلام يحترم كلَّ نفس بشرية ويقدرها ويكرمها، وهذا الذي دفع قيس بن سعد وسهل بن حنيف رضي الله عنهما أن يقفا لجنازة رجل مجوسي يعبد النار! فالمجوسي هذا ليس كتابيًّا أصلًا، وهو على عقيدة مخالفة تمامًا لدين الإسلام، بل إنه من قوم محاربين، ومع ذلك فالصحابة رضي الله عنهم يدركون قيمة النفس البشرية فيُكَرِّمونها ويقفون لها..

هذه هي نظرتنا لغير المسلمين، وهذه هي الخلفية التي يضعها المسلمون في أذهانهم عند التعامل مع غير المسلمين..

وهذه الخلفية يحكمها اعتقاد المسلمين في أنَّ الاختلاف بين الناس ليس أمرًا محتملًا فقط، بل هو حتمي! ولن يوجد زمانٌ أبدًا يتفق فيه العالَمون على رأي واحد في قضية ما، بما فيها قضية الألوهية والتوحيد.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

ولذلك يتعايش المسلم مع المخالفين في العقيدة بشكل طبيعي، خاصة أن الشريعة الإسلامية توضح بجلاء أُطر التعامل وآليات التفاهم مع الطوائف المختلفة من غير المسلمين.

كما أن المسلم يعتقد اعتقادًا جازمًا أن الحساب يوم القيامة بيد الله عز وجل وحده، ومن ثَمَّ ليس للإنسان أن يُكرِه غيره على اعتناق الإسلام قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

إن مهمة المسلم ببساطة أن يصل بدعوته نقية إلى غير المسلمين، أمَّا ردود أفعالهم تجاه هذه الدعوة فلا يُسأل عنها المسلم ولا يُحاسَب.. قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٨ - ٦٩].

من هذا المنطلق، ومن واقع تقدير الشرع الإسلامي «لكل نفس»، وتكريم الله عز وجل لكل

بني آدم، جاءت أوامر الشريعة الإسلامية الخاصة بالعدل والرحمة والألفة والتعارف، وغيرها من فضائل الأخلاق.. جاءت كل هذه الأوامر عامة تشمل المسلمين وغير المسلمين، ولم تكن يومًا كما فعل اليهود بتحريفهم في التوراة؛ فخصُّوا بالمعاملات الحسنة اليهودَ وحدهم، وأباحوا الموبقات كلها في حق غيرهم!!

إنَّ الشريعة الإسلامية لا تقصر الرحمة - مثلًا - على المسلمين، بل يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ومن هنا فإنَّ المسلم صحيح الفهم للإسلام يكره صور الألم لأي إنسان، أيًّا كانت ملَّته، ولا يحب له المعاناة حتى لو كان جنديًّا في جيش مقاتل! (صورة ١)، ومن هنا لا يُشجع الإسلام أبدًا على بدء الحروب، لأنها بداية معاناة دائمًا.

وفي مسألة التعارف يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. فلم يقتصر التعارف أيضًا على طائفة معينة، إنما اتسع ليشمل لكل الشعوب والقبائل..

وقد سخَّر الله ﷻ الكون ومخلوقاته للإنسان عامَّةً دون تخصيص لأهل الإسلام، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

وفي مسألة العفو قال الله ﷻ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤]. فالعفو من صفات المؤمن، ولكن هذا العفو الذي نراه في هذه الآية ليس خاصًّا بالمسلمين فقط، إنما هو عفوٌ واسعٌ يشمل «الناس» كما ذكر ربنا ﷻ، وهو بذلك يشمل - حتمًا - غير المسلمين. ولهذا الأمر تطبيقات كثيرة في حياة رسول الله ﷺ على نحو ما سنتعرض له في صفحات البحث القادمة إن شاء الله.



صورة رقم (١)

ومن أكثر ما يدل على احترام الإسلام للنفس البشرية أنَّ الإسلام لم يقصر دعوة أتباعه للعدل على العدل مع المسلمين فقط، وإنما حضَّ وأمَرَ أن يكون العدل حتى مع من نكره من الناس! فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لله شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

هذه النظرة المتناهية في الرحمة والألفة والعدل تفسر لنا الأخلاق النبيلة التي كان عليها رسولنا ﷺ..

لقد كان متبعًا للشرع في كل خطوة من خطوات حياته..

لقد كان قرآنًا يمشي على الأرض!

ولقد ظهرت عظمة الإسلام في ريادته في هذا المضمار الأخلاقي؛ حيث كانت أخلاق البشرية في ذاك الزمن قد انحطَّت، ونالها ما نال الكتب السماوية السابقة من تحريف وانحراف. ويكفيك أن تراجع بعض الأوامر والقوانين في التوراة المحرَّفة التي كانت موجودة في عصر رسولنا ﷺ، وما زالت إلى زماننا هذا، لتدرك البون الشاسع بين التشريع الإسلامي المُحكم، وبين الافتراءات البشرية التي دُسَّت بين صحائف التوراة.. ففي سفر يشوع- مثلًا - تجد في طريقة تعامل اليهود مع غيرهم ما يلي: «ثم تحرك يشوع وجيش إسرائيل من لخيش نحو عجلون فحاصروها وحاربوها واستولوا عليها في ذلك اليوم ودمروها، وقضوا على «كل نفس» فيها بحد السيف، على غرار ما صنعوا بلخيش، ثم اتجه يشوع بقواته من عجلون إلى حبرون وهاجموها، واستولوا عليها ودمروها مع بقية ضواحيها التابعة لها، وقتلوا ملكها و«كل نفس» فيها بحد السيف، فلم يفلت منها ناج، على غرار ما صنعوا بعجلون، وهكذا قضوا على «كل نفس» فيها، ثم عاد يشوع إلى دبير وهاجموها واستولى عليها ودمرها مع ضواحيها، وقتل ملكها «وكل نفس» فيها بحد السيف، فلم يفلت منها ناج، فصنع بدبير وملكها نظير ما صنع بلبنة وملكها»[1].

---

(١) سفر يشوع، ويكتب في بعض النسخ يوشع ١٠/ ٣٤-٣٩.

لقد عكس هذا التزوير نفسية اليهود، فهذه هي صورة الأنبياء عندهم، يقتلون «كل نفس» غير يهودية!

ويؤكد هذه النظرة المنحرفة للنفس البشرية ما جاء في سفر العدد، حين يصف رد فعل موسى ﷺ وحاشاه من هذا التزوير! - لما رأى بعض جيوشه قد أبقت النساء والأطفال على قيد الحياة، واتخذوهم أسيرات وأسرى فقال لهم: «لماذا استحييتم النساء؟! إنهن - باتباعهن نصيحة بلعام - أغْوَين بني إسرائيل بعبادة فغور، وكُنَّ سبب خيانة الرب فتفشى الوباء في جماعة الرب، فالآن اقتلوا «كل ذكر» من الأطفال، واقتلوا أيضًا كل امرأة ضاجعت رجلًا، ولكن استحيوا (أبقوا) لكم كل عذراء لم تضاجع رجلا»[1]!!

وأمثلة هذه العدوانية كثيرة جدًا، سواء في العهد القديم أو الجديد، وليس المجال الآن للحصر، ولكن لتوضيح أن عظمة التشريع الإسلامي ورحمته وعدله وتسامحه تتجلى بصورة أكبر وأكبر، عندما نعرف أن هذا التشريع المحكم نزل في زمان وُجدت فيه مثل هذه التوجهات العدوانية والافتراءات المخزية.. وسوف نفرد - إن شاء الله - في هذا البحث فصلًا يشرح صفات البيئة التي كان يعيش فيها رسول الله ﷺ وقت نزول الرسالة الإسلامية الرحيمة عليه، ولا شك أنَّ الضدَّ يُظهر حسنَه الضدُّ!

ولا ينفي تسامح الإسلام مع الأديان الأخرى حرصه على دعوة أتباعها إلى الحق، فإنَّ الرسول ﷺ كان شديد الحرص على الدعاء لرجلين من ألد أعدائه: أبي جهل وعمر بن الخطاب - قبل أن يُسلِم - فيقول: «**اللهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ: بِأَبِي جَهْلٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ**»[2].

---

(١) سفر العدد ٣١/ ٧-١٨.

(٢) الترمذي (٣٨٦٣)، وقال: حسن صحيح من حديث ابن عمر. وابن ماجه (١٠٥)، والبيهقي في الدلائل: ٢/ ٢١٠-٢١٦، وأحمد (٥٦٩٦)، والحاكم (٤٤٨٤)، وقال: صحيح الإسناد. ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٦٧، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٦١، وقال الألباني في تحقيقه لسنن الترمذي: صحيح.

إن التاريخ الطويل من الصد عن سبيل الله، وفتنة المسلمين عن دينهم، لم يورث في قلب رسول الله ﷺ شعورًا بالانتقام، أو رغبة في الكيد أو التنكيل، إنما على العكس تمامًا، شعر أنهم مرضى يحتاجون إلى طبيب، أو حيارى يحتاجون إلى دليل، فجاءت هذه الدعوة لهم بالهداية وبالرحمة وبالنجاة..

كانت تلك هي نفسيته ﷺ، وكانت تلك هي سنَّته وطريقته، وكانت هذه هي خلفياته ومرجعيته في التعامل مع الناس..

فقد حمل الرسول الكريم ﷺ دعوته لكل من هو على غير دين الإسلام: مشركًا كان أو يهوديًّا أو نصرانيًا أو مجوسيًا، وكان يبذل قصارى جهده في الإقناع بالتي هي أحسن، وكان يحزن حزنًا شديدًا إذا رفض إنسانٌ أو قومٌ الإسلامَ، حتى وصل الأمر إلى أن الله ﷻ نهاه عن هذا الحزن والأسى، فقال تعالى يخاطبه ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقال أيضًا: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]..

ورغم ذلك لم يُقدِم الرسول ﷺ على الضغط على أحدٍ من أجل قبول الإسلام، وإنما التزم بقول الله تعالى ﷻ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ فتحقق في حياته التوازن الرائع المعجز؛ إذ أنه يدعو إلى الحق الذي معه بكل قوة، ولكنه لا يدفع أحدًا إليه مُكْرَهًا أبدًا..

ألا ما أروع ما قاله ﷺ يلخص به نظرته إلى عموم الناس..

يروي أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا»(١).

إنها نظرة الرحمة والرعاية لا القهر أو التسلط..

وسبحان الذي رزقه ﷺ هذا الكمال في الأخلاق!

***

---

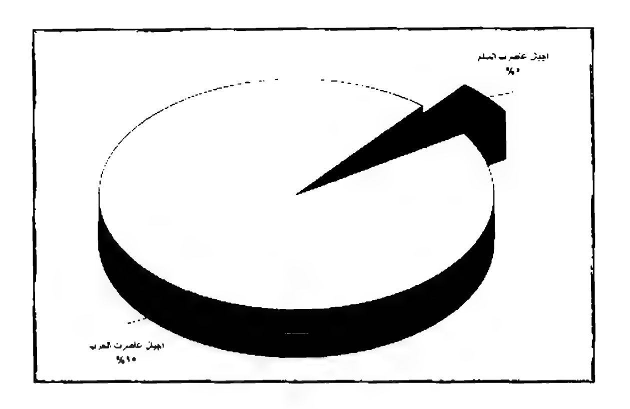
(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي (٦١١٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته (٢٢٨٤)، وابن حبان (٦٤٠٨).



الفصل الثالث

حتمية الحروب

قام أحد الباحثين باستقصاء الحروب المعروفة منذ بدء تاريخ البشرية حتى عام ١٩٤٥م؛ فكانت النتيجة كالتالي: نشبت ٣٤٥٣١ حربًا خلال ٥٥٦٠ سنة، بمعدل ٦,٢ حرب كل عام، وخلال ١٨٥ جيلًا لم ينعم بسلم مؤقت إلا عشرة أجيال فقط[1].



شكل (١)

نسبة السلام إلى الحرب خلال ١٨٥جيل من أجيال البشرية

---

(١) عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية ص١٩ نقلاً عن عبد الواحد النقار: أسرى الحرب.

إذن فالحرب ظاهرة اجتماعية قديمة، صاحبت الإنسان منذ نشأته على الأرض، وعبَّرت بجلاء عن طبيعته التي وإن كانت تميل إلى السلم، فهي تلجأ من أجل حمايته إلى الحرب[(١)].

ويرى ابن خلدون أن الحروب طبيعة في الناس، وضرورة يفرضها الواقع الذي يعيشون فيه[(٢)]. ويرى أفلاطون أنها حالة طبيعية لعلاقات جماعة من الجماعات السياسية بجماعة أخرى[(٣)]. أما في القانون الدولي التقليدي فالحرب هي: الحالة القانونية التي تتولد عن نشوب كفاح مسلح بين القوات المسلحة لدولتين أو أكثر مع توفر نية إنهاء العلاقات السلمية بين إحدى هذه الدول أو لديها جميعًا[(٤)].

وباستعراض أسباب الحروب على مر التاريخ، نجد أبرزها[(٥)]: النزاعات الحدودية، النزاع على الثروات الطبيعية، الحروب الدينية -كالحملات الصليبية-، حروب التحرير، حروب التطهير العرقي.

وتختلف الحرب من عقيدة إلى أخرى؛ فالحرب عند اليهود حرب تدميرية، لاعتقادهم أنهم أرقى الشعوب، وأن تميزهم على سائر الأجناس منحة ربانية أعطاهم إياها الرب، فإذا حاربوا استباحوا أعداءهم، وقتلوا الرجال واستعبدوا النساء والأطفال وأحرقوا البيوت، ولديهم نصوص في التوراة المحرَّفة تحضُّ على ذلك، منها على سبيل المثال: «سبع شعوب دفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرمهم (أي تبيدهم وتدمرهم).. لا تقطع لهم عهدًا ولا تشفق عليهم. ولا تصاهرهم.. لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.. مباركًا تكون فوق جميع الشعوب لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك. ويرد الرب عنك كل

---

(١) عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية ص١٧.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص٢٧٠ - ٢٧١

(٣) نقلاً عن: أحمد سويلم العمري: العلاقات السياسية الدولية في ضوء القانون الدولي العام ص ١٤.

(٤) عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية ص ٣٢.

(٥) الموسوعة الحرة ويكيبيديا، الرابط:

ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD%D8%B1%D8%A8.

مرض وكل أدواء مصر الرديئة التي عرفتها لا يضعها عليك، بل يجمعها على مبغضيك، وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك. لا تشفق عيناك عليهم"[١].

فلا شفقة على أي من الشعوب، بل أكلهم أكلًا!

أما بالنسبة للمسيحيين فليس لديهم تنظيم ديني للحرب؛ إذ لم يكن السيد المسيح عليه السلام - كما يقولون - مشرِّعًا، ولكن كان داعيًا إلى تطهير النفوس بترويضها روحيًا على مبادئ الأخلاق[٢]، ويأتي ما يؤيد ذلك على لسان المسيح عليه السلام في الإنجيل المحرَّف فيقول: «أما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضًا، ومن سخَّرك ميلًا واحدًا فاذهب معه ميلين»[٣]، ولكن يأتي في مواضع أخرى على لسانه ما هو خلاف ذلك أيضًا فيقول: «لا تظنوا أنني جئت أنشر السلام على الأرض، إنني لم آت أحمل السلام، وإنما السيف»[٤]، بل إنه يقول: «إنني جئت لألقي على الأرض النار، وما أريد من ذلك إلا اشتعالها»[٥]، وهذا ما فعله الصليبيون عندما استولوا على بيت المقدس فذبحوا سبعين ألف مسلم، وفي عام ١٩٩٢م ارتكب الصرب فظائع كثيرة في حق المسلمين البوسنيين، وكان كل شيء بعلم الكنيسة الأرثوذكسية وأوامرها؛ فقاموا بقطع إصبعين وترك ثلاثة أصابع للضحايا كرمز على التثليث، ورسم الصليب على الأجسام بالسكاكين، كما أصدرت الكنيسة فتوى تبيح اغتصاب الصرب للمسلمات؛ فتم اغتصاب حوالي ٦٠ ألف سيدة وفتاة وطفلة بوسنية عدة مرات[٦].

من هنا تأتي حتمية الحرب عند المسلمين؛ كضرورة لتأمين سبل الدعوة، والدفاع عن حرية العقيدة وحرمات المسلمين وأعراضهم، لا مبادأة للقهر والتسلط، فليس الإسلام

---

(١) سفر التثنية، إصحاح ٧: ١ - ٣، ٦، ٧، ١٤ - ١٦.

(٢) حلمي بطرس: الأحوال الشخصية لغير المسلمين ص ١٢٨.

(٣) إنجيل متى، الإصحاح الخامس.

(٤) إنجيل متى، الإصحاح العاشر.

(٥) إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني عشر.

(٦) موقع الأمم المتحدة: تقرير أشكال العنف ص٦٠. (وهذه الأعداد ليست دقيقة، فكثير من النساء منعهن حياؤهن أن يذكرن ما حدث لهن من اغتصاب).

وحده هو المانع من القتال، وليس الكفر وحده هو الموجب له. وهذا ما قرره فقهاء المالكية والحنفية والحنابلة؛ أن مناط القتال هو الحرابة والمقاتلة والاعتداء وليس الكفر؛ فلا يُقتل شخصٌ لمجرد مخالفته للإسلام، إنما يُقتل لاعتدائه على الإسلام، وغير المقاتل لا يجوز قتاله، وإنما يُلتزم معه جانب السلم(١).

ويؤكد القرآن الكريم حتمية الحرب في قوله ﷻ: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وفي قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. أي: ولولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق، لفسدت الأرض، وعمَّها الخراب؛ لأن أهل الفساد إذا تُركوا من غير مقاومة استطارت شرورهم، وغلبوا أهل الصلاح، وتعطلت مصالح الناس، وانتشر الفساد(٢).

ومعلوم أن الشر لا يترك الخير أبدًا، ولئن ترك أهلُ الحق أهلَ الباطل فلن يتركوهم؛ وهذا ما يقرره الله تعالى فيقول: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] ويقول كذلك: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] فيعلن - سبحانه - بهذه النصوص القطعية عن وحدة الهدف بين جميع معسكرات الجاهلية تجاه الإسلام والمسلمين؛ وعن قوة الإصرار على هذا الهدف وامتدادها عبر الزمان، وعدم توقيتها بظرف أو زمان..

والتاريخ يُصدِّق هذا التقرير ويؤكده، ولقد هاجر المسلمون المضطهدون في مكة إلى الحبشة، وهي بلاد بعيدة غريبة، فهل تركهم المشركون؟ إنهم سعوا وراءهم سعيًا حثيثًا، غير عابئين بخُلُقٍ ولا عُرْف ولا قانون، بهاجر المسلمون بعد ذلك إلى المدينة، على بعد خمسمائة كيلو متر من مكة، فهل تركهم المشركون؟ أم كانت المعارك تلو المعارك في بدر وأحد

(١) الشوكاني: فتح القدير ٤/ ٢٩١، الإمام مالك: المدونة الكبرى ٣/ ٦.

(٢) انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٠٢، محمد سيد طنطاوي: الوسيط ١/ ٤٦٠.

والأحزاب وغيرها؟ وحاول المسلمون أن يتعايشوا في سلام مع يهود المدينة فهل قَبِل اليهود بذلك؟ أم كانت هناك خيانات متتالية للعهود، حتى ما عاد هناك مهرب من حروب ضروس؟ وثقيفٌ وهوازن وغطفان وسليم وغيرها من القبائل.. هل تركوا المسلمين ينشئون دولتهم في هدوء واطمئنان أم كانت الحروب الاستفزازية المخالفة الواضحة لكل أعراف الجزيرة؟

وما قلناه عن السيرة النبوية ينطبق على ما بعدها، ويندر أن تجد مرحلة في التاريخ ليس فيها نزاع، وليس هذا أمرًا خاصًّا بالمسلمين وحدهم، إنما هو عامٌّ على الأرض كلها، وراجعوا التاريخ، وراجعوا كذلك الواقع.

ولسنا نعني بحتمية الحروب أننا نشتهيها أو نترقَّب حدوثها، بل نحن على العكس من ذلك تمامًا، فنحن لا نجعل الحرب - كما ستتبيَّن إن شاء الله في هذا البحث - إلا آخر القرارات، ونهاية الحلول، ولا نسعى إليها إلا لردِّ حقٍ، أو دفعِ شرٍّ، أو تأمينِ حياة.

والسؤال الذي يدور بخلد الكثيرين: هل سيأتي زمان يختفي فيه الشرُّ من العالم، ويحلُّ السلام المطلق الذي لا حرب معه؟ إنَّ هذا - وإن كان حلمًا غاليًا، وأملًا رائعًا - إلا أنه للأسف الشديد حلمٌ غير واقعي، وأملٌ لا يقبل التحقيق! وإذا أردتم التأكد من ذلك فلنعد إلى قصة الدنيا من بدايتها، وقصة الخَلْق من أولها، ولنعد كذلك إلى ما عندنا من نصوص تشير إلى أحداث الدنيا المستقبلية إلى يوم القيامة، وبعدها سنعرف إن كانت الحرب ستختفي من الوجود، أم أنها ستستمر برغم ويلاتها ومآسيها.

إنَّ الحرب بدأت فعليًا مع أول خلقٍ للإنسان، بل إنها كانت موجودة على الأرض حتى قبل خلق الإنسان، بدليل قول الله ﷻ وهو يصف تعجب الملائكة من جعل خليفة في الأرض، مع الفساد الذي اعتادوا رؤيته على ظهرها. قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فالفساد كان موجودًا، وسفك الدماء كان حاصلًا، وقد نقل ابن جرير الطبري عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن أول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضًا[1]، ويرى بعض المفسرين

---

(١) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١/ ٢٣٢، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ١١٢.

الآخرين – كما نقل ابن جرير كذلك عن السدي عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة – أن تأويل الآية أن الله أعلمَ الملائكةَ بما تفعله ذرية آدم فقالت الملائكة ذلك[1]، وسواء كان هناك فساد قبل آدم ﷺ، أو أخبر الله ﷻ أنه حادثٌ حتمًا في الذرية، فهذه كلها قرائن قوية على قِدَم الحرب منذ أول أيام الخليقة.

وعندما أتم الله سبحانه خَلْقَ آدم ﷺ، وأمر الملائكة بالسجود له تكريمًا وتشريفًا بدأت أول حرب بمخالفة إبليس أمر ربه واستكباره عن السجود، فلعن الله إبليس وأخرجه من الجنة، بل وأنظره إلى يوم القيامة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦- ٣٨]، فهذا دليل أكيد على استمرار الشرّ إلى يوم القيامة، لأن إبليس لن يكفَّ عن غواية البشر، ودفعهم إلى الفساد والضلال.. إن قضية إبليس واضحة، وغايته معلنة منذ قديم.. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، فإذا كان إبليس قد توعد بني آدم بالإضلال والإغواء إلى يوم القيامة؛ فالحرب لا محالة واقعة، والصراع لا شك سيدوم إلى يوم الوقت المعلوم. ولم يُضيِّع إبليس وقته، بل بدأ بالحرب مع نبي كريم هو آدم ﷺ، وأفلح بعد محاولات في إيقاع الشرِّ به، وكانت النتيجة خروج آدم ﷺ من الجنة، وبداية مرحلة جديدة من الصراع على الأرض، وقد بيَّن ربنا لآدم ﷺ – ولنا – أن العداء مع الشيطان سيكون مستمرًا إلى نهاية الدنيا. قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة:٣٦]، وقال في توضيحٍ لا يحتمل تأويلًا آخر: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦]، ومع إن الإنسان ينسى كثيرًا فإن الشيطان متذكرٌ لقضيته على الدوام، وقد مارس حربه الشرسة ضد أولاد آدم ﷺ، فأقنع أحد الولدين بشنِّ حرب على الآخر، وأفلح في كيده، وكما وصف ربنا حال القاتل قال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ [المائدة: ٣٠]، ومن يومها وسُنَّة القتال لتحقيق المصالح ماضية، وانقسم البشر إلى طائفتين لا ثالث لهما: أولياء الله، وأولياء الشيطان. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ١٠٤.

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦]، ولم تَخْلُ فترة من فترات التاريخ من حرب بين الطائفتين، بل أحيانًا يُفلِح الشيطان في إقناع كل طائفة أن تتقاتل فيما بينها، فترى الكافر يقاتل الكافر، وترى المؤمن يقاتل المؤمن، والحرب في النهاية مستمرة، ولن يأتي زمان ينجح فيه أولاد آدم عليه السلام في الخروج من سيطرة الشيطان بشكل دائم وكامل، بل إن الحقيقة المُرَّة أن الشيطان منتصرٌ في أغلب مواقعه مع البشر! لدرجة قد لا يتخيلها أحد، وقد عرَّفنا بذلك رسولنا ﷺ عندما نقل عن رب العزة أحد مشاهد يوم القيامة فقال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ[(١)]»! إنها نتيجة هائلة حقًّا تفسر لنا الشرور الكثيرة التي نراها في بقاع العالم المختلفة في كل الأزمان! وتفسر لنا كذلك حروب الردَّة، ومجازر الصليبيين، وظهور التتار، ومهازل الاستعمار، واحتلال البلاد الضعيفة، وقهر الشعوب المسكينة. إنها تفسر لنا تردي الإنسان أحيانًا إلى دركات أسفل من مستوى الحيوان، فلا يَرعى حرمةً لغيره، ولو كان شقيقه من أمِّه وأبيه!!

ونتساءل: أليس هناك نهاية لهذه الفظائع؟ ألن يأتي زمانٌ بلا حرب؟!

والجواب: إن هذا - للأسف - لن يكون!

إنَّ الحرب مستمرة إلى يوم القيامة، بل نَقَلَ لنا رسولنا ﷺ بعض تفصيلاتها وأحداثها، فذكر من العلامات التي تسبق الساعة مباشرة أن الحروب ستكون على أشدها، فقال مثلًا:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ[(٢)]»، فهذه حربٌ محددة يصفها لنا.

---

(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (٦١٦٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم أخرج بعث النار (٢٢٢).

(٢) مسلم: كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٢٢)، وأحمد (٩٣٨٧).

وفي حديث آخر يقول: «سَتُصَالِحُونَ الرُّومَ صُلْحًا آمِنًا فَتَغْزُونَ أَنْتُمْ وَهُمْ عَدُوًّا مِنْ وَرَائِكُمْ، فَتُنْصَرُونَ وَتَغْنَمُونَ وَتَسْلَمُونَ، ثُمَّ تَرْجِعُونَ حَتَّى تَنْزِلُوا بِمَرْجٍ ذِي تُلُولٍ، فَيَرْفَعُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ الصَّلِيبَ فَيَقُولُ: غَلَبَ الصَّلِيبُ فَيَغْضَبُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَدُقُّهُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَغْدِرُ الرُّومُ وَتَجْمَعُ لِلْمَلْحَمَةِ[1]»، وهذه المعارك الموصوفة ليست في أحاديث الرسول ﷺ فقط، بل هي موجودة أيضًا في كتب اليهود والنصارى، وإحداها معروفة عندهم بموقعة «هرمجدون[2]»، وهي من معاركهم المقدسة، وليس غرضنا في هذه اللفتة الاستقصاء، ولكن فقط نشير إلى أن العالم أجمع يتفق أن الحروب - شئنا أم أبينا - ستظل موجودة إلى يوم القيامة.

وبعد..

هل نذكر هذه الحقائق لنعيش في كآبة وحزن، أو لنوقن بالهلاك والبوار؟!

إننا لا نذكر ذلك لهذه الأهداف.. إنما نذكرها لنطلب من كل حرٍّ منصفٍ عادلٍ محبٍ للخير مؤيدٍ للحق أن يجعل حَرْبَه - إن حَدَثَت - من أجل غاية نبيلة، وهدف شريف، فالحرب من أجل تحرير البلاد حرب نبيلة، والحرب من أجل الزود عن الحرمات حرب شريفة، والحرب من أجل نصرة الحق حرب مجيدة، والحرب من أجل ردع الظالمين حرب كريمة.. إن هذه الحروب بهذه الصفات لجدير أن يشترك فيها كل الصالحين والمصلحين.

ثم إننا إذا علمنا أن الحرب حتمية فإنه يجب أن نسعى إلى أن نضبط حروبنا بضوابط أخلاقية تحميها من التدني إلى رذائل الأفعال، ومنكرات الأعمال.. وإنه لعملٌ شاقٌ حقًا أن نضبط الحروب بالأخلاق، ولكنه ليس بمستحيل، ومن يقرأ صفحات هذا البحث، ويطّلع على تاريخ رسول الله ﷺ، سيدرك من الوهلة الأولى أن هذه الحرب الأخلاقية ممكنة، وأن ضوابطها واقعية، ولعل مَن ينكر إمكانية حدوث مثل هذه الحرب الأخلاقية هو رجل لا يعرف رسول الله ﷺ!!

---

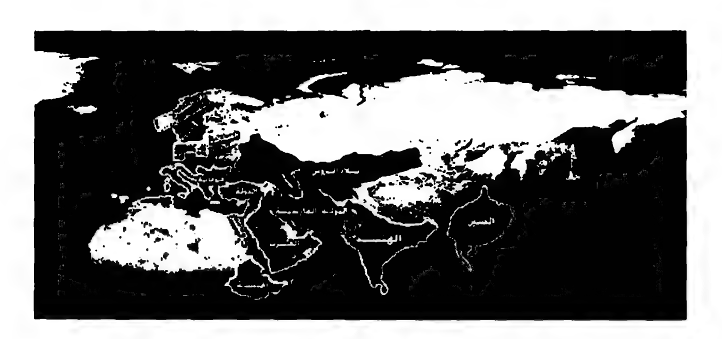
(١) أبو داود (٤٢٩٢)، وابن حبان (٦٧٠٩)، والطبراني في الكبير (٤٢٣٠)، وقال الألباني: صحيح. صحيح الجامع (٣٦١٢).

(٢) سفر الرؤيا، الإصحاح السادس عشر/ ١٦.

الفصل الرابع

الحروب زمان بعثة النبي ﷺ

إذا كنا قد انبهرنا بنظرة رسول الله ﷺ للنفس الإنسانية، والتي تعرضنا لها في فصل سابق، وإذا كنا سنعرض في هذا البحث - إن شاء الله - لصور أخرى مبهرة من أخلاقه ﷺ في مجال الحروب، فإن هذا الانبهار سيتضاعف - لا شك - إذا اطلعنا على طبيعة الحروب في الأمم المعاصرة لبعثته ﷺ (خريطة ١).



خريطة رقم (١)
العالم في عصر البعثة النبوية

لقد وصلت البشرية قبيل وقت بعثته ﷺ إلى حالة من التردي المقيت، والانهيار الأخلاقي البشع، حتى قال رسول الله ﷺ وهو يوضح حال الأرض قبل بعثته ﷺ: «إِنَّ اللهَ

نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»[١]. لقد وصل حال الناس إلى درجة من الانحطاط جلبت عليهم مقت الله سبحانه وتعالى، والمقت هو شدة الكراهية، واستخدام الرسول ﷺ لكلمة (بقايا) يوحي بالأثرية، أي كأنهم آثار من عهود سحيقة لا قيمة لها في واقع الناس، ومن جانب آخر فإنَّ هذه البقايا لم تشكل مجتمعات كاملة، بل كانت أفرادًا معدودين. وإذا كانت الأخلاق متردية في معظم مجالات الحياة، فإنها – ولا ريب – أكثر ترديًا في مجال الحروب، فهو مجال لا يُستغرَب فيه العنف والقتل والتدمير، بل إنه عند انهيار الأخلاق يفتخر الناس أحيانًا بأنهم أكثر دموية، وأشد فتكًا في حروبهم!!

وسيتم تناول هذا الموضوع – إن شاء الله – من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: الحروب في الدولة الرومانية.

المبحث الثاني: الحروب في الدولة الفارسية.

المبحث الثالث: الحروب في أوروبا الشمالية.

المبحث الرابع: الحروب في الهند.

المبحث الخامس: الحروب عند اليهود.

المبحث السادس: الحروب العربية في الجزيرة العربية قبل البعثة.

* * *

(١) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥)، وأحمد (١٧٥١٩)، والطبراني في الأوسط (٢٩٣٣)، وعبد الرزاق (٢٠٠٨٨)، والنسائي في الكبرى (٨٠٧٠).

المبحث الأول
الحروب في الدولة الرومانية

ينبغي ان نتصور الزمان الذي عاش فيه محمد لنعرف قيمة إصلاحاته[١].

مزقت الخلافات العقائدية بين طوائف النصارى أواصر هذه الدولة، فالخلاف بين المذهب الأرثوذكسي والكنيسة الشرقية من ناحية، والمذهب الكاثوليكي والكنيسة الغربية من ناحية أخرى كان خلافًا حادًا أسفر عن حروب مدمرة قُتل فيها عشرات الألوف.

بل في داخل الدولة الرومانية الأرثوذكسية الشرقية ذاتها اشتعلت الخلافات العقيمة بين طائفة الملكانية (على مذهب الملك) وتعتقد بازدواجية طبيعة المسيح، أي أنَّ له طبيعتين: بشرية وإلهية، وطائفة المنوفيسية وهم أهل مصر والحبشة يعتقدون بطبيعة إلهية واحدة للمسيح، وكانت طائفة الملكانية تقوم بتعذيب الطائفة الأخرى تعذيبًا بشعًا، فيحرقونهم أحيانًا، ويغرقونهم أحيانًا أخرى، مع أنهم جميعًا أبناء مذهب واحد هو الأرثوذكسية[٢].

وقد ظلت هذه الحروب العقائدية مستعرةً، حتى جاء الفتح الإسلامي لمصر، فشكل لأقباطها خلاصًا من اضطهاد وتعذيب الدولة الرومانية لهم.

ولقد وصلت الوحشية في الجيوش الرومانية إلى درجة غير متخيلة من السوء، وما أكثر الجرائم العنيفة التي كانت ترتكب في حق شعوب الأرض على أيدي الرومان، وليس أدل على ذلك مما فعلوه في عهد الإمبراطور (فسبسيان)، حين حاصر الرومان اليهود في القدس (وكان اليهود يسمونها أورشليم) لمدة خمسة أشهر، انتهت في سبتمبر سنة (٧٠) ميلادية، ثم

---

(١) مدام بيرون، فرنسية كانت رئيسة لجمعية الدفاع عن حقوق المرأة في باريس.

(٢) ألفرد ج. بتلر: فتح العرب لمصر، ص٣٧، ٣٨.

سقطت المدينة في أشد هزيمة مهينة عرفها التاريخ. لقد أمر الرومانُ اليهودَ أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم بأيديهم، وللعجب فقد استجاب اليهود لهم من شدة الرعب، وطمعًا في النجاة، فهم أحرص الناس على حياة، ولو كانت حياة ذليلة مهينة، ثم بدأ الرومان يُجْرُون القرعة بين كل يهوديين، ومن يَفُزْ بالقرعة يَقُمْ بقتل صاحبه، حتى أُبِيدَ اليهود في القدس عن آخرهم، وسقطت دولتهم، ولم ينجُ منهم سوى الشريد، وأولئك الذين كانوا يسكنون في أماكن بعيدة![1].

ومن أبرز الأمثلة على الجرائم الأخلاقية للدولة الرومانية احتلالهم لمصر منذ هزيمة (كليوباترا) على يد (أوكتافيوس) سنة ٣١ قبل الميلاد، وعندما سقطت الدولة الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ ميلادية (أي قبل ميلاد الرسول ﷺ بحوالي مائة عام) آلت أملاك الدولة الرومانية الغربيّة – ومنها مصر – إلى الدولة الرومانية الشرقية.

لقد تحولت مصر في عهود الرومان إلى مخزن يُمِدُّ الإمبراطورية الرومانية باحتياجاتها من الغذاء، وفقد المصريون السلطة بكاملها في بلادهم، وإن كان الرومان قد حرصوا على أن يتركوا بعض الرموز المصرية كصورة فقط، وذلك لتجنب ثورة الشعب، وتمَّ فرض الضرائب الباهظة جدًّا بمختلف أنواعها على الشعب المعدم حتى تجاوزت الضرائب الأحياء. في سابقة تاريخية. إلى الأموات، فلم يكن يسمح بدفن الميت إلا بعد دفع ضريبة معينة، وتتبع الرومان قادة الأقباط المصريين بالقتل والتعذيب حتى اضطروهم إلى الهرب إلى الصحراء، وإقامة أماكن عبادتهم في مناطق نائية أو مهجورة حفاظًا على حياة من تبقى منهم[2].

***

(١) الدباغ: بلادنا فلسطين ٩/ ٦٨ – ٧٠.

(٢) بسام العسلي: عمرو بن العاص، ص ٣٩، ٤٠.

المبحث الثاني
الحروب في الدولة الفارسية

كانت وظيفة محمد ترقية
عقول البشر بإشرابها الأصول
الأولية للأخلاق الفاضلة[١].

كانت الدولة الفارسية والدولة الرومانية في هذه الفترة بمثابة فرسيّ رهان يتسابقان على زعامة العالم، وفي إطار هذا التنافس حدثت سلسلة من الحروب الدامية بينهما، وقد راح ضحية هذه الحروب الآلاف من أبناء الدولتين بدون جريرة، فقد كان الجنود بمثابة العبيد ليس أمامهم إلا الانصياع لأوامر ورغبات الحاكم الجامحة الطامعة.. ولم تكن هناك أي رسالة للحاكم أو الجيش اللهم توسيع مساحة الأرض المملوكة!

ولعل من أشهر الحروب والمعارك التي خاضتها الدولتان في هذه الفترة المعارك التالية (خريطة ٢):



خريطة رقم (٢)
معارك الفرس والروم

---

(١) سنكس، مستشرق أمريكي توفي عام ١٨٨٣م، له كتاب ديانة العرب.

- معركة دارا التي وقعت في عام ٥٣٠م، وكانت ضدَّ الروم عدوهم اللدود، وفيها تقابلت الجيوش الفارسية والجيوش البيزنطية في شمال سوريا، وبعد قتال مرير استطاع البيزنطيون هزيمة الفرس وكسب هذه الجولة من الجولات الحربية الدامية التي كانت مشتعلة بين الدولتين[1]!!

- معركة (مالاطيا) التي وقعت في عام ٥٧٤م، وتعتبر هذه المعركة من أكبر معارك القرن السادس الميلادي، وفيها اصطدمت جيوش الفرس بقيادة أنوشروان مع الجموع الكبيرة التي حشدها البيزنطيون ليدافعوا عن بيزنطة، وفي هذه المعركة أيضًا انهزم الفرس، وفرّ أنوشروان من المعركة[2].

- أما في معركة (أركسامون) التي وقعت في عام ٦٠٥م، في منطقة تقع بين أورفه والنزيب شمال سوريا، والتي التقت فيها جيوش الفرس بقيادة كسرى الثاني بارويز بالجيش البيزنطي، فقد استطاع الفرس أن يُلحِقوا بالروم هزيمة كبيرة، ولكنها أيضًا لم تكن حاسمة[3]!!

فهذه أمثلة لبعض الحروب التي وقعت بين الفرس والروم بحثًا عن الزعامة والاستئثار بثروات العالم.

والملاحظ في كل هذه الحروب أنه لم يكن هناك اهتمام بالمرَّة براحة أو أمان الجنود، بل اعتاد الفرس أن يربطوا جنودهم في المعارك بالسلاسل، ليمنعوهم من الفرار!!

وقد شاهد المسلمون ذلك بأعينهم في أكثر من موقعة مع الفرس، لعل من أشهرها موقعة «الأبلَّة»[4]، والتي كان المسلمون فيها تحت قيادة البطل الإسلامي الفذ خالد بن

---

(١) ماجد اللّحام: معجم المعارك الحربية ص١٤٠.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٣٠٠.

(٣) المصدر السابق نفسه ص٢٧.

(٤) الأبلة: منتهى بحر فارس في جهة الشمال قرب البصرة. تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٠٧.

الوليد[1] ﷺ، وفيها انتصر المسلمون، وعُرِفت الموقعة باسم «ذات السلاسل[2]»، لأن الفرس كانوا يربطون كل عشرة من الجنود في سلسلة!!

* * *

(١) خالد بن الوليد بن المغيرة القرشي، يُكَنَّى أبا سليمان، كان أحد أشراف قريش في الجاهلية، وكان إليه أعِنَّة الخيل فيها، وشهد مع قريش الحروب إلى الحديبية. ثم أسلم في سنة سبع، وكان على أحد الجيوش الأربعة التي فتحت مكة، وقد نجَّى الله به المسلمين في معركة مؤتة بعد أن قُتِل الأمراء الثلاثة، وسماه الرسول ﷺ سيف الله المسلول، ثم كانت له اليد الطولى في فتح فارس والشام. توفي سنة ٢١هـ. الإصابة ٢/ ٢٣- ٢٧، وتاريخ دمشق ١٦/ ٢١١-٢٨٢، وأسد الغابة ١/ ٦٧٣.

(٢) وقعت في شهر المحرم عام ١٨هـ وكانت بين المسلمين والفرس، وكان المسلمون بقيادة سيدنا خالد بن الوليد وعددهم ١٨ ألفًا، وكان الفرس بقيادة هرمز وعددهم ١٢٠ ألفًا، وسميت بذات السلاسل؛ لأن الفرس أوثقوا بعضهم بالسلاسل لئلا يفروا، وكتب الله النصر للمسلمين في هذه الموقعة. تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٠٧.

المبحث الثالث
الحروب في أوروبا الشمالية

إنَّ رجلًا كمحمد إذا تولى زعامة العالم الحديث فسوف ينجح في حلِّ مشكلاته[١]

أما الأمم الأوروبية المتوغلة في الشمال والغرب فكانت تتسكع في ظلام الجهل المطبق، والأمية الفاشية، والحروب الدامية، لم ينبثق فيها فجر الحضارة والعلم بعد، ولم تظهر على مسرحها الأندلس الإسلامية لتؤدي رسالتها في العلم والمدنية، ولم تصهرها الحوادث، وكانت بمعزل عن جادة قافلة الحضارة الإنسانية، وكانت بين نصرانية وليدة، ووثنية شائبة، ولم تكن بذات رسالة في الدين، ولا بذات راية في السياسة.

يقول هـ. ج. ويلز في كتابه (التاريخ المختصر للعالم): «ولم تكن في أوروبا الغربية في ذلك العهد أمارات الوحدة والنظام[٢]». ويقول روبرت بريفولت: في كتابه (صناعة الإنسان): «لقد أطبق على أوروبا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلامًا وسوادًا. قد كانت همجية ذلك العهد أشد هولًا وأفظع من همجية العهد القديم؛ لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضي عليها بالزوال، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في الماضي كإيطاليا وفرنسا فريسة الدمار والفوضى والخراب»[٣].

* * *

(١) جورج برنارد شو، أديب إنجليزي شهير.
(٢) نقلاً عن أبي الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٥١، ٥٢.
(٣) نقلاً عن المصدر السابق نفسه، ص ٥١، ٥٢.



المبحث الرابع
الحروب في الهند

لم يأتِ محمد بدين خاص بالعرب[(١)]

كانت الهند في هذه الحقبة من التاريخ متمزقة الأحشاء بفعل الحروب الداخلية والخارجية، وبالتالي فهي لم تكن أفضل حالًا عن سائر الدول الأخرى، وقد خلَّفت هذه الحروب عددًا هائلًا من الرقيق، وكان الهنود يعتقدون أن الرقيق خُلِقوا من قدم الإله، ومن ثَمَّ فهم بخلقتهم خرقاء مهينون، ولا يمكن أن يرتفعوا عن هذا الوضع المقسوم لهم إلا بتحمل الهوان والعذاب عسى أن تنسخ أرواحهم بعد الموت في مخلوقات أفضل!! وبذلك تضاف إلى لعنة الوضع السيئ الذي يعيشون فيه لعنة أخرى روحية تقضي عليهم أن يرضوا بالذل ولا يقاوموه، ومن ثم لم تكن معاملة الرقيق في الهند تختلف كثيرًا عما كان شائعًا في هذا الوقت من حيث إهدار إنسانية الرقيق إهدارًا كاملًا وتحميله بأثقل الواجبات دون إعطائه حقًّا مقابلها[(٢)]!!

* * *

---

(١) ساديو لوي، مستشرق فرنسي.

(٢) محمد قطب: شبهات حول الإسلام ص٤٠.

المبحث الخامس
الحروب عند اليهود

إنه لم يُتَحْ لنبي من قبل أن ينتصر انتصارًا تامًّا كانتصار محمد [(١)]

عاش اليهود مضطهدين في آسيا وأوروبا وكل مكان؛ لأنه لم يكن لأحدٍ من الناس بمعاشرتهم طاقة؛ فهم في لحظات الضعف يبدون الخنوع والنفاق والدَّس والوقيعة والكيد والكذب، وفي لحظات القوة يبدون التجبر والتكبر والظلم والوحشية والرِّبا، وقد تركَّزوا بالشام في هذا الوقت.

وفي سنة (٦١٠) ميلادية- في عهد رسول الله ﷺ- انتصر الفرس على الروم ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم:٢]، فانقلب اليهود على نصارى الشام، وقد ضعفت جيوش الروم هناك، فخرَّبوا الكنائس، وقتلوا الرهبان، وظهرت لهم شوكة وتَكبُّر لعدة سنوات. ثم انتصر الروم على الفرس ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم:٣]، فذهب اليهود إلى هرقل، وتذلَّلوا له؛ فقبل منهم، وأعطاهم العهد بالأمان، ولكن أتى رهبان الشام، فذكروا لهرقل ما فعله اليهود وقت هزيمة الروم، فغضب هرقل وأراد معاقبة اليهود، ولكن منعه العهد الذي أعطاه إياهم، فجاء رهبان النصارى وقالوا لهرقل: لا عليك من العهد، اقتلهم وسنصوم عنك جمعة كل سنةٍ أبد الدّهر، فقبل هرقل وعذب اليهود عذابًا شديدًا حتى لم يفلت إلا الذي هرب من الشام[(٢)].

تمركز اليهود في زمان رسول الله ﷺ في شمال المدينة المنورة، وكانوا - كعادتهم - قومًا غِلاظ الطباع، قساة القلوب، منحرفي الأخلاق، يعيشون على الرِّبا، وإشعال الفتن، والتكسب من بيع السلاح، وعلى إيقاع السادة في الفضائح الأخلاقية وتهديدهم بها، وعلى

---

(١) جورج سارتون، مؤرخ ومستشرق بلجيكي.
(٢) المقريزي: الخطط (٤/ ٣٩٢).

السيطرة على الجهال بكتبهم المحرفة وأفكارهم الضالة[1].

وقد ظهرت الطبيعة التدميرية لدى اليهود في توراتهم المحرَّفة في أكثر من نص، فتجد مثلًا: «إن سمعت عن إحدى مدنك التي يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولًا، فضربًا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرِّمها (أي تدمرها) بكل ما فيها من بهائمها بحد السيف. تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلًّا إلى الأبد لا تُبنى بعد، لكي يرجع الرب عن حُمُوِّ غضبه ويعطيك رحمة»[2]. فرحمة الرب مشروطة بإبادة غير اليهود، بل وكل مكونات الحياة عندهم!

وفي التوراة أيضًا: «وكلم الرب موسى ﷺ في عربات موآب على أردن أريحا قائلًا: كلم إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون للأردن إلى أرض كنعان، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم.. تملكون الأرض وتسكنون فيها، وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا في أعينكم ومناخس في جوانبكم، ويضايقونكم في الأرض التي أنتم ساكنون فيها، فيكون أني بكم كما هممت أن أفعل بهم»[3].

وفيها كذلك: «وحين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويُستعبَد لك، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربًا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، أما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن.. فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرِّمها (أي تبيدها)..»[4]. فالذين يصالحون ويُسلِّمون، لهم العبودية والاستعباد، والذين لا يصالحون ولا يُسلِّمون لهم الإبادة والدمار!

---

(١) محمد الغزالي: فقه السيرة، ص٢٦٢بتصرف. أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٥٢، ٥٣ بتصرف. طه حبيشي: رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود، ص ٢٣ بتصرف. د/ محمد رواس قلعه جي: قراءة سياسية للسيرة النبوية ص ١٨٤.

(٢) سفر التثنية، إصحاح ١٣: ١٢، ١٥-١٧.

(٣) سفر العدد، إصحاح ٣٣: ٥٠ – ٥٣، ٥٥، ٥٦.

(٤) سفر التثنية، إصحاح ٢٠: ١٠-١٦.

المبحث السادس
الحروب العربية في الجزيرة العربية قبل البعثة

غرس محمد ﷺ في الأعراب مبدأ التوحيد والمدنية والأدب[١]

تفشت في العرب أدواء أخلاقية كثيرة قبل الإسلام، ولا شك أن هذه الأدواء قد ظهرت بشكل مكثَّف في الحروب بين القبائل. وقد كانت هذه الحروب تقوم لأتفه الأسباب، كحرب البسوس التي نشبت بين بكر وتغلب بسبب ناقة جرحت، وحرب داحس والغبراء[٢] - فَرَسَان - بين عبس وذبيان، واستمرت كل منهما أربعين سنة[٣]، كما قامت بين الأوس والخزرج - أبناء عمومة - حروب استمرت طويلًا كان أشهرها يوم بعاث[٤] الذي انتهى لصالح الأوس[٥]، ومن أشهر أيام العرب حرب الْفِجَارِ التي كانت بين قريش وكنانة من جهة، وقيس عيلان من جهة أخرى، وكان رسول الله ﷺ صبيًّا يناولهم النبل[٦]، وسمي الفجار لما استحل الحيَّان كنانة وقيس فيه من المحارم[٧]، ومن أيام العرب يوم عين أباغ وكان بين غسان ولخم، وكان قائد غسان الحارث، وكان قائد لخم المنذر بن ماء السماء، وقُتل المنذر في هذا اليوم، وانهزمت لخم، وتبعتهم غسان إلى الحيرة، وأكثروا فيهم القتل[٨]، ومنها يوم

---

(١) هنري سيروي، مستشرق فرنسي.

(٢) داحس والغبراء: اسمان لفرسين دخل صاحباهما سباقًا؛ فلطم أحدهما فرس الآخر؛ ليمنعه من الفوز، فقامت حرب بين القبيلتين قُتِلَ فيها الألوف.

(٣) لمزيد من التفصيل؛ راجع: ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١/ ٣٤٣. عبد العزيز الحميدي، التاريخ الإسلامي ١/ ٥٥.

(٤) هو يَوم اقتتلتْ فيه الأوس والخَزْرَجُ في الجاهلية، وكان الظفرُ فيه يَوْمَئِذٍ للأوس، وفيها أيام مشهورة هلك فيها كثير من صناديدهم وأشرافهم. وبُعاث اسم أرض بها عرفت. انظر الروض الأنف ٢/ ١٥؛

(٥) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية ١/ ٩٣.

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ١٣٩، ١٤٠.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/ ٢٠٦.

(٨) أبو الفداء الأيوبي الشافعي: المختصر في أخبار البشر ١/ ٥٠.

أوارة وهو جبل، وكان بين المنذر بن امرئ القيس ملك الحيرة وبين بكر بن وائل بسبب اجتماع بكر على سلمة بن الحارث، فظفر المنذر ببكر، وأقسم أنه لا يزال يذبحهم حتى يسيل دمهم من رأس أوارة إلى حضيضه، فبقي يذبحهم والدم يجمد، فسكب عليه ماء حتى سال الدم من رأس الجبل إلى حضيضه، وبرت يمينه[1].

ومن أبلغ الدلائل على ما وصلوا إليه من شهوة الدم، ما روي عن يوم الكلاب الأول وكان بين الأخوين شراحيل وسلمة ابني الحارث ابن عمرو الكندي، وكان مع شراحيل وهو الأكبر بكر بن وائل وغيرهم، وكان مع سلمة أخيه تغلب وائل وغيرهم، ووقعت الحرب بينهما في الكلاب وهو بين البصرة والكوفة، واشتد القتال بينهم، ونادى منادي شراحيل: من أتاه برأس أخيه سلمة فله مائة من الإبل. ونادى منادي سلمة: من أتاه برأس أخيه شراحيل فله مائة من الإبل، فانتصر سلمة وتغلب على شراحيل وبكر، وانهزم شراحيل وتبعته خيل أخيه ولحقوه وقتلوه وحملوا رأسه إلى سلمة[2].

ومما يدل على كثرة الحروب بين العرب أن ابن الأثير بدأ باب ذكر أيام (حروب) العرب في الجاهلية بقوله: «نحن نذكر الأيام المشهورة والوقائع المذكورة التي اشتملت على جمع كثيرة وقتال شديد، ولم أُعَرِّج على ذكر غارات تشتمل على النفر اليسير لأنه يكثر ويخرج عن الحصر»[3]. ومع هذا يأتي بما يربو على خمسين يومًا (معركة)، كلها من الوقائع الكبيرة المشهورة!!

بل بلغ من تعلقهم الشديد بالحرب والقتال وتأصلها في نفوسهم: أن قال شاعرهم عمرو بن كلثوم[4] بيتًا من الشعر يُعبِّر عن هذه النفسيات المعقدة، والعقول المضطربة:

---

(١) السابق نفسه ١/ ٥٠.

(٢) السابق نفسه ١/ ٥٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١/ ١٧٣.

(٤) عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب من بني تغلب، أبو الأسود: شاعر جاهلي. توفي نحو ٤٠ ق.هـ في شمالي جزيرة العرب في بلاد ربيعة. كان من أعز الناس نفسًا، وهو من الفتاك الشجعان، ساد قومه (تغلب) وهو فتى، وعمر طويلاً، وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند. توفي نحو ٥٨٤ م. انظر: الزركلي، الأعلام ٥/ ٨٤.

ألا لا يَجهَلنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فَوقَ جَهْلِ الجاهِلِينا(١)

إنه لم يكن هناك مانع إذن أن يُحارب الأخ أخاه، فقط لأن زمانه خلا من حرب أخرى!!

هكذا كان الوضع في جزيرة العرب، ومثله في العالم كله، وكما تبيَّن لنا فإنه لم يكن على الحقِّ في كل هذه الحضارات - إن جاز أن نسمي هذه التجمعات بالحضارات - إلا أفراد قلائل، وقلائل جدًّا.

* * *

---

(١) ديوان عمرو بن كلثوم ص ٧٨.

الباب الثاني

أخلاق الرسول ﷺ في الحروب

الحديث عن أخلاق الحروب يعني عند الكثيرين الحديث عن المتناقضات! فالحرب عنوان الدمار والخراب (صورة ٢)، كما تُمَثِّل أيضًا – في كثير من الأحيان – صورة كبيرة من صور الاستبداد والظلم، فلذلك لا يُتخيل عند العموم أن نتحدث عن الأخلاق ونحن نتناول موضوع الحروب. وهذا المنطق مقبول جدًا عند الحديث عن معظم الحروب في التاريخ والواقع، وعند الحديث عن معظم القادة في العالم. لكن الحديث عن رسول الله ﷺ، وعن حروبه، شيء مختلف! إن العنصر الأخلاقي لم يختف أبدًا من حياته ﷺ، حتى في أحرج لحظات حياته. إنه لم يكن يتكلف مطلقًا في إظهار الأخلاق أو إبرازها، إنما كان يفعل ذلك فطرةً وطبيعةً وسلوكًا تلقائيًا. إن الذي أحسن أخلاقه وهذَّبها هو الله ﷻ، وقد جعل أخلاقه هذه من دلائل نبوته، حتى ذكرها في كتب الأولين.

يقول عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ[1] رحمه الله: لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ فَقَالَ: أَجَلْ وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِصِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ وَأَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَسْتَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ وَلاَ صَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا»[2].

وذكر زيد بن سعنة[3] رضي الله عنه أن الرسول ﷺ وُصف في التوراة بأنه يسبق حلمه جهله، ولا

---

(١) عطاء بن يسار أبو محمد مولى ميمونة زوج النبي ﷺ أخو سليمان وعبد الملك وعبد الله بن يسار، وكان مولده سنة ١٩هـ. روى عن عدد من الصحابة، وقدم الشام ومصر، وكان صاحب قصص وعبادة وفضل. مات بالإسكندرية سنة ١٠٣هـ، وعمره ٨٤سنة. انظر: الثقات ٥/ ١٩٩، تهذيب الكمال ٢٠/ ١٢٥.

(٢) البخاري: كتاب البيوع، باب كراهية الصخب في الأسواق (٢٠١٨)، واللفظ له، وأحمد (٦٦٢٢)، والبيهقي في سننه الكبرى.

(٣) زيد بن سعنة ويقال: سعية، بالياء والنون. كان من أحبار يهود، ومن أكثرهم مالاً، أسلم وشهد مع النبي ﷺ مشاهد كثيرة، وتوفي في غزوة تبوك مقبلاً إلى المدينة. الإصابة (٢٨٩٩)، أسد الغابة ٢/ ١٤٩، الاستيعاب ٢/ ١٢٢.



صورة رقم (٢)

يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا[1]، فهذه كانت حياته الدائمة، وسنَّته التي لا خروج عنها. ولم تكن الحروب لتخرجه عن نسق الحياة التي ألفها واعتاد عليها. إن حروبه ﷺ قد تجمَّلت بأخلاقه فخرجت لنا في شكل عجيب يستغربه عامة أهل الأرض، بل لا يستوعبها حقيقةً إلا من عرف رسول الله ﷺ، ودرس سيرته وأخلاقه.

وفي هذا الباب الذي بين أيدينا سندرس – إن شاء الله – طرفًا من أخلاقه ﷺ في حروبه، وسنكتفي ببعض الأمثلة، فإن الحصر يستحيل! فالله المستعان! وسوف نتناول هذا الموضوع الشيِّق من خلال الفصول الآتية:

الفصل الأول: أخلاقه ﷺ قبل بدء الحرب

الفصل الثاني: أخلاقه ﷺ أثناء الحرب

الفصل الثالث: أخلاقه ﷺ بعد الحرب

الفصل الرابع: أخلاقه ﷺ في زمن الهدنة بعد الحرب

***

(١) ابن حبان (٢٨٨)، والحاكم (٦٥٤٧)، وقال: حديث صحيح الإسناد. والطبراني في الكبير (٥١٤٧)، والبيهقي في سننه الكبرى (١١٠٦٦)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد حديث (١٣٨٩٨).

الفصل الأول

أخلاقه ﷺ قبل بدء الحرب

مما لا شك فيه أن الرسول ﷺ إنما جاء رحمة للبشرية، وإنقاذًا لها من براثن الغواية والضلال، وإخراجًا لها من الظلمات إلى النور، وحتى يصل بالبشر جميعًا إلى أعلى مراتب الأخلاق الإنسانية في كل تعاملاتهم في الحياة، وقد صرَّح ﷺ بهذا الأمر حين قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»[1].

ومن المعلوم أن العالَمَ عامةً والعرب خاصة في زمن نشأة النبي ﷺ، وقبل بعثته قد ذاق من ويلاتِ الحروب الكثير والكثير، وكانت القبائل العربية تتقاتل فيما بينها لأتفه الأسباب، كما مرَّ بنا، وقد جاء الإسلام العظيم لينتزع الناس من هذه الحياة بالغة السوء، ولينقلهم نقلة هائلة إلى حيث الأمن والأمان والهدوء والسكينة، ومن ثَمَّ كان الرسول ﷺ أحرص ما يكون على إبعاد الناس تمامًا عن الحروب، وعن كل ما يؤدي إليها، انطلاقًا من الرسالة السامية التي جاء بها من عند الله ﷻ نورًا وهدايةً وأمنًا ورحمةً للإنسانية كلها.

ولتوضيح هذه المعاني الراقية كان هذا الفصل الذي يضم ثلاثة مباحث، وهي:

المبحث الأول: الرؤية الإسلامية للسلام والحرب.

المبحث الثاني: المسلم لا يبدأ القتال.

المبحث الثالث: لماذا قاتل رسول الله ﷺ؟!.

---

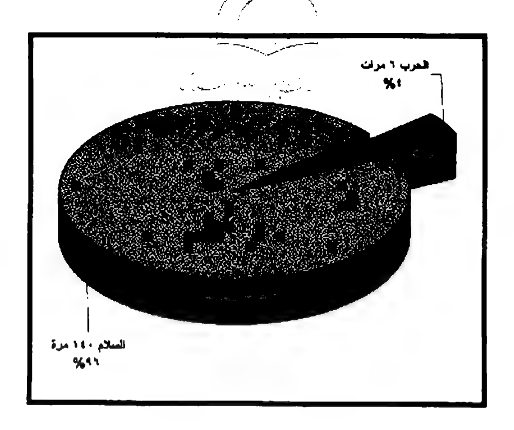
(1) [illegible] (٤٢٢١)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه. والبيهقي في سننه الكبرى عن [illegible] بلفظ «مكارم» (٢٠٥٧١)، وفي مسند الشهاب (١١٦٥)، وقال الألباني: [illegible] (٤٥).

المبحث الأول

الرؤية الإسلامية للسلام والحرب

لم يخرج العرب للسلب والنهب، وإنما خرجوا لنشر دين محمد، ونشر المثل العليا(١)

يدل الخطاب القرآني دلالةً واضحةً على أنَّ القاعدة في التعامل مع غير المسلمين هو تقديم السلام على الحرب، واختيار التفاهم لا التصارع، ومن أدلة ذلك أنَّ القرآن الكريم أورد كلمة السلم بمشتقاتها مائة وأربعين مرة، في حين ذُكِرَت كلمة الحرب بمشتقاتها ست مرات فقط!! (شكل ٢).



شكل (٢)
الحرب والسلم في القرآن الكريم

---

(١) هليار بلوك، مستشرق فرنسي.

والفرق بين العددين هو الفرق بين نظرة الإسلام إلى كلا الأمرين، ومن ثَمَّ في ميل الرسول ﷺ إلى كلٍّ منهما؛ ففي معظم أحواله ﷺ كان يبحث عن الطرق السلمية والهادئة للتعامل مع المخالفين له، ويحرص على تجنب الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وذلك إلى حدٍ قد يتعجب له جدًا المحللون والدارسون. ففي استنتاجٍ جميل من هذه النسبة يذكر بعض الفقهاء أن كلمة الإسلام مشتقة من السلم، وأن السلام من أبرز المبادئ الإسلامية، إن لم يكن أبرزها على الإطلاق، بل من الممكن أن يرقى ليكون مرادفًا لاسم الإسلام نفسه باعتبار أصل المادة اللغوية[١].

ويرى الشيخ محمود شلتوت[٢] أيضًا أن السلم هو الحالة الأصلية التي تهيئ للتعاون والتعارف وإشاعة الخير بين الناس عامة، وإذا احتفظ غير المسلمين بحالة السلم، فهم والمسلمون في نظر الإسلام إخوان في الإنسانية[٣].

ويرى شيخ الأزهر السابق جاد الحق[٤] ﷺ أنه من الواجب على المسلمين أن يقيموا علاقات المودة والمحبة مع غيرهم من أتباع الديانات الأخرى، والشعوب غير المسلمة نزولًا عند هذه الأخوة الإنسانية، منطلقًا من الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، فتَعَدُّد هذه الشعوب ليس للخصومة والهدم؛ وإنما هو مدعاة للتعارف والتوادّ والتحابّ[٥].

---

(١) انظر: الشيخ جاد الحق علي جاد الحق: في مجلة الأزهر ص٨١١ ديسمبر١٩٩٣، محمد الصادق عفيفي: الإسلام والعلاقات الدولية ص١٠٦، وظافر القاسمي: الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام ص١٥١.

(٢) هو الشيخ محمود شلتوت، شيخ الأزهر الأسبق. من مواليد محافظة البحيرة بمصر (١٨٩٣م)، اختير شيخًا للأزهر سنة ١٩٥٨م. من مؤلفاته: «فقه القرآن والسنة»، «مقارنة المذاهب»، «يسألونك» وهي مجموعة فتاوى، وترجمت له كتب كثيرة لعدة لغات. توفي (١٩٦٣م).

(٣) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة ص٤٥٣.

(٤) الشيخ جاد الحق علي جاد الحق، شيخ الأزهر الأسبق، ولد بمحافظة الدقهلية (١٣٣٥هـ). تخرج من كلية الشريعة بجامعة الأزهر، وعين وزيرًا للأوقاف، ثم اختير شيخًا للجامع الأزهر. له مؤلفات عديدة منها: «الفقه الإسلامي مرونته وتطوره»، و«بحوث وفتاوى إسلامية في قضايا معاصرة». توفي (١٤١٦هـ).

(٥) جاد الحق: مجلة الأزهر ص٨١٠، ديسمبر ١٩٩٣.

ويشهد لهذه الآراء العديد من الآيات التي أمرت بالسَّلْم مع غير المسلمين إن أبدى هؤلاء الاستعداد والميل للصلح والسلام؛ فيقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، وهذه الآية الكريمة من كتاب الله ﷻ تبرهن بشكل قاطع على حب المسلمين وإيثارهم لجانب السلم على الحرب، فمتى مال الأعداء إلى السَّلْمِ رضي المسلمون به، ما لم يكن من وراء هذا الأمر ضياع حقوقٍ للمسلمين أو سلب لإرادتهم..

قال السدي وابن زيد: معنى الآية: إن دعوك إلى الصلح فأجبهم. والآية التالية لهذه الآية تؤكد حرص الإسلام على تحقيق السلام، فلو أن الأعداء أظهروا السلم، وأبطنوا الخيانة؛ فلا عليك من نياتهم الفاسدة، واجنح للسلم قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

أي أن الله يتولى كفايتك وحياطتك(١).

ولهذا كله كان رسول الله ﷺ يعتبر السلام من الأمور التي على المسلم أن يحرص عليها ويسأل الله أن يرزقه إياها، وكان يدعو فيقول: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ..»(٢).

كما كان ﷺ يكره كلمة حرب ولا يحب أن يسمعها وفي الحديث عنه ﷺ: «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ: عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا: حَارِثٌ وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا: حَرْبٌ وَمُرَّةُ»(٣).

وكان الرسول ﷺ يُغيِّر اسم مَن اسمه حرب إلى اسم آخر أحسن وأجمل، فعَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: «لَمَّا وُلِدَ الْحَسَنُ سَمَّيْتُهُ حَرْبًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَرُونِي ابْنِي، مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: حَرْبًا، قَالَ: «بَلْ هُوَ حَسَنٌ»، فَلَمَّا وُلِدَ الْحُسَيْنُ سَمَّيْتُهُ حَرْبًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ:

---

(١) راجع في هذا المعنى القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٠٠.

(٢) أبو داود (٥٠٧٤)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وأحمد (٤٧٨٥)، وابن حبان (٩٦١)، ورواه البخاري في الأدب المفرد (١٢٠٠)، والطبراني في الكبير (١٣٢٩٦)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٤٠١)، وقال الألباني: صحيح. وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٣) أبو داود (٤٩٥٠)، والنسائي (٣٥٦٨)، وأحمد (١٩٠٥٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٨١٤)، وقال الألباني: صحيح. السلسلة الصحيحة (١٠٤٠).

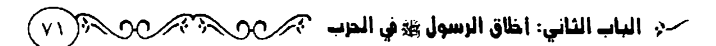
«أَرُونِي ابْنِي، مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: حَرْبًا، قَالَ: «بَلْ هُوَ حُسَيْنٌ»، فَلَمَّا وُلِدَ الثَّالِثُ سَمَّيْتُهُ حَرْبًا، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَرُونِي ابْنِي، مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟» قُلْتُ: حَرْبًا، قَالَ: «بَلْ هُوَ مُحَسِّنٌ»، ثُمَّ قَالَ: «سَمَّيْتُهُمْ بِأَسْمَاءِ وَلَدِ هَارُونَ: شَبَّرُ وَشَبِيرُ وَمُشَبِّرٌ»[1].

فهذه هي نظرته للحرب، وهذه هي نظرته للسلم..

ألا حقًّا ما أرحمها من نظرة!

* * *

(١) أحمد (٧٦٩)، واللفظ له، ومالك (٦٦٠)، وابن حبان (٦٩٥٨)، والحاكم (٤٧٧٣)، وقال: صحيح الإسناد. ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٣)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن.



المبحث الثاني
آخر الدواء الحرب

من أجلّ الصفات البشرية في محمد العدالة والرحمة(١)

كان الرسول ﷺ يعلم أصحابه ويوجّههم فيقول لهم مربيًا: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ..»(٢).

فالمسلم بطبيعة تربيته الأخلاقية التي يتربى عليها من خلال القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ يكره القتل والدماء، ومن ثَمّ فهو لا يبدأ أحدًا بقتال، بل إنه يسعى بكل الطرق لتجنب القتال وسفك الدماء..

وفي آيات القرآن الكريم ما يؤيد هذا المعنى جيدًا، فالإذن بالقتال لم يأتِ إلا بعد أن بُدئ المسلمون بالحرب، وحينئذٍ لابُدَّ من الدفاع عن النفس والدين، وإلا كان هذا جُبنًا في الخُلُق، وخورًا في العزيمة، قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ [الحج:٣٩-٤٠]. وعلّة القتال واضحة في الآية، وهي أن المسلمين ظُلِموا وأُخرِجوا من ديارهم بغير حق..

ويقول ﷻ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠]. ويقول القرطبي ؒ: هذه الآية أول آية نزلت في الأمر بالقتال، ولا خلاف في أن القتال كان محظورًا قبل الهجرة بقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

---

(١) برتلي سانت هيلر، مستشرق ألماني.

(٢) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخّر القتال حتى تزول الشمس (٢٨٠٤)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء (١٧٤٢)، وأبو داود (٢٦٣١)، والدارمي (٢٤٤٠)، والحاكم (٢٤١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٣٠٨)، والنسائي في سننه الكبرى (٨٦٣٤).

[فصلت:٣٤]. وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، وما كان مثله مما نزل بمكة، فلما هاجر إلى المدينة أُمِرَ بالقتال.

ويجب التعليق هنا بأن الأمر بالقتال إنما جاء لمحاربة من يقاتلنا فقط، دون مَن سالمنا، وجاء التأكيد الشديد على ذلك المعنى بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة:١٩٠]. ثم التحذير للمؤمنين: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠]. فالله ﷻ لا يحب الاعتداء، ولو كان على غير المسلمين، وفي هذا تحجيم كبير لاستمرار القتال، وهذا فيه من الرحمة بالإنسانية جميعًا ما فيه.

ويقول ﷻ في سورة التوبة: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

فالقتال هنا مقيَّد، وبحسب قتالهم واجتماعهم لنا؛ يكون فرضُ اجتماعِنا لهم[1]. وعِلَّة قتال المشركين كَافَّة أنهم يقاتلون المسلمين كافة، ومن هنا فإنه لا يجوز للمسلم أن يقاتل من لم يقاتله إلا بعلَّة واضحة، كسلبٍ أو نهبٍ أو اغتصابٍ لحقوقِ المسلمين، أو بسبب ظلم أوقعوه بأحد، والمسلمون يريدون رفع هذا الظلم، أو بسبب منعهم للمسلمين من نشر دينهم، أو إيصال هذا الدين للغير.

وهذه الآية لها دلالة خاصة؛ فهي من آيات سورة التوبة، وهي من أُخريات ما نزل من القرآن، وتمت قراءتها في موسم الحج من العام التاسع للهجرة، وهذا يعني أنها ليست منسوخة، ومن ثَمَّ فحكمها ثابت يقينًا.

ومثل الآية السابقة يقول ﷻ في سورة التوبة أيضًا: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

والمقصود بمن نكثوا أيمانهم كفار مكة، وكان منهم سبب خروج النبي ﷺ فأضيف الإخراج إليهم، وقيل: أخرجوا الرسول ﷺ من المدينة لقتال أهل مكة للنكث الذي منهم. وعن الحسن: «وَهُمْ بَدَءُوكُمْ» بالقتال، «أَوَّلَ مَرَّةٍ» أي نقضوا العهد، وأعانوا بني بكر على

---

(١) انظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٧٤.

خزاعة، وقيل: بدءوكم بالقتال يوم بدر؛ لأن النبي ﷺ خرج للعير، ولما أحرزوا عيرهم كان يمكنهم الانصراف، فأبوا إلا الوصول إلى بدر، وشرب الخمر بها.. وقيل: إخراجهم الرسول ﷺ: منعهم إياه من الحج والعمرة والطواف، وهو ابتداؤهم[1]. وبقطع النظر عن حقيقة متى كانت البداية؛ فإن علة القتال عند المسلمين واضحة، وهي أن أعداءهم بدءوهم بالقتال.

فهذه هي الأسباب التي تدعو إلى قتال هؤلاء المشركين، فإن لم يفعلوها لم يكن قتالهم جائزًا، وإذا كانت كل هذه استنباطات فإن واقع المسلمين في زمان الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول ﷺ يصدق هذا الاختيار، فالمسلمون في فتوحاتهم لم يقاتلوا أو يقتلوا كل المشركين الذين قابلوهم في هذه الفتوحات، بل على العكس لم يقاتلوا إلا من قاتلهم من جيش البلاد المفتوحة، وكانوا يتركون بقية المشركين على دينهم.

هذا واقع قرأناه بأنفسنا في كل الفتوح الإسلامية، وما وجدنا رجلا واحدًا قُتِلَ لمجرد كونه مشركًا.

وعلى هذا يُحمَلُ حديث: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ..»[2] على أنه قتال مشركي العرب، ذلك أنهم كانوا في حالة حرب حقيقية مع المسلمين، فهم يُقال في حقهم هذا الكلام ليس لأنهم مشركون، ولكن لأنهم مقاتلون، أما الوضع في بقية مشركي العالم فمختلف، فإذا اختار المشرك في أي بلد من بلاد العالم أن يبقى على شركه، ويدفع الجزية، فإنَّ ذلك يُقبَل منه، وذلك على مذهب الإمام مالك[3]

(١) انظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٣٤.

(٢) البخاري: كتاب الإيمان، باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة فخلُّوا سبيلهم (٢٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (٢٢)، وأبو داود (٢٦٤١)، والترمذي (٢٦٠٨)، والنسائي (٣٠٩٤)، وابن ماجه (٧١)، وأحمد (٨٥٢٥)، وابن خزيمة (٢٢٤٨)، وابن حبان (١٧٥)، والحاكم (١٤٢٧)، والدارقطني ١/ ٢٣١، والبيهقي (٢٠٣١)، وأبو نعيم ٨/ ١٧٣.

(٣) مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، وإليه تنسب المالكية. ولد في المدينة سنة ٩٣هـ. كان صُلبًا في دينه، بعيدًا عن الأمراء والملوك. ومن أشهر مصنفاته: مسند الموطأ. توفي بالمدينة سنة ١٧٩هـ. سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٨، وفيات الأعيان ٤/ ١٣٥، الأعلام ٥/ ٢٥٧.

والأوزاعي[١] وفقهاء الشام[٢]، ما دام ذلك المشرك ليس مقاتلًا، وهو ما أراه صحيحًا وموافقًا لما رأيناه في الفتوح بعد ذلك، وقد أخذ رسول الله ﷺ الجزية من المجوس[٣]، وقال: «سُنُّوا بهم سُنَّةَ أهل الكتاب»[٤]، وليس عُبَّادُ النار بأفضل من غيرهم من المشركين؛ ولذلك ينطبق حكمهم، كما يقول ابن القيم[٥] على غيرهم من عموم المشركين في الأرض[٦]، أما المشركون في الجزيرة العربية، فكانوا في حالة حرب فعلية مع المسلمين، ومن ثم فحربهم مشروعة، وذلك في أي عرف أو قانون، ولا يُنكِر ذلك إلا جاحد يرى الحق ويتبع غيره.

ومما يؤكّد أن المسلمين لم يكونوا يقاتلون إلا من قاتلهم؛ موقف المسلمين من مشركي الحبشة، فالمسلمون لم يفكروا في حربهم في يوم من الأيام، وهذه ظاهرة جديرة بالاهتمام وتؤيد ما ذهبنا إليه آنفًا من أن الحرب في الإسلام إنما هي ضرورة دُفع إليها المسلمون، فقد كانت الحبشة قريبة نسبيًّا من المسلمين، وكانوا على دراية بها وبأحوالها كلها، وعلى علم بالضعف الحربي الذي تعانيه إذا قِيست بالفرس والروم، فلماذا - إذن - لم يحاربوها؟

ليس لذلك إلا جواب واحد؛ هو أنها لم تحاربهم، ولم تعدّ عدتها للقضاء عليهم، كما فعل غيرُها، بل إنها كفلت حرية العبادة للمهاجرين الأولين الذين فرّوا إليها بدينهم، ثم لم يُعرَف

---

(١) عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، ولد في بعلبك سنة ٨٨هـ، ونشأ في البقاع، وسكن بيروت، وعُرِض عليه القضاء فامتنع. له كتاب (السنن) في الفقه، و(المسائل)، وكانت الفتيا تدور بالأندلس على رأيه زمنًا. وتوفي سنة ١٥٧هـ. الطبقات الكبرى ٧/ ٤٨٨، وفيات الأعيان ٣/ ١٢٧، والأعلام ٣/ ٣٢٠.

(٢) مالك: الموطأ ٢/ ٣١٦، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١١٠.

(٣) البخاري: باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب (٢٩٨٧)، وأبو داود (٣٠٤٣) والترمذي (١٥٨٦)، وأحمد (١٦٥٧)، والدارمي (٢٥٠١).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ كتاب الزكاة، باب جزية أهل الكتاب والمجوس (٦١٦)، والشافعي في مسنده (١٠٠٨)، والبزار (١٠٥٦).

(٥) ابن قيم الجوزية الدمشقي، شمس الدين. من كبار العلماء، مولده سنة ٦٩١هـ، وتتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكان حسن الخُلُق، محبوبًا للناس. من تصانيفه: إعلام الموقعين، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، مفتاح دار السعادة، زاد المعاد. توفي سنة ٧٥١ هـ. انظر: الأعلام ٦/ ٥٦، معجم المؤلفين ٩/ ١٠٦.

(٦) ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ص١٥، ١٦.

في تاريخها أنها عوَّقت الدعوة إلى الإسلام، أو نَكَّلَت بالدعاة، أو اضطهدت المسلمين، ولو أن الحرب الإسلامية كانت للسيطرة، والجشع، والنهم على الفتح؛ لكانت الحبشة أول بلد حاربه المسلمون[1].

***

(١) الدكتور أحمد الحوفي: سماحة الإسلام، ص ١٤٨.



المبحث الثالث

لماذا قاتل رسول الله ﷺ؟!

لم يطمح محمد إلى تكوين إمبراطورية أو ما إلى ذلك[1]

تتفاوت دوافع القتال بين الأمم المختلفة؛ فقد يكون الباعث على القتال تسلطًا وفرضًا للقوة كما كان عند الإغريق والرومان، وقد يكون إغارات هوجاء للاستيلاء على الكلأ والماء كما كان عند العرب في الجاهلية، وقد يكون عقيدة في ضمائر شعب آمَنَ - زورًا وبهتانًا - بأنه فوق مستوى الشعوب كما هو عند اليهود، وقد يكون ضرورة أملَتْها السياسة بعد أن حرمها الدين كما كان عند المسيحية.. إلى آخر هذه الدوافع[2].

ولسنا نجد دافعًا من هذه الدوافع وراء القتال عند رسول الله ﷺ.

لقد جاء التشريع الإسلامي فهذَّب طباع الإنسان، وعدَّل سلوكه، وأعطاه حق الدفاع عن نفسه، ومنعه من العدوان على حقوق الآخرين، وارتفع به عن مستوى الانتقام إلى مستوى العفو؛ ف قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٠-٤٣].

فمشروعية القتال في الإسلام غيرها في الأنظمة والقوانين، ومن شاء أن يدرس طبيعة الحروب الإسلامية؛ فليدرس طبيعة الإسلام ذاته حتى لا يطبق على هذه الحروب مقاييس

(١) لامارتين، شاعر وأديب فرنسي.

(٢) الدكتور عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، ص ٤٥.

غيرها من حروب التوسع والعدوان[١].

إنَّ رؤية رسول الله ﷺ للدوافع التي ينبغي أن تقوم الحرب من أجلها واضحة، وهي دوافع لا ينكرها منصف، ولا يعترض عليها محايد. وهذه الدوافع تشمل رَدَّ العدوان، والدفاع عن النفس والأهل والوطن والدين، وكذلك تأمين الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم، وأيضًا حماية الدعوة حتى تُبَلَّغ للناس جميعًا، وأخيرًا تأديب ناكثي العهد[٢].

ومَنْ في العالم ينكر مثل هذه الدوافع للقتال؟!

ومع أن أهداف القتال في الإسلام كلها نبيلة إلا أن رسول الله ﷺ لم يكن متشوقًا أبدًا لحرب الناس، ولا مشتاقًا لقتلهم، وذلك على الرغم من بدايتهم للعدوان، وعداوتهم الظاهرة للمسلمين، وكان من أظهر الدلالات على ذلك أنه كان يدعوهم إلى الإسلام قبل القتال. ولا ينبغي أن يفهم أحدٌ أنه يفعل ذلك ابتداءً، فيبدو وكأنه إكراه على اعتناق الإسلام، فقد كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك عند تعين القتال فعلًا، فإذا حضر الفريقان إلى أرض القتال جعل للفريق المعادي فرصة أخيرة لتجنب إراقة الدماء، وهذه من أبلغ صور الرحمة، لأن الفريق المعادي مستباح الدم الآن، والعفو عنه غير متوقع، كما أن الرسول ﷺ كان يفعل ذلك والقوة في يده، ويستطيع بكلمة واحدة أن يبيد من أمامه، ولكنَّه يرحمهم!

قال ابن القيم في زاد المعاد تحت عنوان: الدعوة قبل القتال: «وكان ﷺ يأمر أمير سريته أن يدعو عدوه قبل القتال إما إلى الإسلام والهجرة، أو إلى الإسلام دون الهجرة، ويكونون كأعراب المسلمين ليس لهم في الفيء نصيب أو بذل الجزية، فإن هم أجابوا إليه قبل منهم وإلا استعان بالله وقاتلهم»[٣].

وهذا الخُلق الرائع من إنشاء الإسلام الذي لم يستبح الغدر بأحد قبل إعلامه؛ فجعل

---

(١) الدكتور عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، ص٤٦،٤٥.

(٢) أنور الجندي: بماذا انتصر المسلمون؟ ص ٥٧- ٦٢ بتصرف.

(٣) ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٩٠.

الدعوة قبل القتال لازمةً، وتلك قمة لم تسمُ إليها أمة قبل الإسلام أو بعده. فما زال أهل الأديان الأخرى يغدرون بعدوهم، ويتحينون فرصة؛ ليبيدوه ويستحلوا حرماته، بينما لم يقاتل النبي ﷺ قومًا قط إلا بعد أن دعاهم إلى الله تعالى»[١].

وعندما أرسل النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب ﷺ إلى خيبر أوصاه قائلًا: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[٢]. فالرسول ﷺ في هذا الموقف - وهو القائد - كان من المتوقع أن يلهب حماسة جنده، ولكنه راح على النقيض يهدّأ من حماسة علي ﷺ ويأمره ومن معه بالهدوء والرويَّة، كما هو واضح في قوله ﷺ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ»، ويأمرهم بدعوة هؤلاء القوم إلى الإسلام وما يجب عليهم نحو الله ﷻ، ثم هو ﷺ يخبرهم بالأجر العظيم المترتب على هداية فرد واحد، مما يجعل همَّ الكتيبة المسلمة ليس القتل وسفك الدماء؛ وإنما هداية البشر إلى الله تعالى حتى ينالوا هذا الأجر العظيم والثواب الجزيل من رب العالمين..

وقد يقول قائل: طالما أن الرسول ﷺ ليس متشوقًا إلى المعارك والحروب فلماذا هذا العدد الكبير من الغزوات والسرايا في حياته؟!

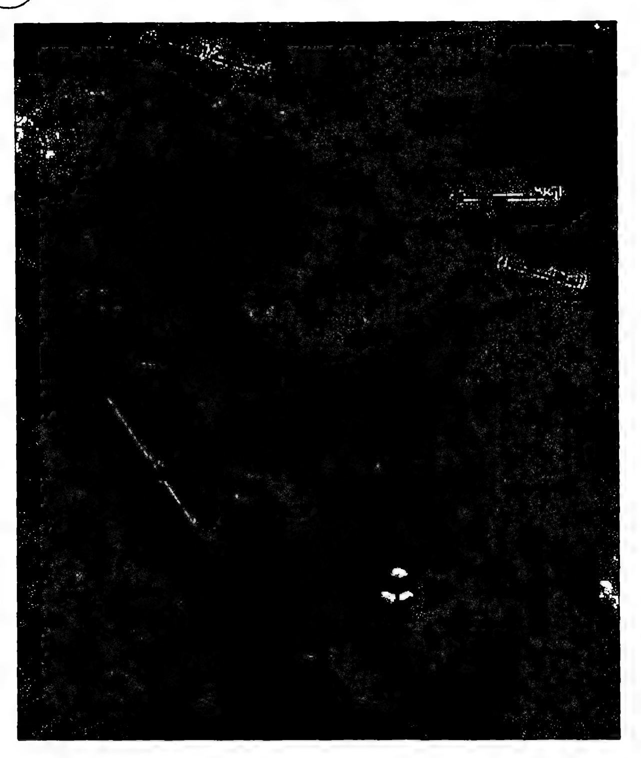
ونحن نقول نعم.. لقد غزا رسول الله ﷺ بنفسه الشريفة غزوات عديدة (خريطة ٣)، وأرسل سرايا وبعوثًا كثيرة، ولكنَّه ﷺ لم يكن في جميع غزواته أو سراياه بادئًا بقتال، أو طالبًا لدنيا، أو جامعًا لمال، أو راغبًا في زعامة، أو موسعًا لحدود دولة أو مملكة؛ بل كل ذلك كان هداية للناس، وتحريرًا للعقول، ورفعًا للظلم، وربطًا للناس برب العالمين بأعلى أساليب العفة والشرف والنُّبل، مما جعل هذه الغزوات أنموذجًا للتعامل الدولي في الحروب والأسارى[٣].

وقد تنوع فيها أعداؤه وتعددت دياناتهم ومشاربهم، فمنهم الوثني، واليهودي، والنصراني.

(١) الدكتور عمر بن عبد العزيز قريشي: سماحة الإسلام، ص ١٤٨.

(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٩٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي (٢٤٠٦)، وأبو داود (٣٦٦١)، وأبو يعلى (٧٥٢٧).

(٣) الدكتور فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي ص١٧٢.



خريطة رقم (٣)

غزوات الرسول في شبه الجزيرة العربية

وسوف نعرض في السطور التالية للأسباب التي أدت إلى هذه الحروب مع كل فئة من هذه الفئات ليتضح لنا عن يقين أن الرسول ﷺ لم يبدأ أحدًا بحرب ولا قتال، وإنما دُفِعَ إلى ذلك دفعًا.. وسيتم تناول ذلك في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حروبه ﷺ مع المشركين: (خريطة ٤)

نعلم جميعًا أن المشركين هم أكثر من آذى رسول الله ﷺ والمسلمين، بل إنهم لم يكتفوا بالإيذاء فطردوا المسلمين من مكة التي هي وطنهم الذي وُلِدُوا وتربوا فيه، واستولوا على ممتلكاتهم من الأموال والبيوت، ومع هذا كله لم يفكر الرسول ﷺ طوال إقامته في مكة أن يعتدي على أحد من المشركين مع ما كان له من عزة ومنعة؛ فهو ﷺ من أرقى عائلة في مكة، ومن أعز بطون قريش، وصاحب النسب والشرف، إلا أن له رسالةً ساميةً يريد أن يؤديها، فكان ﷺ يتحمل الإيذاء إلى أبعد الحدود، ويحثُّ أصحابه على الصبر، وعدم مقابلة السيئة بمثلها.

خريطة رقم (٤)

غزوات الرسول مع المشركين

إلا أن قريشًا تمادت في غيّها وضلالها وكبريائها فكان لابد من وقفات حازمة ترد للمسلمين بعض حقوقهم المسلوبة وأموالهم المنهوبة، وهذا من دون شك أمر لا ينكره عاقل، ولا يعارضه صاحب رأي سديد.

تأتي غزوة بدر الكبرى لتمثّل أُولَى الصدامات الحقيقية بين المشركين والمسلمين، وإذا تدارسنا أسباب هذه المعركة في هدوء ورويَّة لوجدنا أن المسلمين قد دُفِعُوا إليها دفعًا، وأنه لم يكن في نيّتهم القتال، وإنما اضطرهم المشركون من قريش إليه..

فأهل مكة الكافرون هم الذين بدءوا بإيقاع الظلم على المسلمين، ولم يكن الظلم ظلمًا واحدًا، بل كان ظلمًا متعددًا مُرَكبًا، فظلم في الجسد بالتعذيب والحرق والإغراق والقتل أحيانًا، وظلم في المال بمصادرته بدون وجه حق واغتصابه بالقوة، وظلم في الديار بالطرد منها وأخذها، بل بيعها وأكل ثمنها، وظلم في النفس والسمعة بالسب والقذف وتشويه السمعة، وظلم في الحرية بالحبس والعزل عن المجتمع.

فماذا يفعل المسلمون لرفع هذا الظلم؟!

لقد اضطُرَّ المسلمون للهجرة وترك الديار والأموال والأهل وكل شيء، وكانت هجرتهم مرتين إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، ولم يتركهم كفار مكة يعيشون حياتهم في أمان هناك، بل طاردوهم وحاصروهم وراسلوا مشركي المدينة ويهودها لاستئصال المسلمين تمامًا من على وجه الأرض!

ماذا يجب أن يفعل المسلمون إزاء هذه الأفعال؟!

هل ينبغي على المسلمين أن يسلِّموا رقابهم ورقاب أولادهم لسيوف قريش؟ أم كان عليهم أن يحملوا متاعهم وعيالهم إلى بلد آخر؟!

إنَّ أي عاقل أو حر لن يجد أمامه سبيلًا إلا المقاومة لدفع الشر، وقمع الفساد، وهذا ما فعله المسلمون.. ولَمَّا لم تكن لهم طاقة بغزو مكة، واسترداد ثرواتهم المنهوبة فكَّروا في مهاجمة قوافل مكة التجارية المارة على طريق المدينة.. لقد كانت محاولة لرفع – ولو جانبًا - من الظلم الواقع على كواهلهم منذ سنوات.

ثم إنها حالة حرب حقيقية، وليس هنا مجال لأن يقول أحدٌ إن المسلمين يُغِيرُون على الآمنين من قريش، فهذه حرب معلنة بين دولة المدينة المسلمة ودولة مكة الكافرة، وكلا الطرفين يستحل دم ومال الآخر، وكلا الطرفين يضرب مصالح الآخر، وهذا عُرْفٌ في الحروب متعارف عليه في كل الأزمان والأماكن، وليس من ابتكار المسلمين، كما أن الإسلام دين واقعي، يرد القوة بالقوة، ويُشهِرُ السيف في وجوه من أشهروا سيوفهم عليه.

إنهم يلومون المسلمين؛ لأنهم هاجموا قوافل قريش التي استولت على أموالهم وديارهم!

ألم يكن من الأجدر بهم أن يلوموا قريشًا التي سلبت المسلمين كل ما يملكون ظلمًا وعدوانًا!

خرج المسلمون فعلًا لمهاجمة القافلة، ولكن شاء الله ﷻ أن يتمكن أبو سفيان قائد قافلة قريش من الهرب بها، وأرسل إلى مكة يستدعي النجدة، وجاءت قريش بألف من الجنود لقتال المسلمين، وخرج على قيادة الجيش كل زعماء مكة تقريبًا، وجعلوا على رأس الجيش أبا جهل، فرعون هذه الأمة. وفي الطريق علم المشركون بنجاة قافلتهم وأموالهم؛ فرأى عدد منهم الرجوع، وعدم الانسياق إلى الحرب؛ وكان منهم عتبة بن ربيعة والأخنس بن شريق[1]، وآخرون، لكن أبا جهل حمَّس الناس، وصمم على البقاء بالجيش عند بدر ثلاث ليالٍ؛ ينحرون الإبل، ويشربون الخمر، وتغني القيان حتى تظل العرب تهاب قريشًا.

وكما رأينا كان بإمكان جيش قريش أن يرجع وألا يحارب أو يدخل في قتال مع المسلمين خاصة بعد نجاة القافلة، ولكن إصرار بعض قادتها على الحرب هو الذي ورّطهم في القتال. ودارت معركة من أشرس المعارك في تاريخ الإسلام انتهت بهزيمة ساحقة للمشركين، وقتل سبعين من قادتهم، وأُسِرَ سبعين آخرين، وتحصيل قدر من الغنائم عوَّض المسلمين عن بعض أموالهم المسلوبة.

ورغم ما أصاب قريشًا في بدر؛ فإنها لم تتعظ، ولم تتراجع عن غيِّها، بل تمادت فأوقفت

---

(١) هو أُبَيُّ بن شريق، ويُعرف بالأخنس بن شريق الثقفي، رجع بقومه عن بدر، فحفظها له قومه. أسلم فكان من المؤلفة قلوبهم، وشهد حنينًا، ومات في أول خلافة عمر. انظر: أسد الغابة ١/ ٨٠، والإصابة، الترجمة (٦١).

التصرف في قافلة أبي سفيان التي أفلتت في بدر لتجهيز جيشٍ بأموالها لحرب المسلمين، ولم تكتف قريش بتجهيز الجيش من داخل مكة بل بدأت تستنفر القبائل المحيطة بها للمساعدة لها، وكونت قريش بالفعل جيشًا كبيرًا، وهنا اضطر المسلمون لخوض الحرب مرة أخرى؛ دفاعًا عن أنفسهم، وعن الدولة الإسلامية، فكانت معركة أحد.. وجاءت قريش بجيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وكان قائدهم أبا سفيان، ومعه: صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وخالد بن الوليد، وغيرهم، وكان معهم ثلاثة آلاف بعير؛ ومائتا فرس، وسبعمائة درع[1]، وأشعلت قريش حربًا إعلامية ضخمة تحفِّز الناس على حرب المسلمين، وقاد هذه الحرب الإعلامية أبو عزة الجمحي[2].

وخرج المسلمون للمشركين في سبعمائة مقاتل، ودارت المعركة المشهورة التي انتهت بالمصاب الأليم الذي أصاب المسلمين، واستشهد من المسلمين سبعون على رأسهم حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وقامت قريش بالجريمة الشنعاء، إذ مثَّلت بجثث الشهداء المسلمين، مخالفةً بذلك كل الأعراف والقيم، ووضح للجميع مدى الحقد والكراهية التي يحملها المشركون في قلوبهم للمسلمين.

وكان من الممكن أن تكتفي قريش بهذه المعركة، وتكون في مقابل معركة بدر، لكنَّ مشركي قريش أبوا إلا أن يستأصلوا المسلمين من المدينة بشكل نهائي، وجمَعت قريش - وبمعاونة اليهود - عشرة آلاف مقاتل، وتحزّبوا جميعًا، وكان الهدف الأوحد لهم هو إنهاء الوجود الإسلامي تمامًا من المدينة، وتحرّكت هذه الحشود الهائلة لتحيط بالمدينة التي يقطنها المسلمون، واضطر المسلمون لبذل جهود جبَّارة لحماية أنفسهم من الشر المحدق بهم، فحفروا خندقًا حول المدينة، لئلا يستطيع الجيش المهاجم الدخول إليهم، ومع هذا فقد حاول بعض المشركين اقتحام الخندق لقتال المسلمين، وكان لابدّ من مواجهة ذلك التحالف الضخم الآتي

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٦١، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٢١.

(٢) هو الأسير الذي أطلقه النبي ﷺ منًّا بغير فداء، وأخذ عليه عهدًا ألا يشارك المشركين، ولا يحفِّز أحدًا على حرب المسلمين، وخالف العهد، وقام بتحفيز بعض العرب في قتال المسلمين. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية ٤/ ٥٥.

لاقتلاع دولة الإسلام، فكانت غزوة الأحزاب.

فهل يُلامُ المسلمون على دفاعهم عن المدينة، وقتالهم للمشركين، وقد جاء المشركون بهدف الاستئصال الجذري لهم، وإبادتهم بشكل جماعي؟!!

ثم بلغَ الرسولَ ﷺ أن بني المصطلق[١] يجمعون له[٢] ويعدون عدتهم لغزو المدينة المنورة، فكان لابدّ من تفادي ما حدث قريبًا في الأحزاب، وذلك بتوجيه ضربة قوية لبني المصطلق، توقِف تحرّكاتهم، وتحمي المدينة منهم.

وهاهو رسول الله ﷺ يتجه إلى مكة يريد أداء العمرة، ولم يُرِد القتال أبدًا، ويثبت ذلك كلامه ﷺ يوم الحديبية: «**وَاللهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشٌ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صِلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**[٣]».

ولقد استقبل رسولُ الله ﷺ سهيلَ بن عمرو[٤] مفاوض قريش، وكان ﷺ أرغب ما يكون في موادعة القوم، مع كونه قادرًا على تحكيم السيف، وإنزال خصومه على منطقه الذي آثروه مذ صَدُّوه عن البيت، وتكلم سُهَيْلٌ فأطال، وعرض الشروط التي يتم في نطاقها الصلح، ووافق عليها النبي ﷺ، ولم يَبْقَ إلا أن تُسجَّل في وثيقة يمضيها الطرفان[٥]. ورغم ما في هذه الشروط من إجحافٍ ظاهرٍ اعترض عليه الصحابة، إلا أن النبي ﷺ آثر الموادعة، لأنه

---

(١) بنو المصطلق هم بطن من خزاعة، من القحطانية، وقد غزاهم النبي ﷺ، واشتهرت بغزوة بني المصطلق التي تعرف بالمريسيع. معجم قبائل العرب ٣/ ١١٠٤.

(٢) الطبراني في الكبير (١٥٨)، والبيهقي في الكبرى (١٧٦٦٠)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٠٧): رجاله ثقات. وابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٩٠، وسنده صحيح.

(٣) رواه أحمد (٨٩٣٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٣٨٧، وقال الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي: صحيح (٣٦٨٥٥).

(٤) سهيل بن عمرو، أحد أشراف قريش. أُسِرَ يوم بدر كافرًا، وكان خطيب قريش، وأراد عمر نزع ثنيته إلا أن النبي ﷺ قال له: «دعه؛ فعسى أن يقوم مقامًا تحمده». وكان ذلك المقام المحمود هو أنه لما ماج أهل مكة عند وفاة النبي ﷺ، وارتد من ارتد من العرب، قام فيهم خطيبًا وأتى في خطبته بمثل ما جاء به الصديق ﷺ بالمدينة، فكان ذلك معنى قول رسول الله ﷺ لعمر. الإصابة (٣٥٦٩)، أسد الغابة ٢/ ٣٤٦، صفة الصفوة ١/ ٧٣١.

(٥) محمد الغزالي: فقه السيرة، ص ٢٥٤.

ﷺ يريد تَجَنُّبَ القتال، وعدم الدخول في حروب..

وكان ينبغي بناءً على بنود الصلح أن يدخل من شاء في حلف النبي ﷺ أو في حلف قريش، وتُطبَّق عليه أحكام الصلح، وقد دخلت قبيلة خزاعة في حلف المسلمين، ودخلت بنو بكر في حلف قريش، ولكنَّ بكرًا الموتورة من خزاعة بفعل ثأر قديم بيَّتت رجالًا من خزاعة، وقتلوهم؛ فلما استجار الخزاعيون بالحرم انتهكت بنو بكر حُرمَةَ البيت، وقتلتهم بداخله، وقد شارك في ذلك العديد من فرسان قريش!

واستنجدت خزاعة بالنبي ﷺ، وكان حقًّا عليه أن يفي بعهده وينصر حلفاءه، ويعاقب قريشًا التي نقضت العهد؛ فكان فتح مكة. فهل يُلام رسول الله ﷺ على حربه لمن نقض عهده، وقتل حلفاءه؟!

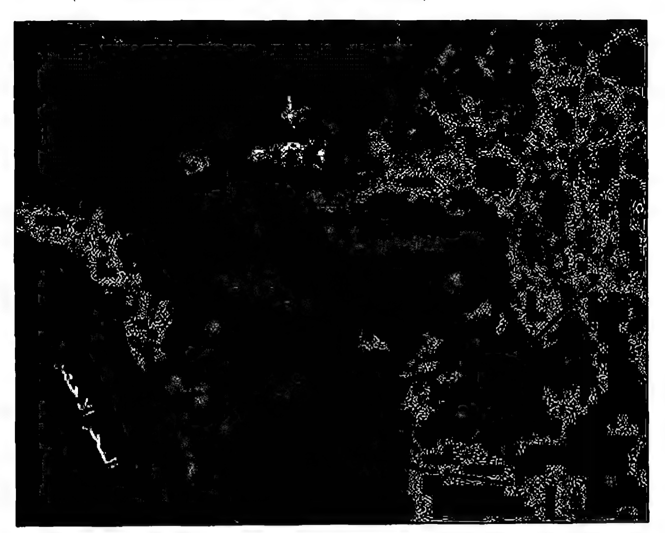
وبعد فتح مكة أكل الغلُّ قلوب قبيلة هوازن؛ فجمعوا الجموع لرسول الله ﷺ، وظنُّوا أنهم قادرون على إطفاء نور الله ﷻ، وإخماد جذوة الحق، ولكن الرسول ﷺ وصلته الأخبار فتجهز هو والمسلمون للقائهم، وخرجوا إليهم في سهل حنين، فكانت غزوة حنين.

هذه هي حروبه ﷺ مع المشركين، ما كانت إلا اضطرارًا، وما بدأها أبدًا، ولكنَّهم دائمًا كانوا يبدءون، وما ظلمهم لحظةً واحدة، ولكنهم كانوا دائمًا يظلمون، وبرغم كل ذلك لم يكن متشفيًا فيهم أبدًا، ولا حاقدًا عليهم، بل كان يتحين الفرص للعفو، ويُكثر من قبول الأعذار، ولا يجعل الحرب إلا آخر دواءٍ.. ولم يكن هذا مرةً أو مرتين في حياته، بل كان كذلك على الدوام، فأي حروبٍ مع المشركين - بعد أن شرحنا أسبابها - كان من الممكن أن يتجنبها؟ وأي المعارك كان من الممكن ألا يخوضها؟!

* * *

المطلب الثاني: حروبه ﷺ مع اليهود: (خريطة ٥)

لم يختلف اليهود كثيرًا عن المشركين، فبعد أن عاهدهم رسول الله ﷺ ووفَّى بعهدهم، وأحسن معاملتهم، ما كان منهم إلا الإساءة، ونكران الجميل، ومحاولة تشكيك المسلمين فيما يعتقدونه من الحق، وقد صبر عليهم رسول الله ﷺ كثيرًا، وتغاضى عن الكثير من أخطائهم، ولم يعاقبهم عليها رغم فداحتها، إلا أن الأمر بلغ حدًّا لا يُطاق، وأصبح من الحكمة بمكان أن يتمّ اتخاذ موقف حازمٍ إزاء ما يفعله اليهود، فلقد بدأت قبائلهم في نقض العهود الواحدة تلو الأخرى، فقام يهود بني قينقاع بفعلٍ فاحشٍ تمالئوا فيه على الاعتداء على شرف امرأة مسلمة، كانت تشتري من سوقهم بعض حاجتها، كما اجتمعوا على قتل رجل مسلم[1].



خريطة رقم (٥)

غزوات الرسول مع اليهود

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤٧.

واليهود بهذا الفعل الفاحش، وهذه الجريمة النكراء، أصبحوا ناقضين لعهدهم مع رسول الله ﷺ، وقد قبل الرسول ﷺ بإجلائهم وهو على استطاعة تامة أن يقتلهم جميعًا، وما فعله الرسول ﷺ من قبول الاكتفاء بإجلائهم عن المدينة يُعَدُّ عفوًا عظيمًا عن أناسٍ يستحقون القتل لنقضهم العهد، واعتدائهم على حرمات المسلمين، وتمالئهم على ذلك.

ولم يؤاخذ الرسول ﷺ طوائف اليهود الأخرى بفعل إخوانهم من بني قينقاع، مع أنه كان بالإمكان إجلاؤهم أيضًا، فجميعهم ينتسب إلى دين واحد، لكن الرسول ﷺ أحسن إلى من بقي من طوائف اليهود، ومع ذلك قابل يهودُ بني النضير هذا الإحسان بالإساءة، فحاولوا الغدر برسول الله ﷺ وقتله، فبينما كان يجلس بينهم، ذهب أحدهم ليلقي صخرة من أعلى على رسول الله ﷺ!!

إن الخيانة التي تسري في دماء اليهود قد دفعتهم إلى هذه الجريمة التي لا عقاب لها إلا القتل جزاءً وفاقًا، ومع ذلك فقد حقن رسول الله ﷺ دماءهم - بعدما مكّنه الله ﷻ من رقابهم، وقذف في قلوبهم الرعب - وأجلاهم خارج المدينة، وتلك رحمة غير مسبوقة، ونادرة الحدوث من غير المسلمين في التاريخ البشري..

ولم يعاقب رسول الله ﷺ بني قريظة مع بني النضير، ولم يؤاخذهم بجرم إخوانهم الذين أرادوا قتله، فقد كانوا على عهد مع رسول الله ﷺ، أن يدافعوا مع المسلمين ضد أي عدوٍّ يهاجم المدينة، ولكن بنو قريظة خانوا المسلمين في أشد المواقف حرجًا، فقد راسلوا الأحزاب المتجمّعةَ حول المدينة، والآتية من مكة وما حولها لغزو المدينة واستباحتها، وتأكد الرسول ﷺ من صحة هذا الأمر.. فعن سعيد بن المسيب[1] رحمه الله في سياق قصة الأحزاب: فبينما هم كذلك إذ جاءهم نعيم بن مسعود الأشجعي، وكان يأمنه الفريقان، كان موادعًا لهما، فقال:

---

(١) سعيد بن المسيب القرشي، ولد سنة ١٣هـ، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، حتى سُمي راوية عمر. توفي بالمدينة سنة ٩٤هـ. انظر: وفيات الأعيان ٢/ ٣٧٥، الأعلام ٣/ ١٠٢.

إني كنت عند عيينة بن حصن وأبي سفيان إذ جاءهم رسول بني قريظة: أن اثبتوا فإنا سنخالف المسلمين إلى بيضتهم[١].. أي أن اليهود يعِدون الأحزابَ إن خرج المسلمون إلى قتالهم أن يعتدي اليهود على نساء المسلمين وذراريهم وأموالهم وهو معنى مخالفة المسلمين إلى بيضتهم.

فهي إذن خيانة عظمى من هذه الفئة التي كانت على عهد وميثاق مع الدولة الإسلامية، ثم هي في أحلك الظروف تنقض العهد، وتتعاون مع العدو المهاجم من خارج الدولة. فسبب غزوهم هو نقضهم للعهد الذي كان بينهم وبين النبي ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها على المسلمين، فهل يدَّعي أحدٌ بعد ذلك أن العقاب الذي أنزله النبي ﷺ بهم فيه شيء من الإجحاف أو الظلم؟ وماذا لو تمَّ لهم ما أرادوا من غدر وخيانة للمسلمين؟ إن مصير المسلمين في هذه الحالة - من دون شك - هو القتل والتشريد وضياع المال والولد والأهل[٢]..

أما يهود خيبر؛ فقد تحالفوا مع من جاءهم من يهود بني النضير كحيي بن أخطب، وكنانة ابن أبي الحقيق، وهَوذة بن قيس الوائلي، وخرج هؤلاء إلى قريش يدعونهم للتجمع والتحزب لاستئصال المسلمين في غزوة الأحزاب، ثم خرجوا إلى غطفان؛ فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وجعلوا لهم تمر خيبر سنة، إنْ هم نصروهم، وأخبروهم أنَّ قريشًا قد تابعوهم على ذلك، واجتمعوا معهم فيه. ثم خرجت يهود إلى بني سليم فوعدوهم المسير معهم إذا خرجت قريش.. لقد كانوا -- إذن - العقل المدبر لتحالف الأحزاب ضد المسلمين. وعندما فرغ رسول الله ﷺ من أمر قريش وأمِن جانبها بصلح الحديبية تفرَّغ ليهود خيبر وحاربهم.. فهل يُلام رسول الله ﷺ على حربه لمن حزَّب الأحزاب بغرض إبادة جماعية للمسلمين؟!

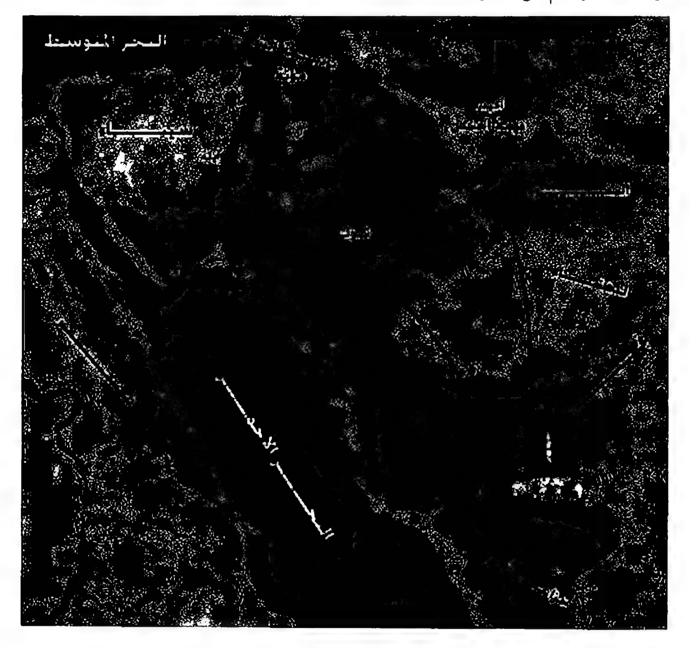
---

(١) انظر مصنف عبد الرزاق (٩٧٣٧) ٥/ ٣٦٨، من مرسل سعيد بن المسيب، والرواية صالحة للاحتجاج بها مع المتابعة، وأبو نعيم: من مراسيل سعيد، دلائل النبوة ٢/ ٥٠٤ - ٥٠٥، وذكر ابن إسحاق وموسى ابن عقبة سبب نقضهم بدون إسناد، فانظره في سيرة ابن هشام ٣/ ٣٢٥، وقد جاء من حديث عائشة. وأخرجه البيهقي في الدلائل ٤/ ١٠٠٨، والحاكم في المستدرك ٣/ ٣٤ - ٣٥، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في البداية ٤/ ١٢٥ - ١٢٨: ولهذا الحديث طرق جيدة عن عائشة وغيرها، وبهذا يكون الحديث حسنًا.

(٢) انظر ابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ١١٥، ١١٦.

المطلب الثالث: حروبه ﷺ مع النصارى: (خريطة ٦)

لم يكن احتكاك النصارى بالمسلمين مبكرًا كما كان الحال مع المشركين واليهود، وذلك لندرة النصارى في منطقتي مكة والمدينة، ولكن مع ازدياد قوة المسلمين وانتشار الإسلام في الجزيرة العربية شعرت القبائل النصرانية - والتي كانت متمركزة في الأساس في مناطق الشمال - بالقلق والريبة، مما دفعها إلى جمع الجموع لمهاجمة المسلمين، وذلك منعًا لقوتهم من التزايد، ولنفوذهم من النمو.



خريطة رقم (٦)

غزوات الرسول مع النصارى

وكان أول تجمع نصراني من هذا النوع من قبائل قضاعة وغسان من أهل دومة الجندل، وكانت هذه القبائل تتعرض لقوافل المسلمين المارَّة بمناطقها، بل كان منهم من يريد غزو المدينة. أما الذي كان يُجَرِّئُ هذه القبائل على هذا العمل الخطير فارتباطها الوثيق بالدولة الرومانية، والتي تُعَدُّ القوة الأولى في العالم في ذلك الوقت، وكانت الدولة الرومانية لا ترضى - بلا شك - عن نموٍّ أي قوة منافسة في المنطقة.

وما إن علم الرسول ﷺ أن هذا الجمعَ يريد أن يهاجم المدينة حتى خرج إليهم، وذلك في ربيع الأول سنة ٥ هـ، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة[١]، وجاء الخبرُ أهلَ دومة الجندل فتفرقوا، ونزل الرسول ﷺ بساحتهم فلم يجد فيها أحدًا، فأقام بها أيامًا، وبثَّ السرايا[٢].

ولما ظهرت تكتلات أخرى تهدف لمحاربة المدينة أرسل الرسول ﷺ سرية بقيادة عبد الرحمن بن عوف ﷺ إلى قبيلة كلب النصرانية الواقعة بدومة الجندل، وذلك في شعبان سنة ٦ هـ، وقد أوصى رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف ﷺ بدعوتهم إلى الله تعالى، ومن بين ما قال له: «إِنِ اسْتَجَابُوا لَكَ فَتَزَوَّجِ ابْنَةَ مَلِكِهِمْ»[٣] - وذلك كسبًا لمودتهم وتعزيزًا للعلاقات معهم - فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة الجندل؛ فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانيًا وكان رأسهم، وأسلم معه ناسٌ كثير من قومه، وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الأصبغ، وقدم بها إلى المدينة[٤]. وهكذا نرى حرص الرسول ﷺ على التوادِّ والتحابِّ مع مَنْ حوله، ودعوتهم إلى الله تعالى، والمحاولات المتكررة لإيصال الخير إليهم.

---

(١) سباع بن عرفطة الغفاري، ويقال له: الكناني، من كبار الصحابة، استعمله النبي ﷺ على المدينة حين خرج إلى خيبر، وإلى دومة الجندل. انظر: الاستيعاب ٢/ ٢٤١، أسد الغابة ٢/ ١٨٨، الإصابة (٣٠٧٦).

(٢) ابن سعد: الطبقات ٢/ ٦٢، ابن هشام ٣/ ٢٢٩، البلاذري: أنساب ١/ ٣٤١، الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٦٤، ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٨٣، ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٢٥٥، المغلطاي: الإشارة ص٢٤٩، المقريزي: إمتاع الأسماع ص١٩٤.

(٣) البيهقي: دلائل النبوة(١٤٢٤)، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٨٩، ابن حبان: الثقات ١/ ٢٨٥، ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٢٤٩.

(٤) انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٦٤- ٦٥ بتصرف.

ثم حدثت أزمة شديدة عندما بعث رسول الله ﷺ وفدًا من الدعاة المسلمين إلى مشارف الشام يعلِّمون الناس مبادئ الإسلام؛ فوَثَبَتْ عليهم جموع العرب الموالين للروم فقتلتهم جميعًا في مكان يُسمَّى (ذات أطلاح)[1]، وكانوا خمسةَ عشرَ داعيًا، واستطاع رئيسهم[2] النجاة بأعجوبة..

وكذلك لَمَّا بَعثَ الرسول ﷺ الحارثَ بن عُمَير الأزدي إلى ملك بُصرَى بكتاب؛ نزل مؤتة[3] فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني - وكان الغساسنة الذين يدينون بالنصرانية ويتبعون الدولة البيزنطية - فقال: أين تريد؟ فقال: الشام، قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم. أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ، فأُمِر به فأُوثِقَ رباطًا، ثم قدمه فضرب عنقه صبرًا. فبلغ رسول الله ﷺ الخبر فاشتد عليه، وندب الناس فأخبرهم بمقتل الحارث ومن قتله[4].

ولم يكن أمام المسلمين إزاء هذه الحوادث إلا أن يردعوا الروم وأشياعهم حتى لا يعاودوا ما فعلوه مرةً أخرى. فأرسل النبي ﷺ حملة تأديبية من ثلاثة آلاف مقاتل أخذت طريقها إلى الشام، بَيْد أن الروم كانوا قد استعدوا بجيش كثيف لقاء هذه الكتيبة من المؤمنين، فجمعوا نحو مائتي ألفٍ من رجالهم، ومن انضم إليهم من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلي. ومع الفارق المهول بين أعداد المسلمين والرومان إلا أن المسلمين خاضوا هذه المعركة الشرسة، فقُتِلَ قادتُها الثلاثة على التعاقب؛ زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وانسحب خالد بن الوليد بجيشه إلى المدينة.

وهنا يثور التساؤل: هل كان مطلوبًا من المسلمين أن يصمتوا على قتل رسلهم، وإهانة

---

(١) ذات أطلاح: مكان قرب دمشق الحالية.

(٢) كعب بن عُمَيْر الغفاري، بعثه رسول الله ﷺ مرة بعد مرة على السرايا، وقد بعثه ﷺ إلى ذات أطلاح، فأصيب أصحابه جميعًا حين قتلتهم قضاعة، وسلم هو جريحًا. انظر: الاستيعاب ٣/ ٣٨٠، أسد الغابة ٤/ ١٧٥، والإصابة الترجمة (٧٤٢٦).

(٣) قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، وكانت تطبع السيوف، وهي الآن بلدة أردنية. معجم البلدان ٤/ ١٧٨، والمعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٢/ ١٢٨، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٢٠٨، ومغلطاي: الإشارة ص٢٩٨، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٨١، وابن حجر في الفتح ٧/ ٥١١.

كرامة دولتهم، حتى لا يُتَّهَموا بأنهم يسعون إلى القتال دائمًا؟!!

وبعد مؤتة بعام تجمَّع الرومان ومن شايعهم من قبائل العرب النصرانية (أمثال: لخم، وجذام، وعاملة، وغسان) مرَّة أخرى في منطقة البلقاء (الأردن حاليًا) يريدون دولة الإسلام، وعلم الرسول ﷺ أن هناك تجمعاتٍ للرومان ومن حالفهم بهدف القضاء على المدينة المنورة.. فقرر أن يخرج إليهم في شمال الجزيرة العربية. وبالتالي خرج الرسول ﷺ بنفسه على رأس أعظم جيوشه، وأقرب خاصته؛ ليلقى أعتى قوة في العالم، وذلك حتى يحفظ دماء شعبه، فكانت غزوة تبوك[1] المشهورة، وألقى اللهُ الرعبَ في قلوب قادة الروم وجنودهم، وأتباعهم من نصارى العرب؛ ففرُّوا خائفين لا يلوون على شيء، وليس من الممكن أن يُطلَب من المسلمين أن يُغمِضوا أعينهم، ويتعامَوا عن المؤامرات التي تُحاكُ ضدهم.

هذه هي ملابسات الحروب التي خاضها الرسول ﷺ مع المشركين، ومع اليهود والنَّصارى، وقد ظهر لنا من خلالها أنه ﷺ لم يبدأ أحدًا فيها بعدوان، بل كان يرد بها عدوانًا واقعًا، أو وشيك الوقوع؛ لأن الحرب في الإسلام ليست أول ما يلجأ إليه المسلمون لحل خلافاتهم مع أعدائهم، بل هي دومًا - كما بينَّا - آخر الدواء.

* * *

(١) تبوك: كانت منهلاً من أطراف الشام، وكانت من ديار قضاعة تحت سلطة الروم، وقد أصبحت اليوم مدينة من مدن شمال الحجاز الرئيسية، وهي تبعد عن المدينة المنورة شمالاً (٧٧٨ كم). المعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية ص٢٣٦.



أخلاق الرسول ﷺ أثناء الحرب

باستقراء سيرة الرسول ﷺ في المعارك الحربية المختلفة، سواءً ما فعله بنفسه ﷺ، أو ما كان يُوصِي به صحابته رضي الله عنهم جميعًا في عملياتهم الحربية تتضح لنا ملامح منهج أخلاقي رائع أسسه ﷺ، وطبَّقه عمليًا في حياته تطبيقًا واقعيًا يؤكِّد عمق الإيمان بهذا المنهج، مما كان له أثرٌ إيجابيٌّ على الجيل الأوَّل ومن تبعهم، ورأينا التطبيقات العملية الأخلاقية الرائعة من هذا الجيل العظيم الذي تربى عمليًا على يد الرسول ﷺ، رأينا ذلك من خلال الفتوحات الكثيرة التي تمت في عهد الخلافة الراشدة وصدر الإسلام.

ونتناول في هذا الفصل بعض الأخلاق التي التزم بها رسول الله ﷺ في حروبه مع أعدائه، وذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: العدل في الحروب النبوية.

المبحث الثاني: الرحمة في الحروب النبوية.

المبحث الثالث: انتهاز الفرص لحقن الدماء.

المبحث الرابع: رفض مبدأ التخريب.

المبحث الخامس: الوفاء في الحروب النبوية.

المبحث السادس: لا إكراه في الدين.

المبحث الأول
العدل في الحروب النبوية

أعاد محمد العظيم للعالم ما فقد
من العدل والحرية والتسامح والفضيلة[(١)]

وسنتناول الحديث عن هذا الخلق من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: العدل من المنظور الإسلامي

لم يكن العدل في الحرب عند التعامل مع العدو إلا خُلُقًا من الأخلاق المندثرة بين البشر جميعًا، حتى جاء رسول الله ﷺ وأعاد لهذا الخلق الحياة مرة أخرى؛ فقد كانت الأمم الأخرى إذا انتصرت على عدوها تستبيحه، ولا تُبقِي له كرامة، بل لا تعتبره في عِدَاد البشر ذوي الحقوق، وحتى قبل الحرب كانوا يقومون بمفاجأة عدوهم دون إعلان أو إنذار، فلما جاء الإسلام شرع الدعوة قبل الحرب، كما فصَّلنا في الفصل السابق.

وقد شرع الإسلام من النظم في حال الحرب ما يتفق مع سُمُوِّه وسماحته، وسَنَّ من القوانين ما يكفل التخفيف من ويلات الحروب، ويحصرها في أضيق نطاق؛ وذلك تنفيذًا للعدل الذي أمر الله ﷻ به. فقد حذَّر القرآنُ الكريمُ المسلمين من أن يندفعوا وراء مشاعر الكراهية العمياء؛ فيظلموا أعداءهم مدفوعين بتلك المشاعر السلبية؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٨]. وقال كذلك: ﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، وهاتان الآيتان الكريمتان تمثلان منهجًا أخلاقيًا رائعًا من الدستور الإسلامي: القرآن الكريم.

قال أبو عبيدة والفراء: معنى «لا يَجْرِمَنَّكُمْ»: أي لا يُكسِبنَّكم بغض قوم أن تتعدوا الحق

---

(١) إدوارد ورمسي، مستشرق أمريكي.

إلى الباطل، والعدل إلى الظلم[١]. وقال ابن زيد: لما صُدَّ المسلمون عن البيت عام الحديبية مَرَّ بهم ناس من المشركين يريدون العمرة، فقال المسلمون: نصدُّهم كما صَدَّنا أصحابُهم، فنزلت هذه الآية، أي لا تعتدوا على هؤلاء، ولا تصدوهم «أَنْ صَدُّوكُمْ»: أي: أصحابهم[٢].

ودلت الآية أيضًا على أن كفر الكافر لا يَمنع من العدل معه، وأن المثلة بهم غير جائزة، وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمُّونا بذلك، فليس لنا أن نقتلهم بمثلة قصدًا لإيصال الغمّ والحزن إليهم[٣].

المطلب الثاني: عدم الاعتداء على المدنيين:

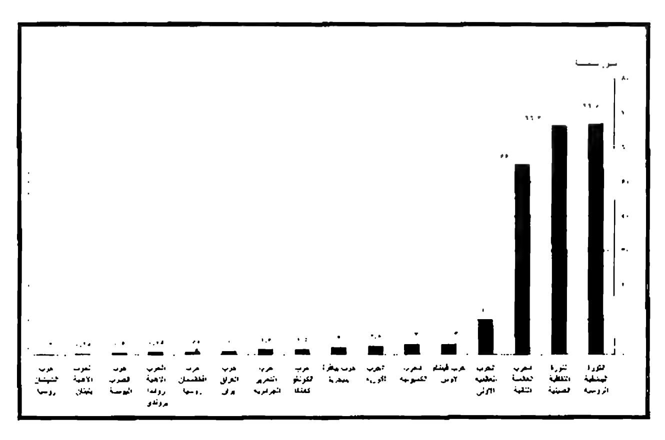
فلا يجوز أن تتعدَّى الحرب إلى المدنيين الذين لا يشتركون فيها من الشيوخ والنساء والأطفال والعجزة، أو العُبَّاد المنقطعين للعبادة، أو العلماء المنقطعين للعلم، والخَدَم الذين لا يملكون من أمر أنفسهم شيئًا، إلا إذا قاتلوا، أو كان لهم في تدبير الحرب رأي ومكيدة؛ لأن القتال هو لمن يقاتلنا[٤].

والذي يرفع نسب القتلى في الحروب الحديثة (شكل ٣) ليس أعداد الجنود القتلى، ولكن - في العموم - أعداد الضحايا المدنيين الذين لا يملكون وسيلة للدفاع عن أنفسهم!

لهذا كان من عدله ﷺ في الحروب أنه كان يقتصر على قتل المحاربين، ولا يقتل المدنيين الذين لا يشاركون في الحرب والقتال، وقد وصَّى رسولُ الله ﷺ عبدَ الرحمن بن عوف رضي الله عنه بذلك عندما أرسله في شعبان سنة ٦ هـ إلى قبيلة كلب النصرانية الواقعة بدومة الجندل؛ فقال له: «**اغزوا جميعًا في سبيل الله، فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، لَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، فَهَذَا عَهْد الله وَسِيرة نَبِيِّه فِيكُم**»[٥].

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٤٥.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٤٦.
(٣) المصدر السابق ٦/ ١١٠.
(٤) ابن تيمية: السياسة الشرعية ١/ ١٥٩.
(٥) الحاكم (٨٦٢٣)، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح. ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٦٣١.



شكل (٣)

الخسائر البشرية لأهم حروب القرن العشرين

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: «اخْرُجُوا بِسْمِ اللهِ، تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، لَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ، وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ»[1].

وكذلك كانت الوصية للجيش المتجه إلى معركة مؤتة؛ فقد أوصاهم ﷺ قائلًا: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا

---

(١) أحمد (٢٧٢٨)، والبيهقي (١٧٩٣٣)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أبو يعلى والبزار والطبراني في الكبير والأوسط إلا أنه قال فيه: ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا شيخًا. وفي رجال البزار: إبراهيم بن إسماعيل ابن أبي حبيبة وثقه أحمد، وضعفه الجمهور، وبقية رجال البزار رجال الصحيح. وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره.

وَلِيدًا، أو امرأة، ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلًا بصومعة»[1].

ولا مجال هنا للحجَّة التي يذكرها البعض لتسويغ قتل المدنيين، وهي أن هؤلاء المدنيين هم الذين اختاروا حكومتهم، فإن هذا لا اعتبار له، لأننا شاهدنا رسول الله ﷺ يسلك سلوك العدل مع المدنيين على الرغم من رضاهم بقيادتهم واختيارهم لها، وقد فصَّلنا قبل ذلك في شرح المبدأ الإسلامي العظيم: «لا يقاتل المسلم إلا من قاتله»، فليُفهمْ هذا المعنى الدقيق!

المطلب الثالث: عدم تجاوز الحد في العقاب

ليس طول العداء مبررًا للظلم، وليست الجريمة مبررة للتجاوز في العقاب!

كان هذا هو مبدأ رسول الله ﷺ.

يدلُّنا على ذلك مواقف كثيرة في حياته ﷺ، منها موقف عجيب مع اليهود الذين دسُّوا له السُّمَّ ليقتلوه بعد فتح خيبر! فقد قال أبو هريرة ﷺ: لما فُتحت خيبر أُهديَتْ للنبي ﷺ شاة فيها سُمٌّ، فقال النبي ﷺ: «اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ». فَجُمِعُوا لَهُ فَقَالَ: «إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟» فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ أَبُوكُمْ؟ قَالُوا: فُلَانٌ فَقَالَ: كَذَبْتُمْ بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ، قالوا: صَدَقْتَ قَالَ: فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا، فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ قالوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اخْسَئُوا فِيهَا وَاللهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا، ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟ قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ»[2].

لقد قام رسول الله ﷺ بتحقيقٍ هادئ غير منفعل مع اليهود الذين دبَّروا مؤامرةَ اغتياله،

---

(١) أخرج الحديثَ بدون ذكر قصة أهل مؤتة الإمامُ مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير: باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها (١٧٣١)، وأبو داود (٢٦١٣)، والترمذي (١٤٠٨)، والبيهقي (١٧٩٣٥).

(٢) البخاري في الطب، باب ما يُذكر في سَمِّ النبي ﷺ (٢٩٩٨)، وأبو داود (٤٥٠٨)، وأحمد (٩٨٢٦).

وأقام عليهم الحجة حتى اعترفوا بألسنتهم بأنهم دَبَّروا محاولةَ القتل، واكتشف ﷺ أن هذه المجموعة من اليهود قد أمَرت إحدى نساء اليهود لتضع السُّمَّ بنفسها في الشاة، ثم تقدمها إلى رسول الله ﷺ.. فالرجال هم الذين أمروا، والتي نفذت الأمر وباشرت الفعل هي المرأة..

وقبل أن تعرف ردَّ فعله ﷺ لهذه المؤامرة توقفْ لحظاتٍ مع واقع غيره من الزعماء والملوك، وردود أفعالهم لمن دبَّر مؤامراتٍ لاغتيالهم!! إن أبسط ما يمكن تخيُّلُهُ في هذه اللحظات أن يُقتَل الذي باشر الفعل، والذي أمر به، والذي علم به، والذي رضي به... وقد يؤخذ عموم أهل البلدة أو المدينة بفعل هذا الرجل!

إن هذا هو واقعهم فعلًا دون مبالغة!

فماذا كان واقع رسولنا ﷺ؟!

لقد قال الصحابة ﷺ لرسولنا ﷺ: ألا تقتلها؟! فرفض ﷺ لأنها محاولةُ قتلٍ، وليست قتلًا فعلًا!! فلا يجوز قتلها! ثم إنه ﷺ لم يعاقبها، ولا مَنْ أمرها من اليهود بأي عقابٍ؛ لأنه قَبِلَ حُجَّتَهُمْ: «لو كان كاذبًا استراحوا، ولو كان نبيًا لم يضره»!! لقد قَبِلَ ﷺ حُجَّتهم مع أنَّ أحدًا منهم لم يؤمن، مما يوضح أنهم لم يفعلوا ذلك أملًا في ظهور الحقيقة، ولكن فعلوا ذلك حَسَدًا من عند أنفسهم، وبُغضًا لرسول الله ﷺ.. ومع كل ذلك لم يعاقبهم..

إلا أن أحد الصحابة وهو بشر بن البراء بن معرور[1] ﷺ كان قد أكل مع رسول الله ﷺ من الشاة المسمومة فمات مقتولًا بسُمِّهَا، فهنا أمر رسولُ الله ﷺ بقتل المرأة قصاصًا، ولم يُقْتَل معها أحدٌ من أهل خيبر.. يقول القاضي عياض[2] رحمه الله: «لم يقتلها رسول الله ﷺ أولاً حين

---

(١) بشر بن البراء بن معرور الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدرًا وأحدًا والخندق، ومات بخيبر حين افتتاحها من تلك الأكلة التي أكلها مع رسول الله ﷺ. قيل: إنه لم يبرح من مكانه حين أكل منها حتى مات. الإصابة الترجمة (٦٥٤)، وأسد الغابة ١/ ١١٥، ١١٦، والاستيعاب ١/ ٥١.

(٢) القاضي عياض أحد مشايخ المالكية (٤٤٦هـ - ٥٤٤هـ) صاحب المصنفات الكثيرة منها: الشفا، وشرح مسلم، ومشارق الأنوار، وغير ذلك. وكان إمامًا في علوم كثيرة، وكانت وفاته بمدينة سبتة. البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٥.

اطَّلع على سُمِّهَا، وقيل له: اقتُلْها، فقال: لا، فلما مات بشر بن البراء من ذلك سلَّمها لأوليائه، فقَتَلوها قِصَاصًا»[١].

تُرَى ماذا يكون تعامل قُوَّاد العالم في التاريخ والواقع مع مَنْ يدبِّرون مؤامراتٍ لقتلهم؟! وماذا سيكون ردُّ فعل هؤلاء الزعماء عند مقتل أصحابهم وأحبابهم؟!

عند القياس سيزول الالتباس!!

وعند المقارنة ستتضح المفارقة!!

إنه لا ينبغي لأحد من أهل الأرض - كائنًا من كان - أن يقارن أخلاقَ أحدٍ بأخلاق رسول الله ﷺ؛ فأخلاقُ عمومِ البشرِ شيءٌ، وأخلاقُ النبوةِ شيءٌ آخر تمامًا.

المطلب الرابع: الالتزام بالأعراف العامة:

وهذا قد يستغربه الكثيرون! فنحن هنا لا نتحدث عن اتفاقية يجب الوفاء بها، وإنما نتحدث عن عُرْف عام قد يقول قائل أنا غير ملتزم به، وخاصَّة في زمان الحروب. لقد كان رسول الله ﷺ يرى أنه من العدل أن نلتزم بالأعراف العامة التي بَنى العدو حساباته عليها، فلا يَقبل أن تُنتهك هذه الأعراف مهما كان جرم العدو شديدًا! وهذه - والله - قمة من قمم العدل!

ومن مواقفه الرائعة التي تدلُّ على هذا المعنى ما حدث منه في أعقاب سرية نخلة[٢].. فقد أمر رسول الله ﷺ اثني عشر صحابيًا بقيادة عبد الله بن جحش[٣] ﷺ أن يأتوا له بأخبار أحد القوافل القرشية، والتي كانت تسير بالقرب من منطقة نخلة بين الطائف ومكة، وقال له: «إِذَا نَظَرْت فِي كِتَابِي هَذَا فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، فَتَرَصَّدْ بِهَا قُرَيْشًا

---

(١) النووي: شرح مسلم ١٤/ ١٧٩.

(٢) نخلة بين مكة والطائف. تاريخ ابن خلدون ٢/ ٤٢٤.

(٣) عبد الله بن جحش الأسدي حليف بني عبد شمس أحد السابقين، هاجر إلى الحبشة وشهد بدرًا، ولقي الشهادة في أحد. انظر: الإصابة الترجمة (٤٥٨٦).

وَتَعَلَّمْ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ»[١] إنه لم يأمرهم بقتال لا تصريحًا ولا تلميحًا، بل كان يريد فقط رصدًا لعير قريش، ولعل أهم الأسباب التي دعته لعدم أمرهم بقتال أن هذا الخروج كان في شهر رجب من السنة الثانية من الهجرة، وشهر رجب من الأشهر الحرم، وقد جرت أعراف الجزيرة العربية على عدم القتال في هذا الشهر الحرام، وكان القتال فيه ممنوعًا أيضًا على المسلمين، ويرى بعض العلماء[٢] أن هذا المنع ما زال ساريًا إلى زماننا، إلا أن معظم الفقهاء يرون أن هذا الأمر قد نُسِخ بعد ذلك[٣]، ولكن الشاهد في القصة أن تحريم القتال في الشهر الحرام كان أمرًا معروفًا في الجزيرة العربية بكاملها، لذلك لم يأمر رسول الله ﷺ المسلمين بالقتال مع شدة الظلم الذي كان واقعًا عليهم.

وخرجت السرية الإسلامية في الموعد المحدد، ورصدت بالفعل القافلة القرشية، ولكنها فوجئت أن الحراسة على القافلة قليلة، فهي لا تزيد عن أربعة رجال، وهذا أغرى الفرقة الإسلامية بالهجوم عليها لاسترداد بعض الحقوق المسلوبة، غير أن هذه الليلة كانت آخر ليلة في شهر رجب الحرام، ولو انتظر الصحابة دخول شهر شعبان فإن القافلة ستفلت إلى مكة، وبعد مشاورة هجمت السرية المسلمة على القافلة المشركة في آخر ليالي رجب، فقتلت واحدًا[٤]، وأسرت اثنين[٥]، بينما فر الرابع[٦] إلى مكة، وسيطر المسلمون على القافلة وأخذوها إلى المدينة[٧].

وقد وُضِعَ الرسول ﷺ في حرج شديد، ولم يكن عنده وحي بهذا الشأن، فهو لا يقر

---

(١) ابن سيد الناس عيون الأثر ١/ ٢٣٠.

(٢) روى ابن جريج أن عطاء كان يحلف بالله: ما يحل للناس الآن أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يقاتلوا فيه أو يغزوا وما نسخت. زاد المسير ١/ ٢٠٩.

(٣) وتحريم القتال في الأشهر الحرم، وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم (منسوخ أيضًا)، وهو قول الأكثرين بقوله تعالى: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»، وبغزوه ﷺ الطائف. كشاف القناع عن متن الإقناع ٧/ ٤٩٢، فتح القدير ١/ ٢٩٢.

(٤) عمرو بن الحضرمي.

(٥) الأسيران هما عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأسلم بعد ذلك الحكم بن كيسان وحسن إسلامه.

(٦) نوفل بن عبد الله.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/ ١٥.

خرق القوانين والحرمات، ولم يأمر بقتال في الشهر الحرام، ولم يُرِدْه، ولم يسعد به عندما حدث برغم كل الآلام التي عاناها قبل ذلك من قريش، ولكنها مسألة مبدأ، فماذا فعل؟!

لقد أنكر الرسول ﷺ على الصحابة ما فعلوه، وقال: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ»[1]، ولم يكتف بذلك بل أوقف التصرف في القافلة والأسيرين إلى أن يأتي وحي يرشده إلى القرار الأحكم في هذه القضية.

وماذا كان موقف قريش؟!

إنها - كعادة الظالمين - تألف الكيل بمكيالين!

لقد لبسوا - على كفرهم وظلمهم - لباس الشرف والدين والأخلاق، وقالوا: إن المسلمين انتهكوا الحرمات، وخالفوا الأعراف، وتعدوا على القوانين..

سبحان الله! من الذي يتكلم؟!

إن قريشًا تتحدث الآن عن الحرمات والأعراف والقوانين!!

ألم تكن مكة بلدًا حرامًا حُرِّم فيه قتل الحيوان وقطع النبات فضلا عن إيذاء الإنسان؟!

ألم تكن هناك مخالفة لأعراف مكة والجزيرة عندما تخلي الأهل والأحباب والأصحاب عن أشرف رجالهم، والذي كان يلقبونه بالصادق الأمين، فأغروا به سفهاءهم وأهانوه هو وصحبه، حتى اضطر لترك الديار والأهل والعشيرة؟.

أليس من قوانين مكة والجزيرة ألا يظلموا وألا يقبلوا بظلم؟.

أليست أجساد المسلمين حرمات؟

ألم يشهد البلد الحرام جلدًا وإغراقًا وإحراقًا وتقتيلًا لمسلمين ليس لهم من جريمة إلا أنهم آمنوا بالله ﷻ؟

ألم تكن هذه الدماء حرام؟

---

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٣٠٢، وزاد المعاد ٣/ ١٤٦، ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٢٤٨.

أين احترام القوانين؟ وأين حفظ الحرمات؟ وأين الالتزام بالأعراف؟

لماذا أرادت قريش أن يُطبَّق القانون على المسلمين في مرة خالفوا فيها بينما لم تُطبِّق على نفسها القانون ذاته في مرات ومرات تمت فيها المخالفة بشكل علني وصريح؟

إن هذا هو الكيل بمكيالين ديدن كل الظالمين.

لا يقبلون بالقانون إلا إذا كان يحكم لهم، فإذا حكم لغيرهم كانوا أول المخالفين.

أهذا منطق يُعْتد به؟

إن ثورة قريش الإعلامية لم تكن لإيمانها الحقيقي بعدم جواز خرق القانون، وإنما كانت ثورتها لأنها هي التي أُصيبت الآن، ولو كان غيرها المصاب ما تكلمت، بل لعلها كانت ستؤيد وتبارك.

ومع كل هذا الاختلال في المعايير إلا أن رسول الله ﷺ ظل على موقفه المتحفظ في انتظار الوحي الكريم من رب العالمين.

ثم نزل الوحي!

لقد نزل القرآن الكريم يوضح للناس كافة- مؤمنهم ومشركهم- الحقائق كما ينبغي أن تكون، ونزل ليُبيِّن للناس ما اختلفوا فيه، ونزل ليخرج المسلمين من المثالية غير الواقعية إلى فقه الواقع، وفقه الموازنات، وفقه الأولويات، ونزل ليفضح مكر الماكرين وكيد الكافرين، ونزل لينصر ويؤازر الطائفة المؤمنة الصادقة التي أرادت أن ترفع عن كاهلها وكاهل المسلمين بعض ما وقع عليهم من ظلم.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧].

لقد قال الله ﷻ أنه لا معنى أبدًا لتلك الضجة المفتعلة، والتمثيلية الهزلية التي قام بها كفار قريش، فعلى الرغم من أن القتال في الشهر الحرام كان ممنوعًا في ذلك الوقت- وما زال ممنوعًا في رأي بعض الفقهاء- وبرغم أن القتال في الشهر الحرام أمر كبير لا ينبغي أن يسعى

إليه المسلمون إلا أن ما فعلته قريش كان أكبر وأعظم من ذلك، والكفر بالله ﷻ وعبادة الأصنام من دون الله أكبر من القتال في الشهر الحرام، ومنع المسلمين من الطواف بالكعبة وأداء المناسك أكبر من القتال في الشهر الحرام، وفتنة المسلمين عن دينهم بالتعذيب والتشريد والقتل أكبر من القتال في الشهر الحرام، وكل ذلك فعلته قريش، ولم تفعله مرة واحدة بصورة عابرة، إنما فعلته مرارًا وتكرارًا حتى أصبح عرفًا سائدًا وقانونًا معمولًا به، وكل هذه جرائم أكبر بكثير- كما وضح ربنا بنفسه في الكتاب- مما فعله المسلمون وهاجت له قريش.

وعلى الرغم من هذا التوضيح للرؤية، وهذه المقارنة بين مواقف قريش وموقف المسلمين إلا أن رسول الله ﷺ تعامل مع الحدث بأخلاق الزعماء النبلاء.. فقد قَبِل فداء الأسرى، بل وأعطى دية المقتول لأهله[1]؛ فيما يُشعِر بأنه - وإن كانت له مبررات قوية لقتال قريش - إلا أنه ما زال مقرًّا لأعراف الجزيرة وقوانينها.

لقد كانت هذه هي نظرته ﷺ للأعراف العامة، والقوانين المتفق عليها، فما أعظمها من نظرة!

***

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٦٠٣.

المبحث الثاني
الرحمة في الحروب النبوية

برهن محمد بنفسه على أن لديه أعظم الرحمات[(١)]

وسيتم – إن شاء الله – تناول هذا الخلق من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: رحمته ﷺ بالصغار

لقد كانت قاعدة عامة في حروبه ﷺ: أنه لا يقتل أبدًا الأطفال في معاركه.

سُئِل ابن عباس ﷺ عن قَتْلِ الولدان فقال للسائل: «إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يَقْتُلْهُمْ، وَأَنْتَ فَلَا تَقْتُلْهُمْ؛ إِلَّا أَنْ تَعْلَمَ مِنْهُمْ مَا عَلِمَ صَاحِبُ مُوسَى[(٢)] مِنَ الْغُلَامِ الَّذِي قَتَلَهُ[(٣)]».

وكان رسول الله ﷺ يحرص على أن يوصي قادة الجند بالتقوى ومراقبة الله ﷻ ليدفعه إلى الالتزام بأخلاق الحروب، وبالرحمة في المعاملات حتى في غياب الرقابة البشرية عليه، ولم يكن يكتفي بذلك بل كان يأمر أوامر مباشرة بتجنب قتل الولدان[(٤)].

يقول بُرَيْدَةَ ﷺ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، وكان مما يقوله: «.. وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا..»[(٥)].

---

(١) جان ليك.

(٢) أي الخضر ﷺ.

(٣) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب النساء الغازيات (١٨١٢)، وأحمد (٣٢٦٤)، ومن المستحيل أن يعلم أحدٌ ما علمه الخضر ﷺ، وهذا يعني النهي التامَّ عن قتل الولدان.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية١/ ٣٣٧، وابن حبان: السيرة النبوية ١/ ٣٤٦، ابن هشام: السيرة النبوية ٥/ ١٢٧، السهيلي: الروض الأنف١/ ٣٩٥.

(٥) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيره (١٧٣١).

وفي رواية أبي داود يقول رَسُولُ الله ﷺ: «وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا وَلَا طِفْلًا وَلَا صَغِيرًا وَلَا امْرَأَةً وَلَا تَغُلُّوا وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»[1].

فانظر – رحمك الله – إلى النصائح الرقيقة الرفيقة التي يوجهها رَسُولُ الله ﷺ إلى قائد يذهب إلى قتال عدوه، ثم هو في النهاية يأمره بأعلى درجات الخير، وهي درجة الإحسان، فيقول: «وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»، فهذا هو سلوكه ﷺ مع أعدائه!!

ويروي الأَسْوَدُ بْنُ سَرِيعٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً يَوْمَ حُنَيْنٍ فَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ فَأَفْضَى بِهِمُ الْقَتْلُ إِلَى الذُّرِّيَّةِ[2] فَلَمَّا جَاءُوا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ الذُّرِّيَّةِ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّمَا كَانُوا أَوْلَادَ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: أَوَهَلْ خِيَارُكُمْ إِلَّا أَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ نَسَمَةٍ تُولَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهَا لِسَانُهَا»[3].

ففي هذا الموقف الفريد لا يكتفي رَسُولُ الله ﷺ بفصل ملف الأطفال عن قضية آبائهم المشركين المقاتلين، بل إنه يرفع من قدرهم ليستدرَّ رحمة جنوده عليهم، فيذكر أن عظماء المسلمين ما كانوا إلا أولاد مشركين! وإلا فمن هم أبناء عمر وخالد وأبو حذيفة وعكرمة وغيرهم وغيرهم؟!

بل كان رسول الله ﷺ يتجاوز الرحمة بعموم الغلمان والصغار إلى أولئك الذين أتوا لحرب المسلمين، أو لمعاونة سادتهم في الحرب، رغم أن تلك المعاونة هي من صميم أعمال الحرب، لكنه ﷺ كان يرحم طفولتهم؛ ففي أحداث غزوة بدر ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفرٍ من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه (أي على الماء)؛ فأصابوا راويةً لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج، وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما، ورسول الله ﷺ

---

(١) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في دعاء العدو (٢٦١٤)، وابن أبي شيبة ٦/ ٤٨٣، والبيهقي في سننه الكبرى (١٧٩٣٢).

(٢) أي الأطفال.

(٣) أحمد (١٥٦٢٦)، والحاكم (٢٥٦٦)، وعبد الرزاق (٢٠٠٩١)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٨١١٤)، وقال الألباني: صحيح. السلسلة الصحيحة (٤٠٢).

قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورَجَوْا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما؛ فقالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ، وسجد سجدتيه، ثم سلم وقال: «إذا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وإذا كذباكم تَرَكْتُمُوهُمَا؟! صَدَقَا، والله إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ». ثم خاطب ﷺ الغلامين بلين ورفق قائلًا لهما: أخبراني عن قريش؟»[(١)].

ومع أن هذين الغلامين اللذين ضُرِبَا من الجيش المشرك المُعادي، ويُمِدَّان الجيش بالماء، إلا أن الرسول ﷺ عاتب صحابته الكرام لأجلهما، وأنكر عليهم ضربهما؛ مما اضطر الغلامين إلى الكذب نجاةً من الضرب.

ويقول ابن القيم ﷺ: كان رسول الله ﷺ يَنْظُرُ فِي الْمُقَاتِلَةِ، فَمَنْ رَآهُ أَنْبَتَ[(٢)] قَتَلَهُ، وَمَنْ لَمْ يُنْبِتِ اسْتَحْيَاهُ[(٣)]. والمقاتلة هم الذين يقاتلون بالفعل، ومع ذلك فهو ﷺ لا يقتل غير البالغين منهم؛ لأنهم غير مكلَّفين، ومدفوعين بغيرهم؛ فلذلك رحمهم.

وقد فعل ذلك أيضًا مع صبيان بني قريظة مع شدة جرم قبيلتهم، إلا أنه لم يأخذ الأطفال بجريرة أقوامهم، فقد رحمهم، وأبقى على حياتهم[(٤)]. قال عَطِيَّةَ الْقُرَظِيُّ[(٥)] عُرِضْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ فَكَانَ مَنْ أَنْبَتَ قُتِلَ وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِّيَ سَبِيلُهُ، فَكُنْتُ مِمَّنْ لَمْ يُنْبِتْ فَخُلِّيَ سَبِيلِي»[(٦)].

إن من ينظر إلى هذه الصور النبيلة حفظ طفولة الصغار ثم يقارن بينها وبين ما يحدث في زماننا من انتهاك صارخ لطفولة الصغار (صورة٣) ليدرك الفارق الهائل بين المنهج الإسلامي ومناهج العالم المختلفة!

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٦١٦، ٦١٧. وانظر الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٤/ ٢٧. ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٢٩٤.

(٢) أي ظهر الشَّعْر الدالّ على البلوغ.

(٣) ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٩٠.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٥٤.

(٥) عطية القرظي سكن الكوفة، روى حديثه أصحاب السنن عن عبد الملك بن عمير، قال: كنت فيمن حكم عليهم سعد بن معاذ فشكوا في فتركوني. الإصابة (٥٥٨٣).

(٦) الترمذي (١٥٨٤)، وأبو داود (٣٢٥٦)، وأحمد(١٨٧٩٨).


الأطفال
روب الحديثة الأطفال في الحروب الحديثة الأطفال في الحروب الحديثة

صورة رقم (٣)

المطلب الثاني: رحمته ﷺ بكبار السن:

مر بنا في المطلب السابق كيف كان الرسول ﷺ ينهى عن قتل الشيوخ، فقال: «**وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا..**»، وهي قاعدة عامة لا يُستثنى منها إلا من كان مقاتلًا بنفسه، أو مشتركًا في القتال برأيه، وهذا الذي يُفسِّر قبوله ﷺ لقتل دريد بن الصمَّة[1] يوم حنين لأنه كان من أصحاب الرأي والخبرة في القتال، وكان يدلُّ المشركين على الخطط المناسبة لحرب المسلمين[2]، أما غير ذلك من كبار السن فكان رسول الله ﷺ يرحمهم ولا يقتلهم.

بل كان رسول الله ﷺ يحترم الشيوخ ويجلُّهم، وما أروع ما فعله مع أبي قحافة[3] يوم فتح مكة، فقد روت أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما أنه لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ مَكَّةَ وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ أَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ يَعُودُهُ فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «**هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ الله، هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ أَنْتَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**أَسْلِمْ**»، فَأَسْلَمَ»[4]. فهذه الرقَّة من رسول الله ﷺ كانت ظاهرة وبارزة مع كون الشيخ ما زال كافرًا، ومع كونه أحد أفراد شعب مهزوم، ولا يتأتى مثل ذلك إلا من عظيم! وإن شئت فقارن هذا مع أحوال كبار السن في الحروب الحديثة! (صورة ٤) فصلى اللهم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين.

---

(١) دريد بن الصمة، فارس هوازن وسيد بني جشم وقائدها في معاركها، مع قبائل غطفان وغيرهما من القبائل العربية، وكان مع مالك بن عوف النصري في حربه على المسلمين في حنين، وقُتل كافرًا سنة ٨هـ. عيون الأثر ٢/ ٢١٣ .

(٢) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣١٠.

(٣) هو والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٤) أحمد (٢٧٠٠١)، وابن حبان (٧٢٠٨)، والحاكم (٤٣٦٣) وقال: صحيح على شرط مسلم. ولم يخرجاه، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات، ورواه من طريق آخر عن أسماء عن النبي ﷺ، قال مثله ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ٦/ ٢٥٣.



صورة رقم (٤)

المطلب الثالث: رحمته ﷺ بالنساء:

وكما كان رسول الله ﷺ ينهى عن قتل الأطفال كان ينهى كذلك عن قتل النساء؛ فقد روى ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَأى فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ امْرَأَةً مَقْتُولَةً؛ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ، وَنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ(١).

وَعَنْ رَبَاحِ بْنِ رَبِيعٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةٍ، فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شَيْءٍ؛ فَبَعَثَ رَجُلًا فَقَالَ: **انْظُرْ عَلامَ اجْتَمَعَ هَؤُلاءِ؟** فَجَاءَ؛ فَقَالَ: عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلٍ؛ فَقَالَ: **مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ**. قَالَ: وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ؛ فَبَعَثَ رَجُلًا فَقَالَ: «**قُلْ لِخَالِدٍ: لا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلا عَسِيفًا**»(٢).

ولم يأمر رسول الله ﷺ في حياته كلها إلا بقتل عدد قليل جدًا من النساء، وكل واحدة منهن كانت تُقتل لسبب معتبر، ولحجة ظاهرة.

فمِنْ هؤلاء النسوة واحدة من قبيلة بني قريظة، فكما تروي عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: لَمْ يَقْتُلْ مِنْ نِسَائِهِمْ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً قَالَتْ: وَالله إِنَّهَا لَعِنْدِي تَحَدَّثُ مَعِي تَضْحَكُ ظَهْرًا وَبَطْنًا(٣) وَرَسُولُ الله ﷺ يَقْتُلُ رِجَالَهُمْ بِالسُّوقِ إِذْ هَتَفَ هَاتِفٌ بِاسْمِهَا أَيْنَ فُلانَةُ؟ قَالَتْ: أَنَا وَالله، قَالَتْ: قُلْتُ: وَيْلَكِ وَمَا لَكِ؟ قَالَتْ: أُقْتَلُ. قَالَتْ: قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَتْ: حَدَثًا أَحْدَثْتُهُ قَالَتْ: فَانْطُلِقَ بِهَا فَضُرِبَتْ عُنُقُهَا. وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: وَالله مَا أَنْسَى عَجَبِي مِنْ طِيبِ نَفْسِهَا وَكَثْرَةِ ضَحِكِهَا وَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّهَا تُقْتَلُ»(٤).

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قتل النساء في الحرب (٢٨٥٢)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب (١٧٤٤)، وابن ماجه (٢٨٤٢)، وأحمد (٤٧٣٩) والدارمي (٢٤٦٢)، وابن حبان (١٣٥)، والحاكم في المستدرك (٢٥٦٥).

(٢) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في قتل النساء (٢٦٦٩)، وابن ماجه (٢٨٤٢)، وأحمد (١٧٦٤٧)، وابن حبان (٤٧٨٩)، والحاكم (٢٥٦٥)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال الألباني: صحيح. انظر السلسلة الصحيحة (٧٠١). والعسيف: الأجير.

(٣) كناية عن كثرة ضحكها.

(٤) أحمد (٢٦٤٠٧)، وأبو داود (٢٦٧١)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٧٨٨٦)، وقال الألباني: حديث حسن.

أما لماذا قُتِلت دون غيرها فقد ذكر ابن هشام أنها هي التي طَرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته[1]، فهي بذلك قُتِلت قصاصًا، ولم يبدأ رسولُ الله ﷺ بقتلها، ولم يَقتل غيرها من بني قريظة.

كذلك مر بنا في المبحث السابق قتله ﷺ لامرأة يهودية واحدة في خيبر، وذلك عندما قتلت الصحابي الجليل بشر بن البراء بن معرور رضي الله عنهما، وكان قد عفا عنها قبل ذلك عندما حاولت قتله هو شخصيًا ﷺ، ولكنه قتلها قصاصًا بعد ثبوت وفاة بشر بن البراء من السمّ الذي دسَّته المرأة له.

ومن الجدير بالذكر أنه لم تثبت حالة واحدة لاغتصاب امرأة من جيش العدو، ولا تعمُّد لإهانة نساء الدولة المعادية، وليقارن أي محلل للتاريخ هذه المواقف بما تفعله الجيوش القديمة والحديثة عند التمكن من نساء الأعداء (صورة ٥)، وليست أحداث البوسنة والهرسك منا ببعيد!

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٨٢.



صورة رقم (٥)

المطلب الرابع: رحمته ﷺ بالرهبان والمتفرغين للعبادة:

إن هذه الطائفة من غير المسلمين قد انقطعت للعبادة، واعتزلت الناس، وبالتالي فهي غير مشتركة في القتال بأي صورة من الصور، حتى وإن كانت دولتهم أو قبيلتهم مقاتلة، ولذلك فقد رحمهم رسول الله ﷺ وأمر بعدم التعرض لهم بسوء، هذا مع أنهم يدرِّسون للناس دينًا مخالفًا لدينه، وعلى الأغلب فهم يعرفون صفة رسول الله ﷺ في كتبهم، ولكنهم يخفونها عامدين عن أقوامهم، ومع ذلك لم يتخذ رسول الله ﷺ ذلك مبررًا لإيذائهم، وهذا من كمال رحمته ﷺ. وقد أقرَّ رسول الله ﷺ لنصارى نجران بهذا الحق فقال في عهده لهم: «..لَا تُهْدَمَ لَهُمْ بَيْعَةٌ، وَلَا يُخْرَجَ لَهُمْ قَسٌّ، وَلَا يُفْتَنُوا عَنْ دِينِهِمْ.. »[(١)].

وعلى هذا جرى العمل في شريعة الإسلام، وما أرحم ما وصى به أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما حين بعثه إلى الشام مقاتلًا، وذلك حين قال له: «إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ للهِ فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ..»[(٢)]، ولعله من الواضح من صياغة الجملة عدم اقتناع الصديق رضي الله عنه بما هم عليه من عبادة، ومع ذلك حذَّر من إيذائهم، وهو بذلك يؤكد على المعنى الراقي الذي أرشدنا إليه رسول الله ﷺ.

فهذا هو الإسلام لمن لا يعرفه، وهذه هي شريعتنا لمن غفل عنها!

المطلب الخامس: رحمته ﷺ بأصحاب الظروف الخاصة:

وقد وسعت رحمةُ الرسول ﷺ أعداءَه الذين آذوه وقاتلوه، وحرَّضوا على قتاله؛ ولكن كانت لهم ظروف خاصة. ومن هؤلاء أبو عزة الجمحي، وكان شاعرًا، وكان يؤلِّب قريشًا على الرسول ﷺ والمسلمين؛ فلما جاءت غزوة بدر أسره المسلمون، وكان مِن أمره ما يرويه سعيد بن المسيب رحمه الله في قوله: أَمَّنَ رسولُ الله ﷺ من الأسارى يوم بدر أبا عزة عبد الله بن عمرو بن عبد الجمحي، وكان شاعرًا، وكان قال للنبي ﷺ: يا محمد، إنَّ لي خمس بنات ليس

---

(١) أبو داود (٣٠٤١)، وقال الألباني: ضعيف الإسناد.

(٢) الموطأ برواية يحيى الليثي (٩٦٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (٩٣٧٥)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٧٩٢٧).

لهنَّ شيءٌ فتصدق بي عليهنَّ.. ففعل، وقال أبو عزة: أُعطيك موثقًا أن لا أقاتلك، ولا أُكَثِّرَ عليك أبدًا، فأرسله رسول الله ﷺ؛ فلمَّا خرجت قريش إلى أُحُد جاءه صفوان بن أمية؛ فقال: اخرج معنا؛ فقال: إني قد أعطيت محمدًا موثِقًا أن لا أقاتله؛ فضمن صفوان أن يجعل بناته مع بناته إن قُتِلَ، وإن عاش أعطاه مالًا كثيرًا، فلم يزل به حتى خرج مع قريش يوم أُحُد؛ فأُسِرَ ولم يُؤْسَرْ غيرُه من قريش؛ فقال: يا محمد إنما أُخرِجتُ كُرْهًا، ولي بنات فامنُن عَليَّ؛ فقال رسول الله ﷺ: **أين ما أعطيتني من العهد والميثاق؟!! لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول: سَخِرْتُ بمحمدٍ مرتين.** قال سعيد بن المسيب: فقال النبي ﷺ: «**إنَّ الْـمُؤْمِنَ لَا يُلْدَغُ مِنْ جُحْرٍ مَرّتَيْنِ، يَا عَاصِمُ بْنَ ثَابِتٍ قَدِّمه فاضْرِبْ عُنُقَهُ**». **فَقَدَّمَه فَضَرَبَ عُنُقَهُ**[1].

فرغم معاداة أبي عزة للمسلمين، وتحريضه عليهم إلا أن النبي ﷺ عفا عنه في المرة الأولى، بل وأطلقه دون مقابل؛ لأجل بناته؛ وتلك رحمة كبيرة من الرسول ﷺ تجاه ذلك الشاعر الذي كان يمثل إحدى الآلات الإعلامية الجبارة ضد دولة الإسلام في ذلك الوقت، أما في المرة الثانية فكان لابد من إيقاف هذه الآلة حتى لا يظن المشركون أنه يمكن خداع المسلمين بسهولة، وأن خداعهم مأمون الجانب، ولكي تظل هيبتهم في القلوب.

المطلب السادس: رحمته ﷺ بالمستكرهين على القتال:

ومن رحمته أيضًا أنه كان يعذر أولئك الذين أكرهوا على القتال، على الرغم من أنهم خرجوا بالفعل لقتال المسلمين، ولم يكن يقول مثلما يقول أي إنسان في مثل هذه المواقف من أنهم ليسوا صغارًا أو فاقدين للإرادة، بل خرجوا لمصالح معينة، أو إرضاءً لقوم بعينهم.. إنه لم يقل كل هذا الكلام، إنما نظر إليهم بعين الرحمة، ومن ثم أمر الجنود المسلمين بتجنب قتالهم! ومن ذلك ما فعله رسول الله ﷺ في بدر حيث نهى عن قتل من خرج مُستكرَهًا من المشركين، رغم أن ذلك في ميدان القتال والحرب، والمتعارَف عليه بين جميع البشر أنَّ من يقاتلك تقاتله، ولكن الرسول ﷺ كان يأخذ بروح القاعدة وليس بنصها؛ لذا فهو قد يأسر المستكرَه لكي يتجنب مقاتلته ويُجنِّبه أيضًا، ولكن لا يقتله؛ إلا إذا أصرَّ على القتال؛ فقد روى

---

(١) البيهقي (٧٨٠٨)، وابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٥٩، وانظر نصب الراية للزيلعي: ٣/ ٤٠٩.

ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لأصحابه قُبَيلَ غزوة بدر: «إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ رِجَالًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كُرْهًا، لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامِ بْنِ الْحَارِثِ ابْنِ أَسَدٍ فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، عَمَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَا يَقْتُلْهُ فَإِنَّهُ إِنَّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا»[1].

فهل يَعتبر قائدٌ في العالم – غير رسولنا ﷺ - بنيات من يحاربه، فيعفو عمن أمسك السيف ليقتله هو وأصحابه وجنده، لا لشيء إلا لأنه خرج مستكرهًا؟!!

إن هذا هو رسول الله ﷺ !

المطلب السابع: رحمته ﷺ بقتلى الأعداء!

وأعجب مما سبق موقفه ﷺ من قتلى الأعداء!

لقد ظهرت رحمة الرسول ﷺ في حرصه حتى على هؤلاء القتلى، وكذلك على مشاعر ذويهم؛ فقد نهى رسول الله ﷺ عن المُثْلَة؛ فعن عبد الله بن زيد قال: «نهى النبي ﷺ عن النُّهْبَى[2]، والمُثْلَة»[3]. وقال عمران بن الحصين رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ يحثنا على الصدقة، وينهانا عن المثلة»[4]، ورغم ما حدث في غزوة أُحُد من تمثيل المشركين بحمزة عم الرسول ﷺ، فإنه ﷺ لم يُغيِّر مبدأه، بل حرص على النهي عن المُثلة حتى مع المشركين، ولم يرد في التاريخ حادثة واحدة تقول: إن المسلمين مثَّلوا بأحد من أعدائهم.

وأكثر مما سبق أن رسول الله ﷺ هدَّد المسلمين تهديدًا خطيرًا إن قاموا بالتمثيل بأجساد قتلى الأعداء، فقال: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا وَإِمَامُ ضَلَالَةٍ

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٦٢٨، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤٣٦.

(٢) النُّهْبَى: أخذ المرء ما ليس له جهارًا. والمُثْلَة: التنكيل بالمقتول بقطع بعض أعضائه.

(٣) البخاري: كتاب المظالم، باب النهبى من غير إذن صاحبه (٢٣٤٢)، والطيالسي في مسنده (١٠٧٠)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٤٤٥٢).

(٤) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في النهي عن المثلة (٢٦٦٧)، وأحمد (٢٠٠١٠)، وابن حبان (٥٦١٦)، وعبد الرزاق (١٥٨١٩)، وقال الألباني: صحيح.

وَمُمَثِّلٌ مِنَ الْمُمَثِّلِينَ»[١]. فيساوي بين من قتل نبيًّا أو قتله نبي، ومَن مثَّل بجثة عدو! وبذلك يظل هناك رقيب داخلي على المسلم يمنعه من ارتكاب الجُرْم حتى في غياب العيون. بل إنه يوسِّع دائرة التحذير حتى تستوعب كل مخلوق، مسلمًا كان أو غير مسلم، إنسانًا كان أو حيوانًا أو طائرًا، فيقول في رحمة بالغة: «مَنْ مَثَّلَ بِذِي رُوحٍ ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مَثَّلَ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[٢]».

ومن هذا المنطلق فقد أمر رسول الله ﷺ أن لا يُقتل العدو تحريقًا بل يقتل بالسيف، لأن عذاب النار بشعٌ لا يرضاه رسول الله ﷺ حتى للأعداء، وقد روى أبو هريرة ﷺ ما يؤيد ذلك فقال: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْثٍ فَقَالَ إِنْ وَجَدْتُمْ فُلَانًا وَفُلَانًا لِرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ: «إِنِّي كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحْرِقُوا فُلَانًا وَفُلَانًا بِالنَّارِ؛ وَإِنَّ النَّارَ لَا يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا اللهُ فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا»[٣]. فهذا التحريق بالنار ليس مسموحًا به في الدنيا، ولكن أبقاه الله ﷻ لعذاب الآخرة، وحذَّر البشر منه عن طريق الرسل، فمَنْ أبى فلا يلومنَّ إلا نفسه!

ولعل الذي يطَّلع على مثل هذه الأقوال والمواقف يتعجب من هذه الرحمة النبوية المتناهية، ولكن قد يزول عجبه إذا عرف المنطلق الذي من أجله حرَّمت الشريعة الإسلامية التمثيل بجثة إنسان مات، ولا يشعر بها يشعر به الأحياء، فإن مردَّ ذلك إلى النظرة الراقية التي ينظرها الإسلام لكل إنسان مهما كانت ديانته، أو درجة فسوقه أو كفره، فالكل في النهاية عباد الله ﷻ، وقد كرَّمهم جميعًا وأحسن خَلْقهم، ويؤيد ذلك ما رواه رسول الله ﷺ عن رب العزة

---

(١) أحمد (٣٨٦٨)، واللفظ له، وحسنه شعيب الأرناءوط، والطبراني في الكبير (١٠٤٩٧)، والبزار (١٧٢٨)، وقال الألباني: صحيح. السلسلة الصحيحة (٢٨١).

(٢) أحمد (٥٩٥٦)، وابن أبي الجعد (٢٢٦٤)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح، وهذا سند ضعيف. وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الأوسط عن ابن عمر من غير شك، ورجال أحمد ثقات. انظر: مجمع الزوائد ٦/ ٣٧٨.

(٣) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب التوديع (٢٧٩٥)، والترمذي (١٥٧١)، وأحمد (٨٠٥٤)، وسعيد ابن منصور في سننه (٢٦٤٥)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٧٨٤٢)، والنسائي في سننه الكبرى (٨٦١٣).

سبحانه حين قال: «لَا تُمَثِّلُوا بِعِبَادِي»[1]، فالنهي هنا يشمل كل العباد بصرف النظر عن إيمانه أو كفره..

فما أعظم دين الإسلام، وما أرقى شريعته!

* * *

(١) أحمد (١٧٥٩٣)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده ضعيف.

المبحث الثالث
الاجتهاد في حماية الأرواح

كان محمد دائمًا يعمل على
حقن الدماء[١]

المطلب الأول: حقن الدماء عند إعلان الإسلام:

قد يكون قتلُ أحد الأعداء أمرًا حتميًا نتيجة جرائمه السابقة في حق المسلمين، ولكن الأخلاق النبوية الرفيعة كانت تتجه إلى إعطاء هذا العدو فرصة أخيرة إذا أعلن إسلامه، مع أن هذا الإعلان غالبًا ما يكون لتجنب القتل، ولكن رسول الله ﷺ كان يقبل إسلام الشخص مهما كان تاريخه العدائي، وليس في هذا إكراه في الدين، لأن الأصل في الأمور بالنسبة لهؤلاء أن الحكم بقتلهم قد صدر بالفعل، وقبول إسلامهم والعفو عنهم بعد صدور هذا الحكم هو منّة من رسول الله ﷺ عليهم.

ومن أفضل الأمثلة على هذا الأمر ما رأيناه منه ﷺ عندما أنكر على أسامة بن زيد رضي الله عنهما قتله لمشرك محارب بعد أن أعلن إسلامه، مع أن كل الظروف كانت تشير إلى أن المشرك لم يعلن إسلامه إلا تَقِيَّة! فقد روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ بعث بَعثًا من المسلمين إلى قومٍ من المشركين[٢]، وإنهم التقوا فكان رجل[٣] من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، وإن رجلًا من المسلمين قصد غفلته قال - أي الراوي: وكنا نُحَدَّث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف، قال: لا إله إلا الله، فقتله، فجاء البشير إلى النبي ﷺ،

---

(١) هيدلي: لورد إنجليزي اعتنق الإسلام سنة ١٩١٤م.

(٢) تذكر الروايات أن ذلك كان في سرية غالب بن عبد الله الليثي في رمضان سنة ٧هـ إلى بني عُوَال، وبني عبد ابن ثعلبة بالمَيفعة. وقيل: إلى الحُرَقات من جهينة، في مائة وثلاثين رجلاً. انظر: عيون الأثر ٢/ ١٥٦.

(٣) قيل هو: نَهيك بن مرداس.

فسأله فأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله فقال: «لِمَ قَتَلْتَه؟! قال: يا رسول الله أوجع في المسلمين، وقتل فلانًا وفلانًا، وسمَّى له نفرًا، وإني حملت عليه فلما رأى السيف؛ قال: لا إله إلا الله.. قال رسول الله ﷺ: «**أقتلته؟!**» قال: نعم. قال: «**فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!**» قال: يا رسول الله استغفر لي. قال: «**وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟**»، قال: فجعل لا يزيده على أن يقول: «**كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟**»[(١)].

فالرجل الذي في القصة كان قد أوجع في المسلمين، وقتل بالفعل عددًا من الصحابة، وحارب أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما، ولمَّا سقط السيف من يده، وشعر أن أسامة سيقتله قال: لا إله إلا الله! إن أي إنسان في مكان أسامة لعله سيأخذ نفس القرار الذي أخذه أسامة، فكل الظروف توحي أنه من العجيب أن يدخل الإيمان فجأة في قلب المقاتل المشرك عند رؤية السيف، لكن منهج رسول الله ﷺ في حقن الدماء كان ينتهز الفرص – ولو كانت واهية غير مقنعة – ليرحم بها المقاتل ويعفو عنه!

وفي موقف مشابه أنكر الرسول ﷺ على خالد بن الوليد مثل هذا الأمر؛ فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة[(٢)] فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا؛ فقالوا: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، فأَمَرَ كُلَّ رجل مِنَّا أن يقتل أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، فذكرنا ذلك للنبي ﷺ فقال: «**اللهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ**» مَرَّتَيْنِ.[(٣)]

لقد كان هذا تعليمًا للأمة كلها، وتحذيرًا شديدًا من القتل في غير محله، بل هو في الوقت نفسه حرص شديد من النبي ﷺ على تفادي القتل عند أول فرصة تسنح بذلك، مما يؤكد لنا أن القتال في الإسلام إنما هو أمر لا يكون إلا عند الحاجة الماسَّة إليه، ومتى وُجِدَت أَيَّةُ فرصة

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (٩٧).

(٢) بنو جذيمة هُم: بنو عامر بن عبد مناة بن كنانة، وكانوا جنوب مكة على مسافة ليلة، بناحية يلملم.

(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة (٤٠٨٤)، والنسائي (٥٤٠٥)، وأحمد (٦٣٨٢)، وابن حبان (٤٧٤٩).

للخروج من القتال وحفظ الدماء؛ كان الأخذ بها هو منهج الإسلام ومنهج الرسول ﷺ.

وقد كان ما فعله خالد ﷺ اجتهادًا شخصيًا رآه وأخذ به، غير أن مَن معه من الصحابة ﷺ لم يوافقوه فيما رأى، بل أنكروا عليه، ولم يُنفِذُوا أمره في هذا الشأن. ولا شك أن رسول الله ﷺ قد قَبِل عذر خالد لأنه لم يُقم عليه حدًّا، ولم يُغرِّمه دية، ولكن كان لابد من هذا التعليق الشديد كي لا يتكرر الفعل مرة أخرى.

قال ابن حجر: وأما خالد فحمل هذه اللفظة على ظاهرها؛ لأن قولهم: صبأنا أي: خرجنا من دين إلى دين، ولم يكتف خالد بذلك حتى يصرحوا بالإسلام[1]. وقال الخطابي: يُحتَمَل أن يكون خالد نَقَمَ عليهم العُدُولَ عن لفظ الإسلام لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأَنَفَة، ولم ينقادوا إلى الدين؛ فقتلهم متأوِّلًا[2].

ومن أجمل مواقف السيرة ما حدث مع أبي سفيان زعيم مكة يوم ذهب رسول الله ﷺ لفتحها بعد خيانة قريش وبني بكر لصلح الحديبية، وفي هذا الموقف قَبِل رسول الله ﷺ إسلام أبي سفيان مع أن الظروف المصاحبة لإعلان إسلامه قد تُشكِّك أيَّ إنسان في مصداقية هذا الإعلان!

ولكي نُقدِّر عظمة الأخلاق النبوية لابد من العودة إلى تاريخ أبي سفيان مع رسول الله ﷺ والمسلمين؛ لندرك الظروف التي حقن فيها رسول الله ﷺ دمه.

لم يكن أبو سفيان رجلًا عاديًا من رجال قريش، لكنه كان من الرجال المعدودين الذين يشار إليهم بالحكمة وحسن القيادة، ولم يكن رجلًا محايدًا عندما ظهرت دعوة رسول الله ﷺ، إنما كان مهاجمًا لها، محاولًا بكل الطرق أن يُوقِفَ مَدَّها، وأن يُجهِض نموها.. ولقد ذكر الطبري أبا سفيان فيمن اجتمعوا في دار الندوة يخططون لقتل رسول الله ﷺ قبيل هجرته إلى المدينة المنورة[3]..

---

(١) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/ ٥٧.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١/ ٥٦٦.

وفي فترة المدينة المنورة كان أبو سفيان على رأس المشركين في أول مواجهة بين سريةٍ مُسلمةٍ[١] بقيادة عبيدة بن الحارث[٢] ﷺ، وتجمُّع للمشركين عند منطقة «ثنية المُرَّة»[٣]، وكان أبو سفيان على رأس القافلة التي نجت، وأعقبها مباشرة الصدام الكبير مع المشركين في بدر.

وفي بدر قُتل سبعون من صناديد وقادة قريش كان منهم أبو جهل، ومن ثَمَّ اجتمعت قريش على رئاسة أبي سفيان لها بكل بطونها وفروعها، وهو حدث فريد في تاريخ مكة، ومن هذه اللحظة وأبو سفيان هو المحرِّك الأول لجموع قريش والقبائل العربية الأخرى لحرب المسلمين.. كما أن ابنه «حنظلة» كان قد قُتِلَ في بدر، وابنه الآخر «عمرو» قد أُسِر[٤]، فزاد ذلك في أضغانه وأحقاده، واستطاع أبو سفيان - بنفسه - أن يأسِر صحابيًّا جليلًا وهو سعد ابن النعمان بن أكال فبادله بابنه عمرو بن أبي سفيان. ثم أقسم أبو سفيان ألا يَمَسَّ رأسَه ماءٌ من جنابة حتى يغزو محمدًا ﷺ، وبالفعل جمع مائتي فارس وغزا المدينة في الظلام، وقتل رجلين من الأنصار[٥].. فيما عُرِف في التاريخ بغزوة السويق[٦].

ثم كان يوم «أُحُد»، وخرج أبو سفيان يقود ثلاثة آلاف مشرك لحرب المسلمين، وكانت من أكبر الأزمات التي مرت بالمسلمين؛ فبعد الانتصار في أول المعركة تحول النصر إلى مصيبة، وصارت الدولة للمشركين، واستشهد من المسلمين سبعون، وقَتَل أبو سفيان يومها[٧] سلمةَ

---

(١) ابن هشام ٢/ ١٣٦. يذكر ابن إسحاق أن هذه كانت أول سرية مسلمة، بينما يذكر آخرون أن أول سرية كانت لحمزة بن عبد المطلب.

(٢) عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف القرشي، كان أَسَنَّ من رسول الله ﷺ بعشر سنين، وكان إسلامه قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وكانت هجرته إلى المدينة مع أخويه، وكان له قدْر ومنزلة عند رسول الله ﷺ. انظر الاستيعاب ٣/ ١٤١، أسد الغابة ٣/ ٤٤٨، الإصابة الترجمة (٥٣٧٩).

(٣) ثنية المُرَّة: موضع معروف بين غدير خم والفرع على طريق الهجرة. انظر: محمد حسن شُرَّاب: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص٢٥٠.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٤٣٢.

(٥) الرجلان هما: معبد بن عمرو، وحليف له لم أقف على اسمه، وذكر ابن إسحاق القصة إلا أنه لم يسمِّهما.

(٦) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٥٤٠.

(٧) ابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٤٦٦.

ابن ثابت ﷺ[1]، وقيل: إنه هو الذي قَتَل حنظلة غسيل الملائكة[2] وقال: حنظلة بحنظلة، أي أن هذا الصحابي بابنه الذي قُتِلَ في بدر[3].

لكن أشدَّ من ذلك ما ظهر منه من شعورٍ بالشماتة، وما بدا منه من مخالفةٍ لأعراف الحرب وآداب القتال عند العرب.. وذلك في الحوار الذي دار بينه وبين المسلمين بعد غزوة أحد مباشرة.. فقد روى البخاري وغيره أن أبا سفيان نادى بعد انتهاء المعركة يوم أُحُد: «أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات، فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قُتِلوا، فما ملك عمر نفسه فقال: كذبت - والله - يا عدو الله! إن الذين عددت أحياء كلُّهم، وقد بَقِيَ لك ما يسوءُك.

قال: يومٌ بيوم بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مُثلة لم آمر بها، ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز: أُعْلُ هُبَلْ!! أُعْلُ هُبَلْ!! فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبونه؟!» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأَجَلُّ». قال أبو سفيان: إن لنا العزى ولا عزى لكم!! فقال النبي ﷺ: ألا تجيبونه؟! قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»[4].

ففي هذا الحوار يُظهِر أبو سفيان الرضا بما حدث في الشهداء من تشويهٍ للأجساد، وتقطيعٍ للآذان، وبقرٍ للبطون، وهو ما لم تألفه العرب أصلًا في جاهلية ولا في إسلام، وإنما يدل كل ذلك

---

(١) سلمة بن ثابت بن وقش الأنصاري الأشهلي، شهد بدرًا وقتل يوم أحد شهيدًا هو وأخوه عمرو بن ثابت، قتله أبو سفيان بن حرب. انظر: الاستيعاب ٢/ ٢٠٠، أسد الغابة ٢/ ٢٩١، الإصابة الترجمة (٣٣٦٢).

(٢) حنظلة بن أبي عامر، وقد خرج إلى الغزوة صبيحة عُرسه، وكان جنبًا، فأعجله الخروج عن الغُسل، فغسَّلته الملائكة. وقيل: قتله شداد بن الأسود بن شعوب الليثي، وليس أبا سفيان. انظر: الاستيعاب ١/ ٤٣٢، أسد الغابة ١/ ٦٢١، الإصابة الترجمة (١٨٥٨).

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٦٨.

(٤) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة أحد (٣٨١٧)، وأبو داود (٢٦٦٢)، والطيالسي (٧٢٥)، والنسائي (٨٦٣٥)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٨، ٣٩.

على شهوة إبادة حقيقية، وعلى رغبةٍ أكيدةٍ في الكيد لرسول الله ﷺ وللمسلمين..

وظهرت هذه الشهوة أيضًا عندما حضر أبو سفيان وشهد حادثة قتل زيد بن الدثنة[1] ﷺ في إقرارٍ واضحٍ لمبدأ الغدر في التعامل مع المسلمين[2].

وقد ظهرت هذه الشهوة بصورة أكبر وأكبر في حصار الأحزاب في العام الخامس من الهجرة، وفي هذا الحصار حرص أبو سفيان - الذي كان على قيادة عشرة آلاف مشرك - والمشركون معه على التخلّص من كلِّ المسلمين بالمدينة المنورة.. لقد كانت جريمة كبرى، عندما جمعوا الجموع ليحاصروا المدينة الآمنة، وليُرَوِّعُوا الرجال والنساء والأطفال!!

وظلَّ أبو سفيان زعيمًا لمكة حتى السنة الثامنة من الهجرة، وكان صلح الحديبية قد تمَّ منذ سنتين، وانضمت فيه قبيلة بني بكر لحلف المشركين، بينما انضمت قبيلة خزاعة لحلف المسلمين، ثم حدثت الخيانة المعروفة من بني بكر، وقتلت عددًا من قبيلة خزاعة، وساعدتها قريش على ذلك[3]، فنُقِضَ بذلك صلح الحديبية.. ومن ثَمَّ قرر رسول الله ﷺ فتح مكة بجيش قوامه عشرة آلاف مؤمن..

إنها قصة طويلة، وتفصيلاتها كثيرة، وما يهمنا فيها أن أبا سفيان كان يتولَّى كبر الأمر في حرب المسلمين، وكان على رأس المهدِّدين لأمن الدولة الإسلامية..

ضع كل هذه الخلفيات المعقَّدة في ذهنك، وأنت تحلل الطريقة التي تعامل بها رسول الله ﷺ مع أبي سفيان عندما قابله في الطريق من المدينة إلى مكَّة أثناء التوجه لفتح مكة المكرمة..

إننا ذكرنا هذا التاريخ الطويل من العداء لنفقه قيمة الخُلُق النبوي، وعظمة الرؤية الإسلامية للأمور..

---

(١) زيد بن الدثنة بن بياضة الأنصاري البياضي، شهد بدرًا وأحدًا، وأُسر يوم الرجيع مع خُبيب بن عدي، فبيع بمكة لصفوان بن أمية فقتله، وذلك في سنة أربع من الهجرة. انظر: الاستيعاب ٢/ ١٢٢، أسد الغابة ٢١/ ١٤٧، الإصابة الترجمة (٢٩٠٠).

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٧٩.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٥٤.

لقد دارت الأيام، وأصبح أبو سفيان في موقف ضعيف جدًا، ووجد نفسه عاجزًا عن الحركة، بل عن التفكير، وذلك عندما بُوغِتَ بالجيوش الإسلامية على بعد عدة كيلومترات من مكة، وعلم أبو سفيان – يقينًا – أنه على رأس قائمة المطلوبين!! فقد كان حريصًا في أكثر من مرة على استهداف المسلمين، ورسولهم ﷺ، وأصابت أبا سفيان حالة من الرعب والهلع، ووجد أمامه أحد أصدقائه القدامى الذين آمنوا وانضموا إلى الصف المسلم وهو العباس بن عبد المطلب ﷺ، عم الرسول ﷺ، فاستغاثه واستنجد به قائلًا: ما الحيلة؟ فداك أبي وأمي؟!

قال العباس ﷺ يخاطب أبا سفيان: والله لئن ظَفِرَ بك لَيَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ..!!

وهذا هو التصرف الطبيعي في تصور العباس ﷺ، وفي تصور أي مُطَّلِعٍ على تاريخ أبي سفيان مع المسلمين.. ولكن العباس ﷺ لصداقته القديمة مع أبي سفيان، أو لرغبته الأكيدة في حفظ دماء قريش، قرر أن يشفع لأبي سفيان عند رسول الله ﷺ فقال ﷺ لأبي سفيان: «اركب معي هذه البغلة؛ حتى آتي بك رسول الله ﷺ أستأمنه لك»، فركب أبو سفيان مع العباس ﷺ..

يقول العباس: فخرجت به، فكلما مررتُ بنار من نيران المسلمين فقالوا: ما هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ عليها عمه قالوا: هذه بغلة رسول الله ﷺ عليها عمه، حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إليَّ، فلما رآه على عجز البغلة عرفه، فقال: والله عدوُّ الله!! الحمد لله الذي أمكن منك، فخرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ودخل، وركضت البغلة فسبقته بقدر ما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عمر فقال: هذا عدو الله أبو سفيان، قد أمكن الله منه في غير عهد ولا عقد؛ فدعني أضرب عنقه!! فقلتُ: قد أجرته يا رسول الله، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة رجل دوني، فلما أكثر عمر قلتُ: مهلًا يا عمر! فوالله لو كان رجلًا من بني عديٍّ ما قلت هذا، ولكنه من بني عبد مناف. فقال: مهلًا يا عباس، لا تقل هذا؛ فوالله لإسلامك حين أسلمت كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطاب أبي لو أسلم؛ وذلك أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: «يا عباس، اذهب به إلى رحلك، فإذا أصبح فائتنا به». فذهبت به إلى

الرحل فبات عندي، فلما أصبحت غدوت به، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان!! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟!» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، وأعظم عفوك!! لقد كاد أن يقع في نفسي أن لو كان إله غيره لقد أغنى شيئًا بعد. فقال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟!». قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، وأعظم عفوك! أما هذه - والله - فكان في النفس منها حتى الآن شيء. قال العباس: فقلت: ويلك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك. قال: فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله[1]..

لقد ضرب لنا رسول الله ﷺ في هذا الموقف مثلًا من أروع أمثلة المروءة والشهامة، كذلك من أروع أمثلة التجرُّد لله والحرص على الدعوة، كما أظهر حرصًا عجيبًا على حقن الدماء قلَّ أن تراه في التاريخ أو الواقع. فقد وقف ﷺ يتحاور مع أبي سفيان بطريقة إقناعية فيها البحث عن الحجة والدليل، مع أن السيف كان الحلَّ الأمثل عند عامة القواد والزعماء.. وعندما سأله رسول الله ﷺ عن وحدانية الله أجاب أبو سفيان إجابة غير شافية لا تدل عن قناعة كاملة بتوحيد الله، ولكنه على كل حال لم يرفض، لكن عندما سأله رسول الله ﷺ عن إيمانه بنبوته صرَّح أبو سفيان أنه ما زال يشك في هذا الأمر!! وهنا هدَّده العباس ﷺ بأن قتله أصبح وشيكًا، ولا يحفظ دمه إلا الإسلام، فأسلم عندئذ أبو سفيان..

إن الذي فعله العباس ﷺ ليس إكراهًا في الدين، بل هو رحمة بأبي سفيان، ورحمة بكل قريش، إن قتل أبي سفيان في هذا الموقف لا يستنكره أحد، ولا ترفضه أعراف الدول لا في القديم ولا في الحديث؛ فهو يُصَنَّفُ في القانون الدولي الحديث على أنه مجرم حرب؛ لأنه دبَّر منذ ثلاث سنوات محاولة «قتل جماعي» لأهل المدينة المنورة، ونَقَضَ منذ أيامٍ قليلةٍ عهدًا بينه

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٧٢٦٤)، ورجاله رجال الصحيح، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٤٢، وانظر المطالب العالية لابن حجر (٤٣١) وقال: حديث صحيح. وقال الألباني: صحيح. السلسلة الصحيحة (٣٣٤١). وأخرجه البخاري من مرسل عروة في المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح (٤٠٣٠)، وابن سعد في الطبقات ٢/ ١٣٤، ١٣٥، والبيهقي في الدلائل ٥/ ٣٣ - ٣٥، وانظر ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٣٩٩ - ٤٠٥.

وبين المسلمين راحَ ضحيَّة نقْضِهِ عددٌ من الرجال والنساء قتلى.. بل إن الذي يمكن أن يتوقعه أي متابع للأحداث أن يرفض رسول الله ﷺ إسلام أبي سفيان في هذا الموقف، ويظنَّ - ظنًّا أشبه باليقين- أنه ما فعل ذلك إلا تَقِيَّةً وخوفًا من القتل.. لكن الرسول ﷺ لم يُظهِر شكًّا في إيمان أبي سفيان، بل قبل منه ببساطة، ولم يناقشه أو يستوثق منه.. بل عفا عنه في لحظة واحدة!! لقد تناسى رسول الله ﷺ في لحظة واحدة كل الذكريات المؤلمة والجراح العميقة.. فقلبه ﷺ لا تغزوه الأحقاد، ولا سبيل للشيطان عليه..

وليُراجع العالم كيف يتعامل الزعماء والملوك مع معارضيهم ليدركوا عظمة نبي الرحمة ﷺ!

المطلب الثاني: عرض مبدأ الأمان في مقابل حقن الدماء:

كثيرًا ما نرى الأقوياء يتسلطون بقوتهم على ضعفاء العالم، فإذا هناك تاريخ عداء قديم، وثأر موروث عبر الأجيال فإن المجازر تصبح متوقعة جدًا عند تمكن قويٍ من ضعيف!

والذي يُراجع تاريخ مكة مع رسول الله ﷺ يتوقع – بلا ريب – انتقامًا شرسًا من أولئك الذين أوقعوا الظلم بالمسلمين على مدار أكثر من عشرين سنة، لكننا لم نر هذا الانتقام، ولا معشاره! بل رأينا رغبة حقيقية في حقن الدماء حتى قبل إعلان الإسلام! وحتى نطَّلع سويًّا على صورة جليَّة واقعية لهذه الرغبة فلنعد إلى بقية قصة أبي سفيان يوم فتح مكة، والتي بدأناها في المطلب السابق.

لقد قَبِل رسول الله ﷺ إسلام أبي سفيان مع تردده الواضح في إعلان إسلامه، ولكنَّه ﷺ لم يكن يفكر في حقن دمِّ أبي سفيان وحده، إنما كان مشغولًا بحقن دماء شعب مكة بكامله! لذلك عندما قال له العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان يحب الفخر، فاجعل له شيئًا، لم يتردد في قبول ذلك، بل انتهزها فرصة وجعل الأمان لأهل مكة جميعًا، فقال: «**نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن**».

لقد كان من الممكن أن يعطي الأمان لأبي سفيان وكفى، وخاصَّة أنه أعلن إسلامه، ولكنه قرر إعطاء فرصة الأمان لشعب مكة وذلك قبل أن يسمع موقفهم من الإسلام!

أيُّ عظمة.. وأيُّ فضل..!!

إننا لا يمكن أن نتصور مدى النُّبل الذي في هذا الموقف إلا أن نضع أنفسنا في ذات الموقف، ولنكن صادقين مع أنفسنا، وليكن العالم صادقًا مع نفسه.. هل يفعل ذلك أحد غير رسول الله ﷺ؟!

أما زال هناك من يدَّعِي أن الإسلام دين إرهاب وعنف؟!

إننا نفتقر فقط إلى العلم، إننا لا نعرف من حياة رسول الله ﷺ إلا قشورًا سطحية، ولو تعمَّقنا في دراسة سيرته، ونقلناها لعموم أهل الأرض لزالت الغشاوة عن أبصار قوم لا يعلمون.

المطلب الثالث: قبول فكرة إنهاء الحرب:

لم يكن النبي ﷺ من هواة الحرب، بل كان ينأى عنها ما وجد إلى ذلك سبيلًا؛ ولذا كان النبي ﷺ يعرض الإسلام أو الجزية أولاً، فإن أصرَّ العدو على القتال، حارب الرسول ﷺ، ولكنه لا يغلق باب المسالمة؛ فإن رغب العدو في الصلح حتى بعدما تظهر بشائر النصر للمسلمين، كان الرسول ﷺ يقبل الصلح، ويُقرُّه.

من ذلك ما حدث في غزوة خيبر؛ حيث يقول ابن كثير: «فلما أيقنوا بالهلكة[1]، وقد حصرهم رسول الله ﷺ أربعةَ عشرَ يومًا نزل إليه ابن أبي الحقيق؛ فصالحه على حقن دمائهم، ويُسَيِّرُهم، ويُخلُّون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكِرَاع والحلقة وعلى البَزِّ، إلا ما كان على ظهر إنسان[2]، فقال رسول الله ﷺ: **وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتم شيئًا، فصالحوه على ذلك**»[3].

وفي غزوة بني المصطلق، ورغم انتصار المسلمين، وأسرهم مائة بيتٍ من بني المصطلق، إلا أن الرسول ﷺ حقن دماءهم، ولم يفعل كقادة الجيوش وقتها أو الآن؛ فيقتلهم، ويقضي عليهم، بل زاد الرسول ﷺ على الإبقاء على حياتهم أن أعتق جويرية بنت الحارث سيد بني

---

(١) أي اليهود.

(٢) يعني: لباسهم.

(٣) ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٣٧٦.

المصطلق، وتزوجها؛ فقال المسلمون: أصهار رسول الله ﷺ؛ فأطلقوا سراح جميع ما بأيديهم من السبي[1].

المطلب الرابع: عدم دموية الحروب النبوية:

تميَّزت الحروب النبوية بأنها حروب غير دموية، بمعنى أنها لم يكن فيها ما يُعرف الآن بجرائم إبادة الشعوب، حيث نجد فيما يُسمى «بحضارات» العالم الحديثة أن بعض الزعماء أخذوا قرارات نتج عنها إفناءٌ لِكَمٍّ هائلٍ من البشر في مدينة أو دولة أو أحيانًا قارة!(صورة ٦). لكن حروب رسول الله ﷺ لم تكن على هذه الصورة، ذلك أنه – كما ذكرنا – كان حريصًا على تجنب القتال ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وإذا اضطر إليه حاول أن ينهيه بسرعة، وأثناء القتال نفسه كان يحفظ دماء المدنيين، وكذلك يحفظ دماء المستكرهين على القتال، ثم بعد القتال كان يعفو إذا ملك، ويسامح ويرحم إذا غَلَب. فجاءت حروبه على مستوى من الرقي لا تعرفه – بل لا تفهمه – «الحضارات» الحديثة!

ولغة الأرقام لا تكذب!

لذلك فقد قمت بإحصاء عدد الذين ماتوا في كل الحروب النبوية، سواء من شهداء المسلمين، أو من قتلى الأعداء، ثم قمت بتحليل لهذه الأعداد، وربطها بما يحدث في عالمنا المعاصر، فوجدت عجبًا!!

لقد بلغ عدد شهداء المسلمين في كل معاركهم أيام رسول الله ﷺ، وذلك على مدار عشر سنوات كاملة، ٢٦٢ شهيدًا تقريبًا، وبلغ عدد قتلى أعدائه ﷺ حوالي ١٠٢٢ قتيلًا، وقد حرصت في هذه الإحصائية على جمع كل من قُتِل من الطرفين حتى ما تم في حوادث فردية، وليس في حروب مواجهة، كما أنني حرصت على الجمع من الروايات الموثَّقة بصرف النظر عن الأعداد المذكورة، وذلك كي أتجنب المبالغات التي يقع فيها بعض المحققين بإيراد

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٢١٩، الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢١٣.


إبادة الشعوب
جريمة في حق
شعوب أوروبا
جريمة في حق
شعب اليابان
جريمة إبادة الشعوب جريمة إبادة الشعوب جريمة إبادة الشعوب

صورة رقم (٦)

الروايات الضعيفة التي تحمل أرقامًا أقل[١]، وذلك لتجميل نتائج الحروب النبوية![٢]

وبذلك بلغ العدد الإجمالي لقتلى الفريقين ١٢٨٤ قتيلًا فقط!!

ولكي لا يتعلل أحدٌ بأن أعداد الجيوش آنذاك كانت قليلة؛ ولذا جاء عدد القتلى على هذا النحو، فإنني قمت بإحصاء عدد الجنود المشتركين في المعارك، ثم قمت بحساب نسبة القتلى بالنسبة إلى عدد المقاتلين، فوجدت ما أذهلني!! إن نسبة الشهداء من المسلمين إلى الجيوش المسلمة تبلغ ١٪ فقط، بينما تبلغ نسبة القتلى من أعداء المسلمين بالنسبة إلى أعداد جيوشهم ٢٪! (شكل ٤)، وبذلك تكون النسبة المتوسطة لقتلى الفريقين هي ١,٥٪ فقط!

إن هذه النسب الضئيلة في معارك كثيرة بلغت ٢٥ أو ٢٧ غزوة[٣]، و٣٨ سرية[٤]، أي أكثر من ٦٣ معركة، لمن أصدق الأدلة على عدم دموية الحروب في عهده ﷺ.

ولكي تتضح الصورة بشكل أكبر وأظهر فقد قمت بإحصاء عدد القتلى في الحرب العالمية الثانية – كمثال لحروب «الحضارات» الحديثة، وخاصَّة أن الدول التي اشتركت فيها ما زالت تدَّعي أنها رائدة للحضارة ولحقوق الإنسان! - ثم قمت بحساب نسبة القتلى بالقياس إلى أعداد الجيوش المشاركة في القتال، فصُدِمْتُ بمفاجأة مذهلة!!! إن نسبة القتلى في هذه الحرب الحضارية بلغت ٣٥١٪ !!!

ومن جديد.. إن الأرقام لا تكذب!!!

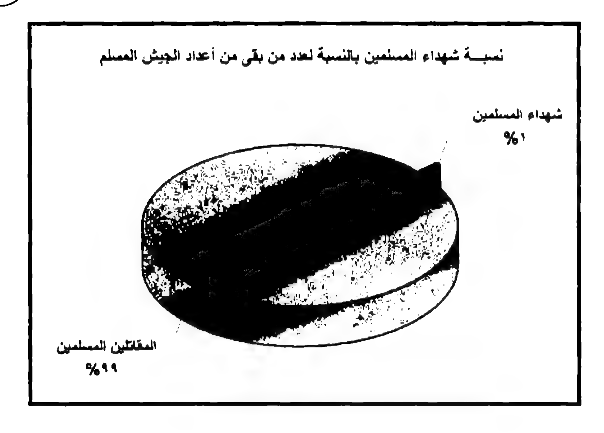
---

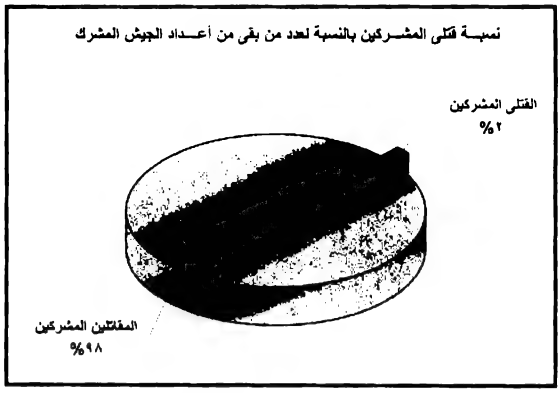
(١) اعتمدت في حصر الأرقام على ما ورد أولاً في كتب الصحاح والسنن والمسانيد، ثم على روايات كتب السيرة بعد توثيقها، كسيرة ابن هشام، وعيون الأثر، وزاد المعاد، والسيرة النبوية لابن كثير، والطبري، وغيرهم.

(٢) كما يذكر بعضهم أن شهداء حادثة بئر معونة هم سبعة وعشرون شهيدًا، بينما الصواب سبعون شهيدًا، أو كما يُسقط بعضهم قتلى بني قريظة من الحساب، بحجة أنهم لاقوا ما يستحقون نتيجة خيانتهم، بينما الصواب أن نثبتهم لأنها كانت معركة حقيقية، بصرف النظر عن أسبابها، وهكذا.

(٣) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ١/ ١٢٥، ابن حزم: جوامع السيرة ١/ ١٦.

(٤) ابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ٤٣٢.





شكل (٤)

نسبة شهداء المسلمين إلى عدد الجيش المسلم،
ونسبة قتلى أعداء المسلمين إلى جيوشهم

لقد شارك في الحرب العالمية الثانية ١٥,٦٠٠,٠٠٠ جندي (خمسة عشر مليونًا وستمائة ألف)، ومع ذلك فعدد القتلى بلغ ٥٤,٨٠٠,٠٠٠ قتيل (أربعة وخمسين مليونًا وثمانمائة ألف)!!! أي أكثر من ثلاثة أضعاف الجيوش المشاركة! وتفسير هذه الزيادة هو أن الجيوش المشاركة جميعًا – وبلا استثناء – كانت تقوم بحروب إبادة على المدنيين، وكانت تسقط الآلاف من الأطنان من المتفجرات على المدن والقرى الآمنة، فتبيد البشر، وتُفني النوع الإنساني، فضلًا عن تدمير البنى التحتية، وتخريب الاقتصاد، وتشريد الشعوب!!

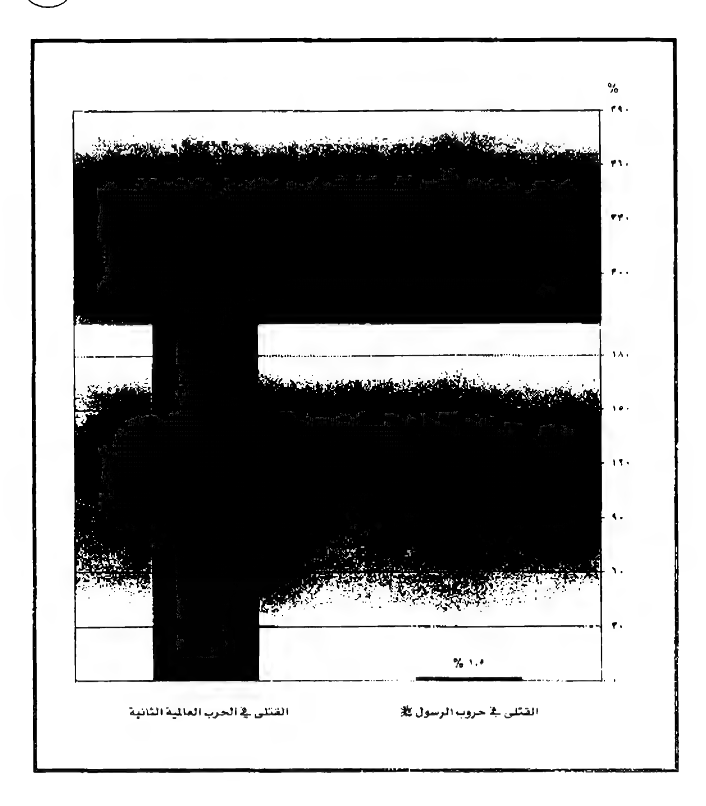
لقد كانت كارثة إنسانية بكل المقاييس!

وليس خافيًا على أحد أن المشاركين في هذه المجازر كانت الدول التي تعرف آنذاك -- والآن – بالدول المتحضرة الراقية! كبريطانيا وفرنسا وأمريكا والاتحاد السوفيتي والصين وألمانيا وإيطاليا واليابان!

أي تحضر هذا؟! وعن أي رقيٍّ يتكلمون؟! ثم أين أولئك الذين يصفون رسولنا ﷺ بالعنف والإرهاب؟!

قارن هذه النسب المفجعة بما كان على عهد رسول الرحمة ﷺ (شكل ٥).

إن العودة للأرقام سترد كلَّ مُنصفٍ إلى جادَّة الطريق، أما من اختار العمى على الهدى فلا يلومنَّ إلا نفسه!!



شكل رقم (٥)

القتلى في حروب الرسول ﷺ والحرب العالمية الثانية

المطلب الخامس: رد شبهة التجاوز في التعامل مع بني قريظة:

والشبهة التي تثار عند الحديث عن عدم دموية الحروب النبوية هي قتله لرجال قبيلة بني قريظة، والتي اختلفت الروايات في تحديد أعدادهم، فهم يتراوحون بين أربعمائة وسبعمائة رجل[١].. وقبل الحديث عن الحدث نفسه نود أولا أن نقف على حيثيات وظروف ذلك الحكم..

فمن المعروف أن النبي ﷺ بمجرد قدومه المدينة عقد مع اليهود الموجودين بها معاهدة رائدة، تعد بمثابة أقدم دستور مسجل في العالم[٢]، والتي كان من أهم بنودها: التزام كل من المسلمين واليهود بالمعايشة السلمية فيما بينهما وعدم اعتداء أي فريق منهما على الآخر في الداخل. وتعهد كل من الطرفين بالدفاع المشترك عن المدينة ضد أي اعتداء خارجي، وعلى اليهود أن يتفقوا مع المؤمنين ما داموا محاربين[٣].

وقد حدث في العام الخامس من الهجرة أن تجمعت أكبر قوة معادية للمسلمين في ذلك الوقت للقضاء عليهم داخل المدينة، وأحاطت جيوش الأحزاب بالمدينة في عشرة آلاف مقاتل من مشركي قريش وقبائل غطفان وأشجع وأسد وفزارة وبني سليم، على حين لم يزد عدد المسلمين على ثلاثة آلاف مقاتل[٤]. وكان المتوقع أن تنضم بنو قريظة إلى صفوف المسلمين ضد القوات الزاحفة على المدينة بناء على نصوص المعاهدة المبرمة بين الفريقين، لكن الذي حدث هو عكس هذا تمامًا! فلم تكتف بنو قريظة بمجرد السلبية، ولكن فوجئ المسلمون بهم يخونونهم في أخطر أوقات محنتهم، ولم يرعوا للعهود حرمة، في سبيل التعجيل بسحق المسلمين والقضاء عليهم قضاء تامًا.

وبمجرد أن سمع رسول الله ﷺ بهذه الخيانة الخطيرة أرسل وفدًا مكونًا من سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير ﷺ؛

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٧٢، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٢٣٩.

(٢) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٣٦٨.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٨٤، وابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ١٧٦.

ليذكّروا القوم بما بينهم وبين المسلمين من عهود، ويحذروهم مغبّة ما هم مقدمون عليه، فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، وقالوا عن رسول الله ﷺ: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبينه[1]!! وهكذا ركب القوم رءوسهم، وقرروا الانضمام الفعلي للغزاة، وأخذوا يمدونهم بالمال والعتاد.

وقد تدخلت عناية الله لنصرة الإيمان وأهله، وشاء الله أن يندحر ذلك التحالف الوثني اليهودي ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]. وبعدها مباشرة جاء الوحي رسولَ الله ﷺ بأمره بأن ينهض إلى بني قريظة؛ جزاءً لمكرهم وغدرهم وخيانتهم، فسار إليها وحاصرها ﷺ والمسلمون شهرًا أو خمسة وعشرين يومًا[2]. ولما طال عليهم الحصار عرضوا على الرسول ﷺ أن يتركهم ليخرجوا إلى أذرعات بالشام تاركين وراءهم ما يملكون، ورفض ﷺ إلا أن يستسلموا دون قيد أو شرط، وبالفعل استسلم يهود بني قريظة، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فوكل الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ أحد رؤساء الأوس[3]. وكان سعد حليف بني قريظة في الجاهلية، وقد ارتاح اليهود لهذا الاختيار، وظنوا أن الرجل قد يحسن إليهم في حكمه، لكن سعدًا نظر إلى الموقف من جميع جوانبه، وقدّره تقدير من عاش أحداثه وظروفه، وشاهد كروبه ومآزقه، وعرف النذر المستطيرة التي تراءت في الأفق، فأوشكت أن تطيح بالعصبة المؤمنة لولا عناية الله ﷻ التي أنقذت الموقف.. وكان هو نفسه الذي شفع لديهم بادئ ذي بدء ليرجعوا عن غدرهم وغيهم، لكن القوم مضوا في عنادهم لا يقدرون للنتائج عاقبة، ولا يراعون الله في حلف ولا ميثاق، ولذلك لما كُلِّم في شأنهم أكثر من مرة قال ﷺ: «لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم»[4]، ثم بعد أن أخذ المواثيق على الطرفين أن يرضى كل منهما بحكمه[5] أمر بني قريظة

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٥٨.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٨٣، وابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٣٤.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٨٦.

(٤) المرجع السابق ٧/ ٥٨.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٨٧.

أن ينزلوا من حصونهم وأن يضعوا السلاح ففعلوا، ثم قال: «إني أحكم أن تقتل مقاتليهم وتسبى ذريتهم وأموالهم»، فقال رسول الله ﷺ: «حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ»(١)!! فقتل رجالهم وسبي نساؤهم وذراريهم، ولاقى بنو قريظة أسوأ مصير على أفظع خيانة..

وهنا يحلو للبعض أن يُشكِّكوا في تصرف الرسول ﷺ ومعاملته لبني قريظة، ويعتبروا أن معاملته هذه لهم تتسم بالوحشية والقسوة، وأنه كان من الممكن أن يعاقبوا بأي عقاب آخر كالإجلاء أو النفي..

وللبيان والتوضيح نقول: ماذا لو أن نتيجة غزوة الأحزاب تمت حسبما كان يخطط لها بنو قريظة وأحزابهم، ألم تكن هي الإبادة التامة للمسلمين أجمعين؟! على أن اليهود لم يُقدِموا على هذا العمل الخسيس إلا بعد أن تكوَّن لديهم ما يشبه اليقين بأنهم - بمساعدة المشركين - سوف يقومون بتدمير الكيان الإسلامي تدميرًا كاملًا، واستئصال شأفة المسلمين استئصالًا كليًّا، ولهذا لم يترددوا في الغدر بحلفائهم المسلمين، وعلى تلك الصورة البشعة(٢). ولقد كانوا حريصين الحرص كله على إبادة المسلمين، حتى لقد طلبوا من الأحزاب والمشركين أن يُسلِّموا إليهم سبعين شابًا من أبنائهم رهائن عندهم؛ ليضمنوا أن جيوش الأحزاب لن تنسحب من منطقة المدينة إلا بعد أن تفرغ من المسلمين وتقضي عليهم قضاء تامًا(٣).

فعلى الذين يستبشعون الحكم على بني قريظة، ويصفونه بأنه كان قاسيًا شديدًا، عليهم أن يحيطوا علمًا بجوانب الموضوع، وظروف القضية؛ ليدركوا أن اليهود هم الذين جروا الوبال على أنفسهم.

* * *

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل (٢٨٧٨)، وأحمد (٢٥١٤٠)، وابن حبان (٧٠٢٦)، والنسائي في سننه الكبرى (٥٩٣٩) واللفظ له، وابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ١٦٧.

(٢) محمد أحمد باشميل: غزوة بني قريظة، ص٢٤٣.

(٣) السيرة الحلبية ٢/ ٣٤٧.



المبحث الرابع
رفض مبدأ التخريب

بدَّل محمد الضلال بالهدى،
والجهل بالعلم، والهمجية
بالمدنية[١]

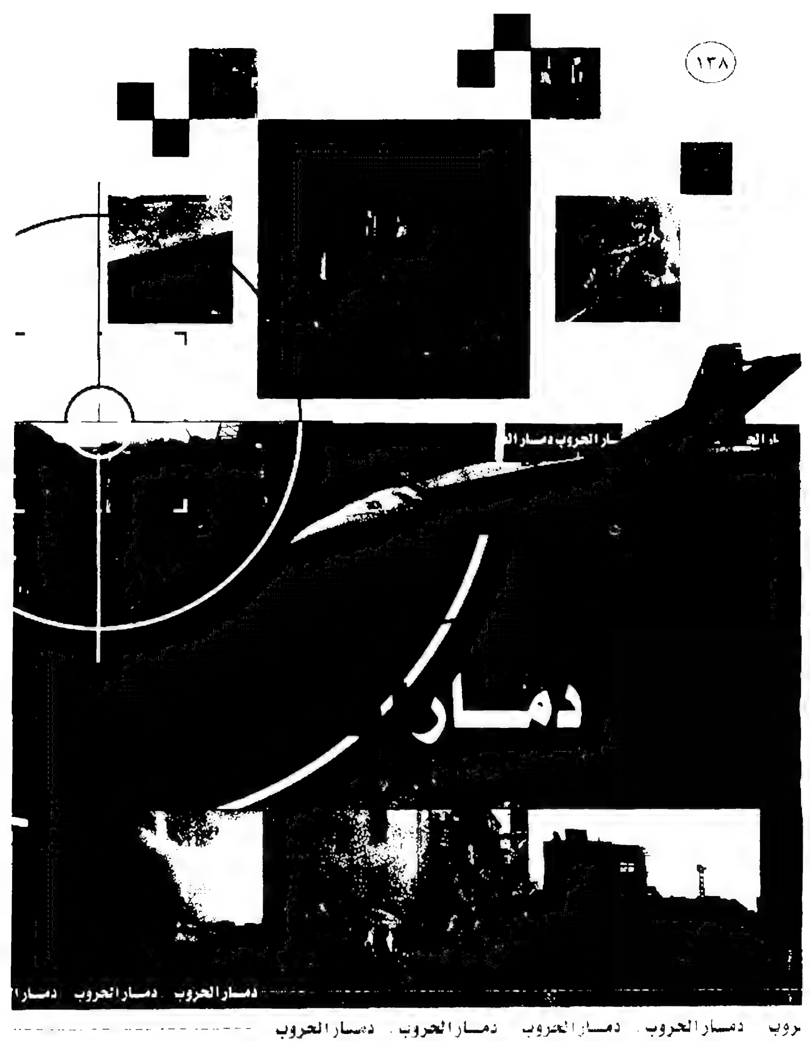
المطلب الأول: توجيهات نبوية راقية:

لم تكن حروب النبي ﷺ حروب تخريبٍ كالحروب المعاصرة التي يحرص فيها المتقاتلون من غير المسلمين على إبادة مظاهر الحياة لدى خصومهم (صورة ٧)، بل كان النبي ﷺ والمسلمون يحرصون أشد الحرص على الحفاظ على العمران في كل مكان، ولو كان بلاد أعدائهم؛ فقد جاء في وصية الرسول ﷺ لأحد جيوشه: «ولا تَقْطَعَنَّ شَجَرَةً، ولا تَعْقِرَنَّ نَخْلًا، ولا تَهْدِمُوا بَيْتًا»[٢].

وسار على نهجه الكريم المسلمون من بعده، وظهر ذلك واضحًا في كلمات أشدِّ الصحابة حرصًا على اتباع سنَّته، وهو الصديق ﷺ، وذلك عندما وصَّى جيوشه المتجهة إلى فتح الشام، وكان مما جاء في هذه الوصية: «ولا تفسدوا في الأرض..»، فهذا شمول عظيم لكل أمر حميد، فالصديق ﷺ ينهى بوضوح عن كل إفساد في الأرض أيًّا كانت صورته، وجاء أيضًا في وصيته «ولا تغرقنَّ نخلًا ولا تحرقنها، ولا تعقروا بهيمة، ولا شجرة تثمر، ولا تهدموا بيعة..»[٣]، فهذه تفصيلات توضح المقصود من وصية عدم الإفساد في الأرض، لكيلا يظنُّ قائد الجيش أن عداوة القوم تُبيح بعض صور الفساد، فالفساد بشتى صوره أمر مرفوض في الإسلام.

---

(١) ميخائيل نعيمة.
(٢) البيهقي في سننه الكبرى (١٧٩٣٥).
(٣) البيهقي في سننه الكبرى (١٧٩٠٤).


دمار
دمار الحروب دمار الحروب دمار
روب دمار الحروب دمار الحروب دمار الحروب دمار الحروب

صورة رقم (٧)

المطلب الثاني: الحفاظ على دور العبادة:

كان من السمات الرئيسية لحربه ﷺ هو الحفاظ الكامل على دور العبادة سواء كانت يهودية أو نصرانية، وكيف لا وقد نزلت عليه آية كريمة تجعل أحد أسباب القتال في الإسلام هو الدفاع عن دور العبادة ولو كانت لغير المسلمين! قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]، والصوامع والبيع والصلوات هي دور عبادة غير إسلامية، فتحددت بذلك الرؤية الإسلامية لهذه الأماكن مع كونها مخالفة للعقيدة التي يدين بها المسلمون. من هنا نفهم ما كتبه رسول الله ﷺ لنصارى نجران مثلًا في معاهدته معهم حين قال: «.. **ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد رسول الله ﷺ على أموالهم وملَّتهم وبِيَعِهِم... وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير...**»[(١)].

ومن المواقف العجيبة في السيرة أن المسلمين بعد فتح خيبر، وانتصارهم على اليهود جمعوا الغنائم، وكان فيها نسخ من التوراة، فأمر النبي ﷺ بردِّها إلى اليهود.[(٢)] وقد فعل ذلك مع قناعته التامَّة أن هذه التوراة محرَّفة، ومع ذلك فهو يحترم عقيدتهم ودينهم فلا يهدف أبدًا إلى إبادة هذه العقائد والأديان ولكن يسعى إلى التعايش معها برغم اختلافها الجذري معه.

كما كان اليهود أيضًا يدرسون التوراة في (بيت المِدْرَاس)[(٣)] في المدينة المنورة.. ومعلوم بالضرورة ما كان في تدريسهم من مخالفات كثيرة لما في القرآن، ومع ذلك لم يمنعهم رسول الله ﷺ من الدراسة فيه.

هذا هو تعامله ﷺ مع دور العبادة، وشئون العقيدة، للمحاربين له، وليقارن كل مُنصِف هذا الرقي في التعامل بما واجهته دور العبادة الإسلامية على أيدي غير المسلمين في العقود المختلفة، بل وفي زماننا هذا! فما سلم من التدمير (صورة ٨) حُوِّل إلى كنيسة (صورة ٩)! ليبقى النموذج الإسلامي في التعامل مع الغير نموذجًا فريدًا غير متكرر، لا في التاريخ ولا في واقعنا المعاصر!

---

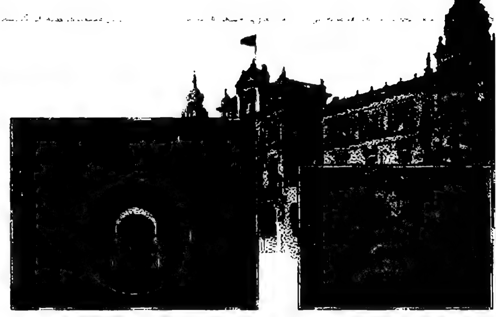
(١) البيهقي: دلائل النبوة، باب وفد نجران ٥/ ٤٨٥، أبو يوسف: الخراج ص٧٢.

(٢) المقريزي: إمتاع الأسماع ص٣٢٣.

(٣) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٥٢، ٥٥٨، ٥٦٤. وانظر: ابن منظور: لسان العرب ٦/ ٧٩.


انتهاك
في الحروب
ساجد انتهاك حرمة المساجد انتهاك حرمة المساجد انتهاك حرمة المساجد

صورة رقم (٨)



تم نحت تمثال يمثل السيدة مريم على قباب المسجد

تم وضع تمثال يمثل المسيح عليه السلام مكان القبلة



تم رسم صور على الجدران بدلاً من الزخارف

تحويل مسجد قرطبة إلى كنيسة

تم وضع أجراس و صلبان على مآذن المسجد

تحويل مسجد أشبيلية إلى كنيسة

صورة رقم (٩)

المطلب الثالث: رد شبهة حرق نخيل بني النضير:

يطعن بعض من لم يقرأ السيرة قراءة جيدة، أو قرأها فأخفى أشياء وأظهر أخرى لأهداف في نفسه، يطعنون في أن رسول الله ﷺ حرق نخيل بني النضير، وأن ذلك إفساد في الأرض! ولتوضيح الصورة لمن لا يعلم لابد من معرفة القصة من بدايتها.

لقد قامت قبيلة بني النضير بخيانة عظمى للعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وذلك بتدبير محاولة اغتيال رسول الله ﷺ نفسه، وهذه ليست جريمة عادية، فرسول الله ﷺ كان - فضلًا عن كونه رسول رب العالمين - رئيسًا للمدينة المنورة بكاملها، وقتله سيؤدي حتمًا لفتن ضخمة تعصف بالمدينة، ولعل نهاية المسلمين تكون بعد هذه الجريمة، وخاصة أن هذه الجريمة دُبِّرت في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة، أي بعد مصيبة أُحد[١]، وحادث ماء الرجيع[٢]، وحادث بئر معونة[٣] بقليل جدًّا، وكان مجموع شهداء المسلمين في هذه الكوارث الثلاث مائة وخمسين شهيدًا، وهو عدد ضخم جدًا، لاسيما والدولة الإسلامية في بداية نشأتها.. لذلك أخذ رسول الله ﷺ موقفًا حاسمًا فقرر إخراج بني النضير إلى خارج المدينة، وهذا أقل عقاب يتناسب مع الحدث، وإلا كان قتلهم بتهمة التدبير لقتل الرسول ﷺ أمرًا واردًا، ولكنَّ بني النضير رفضوا الخروج، وأرسل رئيسهم حيي بن أخطب إلى رسول الله ﷺ يقول له: «إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك»[٤]، بل وتحالف اليهود تحالفًا شيطانيًا مع المنافقين بالمدينة بقيادة عبد الله بن أبي ابن سلول، وتعاهدوا جميعًا على قتال رسول الله ﷺ، فلم يجد رسول الله ﷺ بُدًّا من القتال، وبالفعل أخذ جيشه وحاصر حصون بني النضير. استمر الحصار ستة أيام[٥]، وفي رواية خمسة عشر ليلة[٦]، وأثناء هذا الحصار كان اليهود

---

(١) كانت في شوال ٣ هـ، واستشهد فيها سبعون صحابيًّا.

(٢) غدرت بنو لحيان بعشرة من المسلمين وقتلتهم في صفر ٤ هـ.

(٣) غدرت بعض الفروع من بني سليم بقيادة عامر بن الطفيل بالمسلمين، وقتلوا منهم سبعين، وذلك في صفر ٤ هـ.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٥٧، ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ١١٥.

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ١٤٤.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٥٨.

يرمون المسلمين بالنبل والحجارة والسهام من خلف أسوار الحصون، وساعدهم على استمرار الرمي وجود النخيل خارج الحصون، فكان يحميهم، وفي ذات الوقت يعوق الرؤية للمسلمين، وصعب الموقف على المسلمين، وكان من الممكن أن يستمر الحصار فترات طويلة جدًا لولا أن الرسول ﷺ أمر الصحابة بإحراق النخيل الموجود خارج الحصون.

لقد كان الهدف من حرق النخيل واضحًا عند رسول الله ﷺ، فهو لم يكن يريد بحرقه الإفساد في الأرض كما يدّعون - حاشاه، إنما أراد بذلك هدفين رئيسيين؛ أما الهدف الأول: فهو فتح المجال للسهام الإسلامية أن تصل إلى داخل الحصون اليهودية، وتجنب الرمي اليهودي الذي كان يعتمد على الاختفاء خلف هذا النخيل، أي أن الأمر كان ضرورة عسكرية بحتة. قال الشافعي[1]: تحرق البيوت والشجر إذا كانت لهم معاقل، وهكذا كانت في بني النضير[2]. وأما الهدف الثاني من حرق النخيل: فهو استفزاز اليهود للخروج من الحصون ومحاربة المسلمين وجهًا لوجه، فالحصار صعب على المسلمين كما هو صعب على اليهود، والبقاء طويلًا أمام الحصون ليس أمرًا آمنًا، خاصة في وجود المنافقين وبني قريظة اليهودية في داخل المدينة، كما أن أمر قريش ليس مضمونًا، فقد يعيدون الكرّة في الهجوم على المدينة بعد مصابها في ماء الرجيع وبئر معونة؛ لذلك آثر رسول الله ﷺ أن يُحفّز اليهود على الخروج للقتال بدلًا من انتظار الأيام والشهور خارج الحصون. يؤيد ذلك المنطق عدة أدلّة منها: أولاً: لم يتم حرق عدد كبير من النخيل، ففي رواية قتادة والضحَّاك أنهم قَطَعُوا مِنْ نَخِيلِهِمْ وَأَحْرَقُوا سِتَّ نَخَلات فقط[3]، وفي رواية ابْن إِسْحَاق قال: قَطَعُوا نَخْلَةَ وَأَحْرَقُوا نَخْلَةَ[4]! فالعدد قليل جدًا، ولو كان القطع بغرض النكاية والتشفي، أو بغرض الإفساد في

---

(١) الإمام الشافعي: هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي، ولد عام ١٥٠هـ. أحد الأئمة الأربعة، وهو أول من دوّن علم أصول الفقه، قال أحمد بن حنبل: كان الشافعي كالشمس للنهار، وكالعافية للناس، وإني لأدعو له في أثر صلاتي: «اللهم اغفر لي ولوالدي، ولمحمد بن إدريس الشافعي». مات بمصر سنة ٢٠٦هـ.

(٢) ابن رشد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد ١/ ٣٠٩، ابن عبد البر النمري: الاستذكار ٥/ ٣١.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٢٨/ ٢٧١، ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير ٨/ ٢٠٨، الشوكاني: فتح القدير ٥/ ٢٧٦.

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٢٨/ ٢٧١، الشوكاني: فتح القدير ٥/ ٢٧٦.

الأرض لكان المقطوع أضعاف ذلك حتمًا. الدليل الثاني أن هذا الفعل نادرٌ جدًا في السيرة، بل هي المرَّة الوحيدة التي فعل فيها رسول الله ﷺ ذلك، ولو كان الهدف هو الإفساد في الأرض فلماذا لم يفعله مع غير بني النضير؟ بل لماذا لم يفعله مع بني قينقاع من قبل، أو مع بني قريظة ويهود خيبر من بعد؟ إن المنطق السليم ليؤكِّد أنه اضطر إلى ذلك اضطرارًا، وذلك لظرف عسكري كما بينًّا. أما الدليل الثالث فهو ما دار من حديث بين رسول الله ﷺ واليهود بعد حرق النخيل. فقد أرسل اليهود إلى رسول الله ﷺ من يقول له: يَا مُحَمَّد، أَلَسْت تَزْعُم أَنَّك نَبِيّ تُرِيد الصَّلَاح، أَفَمِنَ الصَّلَاح قَطْع النَّخْل وَحَرْق الشَّجَر؟ وَهَلْ وَجَدْت فِيمَا أَنْزَلَ الله عَلَيْك إِبَاحَة الْفَسَاد فِي الْأَرْض؟ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيّ ﷺ، وَوَجَدَ[1] الْمُؤْمِنُونَ فِي أَنْفُسهمْ حَتَّى اخْتَلَفُوا[2].

إن اليهود – مع كل جرائمهم وآثامهم – يحاولون دائمًا تشتيت انتباه الناس عن أصول الأمور وحقائق الأشياء، ويحاولون دائمًا الدخول في قضايا جانبية للفت النظر عن القضايا الأساسية، وإلا فما حرق بضع نخلات إلى جوار محاولة قتل نبيٍّ وزعيم؟ وما هو حجم الفساد الذي سيحدث في المدينة إذا قُطِعَت عدة نخلات بالقياس إلى الفساد الذي سيحدث إذا قُتِل زعيم المدينة ورئيسها؟! إن حُجَّتَهم واهية جدًا، ومع ذلك فقد أثَّرت هذه الحُجَّة في نفسية الرسول ﷺ وصحابته، فشقَّ ذلك عليهم كما تقول الرواية، مما يدلُّ دلالة قاطعة على أنه ﷺ لم يكن يريد فسادًا في الأرض بهذا الفعل، وهل يتأثر مفسدٌ في الأرض إذا لامه أعداؤه على قطع بضع نخلات؟! والدليل الرابع على أن هذا الأمر كان أمرًا عارضًا تمامًا ولم يكن سُنَّة مطردة أن أبا بكر الصديق ﷺ – مع شدة حرصه على اتباع سُنَّة الرسول ﷺ - إلا أنه أمر الجيوش المتجهة إلى حرب الرومان بعدم قطع النخيل تحديدًا، ولو كان الأمر متكررًا في حياته ﷺ لأمر به الصديق ﷺ، أو على الأقل سكت عنه، لكنه قال في وضوح وحسم ليزيد بن أبي

(١) أي: حزن.

(٢) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ١٢/ ٢٣، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٢٨/ ٢٧١، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٢٣.

سفيان – أحد قادة الجيوش-: «وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا وَلَا تُفَرِّقَنَّهُ»[(١)]! ألا ما أروع هذا الدليل وأحسنه! إنَّ الصدِّيق ﷺ يوضِّح بهذه الكلماتِ العذبةِ السياسةَ الإسلامية في التعامل مع ممتلكات العدو. إننا لا نريد فسادًا في الأرض بأي صورة من الصور، حتى لو كان هذا الفساد في أرض عدونا! ثم الدليل الخامس والأخير على براءة رسولنا ﷺ من هذه الشبهة الكيدية هو دليلٌ للمسلمين المؤمنين بكتاب الله عز وجل، ونعلم أنه لا يُقنع غير المسلمين لأنهم لا يؤمنون بالقرآن أصلًا، ولكن نسوقه لكي تطمئن قلوبنا، فنتكلم ونحن واثقون من الحق الذي معنا. لقد أنزل الله عز وجل آيات تتحدث عن هذا الموضوع تطمئن الرسول ﷺ والصحابة أن اجتهادهم في هذا الأمر كان مُصيبًا، وأن رأيهم كان صحيحًا، وأن اليهود قوم فاسقون يُضخِّمون بعض الأمور ليصرفوا أذهان الناس عن أفعالهم الخبيثة، فلا يجب أن يكترث المسلمون بذلك. قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ[(٢)] أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر:٥]، وبذلك هدأت نفوس المسلمين واطمأنت.

إن إصلاح الأرض واجب شرعي على كل مسلم يفقه دينَه، ويعلم تاريخ رسوله ﷺ، والرقابة علينا في ذلك من الله عز وجل قبل أن تكون من فرد أو لجنة أو دولة! إنه من صُلْبِ ديننا أن نُعمِّرَ الأرض ونُصْلِحَها، ومن اعتقد غير ذلك فهو – ويا لخسارته – لا يعرف الإسلام!

***

---

(١) مالك في الموطأ برواية يحيى الليثي (٩٦٥).

(٢) اللينة: النخلة، وهن من ألوان النخل ما لم تكن عجوة. انظر الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣٢/١٢.

المبحث الخامس
الوفاء في الحروب النبوية

حياة النبي مرآة نقية تعكس لنا الأخلاق التي تكون الإنسانية[(١)]

لم يُؤثَر عن الرسول ﷺ أنه غَدَرَ بعهدٍ قطُّ، بل كان مثالَ الوفاء الدائم، وإن غَدَرَ به أعداؤه، وسنتناول هذا المعنى من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: الحق ما شهدت به الأعداء!

وقد شهد بذلك الأعداء؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بن حرب أَخْبَرَهُ أنه عندما كان في بلاد الروم في كفره أثناء صلح الحديبية؛ أحضره هرقل بين يديه، وسأله عن الرسول ﷺ بعدما وصله (أي: هرقل) رسالة رسول الله ﷺ، وكان مما سأله عنه أن قال: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ فقال أبو سفيان: لا..

ثم علق هرقل في ختام حواره مع أبي سفيان قائلًا: وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ لا يَغْدِرُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ[(٢)]..

وفي عمرة القضاء بعد صلح الحديبية بسنة خرج رسول الله ﷺ في ألفين من أصحابه، وحمل معه سلاحًا كثيفًا، تحسُّبًا لأي خيانة من قريش، ولكنه كان ينوي دخول مكة - كما اتفق مع أهلها العام الماضي - بسلاح المسافر فقط، ولكن عيون قريش رأت الأسلحة فَفَزِعَتْ، وأرسلت وفدًا برئاسة «مِكْرَز بن حفص» ليستوضحوا حقيقة الأمر، فقابلوا رسول

---

(١) هيلي، لورد إنجليزي اعتنق الإسلام سنة ١٩١٤م.

(٢) البخاري: كتاب التفسير: سورة آل عمران (٤٢٧٨)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (١٧٧٣)، وابن حبان (٦٥٥٥).

الله ﷺ في بطن يأجج[1] بمر الظهران، فانظر ماذا قال أعداؤه وهم يخاطبونه!

لقد قالوا له: يا محمد، والله ما عرفناك صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر.. تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت ألا تدخل إلا على العهد، وأنه لن يدخل الحرم غير السيوف في أغمادها؟!

هذه شهادة من زعيم من زعماء الكفر، يُقرُّ فيها أنه ما عرف الغدر من رسول الله ﷺ لا في صغر ولا كبر؛ ولذلك كان متعجبًا من حمل رسول الله ﷺ للسلاح بعد اتفاقه معهم على دخول مكة بسلاح المسافر فقط، ولكن رسول الله ﷺ أكَّد له أنه سيدخلها حسب الاتفاق دون غدر ولا خيانة.

لقد وصلت قريش إلى حالة من الضعف لا تستطيع فيها أن تواجه قوة المسلمين، فكان هذا الفزع من القوة الإسلامية، وكان من الممكن أن يستغل رسول الله ﷺ هذا الفزع والهزيمة النفسية، وكان من الممكن أن يستغل اقترابه من مكة إلى هذه الدرجة، وهو في ألفين من رجاله مدججين بالسلاح، كان من الممكن أن يستغل ذلك كله في غزو مكة بحجة استرداد الحقوق، أو بحجة المعاملة بالمثل جزاء حصار الكفار للمدينة في غزوة الأحزاب.. كان من الممكن كلُّ ذلك، لو كان القائد غير رسول الله ﷺ، ولو كان الشرع الحاكم غير الإسلام.. إن المسلمين عند عهودهم مهما كانت الظروف، ولذلك أجاب رسول الله ﷺ في ثقة: «**لَا نَدْخُلُهَا إِلَّا كَذَلِكَ**»، وسمع مكرز الكلمة وطار مسرعًا إلى مكة يقول لهم: إن محمدًا لا يدخل بسلاح، وهو على الشرط الذي شرط لكم[2].. لقد قال مكرز هذه الكلمات وهو على يقين من تحققها، وما دام رسول الله ﷺ قال فلا شك أنه صادق.

* * *

---

(١) بطن يأجج: موضع قرب مكة على بعد ثمانية أميال منها.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ١٢١.

المطلب الثاني: أمره أصحابه بعدم الغدر:

وقد كان النبي ﷺ حريصًا على أن يغرس في نفوس الصحابة هذا الخلق العظيم: خلق الوفاء؛ فقد كان يودِّع السرايا موصِيًا إياهم: «.. ولا تغدروا..»[1]، ولم يكن ذلك في معاملات المسلمين مع إخوانهم المسلمين، بل كان مع عدوٍّ يكيد لهم، ويجمع لهم، وهم ذاهبون لحربه، فما أسمى هذه الأخلاق النبوية!!

وقد وصلت أهمية الأمر عند رسول الله ﷺ أن يتبرَّأ من الغادرين ولو كانوا مسلمين، ولو كان المغدورُ به كافرًا؛ فقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ أَمَّنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ، فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ القَاتِلِ، وَإِنْ كَانَ المَقْتُولُ كَافِرًا**»[2].

وقد ترسَّخت قيمة الوفاء في نفوس الصحابة حتى إن عمر بن الخطاب ﷺ بلغه في ولايته أنّ بعض المجاهدين قال لمحارب من الفرس: لا تخف، ثم قتله. فكتب ﷺ إلى قائد الجيش: «إنه بلغني أنَّ رجالًا منكم يَطْلُبُونَ العِلْجَ (الكافر)، حتى إذا اشتد في الجبل وامتنع، يقول له: «لا تخف». فإذا أدركه قتله، وإني والذي نفسي بيده، لا يبلغني أن أحدًا فعل ذلك إلا قطعت عنقه»[3].

المطلب الثالث: مواقف نادرة

إذا كان ما ذكرناه قبل ذلك من قواعد ونصوص تحض على الوفاء وترغب فيه أمرًا رائعًا فإن الأروع - ولا شك - هو التطبيقات الفعلية لهذه القواعد، فإننا كثيرًا ما «نسمع» عن الوفاء في مواثيق الأمم المختلفة وعهودها، ولكن قليلًا - وقليلًا جدًّا - ما «نرى» هذا الوفاء فعليًا على أرض الواقع. ولقد كان الوفاء في حياة رسول الله ﷺ آية من آيات نبوته!

لقد ظهر هذا الوفاء في كل تعاملاته مع أعدائه منذ اللحظات الأولى لإقامة دولة المدينة.

---

(١) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الأمير الأمراء على البعوث (١٧٣١)، والموطأ (٩٦٦)، وأبو داود (٢٦١٣)، والترمذي (١٤٠٨)، وابن ماجه (٢٨٥٧).

(٢) البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٣٢٢، واللفظ له، وابن حبان (٥٩٨٢)، والبزار (٢٣٠٨)، والطبراني في الكبير (٦٤)، وفي الصغير (٣٨)، والطيالسي في مسنده (١٢٨٥)، وأبو نعيم في الحلية ٩/ ٢٤ من طرق عن السدي عن رفاعة بن شداد به. وقال الألباني: صحيح. انظر حديث (٦١٠٣) في صحيح الجامع.

(٣) الموطأ: رواية يحيى الليثي (٩٦٧).

وما أروع وأوفى موقفه مع أهل مكة يوم غادرها مهاجرًا إلى المدينة المنورة! ليعلن للجميع أن الوفاء هو منهج الدولة الإسلامية الجديدة. لقد كان أهل مكة لا يثقون بأحد ثقتهم برسول ﷺ؛ ولذلك كانوا يحتفظون عنده بأموالهم وودائعهم، ولا غرو، فهو الصادق الأمين، وحتى بعد أن اشتدَّ الإيذاء به ﷺ، وحتى بعد أن وصفوه بالساحر والكذَّاب والكاهن والشاعر وغير ذلك من الصفات؛ كانوا لا يزالون يحافظون على عادتهم بحفظ الأموال عنده! وكان هو ﷺ لا يمتنع عن أداء هذا الدور حتى مع حربهم له.

ثم كانت الهجرة إلى المدينة المنورة، وكان تَرْكُ الديار والأموال والأعمال، وكان الظلم والتشريد والتنكيل، وكان تجاوز الحدود في كل ما هو سلبي من الأخلاق.. ومر رسول الله ﷺ بتجربة أليمة، وهي ترك أحب بلاد الله إلى قلبه، وذلك كما صرَّح هو بنفسه ﷺ بذلك قائلًا: «**عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللهِ وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللهِ وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»[1]، وبرغم كل هذه الآلام إلا أن رسول الله ﷺ حرص على العدل إلى أقصى درجة ممكنة؛ فترك الودائع والأموال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأمره أن يردها إلى أهلها.. وأقام علي رضي الله عنه بمكة ثلاث ليالٍ وأيامها، حتى أدَّى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده[2]. وما أحسب أن أحدًا في الأرض أتى بمثل ما أتى به رسول الله ﷺ من كمال الوفاء والعدل ومن خصال الخير والفضل!

إن أيَّ إنسانٍ مكانه قد يجد ألف تأويل ليُبَرِّر لنفسه أن يأخذ هذه الأموال، ولا يردها إلى أهلها.. قد يبرر ذلك بأنهم سرقوا أمواله وأموال المسلمين، وصادروا داره وديار المسلمين، فهذا في مقابل ذلك.. وقد يبرر ذلك بأنهم أكرهوه على الخروج، ولم يخرج بإرادته، وقد يبرر ذلك بأنهم خططوا لقتله، وكانوا جادين في هذا التخطيط إلى درجة أنه أفلت منهم بمعجزة

---

(١) الترمذي (٣٩٢٥) عن عبد الله بن عدي، وقال: حديث حسن صحيح. وأحمد (١٨٧٣٧ - ١٨٧٣٨)، والدارمي (٢٥١٠)، والحاكم (٥٢٢٠)، والنسائي في سننه الكبرى (٤٢٥٢)، وفي مشكاة المصابيح (٢٧٢٥)، وقال الألباني: صحيح. صحيح الجامع (٧٠٨٩).

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٢٧٠، ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢١، المباركفوري: الرحيق المختوم ص١٦١.

حقيقية في اللحظة الأخيرة قبل نجاح خطتهم الآثمة، وقد يبرر ذلك بأنه سيأخذ الأموال لتنتفع بها الدعوة الإسلامية، خاصةً وهي في أوائل أيامها في المدينة المنورة، وقد يبرِّر ذلك بأسباب أخرى كثيرة تخطر على بال العديد من الناس..

نعم هناك مبررات كثيرة لفعل ما تريد، ولكن عندما تأتي إلى الحقيقة، وتتجرد من أي ميول شخصية، أو أهواء ذاتية تدرك - بما لا يدع مجالًا للشكِّ - أن كل هذه المبررات غير مقبولة، وأن الحق أبلج واضح، وأن تطبيق الوفاء يحتاج إلى نفوس خاصة، وعزائم من طراز فريد.. إن هؤلاء المشركين الذين وضعوا أموالهم عنده ﷺ قدَ وضعوها بناء على اتفاق بينهم وبينه بحفظ الأمانة، ورسول الله ﷺ بموجب هذا الاتفاق أحرص عليهم وعلى أموالهم من آبائهم وأمهاتهم.. إنه لا يخون مهما كانت الظروف. إنه لا يغدر مهما تعرض لإيذاء.. إن الوفاء والعدل يقتضيان ألا يؤاخَذَ أولئك الذين وثقوا فيه – ولو كانوا كفارًا - بجريرة أولئك الذين حاولوا - ومازالوا يحاولون - أن يقتلوه.. إنهم مشغولون بمطاردته لقتله، وهو مشغول بردِّ ودائعهم إليهم..!

لقد كانوا في قمة الغدر، وكان هو في قمة الوفاء!

إنهم مشركون، وإنه لرسول رب العالمين!

والفارق بينهم وبينه أبعد من الفارق بين السماء والأرض..

والجميل في الأمر أنه ﷺ يفعل كل ذلك دون تَكَلُّفٍ ولا تَفَضُّلٍ.. إنه لا يطير بهذا الموقف في الآفاق ليتحدث عن نفسه كيف فعل وفعل، إنه لا يأمر أصحابه من الشعراء والأدباء أن يسهبوا في الحديث عن مواقفه وأعماله... لقد كان يُغْفِلُ كلَّ ذلك لأن الله ﷻ أمره بكلِّ خُلُقٍ كريم، فهو متجرِّدُ النية لله، مخلص العمل له سبحانه، لا يرجو من عباد الله جزاءً ولا شكورًا ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وفي بدر كان لرسول الله ﷺ موقفُ وفاءٍ عجيب!

إنه لم يكن يحرص على الوفاء بعهوده الشخصية فقط، إنما كان يحرص أيضًا على أن يفي كل مسلم بعهده مع الأعداء ولو كان ذلك في زمان الحرب! يقول حذيفة بن اليمان ﷺ: ما

منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجتُ أنا وأبي حُسيل[1]، قال: فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدًا؟ فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفنَّ إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: «انْصَرِفَا نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ»[2].

فبرغم أن هذا العهد عُقِدَ بشكل فردي مع المشركين؛ ومع شدة الحاجة إلى هذَيْن المجاهِدَين في معركة بدر؛ إلا أن الرسول ﷺ قدّم الوفاء بعهدهما مع المشركين القادمين لقتاله على مشاركتهما في المعركة، مما يظهر بوضوح أهمية الوفاء عند الرسول ﷺ وعند المسلمين. إن حدوث مثل هذا الموقف النادر في بدر، على الرغم من قلة عدد المسلمين، وعلى الرغم من أن هذه أول موقعة حقيقية مع المشركين، وعلى الرغم كذلك من تاريخ الغدر الطويل لقريش مع المسلمين، إن حدوث مثل هذا الموقف على الرغم من كل ذلك لمن أبلغ الأدلة على أن الوفاء خلق أصيل من أخلاق الإسلام، لا تفريط فيه مهما صعبت الظروف أو اشتدت.

ولم يكن هذا هو موقف الوفاء الوحيد في بدر، بل كان هناك مواقف أخرى نادرة كذلك!

لقد كان رسول الله ﷺ يرى أنه من الوفاء أن يكافئ من أسدى جميلًا للمسلمين في يوم ما، ولو كانت هذه المكافأة في أرض المعركة، ولو كان هذا الوفاء لكافر محارب!

لقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري بن هشام؛ مع أنه خرج مقاتلًا في صفوف المشركين[3]، لأنه كان أكَفَّ القومِ عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان لا يُؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض صحيفة مقاطعة بني هاشم وبني المطلب[4]. إن هذه

---

(١) حُسَيل - بالتصغير ويقال بالتكبير - ابن جابر بن ربيعة المعروف باليمان العبْسي، والد حذيفة بن اليمان ﷺ، استشهد في حياة النبي ﷺ، وقد وقع ذكره في صحيح مسلم في هذا الموضع. انظر: الإصابة الترجمة رقم (١٧١٦)، وأسد الغابة ١/ ٥٦٣، والاستيعاب ١/ ٤٠٧.

(٢) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب الوفاء بالعهد (١٧٨٧)، وأحمد (٢٣٤٠٢)، والحاكم (٤٩٠٨)، والطبراني في الكبير (٣٠٠١)، وفي الأوسط (٨٤٣٦)، وابن أبي شيبة ٧/ ٣٦٣، والطحاوي في معاني الآثار (٤٢٩٥).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٢٨٤، الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٣٤، ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤٦٨.

(٤) السهيلي: الروض الأنف ٣/ ٧٣.

الفضائل التي قدَّمها هذا الفارس المشرك ظلت محفورة في ذهن رسول الله ﷺ، ولم تُطمس مع مرور الوقت أو رؤية الجموع المقاتلة. إنه الوفاء في أرقى صوره!

ومثلما قال الرسول ﷺ هذه الكلمة في حق أبي البختري بن هشام، قال كلمة مشابهة في حق مشرك آخر مات على كفره قبل بدر، وكان قد أسدى قبل ذلك جميلًا للمسلمين. إنه لم ينسه حتى بعد وفاته! وهذا المشرك هو المطعم بن عدي. فقد اشترك المطعم بن عدي في نقض الصحيفة التي قاطعت بها قريش بني هاشم، وكذلك أجار النبي ﷺ في مكة عند عودته من الطائف، حين تخاذل سادة مكة عن إجارته، ومرت الأيام والسنوات ولم ينس الرسول ﷺ هذه المكارم، فلما أمسك سبعين أسيرًا في موقعة بدر قال دون تردد: «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى، لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»[1]. لقد كان ﷺ على استعداد – وهو صادق - لإطلاق جميع الأسرى من دون فداء لو شفع فيهم المطعم بن عدي، وكان من الممكن لرسول الله ﷺ أن يتغاضى عن هذه الكلمة في حق رجل كان يعبد الأصنام، غير أنه أراد أن يُعرِّف المسلمين وغيرهم أن الوفاء خلق ثابت من أخلاق الإسلام التي لا تنظر إلى دين دون دين، أو عرق دون عرق.. إنه الوفاء المطلق الذي لم تعرف البشرية له مثيلًا!

ولعله من الجميل أن نختتم هذا الموضوع بموقف وفاء لا يتخيل أحد من الناس أنه من الممكن أن يحدث، وخاصة في هذه البيئة العربية القديمة، إنه موقف وفَّى فيه رسول الله ﷺ عهدَ امرأةٍ مسلمة أمَّنت رجلين كافرين مطلوبَين للقتل!! إن الموقف لعجيب حقًّا، وإنه لمن أندر المواقف، ليس في التاريخ الإسلامي فقط بل في التاريخ الإنساني كله!

ونترك أم هانئ بنت أبي طالب[2] رضي الله عنها تحكي موقفها العجيب! تقول أم هانئ: لما نزل

---

(١) البخاري: كتاب الخمس، باب ما منَّ النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يُخَمِّس (٢٩٧٠)، وأبو داود (٢٦٨٩)، والطبراني في الكبير (١٥٠٤)، ورواه عبد الرزاق في مصنفه (٩٤٠٠)، ورواه البيهقي في سننه الكبرى (١٢٦١٦) عن محمد بن جبير بن المطعم عن أبيه.

(٢) أم هانئ بنت أبي طالب أخت علي، وبه كانت تكنى، واختلف في اسمها فقيل: هند. وقيل: فاختة. وفرَّق الإسلام بينها وبين هبيرة، وهرب هبيرة لما فتحت مكة فمات بعد ذلك كافرًا، وكانت ولدت له هانئًا وجعدة. الإصابة: الترجمة (٨٩٣١).

رسول الله ﷺ بأعلى مكة[١] فر إليَّ رجلان من أحمائي من بني مخزوم - وكانت زوجًا هُبيرة بن أبي وهب المخزومي - فدخل عليَّ عليٌّ بن أبي طالب أخي فقال: والله لأقتلنَّهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة[٢].

إن هذين الرجلين مطلوبان للقتل، والرجلان هما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية بن المغيرة، وهما من قبيلة بني مخزوم، وهي القبيلة المنافسة دائمًا لبني هاشم التي ينتمي إليها رسول الله ﷺ، والذي يطلبهما للقتل هو علي بن أبي طالب ﷺ، وهو ليس رجلًا مسلمًا عاديًا، بل هو أحد الأمراء المعدودين، والوزراء المقربين، ثم هو رجل آتاه الله الحكمة، فقراره صائب، وحُكْمه شرعي، فلا شك أنه قد وجد من الرجلين أمرًا يستحقان القتل عليه، كمقاومة مسلحة، أو تهييج لشعب مكة على المسلمين، وقد فرَّ منه الرجلان، فلم يجدا غير بيت أم هانئ ﷺ، وهي أخت علي بن أبي طالب ﷺ، وفي الوقت نفسه هي زوجة لرجل من بني مخزوم، فطلبا منها أن تجيرهما من عليٍّ ﷺ، وهنا قامت المرأة المسلمة بشهامة تعلن إجارتها للرجلين، وأدخلتهما إلى بيتها، وأغلقت عليهما الباب دون أخيها، وتعجب عليٌّ ﷺ، وأقسم ليقتلنَّهما، ولكن ثبتت أم هانئ على موقفها، وطلبت الاحتكام لرسول الله ﷺ، فماذا قال الرسول الوفي ﷺ؟!

لقد قال رسول الله ﷺ في أدب جمٍّ: «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ»[٣].

هكذا في بساطة!

إننا نحمل هذه الرسالة الواضحة لمن يتهم رسولنا ﷺ بالعنف والإرهاب، فها هو يعفو في سهولة ويسر عن رجلين كافرين مقاتلين، دون أدنى سؤال أو تحقيق، كما نحمل هذه

---

(١) كان ذلك يوم فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة من الهجرة.

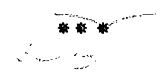
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٣١٨.

(٣) البخاري: كتاب الجزية، باب أمان النساء وجوارهن (٣٠٠٠)، ومسلم في الحيض باب تَسَتُّر المغتسل بثوب ونحوه (٣٣٦)، ومالك في الموطأ برواية يحيى الليثي (٣٥٦)، وأبو داود (٢٧٦٣)، وأحمد (٢٦٩٣٦)، وابن حبان (١١٨٨)، والحاكم (٦٨٧٤)، والطبراني في الكبير (٩٨٩)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٧٩٥٣).

الرسالة أيضًا لمن يتهم رسولنا ﷺ بالقومية والتعصب، فها هو يتجاوز عن رجلين من قبيلة منافسة، كان لها تاريخًا عدائيًا طويلًا مع قبيلة الرسول ﷺ، كما نتمنى أن نحمل ذات الرسالة إلى أولئك الذين يتهمون رسولنا ﷺ بظلم المرأة والقسوة عليها، فها هو يقدم إجارة امرأة على رغبة قائدٍ معتبر، وصاحبٍ حبيب!

إن هذه القاعدة التي رسَّخها رسول الله ﷺ في هذا الموقف ليست قاعدة استثنائية تخص امرأة دون غيرها، أو رجل دون غيره. إنها قاعدة ثابتة مطردة تضمن الوفاء بالعهد، وذلك لكل إنسان مهما كانت ملَّته أو أصوله أو ظروفه. إنها قاعدة عامَّة لا تبديل لها ولا تغيير. يقول رسول الله ﷺ: «ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، فَإِنْ جَارَتْ عَلَيْهِمْ جَائِرة، فَلَا تَخْفُرُوهَا[١]، فَإِنَّ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءً[٢]، يُعرَف بِهِ يَومَ القِيَامة»[٣].

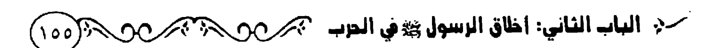
فليحمل كلُّ منصِفٍ هذه الرسائل إلى العالم أجمع، فما أحوج هذا العالم إلى هذه الكنوز الثمينة من أخلاق خير البشر، رسول الله ﷺ.



(١) أخفره: نقض عهده.

(٢) اللواء: الراية أو العَلَم، والمراد أنه يُعرَف بعلامة مميِّزة.

(٣) رواه الحاكم عن عائشة رضي الله عنها (٢٦٢٦) وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وأبو يعلى (٤٣٩٢)، وقال الألباني: صحيح. صحيح الجامع (٦٦٨٣).



المبحث السادس

لا إكراه في الدين

لم يحاول محمد قطّ أن يُكرِه غيره على اعتناق الإسلام(١)

المطلب الأول: مبدأ حرية العقيدة:

قرر الإسلام حرية العقيدة لكل إنسان تقريرًا لا يحتمل لَبسًا، فلا أحد يجهل قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقد جاء في سبب نزول الآية السابقة: أنه كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان متنصران قبل مبعث النبي ﷺ، ثم قدما المدينة في نفر من النصارى يحملون الزيت، فلزمهما أبوهما وقال: لا أدعكما حتى تُسلما، فأبيا أن يسلما؛ فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..﴾ الآية، فخلَّى سبيلهما(٢).

إن الإسلام لا يحتاج - لتكثير أتباعه - إلى قسر الإرادات، وحملها على اعتناقه عَنوة، بل هو منهج واثق من نفسه، ومن نفاذه إلى القلوب الحية المتجردة للحق، التي متى زالت الحوائل بينه وبين النفاذ إليها وَقَرَ الإيمان في سويدائها، وخَرَّ أصحابها ساجدين لعظمة الإله الحق. قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾

[الإسراء: ١٠٦، ١٠٧].

بل إن الله ﷻ جعل من أسباب الإذن بالقتال عند المسلمين - مع كل ما وجَّهَهُ الطاعنون من سهام - حماية حرية العبادة في الأرض للمسلمين وغيرهم. نجد ذلك في قوله سبحانه:

---

(١) هيدلي، لورد: إنجليزي اعتنق الإسلام سنة ١٩١٤م.

(٢) انظر: الواحدي: أسباب نزول القرآن ص٢٦، السيوطي: لباب النزول ص٣٧، الواحدي النيسابوري: أسباب النزول ص٥٣.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠] فالإذن بالقتال شُرِعَ لدفع الباطل.. ولولا هذا الدفع هُدِّمَتْ دور العبادة، بما فيها الصوامع والبيع التي يتعبد فيها غير المسلمين يقينًا..

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦]. فحتى إذا وقع التدافع بين الحق والباطل، ووقع القتال، وأوى إلى المسلمين أحدٌ من المشركين - مستجيرًا يطلب الأمان - إذا بالقرآن يُرَبِّي في نفوس المجاهدين المؤمنين أن يحسنوا إلى هذا المشرك (الذي أشهر السيف في وجوههم منذ لحظات!!) حتى يراهم عن قُرب، و«يسمعَ كلامَ الله»، ويرى ترجمته على أرض الواقع.. فإذا أُتيح له ذلك فقد يظنُّ مسلم أنه يجوز الآن حمله حملًا على اعتناق الإسلام - حيث رآه عن قُربٍ وحيث هو الآن في يد المسلمين - إلا أن الله تبارك وتعالى يأمر نبيه - والمسلمين من بعده - أن «أَبْلِغه مَأْمَنَهُ»!! دون إجبار على شيء.. فإذا بلغ مأمنه ورأى أن يدخل في الإسلام فستأتي به قدماه طائعًا لا كارهًا.

استقرَّ في قلوب المسلمين - إذن - حُبُّ تحرير العقول من سلطان القهر أيًا كان، حتى ولو حملًا على الحق المبين، وازداد الأمر ترسُّخًا عندما رأوا فعل الرسول الأمين ﷺ، فما قال في حياته شيئًا إلا وكان له تطبيق واقعي في حياته وحياة الناس، وإنَّ تدبُّر ذلك في حياته لمن الأهمية بمكان!.

* * *

المطلب الثاني: تطبيقات نبوية:

مع حرص رسول الله ﷺ الشديد على الوصول برسالته إلى الناس، ومع حبه العميق لإيمانهم، إلا أنه ما فكَّر – ولو لمرة واحدة – في حياته على إكراههم على الإسلام. ظهر ذلك في كل مواقف حياته، وكذلك في كل مكاتباته وعهوده. لقد كتب رسول الله ﷺ إلى أهل الكتاب من أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، ويبين لهم معالمه – فيما رواه عروة بن الزبير – فكان في رسالته: «.. وأنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنه من المؤمنين: له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُفتَن عنها...»[1]. كذلك كتب ﷺ لأهل نجران عهدًا طويلًا جاء فيه: «.. ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي على أنفسهم ومِلَّتِهِمْ وأراضيهم... وألا يُغَيَّرُوا مما كانوا عليه، ولا يُغَيَّرَ حقٌّ من حقوقهم ولا مِلَّتِهِمْ، ولا يُغَيَّرَ أُسقف عن أُسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا وافه عن وافهيته»[2].

إن هذا الأمر واضح تمام الوضوح لكل من درس السيرة من مصادرها الموثَّقة، ومراجعها الدقيقة. بل أعظم من ذلك أنه لم يكن يُكره أحدًا على الإسلام حتى بعد التمكن منه في حرب أو أسر أو غيرهما.

وما أروع موقفه ﷺ مع أعرابي خطط لقتله!

يروي جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، يقول: قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة[3] بنخل، فرأوا من المسلمين غِرَّةً، فجاء رجل منهم يقال له: غورث بن الحارث حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله!» فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟!» قال: كن كخير آخذ، قال: «أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟» قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلَّى سبيله!!

---

(١) أبو عبيد: الأموال ص٢٨.

(٢) الوافه: هو القيم على بيت الصليب. انظر: فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي ص١١٠.

(٣) محارب خصفة بن قيس بن عيلان من بطون عدنان.

قال: فذهب إلى أصحابه[1] قال: قد جئتكم من عند خير الناس». فهذا رجل أمسك السيف، ووقف به على رأس رسول الله ﷺ يتهدده بالقتل، ثم نجَّى الله ﷺ رسوله، وانقلبت الآية، فأصبح السيف في يد رسول الله ﷺ، ومع ذلك فالحقد والغلُّ لا يعرفان طريقهما أبدًا إلى قلبه ﷺ.. إنه يعرض عليه الإسلام، فيرفض الرجل، ولكن يعاهده على عدم قتاله، فيقبل منه رسول الله ﷺ ببساطة، ويعفو عنه، ويطلقه آمنًا إلى قومه!!

وإذا كان الموقف السابق مع رجل ليس له تاريخ طويل من العداء لرسول الله ﷺ فإن رسول لله ﷺ له مواقف تقترب من الخيال مع مَنْ قاتله وحاربه السنين الطوال!! إنه المبدأ الأصيل الذي لا خروج عنه: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[البقرة:٢٥٦]. ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك موقفه مع صفوان بن أمية، الزعيم القرشي الشهير! ولندرك عظمة الموقف لابد من مراجعة سريعة لتاريخ هذا الزعيم المكي المهم مع رسول الله ﷺ.

لم يكن «صفوان بن أميَّة بن خلف» زعيمًا عاديًّا من زعماء قريش؛ فقد كان أبوه من أشد المعاندين للرسول ﷺ، ومن الذين قُتِلُوا في بدر، وورث صفوان بن أمية هذه الكراهية من أبيه للإسلام والمسلمين، وحارب الرسول ﷺ بكل طاقته، وكان ممن التفَّ حول ظهر المسلمين في أُحد مع خالد بن الوليد، واشترك اشتراكًا كبيرًا في قتل سبعين من شهداء الصحابة ﷺ، واشترك أيضًا في غزوة الأحزاب، وكان من القليلين الذين اشتركوا في عملية القتال عند فتح مكة المكرمة..

بل إن صفوان بن أمية كان قد دبَّر محاولة لقتل الرسول ﷺ، وكانت هذه المحاولة بينه وبين ابن عمه عمير بن وهب[2]، وكان وقتها لا يزال كافرًا.. وفيها تعهَّد صفوانُ بن أمية

---

(١) ذكر ابن حجر أن قومه أسلموا. انظر: فتح الباري ٧/ ٤٢٨. البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع (٣٩٠٥)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب توكله على الله تعالى وعصمة الله تعالى له من الناس (٨٤٣)، وأحمد (١٤٩٧١)، والحاكم (٤٣٢٢)، وابن حبان (٢٨٨٣).

(٢) عمير بن وهب الجمحي القرشي، شهد بدرًا مع المشركين، وحاول قتل النبي ﷺ إلا أنه أسلم وحسُن إسلامه، وعاش إلى خلافة عمر. انظر: الاستيعاب ٣/ ٢٩٤، أسد الغابة ٣/ ٧٩٧، الإصابة، الترجمة (٦٠٥٨).

لعمير بن وهب أن يتحمل عنه نفقات عياله، وأن يسدِّد عنه دَيْنه، في نظير أن يقتل عميرٌ رسول الله ﷺ..!! إلا أن المحاولة فشلت، وذلك عندما أسلم عمير بن وهب رضي الله عنه في المدينة المنورة بعد أن أخبره الرسول ﷺ بما دار بينه وبين صفوان في حجر الكعبة!!

ومرَّت الأيام، وجاء فتح مكة، وهُزم المشركون، وفرَّ صفوان بن أمية، ولم يجد له مكانًا في مكة المكرمة، وعلم أنه لن يُستَقْبَلَ في أي مكان في الجزيرة العربية؛ فقد أصبح الإسلام في كل مكان، فقرر أن يُلقي بنفسه في البحر ليموت! فخرج في اتجاه البحر الأحمر ومعه غلام اسمه يسار[1]، حتى وصل إلى البحر، وهو في أشد حالات الهزيمة النفسية، ورأى صفوان من بعيد أحدَ الرجال يتبعه، فخاف، وقال لغلامه: ويحك انظر من ترى؟ قال الغلام: هذا عمير بن وهب. فقال صفوان: وماذا أصنع بعمير؟! والله ما جاء إلا يريد قتلي، فهو قد دخل في الإسلام وقد ظاهر محمدًا عليَّ.

ولحق عمير بن وهب رضي الله عنه بصفوان بن أمية، فقال له صفوان: يا عمير ما كفاك ما صنعتَ بي؟ حمَّلتني دَيْنَك وعيالَكَ، ثم جئتَ تريد قتلي؟! فقال: أبا وهب، جُعِلْتُ فِدَاكَ! قد جِئتُكَ من عِنْدِ أَبَرِّ الناس، وأوصل الناس.

لقد رأى عمير بن وهب ابن عمه وصديقه القديم صفوان يهرب من مكة فَرَقًا له، وأشفق عليه، فأسرع إلى رسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، سيد قومي خرج هاربًا ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تُؤَمِّنَهُ، فداك أبي وأمي. فقال الرسول ﷺ: «قَدْ أَمَّنْتُهُ»!!

هكذا!! دون شرط ولا قيد!!

قال عمير بن وهب لصفوان: إن رسول الله قد أمَّنَكَ. فخاف صفوان، وقال: لا - والله - لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها. فرجع عمير بن وهب إلى الرسول ﷺ، وقال له: يا رسول الله، جئتُ صفوانَ هاربًا يريد أن يَقْتُلَ نفسه، فأخبرته بما أَمَّنْتَهُ، فقال: لا أرجع حتى

---

(١) أبو فكيهة رضي الله عنه مولى صفوان بن أمية، قال ابن إسحاق: كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المجلس يجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب وعمار وأبو فكيهة يسار. انظر: الإصابة، الترجمة (١٠٣٨٤)، أسد الغابة ٥/ ٢٤٩.

تأتيني بعلامة أعرفها. فقال الرسول ﷺ في منتهى التسامح: «خُذْ عِمَامَتِي إِلَيْهِ»!! فأخذ عمير العمامة، وذهب إلى صفوان بن أمية، حتى وصل إليه، وأظهر له العمامة وقال له: يا أبا وهب، جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبرّ الناس، وأحلم الناس، مجده مجدك، وعِزُّه عزك، ومُلْكُهُ مُلْكُكَ، ابنُ أمِّك وأبيك، أُذكِّرك اللهَ في نفسك. فقال له صفوان في منتهى الضعف: أخافُ أن أُقتل! قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سَيَّرك شهرين!!

ولننظر إلى هذا العرض السخي من رسول الله ﷺ، فلو أسلم صفوان لانتهت القضية، وأصبح له ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين، وإن أراد أن يأخذ شهرين كاملين يفكر فيهما فهو في أمان! وتذكَّر أننا نتحدث عن رجل طالما حاول أن يستأصل المسلمين من جذورهم!

فرجع صفوان بن أمية مع عمير بن وهب إلى رسول الله ﷺ، ودخل الحرم، والرسول ﷺ يصلي بالناس صلاة العصر فوقفا سويًا، حتى ينتهي الرسول ﷺ من الصلاة، فقال صفوان لعمير بن وهب: كم تُصلون في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات. قال: يصلي بهم محمد؟ قال: نعم.

فلما سلم الرسول ﷺ وانتهى من صلاته، صاح صفوان يخاطب النبي ﷺ من بعيد: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني بعمامتك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيتُ أمرًا وإلا سَيَّرْتَنِي شهرين. فقال ﷺ في رفق وسهولة: «انْزِلْ أَبَا وَهْبٍ».. (وانظر إليه يُكَنِّيهِ ويَتَلَطَّفُ إليه!).. فقال صفوان في خوف: لا - والله - حتى تُبيِّن لي!! فقال الرسول ﷺ: «بَلْ تَسِيرُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ»!

وبالفعل أطلق الرسول ﷺ صفوان بن أمية أربعة أشهر كاملة ليفكر.. [1]!! إنه لم يخطر على بال رسول الله ﷺ لا من قريب ولا من بعيد أن يُكرِه صفوان أو غيره على الإسلام، لا لشيء إلا لأن ذلك ليس من الإسلام. فليس ضعف صفوان ولا قوة الإسلام بمبرراتٍ تسمح بمزاولة الضغط على إنسان لتغيير عقيدته.

---

(١) القصة كاملة في الموطأ برواية يحيى الليثي عن مالك عن ابن شهاب (١١٣٢)، وفي مصنف عبد الرزاق عن الزهري (١٢٦٤٦).

وبَعْدُ، فهذا غَيْضٌ من فيض أخلاق الرسول ﷺ في حروبه مع المشركين التي لا تُقارَن بأخلاق قادة العالم في كل مكان وزمان. إن أخلاقه ﷺ لا تُوصف إلا بأنها أخلاق أنبياء، فذلك أصدق وصفٍ لها، وكفى.

وصدق الله العظيم إذ يقول في وصفه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

المطلب الثالث: رد شبهة نشر الإسلام بالسيف

أكذوبة كثيرًا ما يرددها أعداء الإسلام، ومفادها أن الرسول ﷺ - والمسلمين من بعده - نشروا الإسلام بحد السيف، وأن معتنقي الإسلام لم يدخلوا فيه طواعية ولا اختيارًا، وإنما دخلوا فيه بالقهر والإكراه.

والحقيقة أن جوهر الإسلام وخبر التاريخ ليكذبان هذه الفرية، ويستأصلونها من جذورها.. فكما بيَّنا في المطلبين السابقين أن من أهم القواعد التي حرص عليها رسول الله ﷺ في حياته هي قاعدة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلم يأمر الرسول ﷺ - والمسلمون من بعده - أحدًا باعتناق الإسلام قسرًا، كما لم يُلجئوا الناس للتظاهر به هربًا من الموت أو العذاب؛ إذ كيف يصنعون ذلك وهم يعلمون أن إسلام المُكرَه لا قيمة له في أحكام الآخرة، وهي التي يسعى إليها كل مسلم؟!

وقد جعل الإسلام قضية الإيمان أو عدمه من الأمور المرتبطة بمشيئة الإنسان نفسه واقتناعه الداخلي، فقال سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ولفت القرآن نظر النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة وبيَّن له أن عليه تبليغ الدعوة فقط، وأنه لا سلطان له على تحويل الناس إلى الإسلام فقال: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].. ومن ذلك يتضح أن دستور المسلمين يرفض رفضًا قاطعًا إكراه أحد على اعتناق الإسلام(١).

وتطبيقًا لهذه الحقيقة فقد ثبت أن المسلمين أسروا في سرية من السرايا سيد بني حنيفة:

---

(١) انظر: محمود حمدي زقزوق: حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، ص٣٣.

ثمامة بن أثال الحنفي، وهم لا يعرفونه، فأتوا به إلى رسول الله ﷺ فعرفه وأكرمه، وأبقاه عنده ثلاثة أيام، وكان في كل يوم يعرض عليه الإسلام عرضًا كريمًا فيأبى، فما كان من النبي ﷺ إلا أن أطلق سراحه. فانطلق ثمامة إلى نخل قريب من المسجد؛ فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله[1]. لقد تأثر ثمامة بأخلاق رسول الله ﷺ ورحمته فأسلم دون ضغط أو إكراه، وهكذا كان إسلام كل من أسلم في تاريخ الدعوة.

وعقلًا فإن من أُكرِه على شيء لا يلبث أن يتحلّل منه إذا وجد الفرصة سانحة لذلك، بل ويصبح حربًا على هذا الذي أُكره عليه، إلا أن التاريخ لم يُثبت مثل هذا، وإنما رأينا أن الذي يسلم لا يتوانى – ولو للحظة واحدة – في الدفاع عن الإسلام بكل ما يملك.

ثم لينظر المتشككون وأرباب الشبهات إلى الإحصائيات الرسمية الحالية لأعداد الذين يعتنقون الإسلام، والتي تدل على أن عدد المسلمين في ازدياد مستمر، على الرغم من كل ما يناهم من اضطهاد وما يتعرضون له من عوامل الإغراء!! فهل أكرهنا الأوربيين والأمريكيين واليابانيين وغيرهم على دخول الإسلام؟! إن ما حدث معهم هو الذي حدث مع كل من أسلم في تاريخ الإسلام. إن القوة الحقيقية للإسلام داخلية ذاتية. إنه دين الفطرة الذي يُقنع أي باحث صادق، ويعجب أي قارئ محايد.

وأيسر من أن نستقصي الحروب وأسبابها في صدر الإسلام لنعي تلك الحقيقة، أن نلقي نظرة عامة على خريطة العالم في الوقت الحاضر لنرى الشعوب التي دخلت في الإسلام دونما حرب أصلًا. إن السيوف لم تحمل بتاتًا في إندونيسيا وماليزيا والهند والصين، وسواحل القارة الإفريقية، وما يليها من سهول الصحاري الواسعة؛ ومع ذلك فأعداد المسلمين فيها هائلة[2]!

ولو كان هناك إكراه على الإسلام فكيف نفسر بقاء المسيحيين واليهود والوثنيين وأشباه الوثنيين إلى الآن في داخل معظم بلاد العالم الإسلامي!!

---

(١) البخاري: كتاب أبواب المساجد، باب الاغتسال إذا أسلم وربط الأسير أيضًا في المسجد (٤٥٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه، واللفظ له (١٧٦٤)، وأبو داود (٢٦٧٩)، والنسائي مختصرًا (٧١٢)، وابن خزيمة (٢٥٢).

(٢) انظر: عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٦٩، ١٧٠.

أما تشريع الجهاد في الإسلام، فلم يكن لقهر الناس أو لإجبارهم على اعتناق الإسلام، وإنما كان لتحرير الإنسان وتحييد القوى الظالمة التي قد تحول بينه وبين الإسلام.

يقول المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب): «إن القوة لم تكن عاملًا في نشر القرآن، وإن العرب تركوا المغلوبين أحرارًا في أديانهم، والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل دينهم، وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفرض بالقوة، ولم ينتشر الإسلام - إذن - بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قَهَرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند - التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل - ما زاد عدد المسلمين إلى خمسين مليون نفس[1] فيها.. ولم يكن الإسلام أقل انتشارًا في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط..»[2].

ويقول جورج سيل[3]: «ومن قال إن الإسلام شاع بقوة السيف، فقوله تهمةٌ صرفة؛ لأن بلادًا كثيرة ما ذُكر فيها اسم السيف، وشاع الإسلام»[4].

ويقول الكاتب الغربي الكبير توماس كارليل صاحب كتاب (الأبطال): «إن اتهامه - أي رسول الله ﷺ - بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخفٌ غير مفهوم؛ إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجلٌ فردٌ سيفَه ليقتل به الناس، أو يستجيبوا له، فإذا آمن به من لا يقدرون على حرب خصومهم، فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب من غيرهم قبل أن يقدروا عليها»[5].

فالإسلام - إذن - إنما غزا القلوب، وأسر النفوس.. وإن كان بإمكان السيف أن يفتح أرضًا.. فليس بإمكانه أبدًا أن يفتح قلبًا!!

---

(١) بلغ تعدادهم اليوم ١٤٣ مليون مسلم (إحصائية ٢٠٠٦).

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص ١٢٨، ١٢٩.

(٣) مستشرق إنجليزي اشتهر بترجمته للقرآن إلى الإنجليزية، ولد في لندن في حدود عام ١٦٩٧م، والمتوفى سنة ١٧٣٦م.

(٤) في مقدمة ترجمته الإنجليزية لمعاني القرآن التي صدرت عام ١٧٣٦م.

(٥) الأبطال توماس كارليل، ترجمة محمد السباعي ص٧١.



الفصل الثالث

أخلاقه ﷺ بعد انتهاء الحرب

لا شك أن الحروب في حد ذاتها تعتبر من الصَدَمات الكبرى التي تتغير عندها النفوس، وتضطرب الأفئدة، فكل طرف حريص على النصر على عدوه، وتحقيق الفوز مهما تكلَّف من ضحايا وأموال.. ولا شك أن كثيرًا من المعايير تتغير أثناء القتال عند كثير من المحاربين، ومن أول المعايير التي تتغير المعايير الأخلاقية، فما كنت مقرًّا له قبل القتال لعلك تخالفه أثناء الحرب، وما كنت ترفضه قبل القتال قد تقبله بعده، وما كان حسنًا قد يصير قبيحًا، وما كان قبيحًا قد يصير حسنًا، وهكذا.. هذا كله أثناء القتال.. فإذا انتهى القتال ازداد الأمر تعقيدًا، فإن نشوة النصر، أو مرارة الهزيمة تغيِّر كثيرًا من طبيعة الإنسان، فيتكبَّر المتواضع، وييأس المتفائل، ويحقد الحليم، ويغدر الوفي، وغير ذلك من التقلبات العجيبة، التي من كثرتها أصبحنا نعتقد أنها الأصل، فكم تنكَّر منتصرٌ لوعوده، وكم خرج مهزوم عن حدود الأخلاق التي اشتُهر بها!!

هذا يحدث مع كثير من الناس، بل يحدث مع أغلب الناس، وهو في القادة أظهر، لأن الجميع ينظر إليهم، والنصر في النهاية يُنسَب إليهم، والهزيمة كذلك تُنسَب إليهم، وهذه المسئولية تُغيِّر كثيرًا من طباعهم وأخلاقهم.

هذا ينطبق تمامًا على معظم قادة العالم في القديم والحديث..

لكنه لا ينطبق بالمرَّة على رسول الله ﷺ!!

لقد كان رسول الله ﷺ آية مبهرة في الأخلاق والقيم، مهما تغيَّرت الظروف، أو تبدَّلت الأحوال، ذلك لأن مرجعيته واحدة، وأصوله ثوابت.. إنه لا يُجَمِّل أخلاقه ليُثني عليه فلان،

أو يمدح فعاله فلان.. إنه يفعل ذلك لأن الله ﷻ أمره بذلك، والرقيب عليه هو الله كذلك، والمحاسِب له هو أيضًا رب العزة ﷻ.. فلماذا إذن تتغير أخلاقه، أو تتبدل طِباعه؟!

إن هذا هو الفارق الرئيسي بين القائد المسلم الملتزم بتعاليم دينه، والمراقب لربه، والقائد الذي ليس له مرجعية إلا هواه ومصالحه..

لقد أظهر لنا رسول الله ﷺ بعد انتهاء حروبه مجموعة من روائع الأخلاق، وبدائع القيم يجدر بكل قائد أو إنسان أن يقف أمامها ويتدبَّر، وإنها - والله - لمن دلائل نبوته!!

وسوف يكون حديثنا - إن شاء الله - في هذا الموضوع من خلال مبحثين رئيسيين هما:

المبحث الأول: أخلاقه ﷺ بعد تحقيق النصر.

المبحث الثاني: أخلاقه ﷺ عند عدم تحقيق النصر.

* * *



المبحث الأول
أخلاقه ﷺ بعد تحقيق النصر

برغم انتصارات الرسول إلا انه حافظ على بساطته وتواضعه[١].

تُنسِي نشوة النصر كثيرًا من القادة قواعد الأخلاق الأساسية، فنسمع عن استباحة للبلاد، وإراقة للدماء، وخراب للعمران، وخُلْفٍ للعهود والوعود.. لكن حال رسول الله ﷺ بعد النصر كان بعيدًا كل البعد عن هذه الشرور والآثام، وسنتعرض -بإذن الله لطرف من أخلاقه في هذا الموقف، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: العفو عند المقدرة

لم تكن المعارك التي خاضها الرسول ﷺ والمسلمون بهدف التشفِّي أو الانتقام من المشركين الذين مارسوا مع المسلمين شتى أنواع التعذيب، وحاولوا إبادتهم في كثير من الأحايين، لكن المسلمين احتسبوا كل ذلك عند الله ﷻ، ويؤكد هذا الأمر أن الرسول ﷺ في كثير من المواقف كان يستطيع – من دون شك – أن يقتل من يريد من المشركين، ولكنه ﷺ كان يتعامل بالحسنى والعفو والصفح، بل وينكر وبقوَّة على من يخالف هذا الأمر. لقد كان هذا العفو من العلامات المميِّزة له ﷺ، حتى ذكرها رب العالمين في صفته في كتب الأولين، فقد قال زيد بن سعنة[٢] ﷺ أنه قد جاء في التوراة أنه «يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلُهُ، وَلَا يزيده شِدَّةُ

(١) واشنجتون إيرفنج، مؤرخ ومستشرق أمريكي.

(٢) زيد بن سعنة أحد أحبار يهود ومن أكثرهم مالاً، أسلم وحسن إسلامه وشهد مع النبي ﷺ مشاهد كثيرة، وتوفي في غزوة تبوك مقبلاً إلى المدينة، أسلم لما رأى من حسن أخلاق النبي ﷺ. الإصابة (٢٨٩٩)، أسد الغابة ٢/ ١٤٩، الاستيعاب ٢/ ١٢٢.

الجَهْلِ عَلَيهِ إلا حلمًا»[١].

من نماذج هذا العفو ما رواه مسلم في صحيحه في أحداث الحديبية عن سلمة بن الأكوع[٢] ﷺ قال: «.. ثم إن المشركين راسلونا الصلح حتى مشى بعضنا في بعض واصطلحنا... قال: فلمّا اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا ببعض أتيت شجرة؛ فكسحت شوكها؛ فاضطجعت في أصلها. قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ؛ فأبغضتهم، فتحوَّلْتُ إلى شجرة أخرى، وعلَّقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا لَلْمُهاجرين..!! قُتِلَ ابنُ زُنَيْم، قال: فاخترطت سيفي، ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رُقُود؛ فأخذت سلاحهم؛ فجعلته ضِغثًا[٣] في يدي، قال: ثم قلت: والذي كَرَّمَ وجهَ محمد لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه (يعني: رأسه!!)، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، وجاء عمي عامر[٤] برجل من العَبَلات[٥] يقال له: مِكْرَزٌ يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مُجَفَّف[٦] في سبعين من المشركين؛ فنظر إليهم رسول الله ﷺ؛ فقال: «دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ

---

(١) ابن حبان (٢٨٨)، والحاكم (٦٥٤٧)، والبيهقي (١١٠٦٦)، والطبراني في الكبير (٥١٤٧)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: روى ابن ماجه منه طرفًا، ورواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) سلمة بن الأكوع: هكذا يقول جماعة أهل الحديث، ينسبونه إلى جده، وهو سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي. كان ممن بايع تحت الشجرة، وكان شجاعًا راميًا سخيًّا خيرًا فاضلاً. توفي بالمدينة سنة ٧٤هـ عن ٨٠ سنة. انظر: الإصابة الترجمة (٣٣٨٥)، أسد الغابة ٢/ ٢٩٨.

(٣) الضِّغْث: الحُزْمة.

(٤) هو عامر بن سنان الأنصاري، عم سلمة بن عمرو بن الأكوع، استشهد يوم خيبر، وهو الذي جعل يرتجز حين خرج يومها ويقول: بالله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا. انظر: أسد الغابة ٢/ ١٩، الإصابة، الترجمة (٤٣٩١).

(٥) العبلات: بفتح العين والباء من قريش وهم أمية الصغرى والنسبة إليهم عبليّ؛ لأن اسم أمهم عبلة. انظر: شرح النووي على مسلم ١٢/ ١٧٧.

(٦) أي عليه تجفاف بكسر التاء، وهو ثوب كالجل يلبسه الفرس؛ ليقيه من السلاح. شرح مسلم للنووي ١٢/ ١٧٧.

الْفُجُورِ وَثِنَاهُ»[١] فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤] الآية كلها... قال: ثم خرجنا راجعين إلى المدينة... الحديث[٢].

هكذا ببساطة.. لم ينتقم، فيسفك الدماء، وينتهك الأعراض، وينهب الدُّور، بل العفو هو شيمته ﷺ في كل وقتٍ، وفي مواجهة كل عدو، وسيأتي بإذن الله تفصيل لموضوع العفو عن الأسرى في باب قادم.

ثم إنه ﷺ لم يكن يعفو عن الأفراد الذين لا يقدمون كثيرًا ولا يؤخرون في سير الأحداث فقط، بل كان يعفو عن شعوب كاملة، وأمم بأسرها، وذلك خُلُق فريد في القادة الحربيين؛ أن يعفوا عن شعوبٍ ناصبتهم وجيوشهم العَدَاء، وحاربتهم طويلًا، وقتلت منهم الكثير، وسَامَتْهُم سوء العذاب عندما كانت تتحكم فيهم، ولكن لأنه رسول الله ﷺ، ومن شِيَمه العظيمة العفوُ؛ فقد عفا كثيرًا، ومن أشهر مواقفه في هذا الصدد عفوه عن أهل مكة.

إن الكلمات الخالدة التي قالها الرسول ﷺ لأهل مكة يوم فتح مكة ينبغي أن تُكتب بماء من ذهبٍ، فهي إنما تُنبيء عن معدن نفيسٍ نقيٍّ غاية النقاء.. قال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَا بِالْآبَاءِ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، ثم قال ﷺ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ: اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[٣].

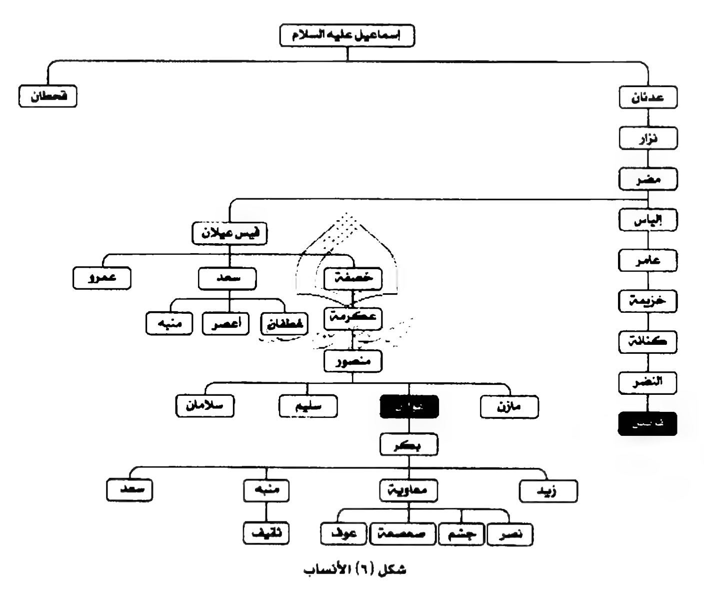
ولم يكن هذا العفو خاصًّا بأهل مكة فقط، حتى لا يقول أحدٌ أنهم - أي أهل مكة - الأهل والعشيرة ولذلك عفا عنهم، بل كان هذا يحدث مع كثير من الشعوب والقبائل بصرف النظر عن أصولهم وأجناسهم، وما أروع موقفه ﷺ مع قبيلة هوازن، وذلك بعد انتصار حنين

(١) البدء: أي ابتداءه، وثناه: أي عوده ثانية.

(٢) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها (١٨٠٧)، وأحمد (١٦٥٦٦).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤١١، ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٥٦، السهيلي: الروض الأنف ٤/ ١٧٠، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٥٧٠، وابن حجر: فتح الباري ٨/ ١٨.

المهيب، مع العلم أن جذور هوازن بعيدة جدًا عن قريش التي ينتمي إليها الرسول ﷺ، بل إن التاريخ يُثبِت خلافات عميقة بين القبيلتين. ولكي نقدِّر عظمة أخلاق الرسول ﷺ لا بد لنا من العودة إلى التاريخ بعض الشيء (شكل ٦)، لكي نتعرف على جذور هذه القبيلة وعلاقتها بقريش.



شكل (٦) الأنساب

فكما نعلم أن العرب بصفة عامة ينقسمون إلى قسمين رئيسيين عدنانيين وقحطانيين، ثم ينقسم العدنانيون بدورهم إلى ربيعة ومضر، ومضر تنقسم إلى إلياس وعيلان، وهما فرعان كبيران جدًّا، وتأتي قبيلة قريش من فرع إلياس بعد تفرعات كثيرة، وتأتي قبيلة هوازن من عيلان بعد تفرعات كثيرة أيضًا[1]، وكما هو معروف كلما بعدت الأنساب ازدادت

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ١٩٤.

الحساسيات بين القبائل، وفقد الناس الشعور بالرحم التي ينتمون إليها، وقد كانت الصراعات والتنافسات تقوم بين أولاد العمومة كبني هاشم وبني مخزوم، وكالأوس والخزرج، فما بالكم بهذه الفروع البعيدة! ولقد أكل الحقد والخوف قلوب أهل هوازن عندما شاهدوا التقدم الملموس للحركة الإسلامية، خاصَّة أن الرسول ﷺ قرشي، ومن ثَمَّ جمعت هوازن مع أولاد عمومتهم ثقيف أكثر من خمسة وعشرين ألفًا من المقاتلين بهدف استئصال المسلمين استئصالًا كاملًا من الوجود، فكانت موقعة حنين[1] الخطيرة، ولكن الله ﷻ شاء أن يكتب النصر للمسلمين بعد هِزَّةٍ سرعان ما تماسكوا بعدها، وبعد المعركة غَنِم المسلمون غنائم كثيرة من الإبل والشياه، وأسروا عددًا مهولًا من المشركين بلغ في بعض الروايات ستة آلاف[2]، ووزَّع رسول الله ﷺ هذه الغنائم كلها على الجيش المنتصر، وأعطى المؤلفة قلوبهم عطاءً سخيًا، ونفدت كل الغنائم ولم يحتفظ رسول الله ﷺ لنفسه بأيِّ شيء!!

وبعد انتهاء توزيع الغنائم حدثت مفاجأة ضخمة لم تكن متوقعة..!!

لقد جاء وفدٌ من قبيلة هوازن إلى وادي الجعرانة[3]، لإعلان الإسلام أمام النبي ﷺ، وكان الوفد يُمَثِّل كلَّ بطون هوازن ما عدا ثقيف، وذلك بعد أقلِّ من شهرين من حرب حُنَيْن الهائلة، وذلك بعد أن فقدوا كل شيء، فقد خسروا نساءهم وأبناءهم، وأموالهم، وأنعامهم، وكانوا قد فَرُّوا إلى الطائف مع ثقيف، وما استطاعوا الخروج لحرب المسلمين، وكان من الممكن أن يفقدوا ديارهم ويعيشوا عمرهم لاجئين عند ثقيف في الطائف، ولكنهم فكَّروا في العودة إلى رسول الله ﷺ، فقد يقبل منهم إسلامهم، ويعيد إليهم بعض الممتلكات.

وأعلن وفد هوازن الإسلام أمامَ النبي ﷺ، وقالوا: يا رسول الله إنَّا أهلٌ وعشيرةٌ، وقد

---

(١) وادي حنين: وادٍ بين الطائف ومكة، قاتل فيه النبي ﷺ قبيلة هوازن بعد فتحه مكة، وانتصر عليهم في وقعة مشهورة.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٧٣، ابن هشام: السيرة النبوية ٥/ ١٦٢، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٦٦٧..

(٣) وادي الجعرانة: شمال شرق مكة، ويبعد عن الحرم المكي ٢٥ كم. و(الجِعْرَّانَةُ) ماء بين الطائف ومكة، وهي إلى مكة أقرب. انظر: معجم البلدان ٢/ ١٤٢.

أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنن علينا مَنَّ الله عليك[١].

لقد أصبح الموقف في غاية الحرج، فها هي القبيلة الضخمة هوازن تأتي لتعلن إسلامها، ولتسترد بعض ما ذهب منها، ومن المحتمل أن يرتدوا إذا لم يستردوا أسراهم، وكان النبي ﷺ - كما ذكرنا - قد قسَّم كل الغنائم على الجيش، فأربعة أخماس الغنائم قُسِّمت على أفراد الجيش العام، وقُسِّمَ الخُمسُ الباقي على سادة القبائل وطلقاء مكة وغيرهم من المؤلفة قلوبهم، وقد أعطى النبي ﷺ هذه العطايا ليتألَّف بها الناس، ولو أخذ النبي ﷺ منهم ما أعطاهم لارتدوا عن الإسلام، فهو يريد إسلام هوازن، وفي الوقت نفسه يريد ثبات أهل مكة وزعماء القبائل، فكيف الخروج من هذه الأزمة؟!

قال الرسول ﷺ لوفد هوازن: «أَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ أَحَبّ إِلَيْكُمْ أَمْ أَمْوَالُكُمْ؟» فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا؟ بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا؛ فقال الرسول ﷺ: «أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ، وَإِذَا مَا أَنَا صَلَّيْتُ الظُّهْرَ بِالنَّاسِ فَقُومُوا فَقُولُوا: إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ الله ﷺ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَبِالْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ الله فِي أَبْنَائِنَا وَنِسَائِنَا، فَسَأُعْطِيكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَأَسْأَلُ لَكُمْ».

فلمَّا صَلَّى رسول الله ﷺ بالناس الظهر؛ قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله ﷺ؛ فقال: «أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ»؛ فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

وقال الأقرع بن حابس[٢]: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة[٣]: أما أنا وبنو فزارة فلا،

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٧٣، ابن هشام: السيرة النبوية ٥/ ١٦٢.

(٢) الأقرع بن حابس هو: ابن عقال التميمي المجاشعي الدارمي، وفد على النبي ﷺ، وشهد فتح مكة وحنينًا والطائف، وهو من المؤلفة قلوبهم، وقد حَسُنَ إسلامه. شهد فتح العراق وفتح الأنبار، وكان على مقدمة خالد بن الوليد. انظر: الاستيعاب ١/ ١٩٣، أسد الغابة ١/ ١٤٩، الإصابة الترجمة (٢٢٩).

(٣) عيينة بن حصن بن الفزاري يكنى أبا مالك، من المؤلفة قلوبهم، أسلم بعد الفتح وقيل قبله، وشهد الفتح مسلمًا وشهد حنينًا أو الطائف أيضًا، ثم ارتد مع طليحة الأسدي فأخذ أسيرًا إلى أبي بكر، ثم أسلم وأطلقه أبو بكر. الإصابة الترجمة (٦١٥١)، أسد الغابة ٤/ ٣١.

وقال العباس بن مرداس السلمي[1]: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال عباس بن مرداس لبني سليم: وهنتموني. فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَمَسَّكَ مِنْكُمْ بِحَقِّهِ مِنْ هَذَا السَّبْيِ فَلَهُ بِكُلِّ إِنْسَانٍ سِتُّ فَرَائِضَ مِنْ أَوَّلِ سَبْيٍ أُصِيبُهُ. فَرُدُّوا إِلَى النَّاسِ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ»[2].

وبهذا وصل رسول الله ﷺ مع هوازن إلى حَلٍّ وَسَطٍ، بإعادة نسائهم وأبنائهم، مع إشعارهم أنه معهم قلبًا وقالبًا، وأقنع المسلمين في ذات الوقت بترك الأسرى والسبي ابتغاء مرضاة الله ﷻ، وترك لهم الغنائم.

وما فعله الرسول ﷺ هو مُنتهَى الحكمة، وبه انتهت مشكلة هوازن، ودخلت في الإسلام بنفسٍ راضيةٍ، وقد تيقنت أنها تتعامل مع رسول، وليس مع مجرد زعيم أو قائد، وما أعتقد أن في تاريخ الأمم مثل هذا الرقي في التعامل مع العدو بعد النصر! ولم يكن هذا ليحدث لولا أن إسلام القوم كان أحب إلى قلب رسول الله ﷺ من أموالهم وغنائمهم، ولولا أن القتال كان خالصًا لله ﷻ، فما أعظمَ عفوكَ يا رسول الله!

المطلب الثاني: العفو عن زعماء الأعداء:

في المطلب السابق مر بنا كيف تعامل رسول الله ﷺ بالعفو مع غير المسلمين، فذكرنا إحسانه وكرمه في تعامله معهم بكل طوائفهم، بل ذكرنا كيف تعامل بالعفو مع المدن والشعوب التي آذته كثيرًا، كأهل مكة وهوازن، وهو ما يكاد أن يكون نادرًا تمامًا في تاريخ أيٍّ أمة من أمم الأرض. وإذا كانت الصور السابقة من صور التعامل نادرة، فإن الصورة التي سنتناولها في هذا المطلب تكاد تكون مستحيلة!!

إننا سنتناول في هذا المطلب عفوه ﷺ عن زعماء الأعداء الذين قاوموه وحاربوه سنواتٍ

---

(١) عباس بن مرداس السلمي، أسلم قبل فتح مكة بيسير، وكان من المؤلفة قلوبهم وممن حسن إسلامه منهم، وكان شاعرًا محسنًا وشجاعًا مشهورًا. وكان ممن حرَّم الخمر في الجاهلية. انظر: الاستيعاب ٢/ ٣٦٢، الإصابة ٤٥٠٩، الكاشف للذهبي ١/ ٥٣٦.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٧٣، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٦٦٧.

عديدة.. سنتناول عفوه عن أولئك الذي جَيَّشُوا الجيوش، وحزَّبُوا الأحزاب لاستئصال شأفة المسلمين..

سنتناول عفوه مع أولئك الذين لم يكتفوا بالسخرية منه والكيد له، بل حفَّزوا الآخرين على فعل ذلك، وكانوا في فترة من فترات حياتهم أكابر المجرمين، وقادة الضالين.. بل إننا سنتناول عفوه عن أولئك الذين دبَّروا المحاولات تلو المحاولات لقتله هو شخصيًا، فما ترك ذلك في قلبه حقدًا، وما أورث غِلاً، وما غيَّر من أخلاقه المعهودة، ولا من طبيعته الرقيقة ﷺ.. ونظرة إلى ما يفعله عموم القادة في العالم مع زعماء أعدائهم (صورة ١٠) توضِّح بجلاء عظمة الأخلاق النبوية ونبلها!

ولعل من أروع الأمثلة على هذا الأمر موقفه ﷺ مع عكرمة بن أبي جهل أحد كبار زعماء مكة!

كان عكرمة من أشد أعداء رسول الله ﷺ ضراوة في تاريخ السيرة كلها، وقد شرب العداوة جُلَّ هذه المدة الطويلة من أبيه فرعون هذه الأمة وألدِّ أعداء الإسلام «أبي جهل».. ولكن عكرمة استمر وزاد في العداوة للدرجة التي جعلت الرسول ﷺ يُريق دمه عند فتح مكة باعتباره من مجرمي الحرب آنذاك..

وكان عكرمة من القليل الذي قاتل في الخندمة[1] ضد خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولكنه بعد هزيمته فرَّ من مكة المكرمة وحاول أن يصل في فراره إلى اليمن، وذهب بالفعل إلى البحر ليأخذ سفينة وينطلق بها إلى اليمن[2]..

إن طريقه في الكفر طويل، وهو مطلوب الدم، وإذا وجده الرسول ﷺ سيقتله بلا جدال.

(١) الخندمة: اسم موضع بناحية مكة. قال ابن الأثير: هو جبل معروف عند مكة. انظر: القاموس المحيط ص١٤٢٧ - النهاية في غريب الأثر ٢/ ١٦١.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٦٠.


إعدام
عمر المختار
إعدام عمر المختار . إعدام عمر المختار . إع
arabspo

صورة رقم (١٠)

وقد أرادت زوجة عكرمة «أم حكيم بنت الحارث بن هشام»[١] أن تنقذ زوجها، فذهبت - بعد أن أسلمت - إلى الرسول ﷺ لتشفع عنده لعكرمة بن أبي جهل في أن يعود إلى مكة المكرمة آمنًا، وقالت: «قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمِّنْهُ».. فرد الرسول ﷺ في يسر وسهولة: «**هُوَ آمِنٌ**»[٢]!!

لم يذكر لها ﷺ أنه مهدَر الدم، ولم يذكِّرْها بتاريخه الطويل، ولم يقل لها: أنت حديثة الإسلام جدًّا فكيف تشفعين لغيرك؟! لم يقل لها أيًّا من ذلك، ولم يشترط عليه أو عليها شروطًا، وإنما قال: «**هُوَ آمِنٌ**»!

وخرجت أم حكيم الزوجة الوفية تبحث عن زوجها، وذهبت حتى وصلت في رحلة طويلة إلى عكرمة وهو يحاول أن يركب سفينة في ساحل البحر الأحمر متجهًا إلى اليمن، فقالت له: «يا ابن عم، قد جئتك من عند أَوْصَلِ الناس، وأبرِّ الناس، وخيرِ الناس.. لا تُهلك نفسك، إني استأمنت لك محمدًا ﷺ». فقال لها: أنت فعلتِ هذا؟! قالت: نعم[٣].

وعكرمة بن أبي جهل في ذلك الوقت يرى الدنيا كلها قد ضُيِّقَتْ عليه، فأين يذهب؟ إنه يريد أن يذهب الآن إلى اليمن، واليمن بكاملها مسلمة، وبقاع الأرض تتناقص من حوله، والجميع الآن يدخلون في دين محمد ﷺ وحِلفه، فأخذ عكرمة قرارًا سريعا بالعودة معها دون تفكير طويل.

وقبل أن يدخل عكرمة مكة إذا برسول الله ﷺ يقول لأصحابه كلمات جميلة.. قال: «**يَأْتِيكُمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا، فَلا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ الْمَيِّتِ يُؤْذِي الْحَيَّ، وَلا يَبْلُغُ الْمَيِّتَ**»[٤].

---

(١) هي أم حكيم بنت الحارث بن هشام، ابنة عم عكرمة، أسلمت يوم الفتح، واستأمنت النبيَّ ﷺ لزوجها عكرمة، وخرجت في طلبه فردته حتى أسلم، وثبتا على نكاحهما. انظر أسد الغابة ٦/ ٣٢٩، والإصابة، الترجمة (١١٩٧٣).

(٢) الموطأ: رواية محمد بن الحسن (٦٠١).

(٣) انظر: الحاكم: المستدرك (٥٠٥٥).

(٤) الموطأ: رواية محمد بن الحسن (٦٠١)، والحاكم (٥٠٥٥)، وضعفه الذهبي.

فأيُّ أخلاق كريمة كانت عند رسول الله ﷺ هذه؟!

لقد كان أبو جهل فرعون هذه الأمة، ومع ذلك فالرسول ﷺ يأمر الصحابة ﷺ بألا يلعنوا أبا جهل أمام ابنه عكرمة؛ لكي لا يؤذوا مشاعره، مع أن عكرمة لم يُسلم حتى هذه اللحظة..

ودخل عكرمة بن أبي جهل إلى مكة المكرمة، ومن بعيد رآه الرسول ﷺ، فماذا فعل..؟!

هل تذكَّرَ أبا جهل؟! هل استعاد بذاكرته الغزوات التي شارك فيها عكرمة صادًّا عن سبيل الله..؟! هل فكَّر في قتال عكرمة للمسلمين منذ أيام عند الخندمة..؟! هل نظر إلى حالة الضعف والهوان الشديد التي جاء بها عكرمة، فأراد أن يُلَقِّنَهُ درسًا يعرف به قوة الدولة الإسلامية؟!

إنه ﷺ لم يفعل أيًّا من هذا الذي يتوقعه أي سياسي!!

لقد وثب رسول الله ﷺ إلى عكرمة وما عليه رداء فرحًا به[1]، وانبسطت أساريره وهو يرى «عكرمة بن أبي جهل» يعود إليه، مع أنه لم يسلم بعد، لكن هذه هي طبيعة رسول الله ﷺ دون تكلف..

وجلس عكرمة بين يدي رسول الله ﷺ، وقال: يا محمد، إن هذه (وأشار لزوجته) أخبرتني بأنك أمَّنتني!

فقال الرسول ﷺ دون تفصيلات ولا شروط: «صَدَقَتْ فَأَنْتَ آمِنٌ».

فقال عكرمة: إلام تدعو يا محمد..؟

فقال له: «أَدْعُوكَ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ الله، وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَأَنْ تُؤْتِيَ الزَّكَاةَ». وتفعل، وتفعل... وأخذ يعدد عليه أمور الإسلام، حتى عدَّدَ له كل الخصال الحميدة.

فقال عكرمة: ما دعوتَ إلا إلى الحق وأمر حسن جميل..!!

---

(١) الحاكم: المستدرك (٥٠٥٥).

والقلوب بين أصابع الرحمن يقلِّبُهَا كيف يشاء، ففي هذه اللحظات فقط شعر عكرمة بن أبي جهل ﷺ أن كل ما ذكره النبي ﷺ كان حقًّا، وأن كل ما تحدَّثَ عنه قبل ذلك أيام مكة وبعد مكة كان صدقًا، وكان من كلام النبوة والوحي..!! وهنا قال عكرمة بن أبي جهل: قد كنتَ - والله - فينا تدعو إلى ما دعوت إليه، وأنت أصدقُنا حديثًا، وأبَرُّنَا بِرًّا، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله[1].

وفي لحظة واحدة انتقل عكرمة من معسكر الكفر إلى معسكر الإيمان!!

ثم قال عكرمة: يا رسول الله، علمني خير شيء.. فقال الرسول ﷺ: «**تَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**». فقال عكرمة: ثم ماذا؟ قال: «**أَنْ تَقُولَ: أُشْهِدُ اللهَ، وَأُشْهِدُ مَنْ حَضَرَ أَنِّي مُسْلِمٌ وَمُهَاجِرٌ وَمُجَاهِدٌ**». فقال عكرمة هذه الكلمات.. فقال الرسول ﷺ وهو يعرف أن عكرمة ما زال حديث عهد بالإسلام، ويحاول قدر المستطاع أن يقرِّبه إلى الدين: «**لا تَسْأَلُنِي الْيَوْمَ شَيْئًا أُعْطِيهِ أَحَدًا إِلا أَعْطَيْتُهُ لَكَ**». فلم يطلب عكرمة بن أبي جهل مالًا، أو سلطانًا، أو إمارة، وإنما طلب المغفرة فقال: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتُكَهَا، أو مسيرٍ أوضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك، أو أنت غائب عنه. فقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ كُلَّ عَدَاوَةٍ عَادَانِيهَا، وَكُلَّ مَسِيرٍ سَارَ فِيهِ إِلَى مَوْضِعٍ يُرِيدُ فِي هَذَا الْـمَسِيرِ إِطْفَاءَ نُورِكَ، فَاغْفِرْ لَهُ مَا نَالَ مِنِّي مِنْ عِرْضٍ فِي وَجْهِي، أَوْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهُ**». فقال عكرمة: رضيتُ يا رسول الله.. ثم قال صادقًا: لا أدع نفقةً كنت أنفقها في صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالًا كنت أقاتل في صد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله[2].

ووهب عكرمة حياته للجهاد في سبيل الله سواء في حروب الردة، أو في فتوح الشام، حتى قُتِلَ شهيدًا ﷺ في اليرموك[3]..! ولننظر كيف بدَّل الله ﷻ حياته كاملة بحسن استقبال

---

(١) المتقي الهندي: كنز العمال (٣٧٤٢٠).

(٢) الحاكم: المستدرك (٥٠٥٧).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ٣٤.

الرسول ﷺ له، وبتأمينه إياه، وبغفرانه له كل التاريخ الأسود الذي كان له مع المسلمين؛ وصدق رسول الله ﷺ القائل: «لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[1]، وفي رواية: «خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»[2].

وما ذكرناه في حق عكرمة ﷺ ينطبق كذلك على سهيل بن عمرو، الزعيم القرشي المشهور!

كان سهيل بن عمرو من كبار زعماء قريش بل مكة، وكان من الزعماء الذين هم تاريخ أسود وطويل مع رسول الله ﷺ، وكان من كبار السن، وله من الأولاد الكثير، وكان معظم هؤلاء الأولاد في جيش المسلمين الفاتح لمكة، وبعد أن فُتِحَ البلد الحرام لم يجد له عونًا من الزعماء الذين كانوا معه قبل ذلك، فقد فرُّوا أمام الجيش الإسلامي، ففرَّ هو الآخر ودخل بيته كما يقول: «فانقحمت في بيتي، وأغلقت عليَّ بابي»!!

ثم يقول: «وأرسلتُ إلى ابني عبد الله بن سهيل[3] - وهو من جنود الجيش الإسلامي الفاتح - أن اطلب لي جوارًا من محمد، فإني لا آمن من أن أُقتل، فليس أحد أسوأ أثرًا مني؛ فإني لقيت الرسول ﷺ يوم الحديبية بما لم يلقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدرًا وأُحُدًا ضد المسلمين»[4].

إنه لصاحب تاريخ طويل في الصدِّ عن سبيل الله، وكان صارمًا وعنيدًا جدًّا يوم الحديبية، ثم إنه رفض انضمام ابنه إلى صف المسلمين برغم شفاعة الرسول ﷺ أكثر من مرة، ولكنه الآن يقف موقفًا صعبًا خطيرًا يجعل احتمال قتله واردًا جدًّا، وتملَّكه الرعب إلى الدرجة

(١) البخاري عن سهل بن سعد: كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب (٣٤٩٨)، ومسلم (٢٤٠٦)، وأحمد (٢٢٨٧٢)، وابن حبان (٦٩٣٢)، والنسائي (٨١٤٩)، ورواه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤٦٩٩)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٦٢.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك عن أبي رافع (٦٥٣٧)، ورواه كذلك الطبراني (٩٣٠).

(٣) عبد الله بن سهيل بن عمرو القرشي العامري، هاجر إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة فأوثقه أبوه عنده، ثم خرج مع أبيه يوم بدر وكان يكتم إسلامه، فلما نزل الرسول ﷺ بدرًا هرب إليه، وشهد معه بدرًا والمشاهد كلها. استُشْهِدَ يوم اليمامة سنة ١٢هـ. انظر: الاستيعاب ٣/ ٥٧، الإصابة، الترجمة (٤٧٣٤).

(٤) انظر ابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٣٤٦.

التي جعلته لا يتردد في أن يطلب من ابنه الصغير أن يتوسط له عند رسول الله ﷺ !! وفي هذا - كما هو واضح - ما فيه من جُرحٍ عميقٍ لنفس الزعيم الكبير..

يقول سهيل بن عمرو: ذهب عبد الله بن سهيل إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله، أَمِّنْه.

فقال ﷺ دون تردد: «نَعَمْ، هُوَ آمِنٌ بِأَمَانِ اللهِ، فَلْيَظْهَرْ»[1]!!

ولنقارن هذا التعامل من الرسول ﷺ مع كبار زعماء مكة المكرمة بما يحدث عند احتلال دولةٍ لدولة أخرى..!! إننا نرى الأمراء والوزراء والكبراء في البلد المغلوب وقد استُهْدِفُوا بالقتل أو النفي أو السجن لفترات طويلة، ولا يخفى على أحد مدى الإهانة التي يتعرضون لها، لكن الرسول ﷺ لا يكتفي بإعطاء الأمان لزعماء العدو، بل ويَحُضُّ الجميع على احترامهم، وعلى عدم التعرُّض لهم بكلمة جارحة، ولا حتى بنظرة مؤذية، فيقول ﷺ لأصحابه في رُقيٍّ عجيب، وفي أدبٍ رفيع: «مَنْ لَقِيَ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو فَلَا يَشُدَّ النَّظَرَ إِلَيْهِ»[2]!!

إن الرسول ﷺ يمنع الصحابة من أن يشددوا النظر إلى سهيل بن عمرو شماتةً فيه، أو تشفيًا منه! بل إنه يفعل ما هو أعظم من ذلك، فيمدح سهيلًا، ويثني عليه، فيقول ﷺ لأصحابه: «.. فَلَعَمْرِي إِنَّ سُهَيْلًا لَهُ عَقْلٌ وشَرَفٌ، وَمَا مِثْلُ سُهَيْلٍ جَهِلَ الْإِسْلَامَ، لَقَدْ رَأَى مَا كَانَ يُوضَعُ فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِنَافِعٍ».

والكلمات تُعجزنا عن التعليق!!

وانطلق عبد الله بن سهيل إلى أبيه ليخبره بعفو الرسول ﷺ عنه، فلما ذكر له هذه الكلمات، قال سهيل: كان والله بارًّا صغيرًا وكبيرًا[3]..!!

وتوجه سهيل بن عمرو إلى الرسول ﷺ وأسلم بين يديه، وتغيَّرت حياته كليَّةً بعد هذا اليوم، وكان - كما يقول الرواة - كثير الصلاة والصوم والصدقة، وخرج مجاهدًا في سبيل الله،

---

(١) انظر ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٥٧، وابن حجر: الإصابة ٣/ ٢١٩.

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) الحاكم (٥٢٢٥)، وابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٥٧.

بل كان أميرًا على إحدى فرق المسلمين في موقعة اليرموك..

فانظر إلى جميل فعله ﷺ وكيف كان يحوِّل حياة الناس إلى ما لا يتخيله أحد، وذلك بحسن المعاملة، وسعة الصدر، ونسيان الضغائن والأحقاد.

أما عفوه عن فضالة بن عمير - أحد أشد أعداء أهل مكة - فيحتاج إلى وقفة خاصَّة!

لقد كان فضالة بن عمير من أشدِّ أعداء الرسول ﷺ، ووصل حقده على الرسول ﷺ إلى الدرجة التي أراد معها أن يقتله في وقت الفتح..!! وهذا أمر جدٌّ خطير؛ فالرسول ﷺ في وسط جيش كبير يبلغ عشرة آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم، وإذا قام فضالة بن عمير بهذا التَّهَوُّر فلا شك أنه مقتول، وهذا يوضح مدى الحقد الذي ملأ قلبه، فقرر أن يضحي بنفسه ليقتل الرسول ﷺ..!!

حمل فضالة السيف تحت ملابسه، ومرَّ بجوار الرسول ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال الرسول ﷺ: «أَفُضَالَةُ؟» قال: نعم، فضالة يا رسول الله.. (وكان يدَّعِي الإسلام في ذلك الوقت).

فقال ﷺ: «مَاذَا كُنْتَ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ؟» قال: لا شيء، كنتُ أذكر الله.. فضحك الرسول ﷺ، وقال: «اسْتَغْفِرِ اللهَ يَا فُضَالَةُ».. ثم وضع ﷺ يده على صدر فضالة فسكن قلبه!!

فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيءٌ أحبُّ إليَّ منه ﷺ[1].

كان هذا هو تعامله ﷺ مع رجلٍ لم يكتفِ بالتخطيط لقتله فحسب؛ بل اجتهد في تطبيق ما خَطَّطَ، وحمل السيف واقترب، لولا أن حفظ الله ﷻ رسوله..

ونختم هذا المطلب بموقف لا يقلُّ عظمة عما سبق، وهو موقفه ﷺ مع هند بنت عتبة!

لقد كانت «هند بنت عتبة» من النساء اللاتي حاربن الإسلام طويلًا، ولسنواتٍ كثيرة، ولها ذكريات مؤلمة جدًّا في أذهان المسلمين، بل وعند رسول الله ﷺ شخصيًّا..

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٤٢.

وهند بنت عتبة هي زوجة أبي سفيان ﷺ، وابنة عتبة بن ربيعة القائد القرشي المشهور، وكانت من أشدِّ الناس حقدًا على المسلمين، وبدأ هذا الحقد من أول أيام الإسلام، ولكنه زاد بشدة وتضاعف بعد يوم بدر؛ بعد أن قُتل في ذلك اليوم أبوها عتبة بن ربيعة، وعمها شيبة بن ربيعة، وابنها حنظلة بن أبي سفيان، وأخوها الوليد بن عتبة.. فهؤلاء أربعة من أقرب الأقربين إليها، وهم جميعًا من سادة قريش؛ فأورث ذلك في قلبها كراهية لا يماثلها فيها أحد. وظلت على هذا العداء حتى فتح مكة، وكانت من اللائي خرجن مع جيش الكفار في موقعة أحد، تُحمِّس الجيش القرشيَّ لقتال المسلمين، ولما فرَّ الجيش من أمام المسلمين في أول المعركة كانت تقذف في وجوههم التراب وتدفعهم دفعًا لحرب المسلمين، ولم تفرَّ كما فرَّ الرجال..!!

ثم إنه بعد انتصار أهل مكة على المسلمين في نهايات موقعة أحد قامت بفعل شنيع، وهو التمثيل بجثث المسلمين، فكانت تُقَطِّع الآذانَ والأنوفَ، حتى وصلت إلى حمزة بن عبد المطلب ﷺ عمِّ الرسول ﷺ فبقرت بطنه، وأخرجت كبده، وفي حقد شديد لاكت[1] منه قطعة، فما استساغتها، فلفظتها[2]!!

وقد أثَّر هذا الموقف بشدة في رسول الله ﷺ وترك في قلبه جرحًا عميقًا.. يقول أبو هريرة ﷺ: وقف رسول الله ﷺ على حمزة، وقد مُثِّل به، فلم يَرَ منظرًا كان أوجع لقلبه منه، فقال: **«رحمك الله أي عم؛ فلقد كنت وصولًا للرحم، فعولًا للخيرات»**[3]..

فتخيل مدى الغضب الذي في قلب رسول الله ﷺ ناحية هند.

ثم إنها خرجت مع المشركين في غزوة الأحزاب، بل استمرَّت في حربها ضد الإسلام حتى اللحظات الأخيرة قُبَيْلَ فتح مكة، حتى إنها رفضت ما طلبه زوجها من أهل مكة أن يدخلوا إلى بيُوتهم؛ طلبًا لأمان الرسول ﷺ، بل دَعَت أهل مكة لقتل زوجها أبي سفيان

---

(١) لاكت: مضغت.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/ ١٢، ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٧، الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٧٠، ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ٤٠.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٦٠٤.

عندما أصرَّ على الخضوع للرسول ﷺ، ودفعتهم دفعا إلى القتال[١]!

إنه تاريخ طويل وشرس لهذه المرأة مع المسلمين.

وبعد هذه الرحلة الطويلة للصدِّ عن سبيل الله، فتح رسول الله ﷺ مكّة. وأقبل أهلها من كلِّ مكان يبايعون على الإسلام.. وكما جاء الناس جاءت هند بنت عتبة، وهي منتقبة لا يعرفها ﷺ تريد أن تبايع كما يبايع الناس!!

إنَّ أيَّ مُطَّلِعٍ على الأمور لن يفترض في قدوم هند بنت عتبة للبيعة إلا محاولة منها للهروب من حكم بالقتل هو لا محالة صادر!! ولكن الموقف كان شديد البُعد عن توقعات الناس! فماذا فعل رسول الله ﷺ؟!

لقد بدأت النساء تبايع، وقال ﷺ لهن: «بَايِعْنَنِي عَلَى أَلَّا تُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا». فقالت هند وهي منتقبة، والرسول ﷺ لا يعرفها: والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال.. أي أن هناك تفصيلات كثيرة للنساء، والرجال قد بايعوا بيعة واحدة.. لكن الرسول ﷺ لم يلتفت إلى اعتراضها، وأكمل: «وَلا تَسْرِقْنَ».. فوقفت هند وقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني، ويكفي بَنِيَّ، فهل عليَّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟! فقال ﷺ: «خُذِي أَنْتِ وَبَنُوكِ مَا يَكْفِيكِ بِالْمَعْرُوفِ»[٢]. ثم انتبه ﷺ إلى أن هذه التي تتكلم هي «هند بنت عتبة» زوج أبي سفيان، فقال ﷺ: «وَإِنَّكِ لَهِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ»..؟! قالت: نعم.. هند بنت عتبة، فاعف عمَّا سلف، عفا الله عنك!

إنها لحظة فاصلة في حياة هند بنت عتبة!

تُرى ماذا سيفعل رسول الله ﷺ عندما يتذكر تاريخها الطويل، وعندما يتذكر حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وما حدث له على يدها..؟

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٢٤.

(٢) البخاري: كتاب البيوع، باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع والإجارة (٢٠٥٩)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الأقضية، باب قضية هند (١٧١٤)، وأبو داود (٣٥٣٢)، والنسائي (٥٤٢٠)، وابن ماجه (٢٢٩٣).

لكن رسول الله ﷺ كعادته وطبيعته يعفو ويصفح، فلم يُعَلِّق ولا بكلمة واحدة على كل ذكرياته المحزنة، بل تنازل عن كل الحقوق، وقَبِل إسلامها ببساطة، وأكمل البيعة مع النساء وكأنه لم يتأثر أبدًا!!

قال رسول الله ﷺ: «وَلا تَزْنِينَ».. واستمرت هند في اعتراضاتها، فقالت: يا رسول الله، وهل تزني الحرة..؟! فلم يتوقف الرسول ﷺ، بل أكمل: «وَلا تَقْتُلْنَ أَوْلادَكُنَّ».. فقالت هند: قد ربيناهم صغارًا، وقتلتهم كبارًا، هل تركت لنا ولدًا إلا قتلته يوم بدر؟ أنت قتلت آباءهم يوم بدر، وتوصينا الآن بأولادهم!!

فلم ينفعل رسول الله ﷺ ولم يقل لها: ولماذا قاتلناهم في بدر؟! أفلم يكن ذلك لأن المشركين - ومنهم أبوك وعمك وأخوك وابنك - حاربونا ليل نهار ليفتنونا عن ديننا، وقهرونا وعذبونا وصادروا ديارنا وأموالنا..؟ لم يقل رسول الله ﷺ شيئًا من ذلك، وإنما كان رد فعله عجيبًا!!

لقد تبَسَّم ﷺ ولم يقل شيئًا، وأخذ الموضوع بشيء من البساطة، وقدَّر موقف هند بنت عتبة، ومدى صعوبة الإسلام عليها.. ثم قال ﷺ: «وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُنَّ وَأَرْجُلِكُنَّ».. فقالت هند: والله إن إتيان البهتان لقبيح. فقال ﷺ: «وَلا تَعْصِينَنِي فِي مَعْرُوفٍ».. فقالت هند: والله ما جلسنا هنا وفي أنفسنا أن نعصيك في معروف[1].

وهكذا بايعت نساء مكة جميعًا، بمن فيهن هند بنت عتبة رضي الله عنها هذه البيعة المباركة.

وسبحان مقلِّب القلوب! لقد حسن إسلام «هند بنت عتبة»، وكما كانت تخرج مع جيوش الكفار لتُحَمِّسَهَا لحرب المسلمين، بدأت تخرج مع جيوش المسلمين لتحمِّسَهُمْ لحرب الكفار!! وكان من أشهر مواقفها يوم اليرموك عندما بدأت تشجع المسلمين على القتال في سبيل الله، وعلى خوض غمار المعركة الهائلة ضد مائتي ألف رومي، فكانت من أسباب النصر العظيمة في ذلك اليوم المجيد.

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٥٤، ٣٥٥.

لقد أصبحت «هند بنت عتبة» رضي الله عنها إضافةً قويةً للأمة الإسلامية، وكانت البداية موقفًا بديعًا من الرسول ﷺ، وما أكثر الأعداءَ الذين تحوَّلُوا إلى أخلص الأصدقاء بموقف منه ﷺ..!!

المطلب الثالث: إعادة زعماء الأعداء إلى مناصبهم بعد نصر المسلمين!

وهذا – والله – خُلُقٌ عجيب ونادر!!

لقد أَلِفنا الزعماء المنتصرين يقمعون زعماء أعدائهم بل يقتلونهم، فإذا وصل الأمر إلى عفوٍ عن زعماء الأعداء فإننا نعد ذلك عملًا نبيلًا نادرًا، لكن أن يُعيد القائدُ المنتصرُ زعماءَ أعدائه إلى مناصبهم مرة أخرى فهذا ما لا يخطر لأحدٍ على بال! وعند النظر إلى سيرة رسولنا ﷺ فإننا نجد أن هذا أمر مشاهَدٌ فيها، بل هو متكرر إلى الدرجة التي يُعد فيها أصلًا من الأصول المتَّبعة في التعامل مع زعماء الأعداء!

ولعل مثالًا واحدًا مبهرًا كموقفه مع مالك بن عوف زعيم هوازن يكون كافيًا ومُغنيًا عن بقية الأمثلة..

لقد كان موقف رسول الله ﷺ مع هذا الزعيم الكبير موقفًا أعجب من أن يُستوعَب!!

كان مالك بن عوف زعيمًا خطيرًا من زعماء العرب، وقد استطاع أن يجمع جيشًا رهيبًا من قبائل هوازن وأعوانها من قبائل ثقيف وغيرها، بلغ قوامه خمسة وعشرين ألف مقاتل، وهو أكبر الجيوش العربية مطلقًا، وحفَّزهم تحفيزًا كبيرًا لقتال رسول الله ﷺ لدرجة أنهم قبلوا أن يأخذوا معهم إلى أرض القتال نساءهم وأولادهم وأنعامهم وأموالهم كحافزٍ لهم على عدم الفرار..!! وهم بذلك يُضَحُّون بكلِّ ما يملكون من أجل قتال المسلمين..

لقد كان الهدف واضحًا في ذهن «مالك بن عوف»، وهو استئصال المسلمين من جذورهم، وخطَّط لذلك تخطيطًا مُحْكَمًا، والتقى مع المسلمين في صدام مروِّع بالقرب من وادي حنين، وكادت خطته أن تُفلِح، حتى زُلْزِلَ المسلمون زلزالًا شديدًا، وتعرضوا لأشد أزمة في تاريخهم مطلقًا، وكاد الوجود الإسلامي أن ينتهي، وكاد الرسول ﷺ أن يُقْتَلَ..!! إنها أزمة الأزمات حقًّا!

ولكن شاء الله ﷻ بعد هذا الصدام المروِّع أن ينتصر المسلمون، وأن تَفِرَّ هوازن وثقيف أمام الجيش الإسلامي، وكان مالك بن عوف من الذين فرُّوا، وانضموا إلى أهل ثقيف في حصون الطائف..!!

وفي ذات الوقت الذي فرَّ فيه مالك بن عوف، فكَّرت قبيلة هوازن - كما مرَّ بنا - في الإسلام، وكان الدافع الرئيسي لها في أول إسلامها هو استرداد النساء والأنعام التي أخذها المسلمون سبيًا وغنيمةً، ووجد «مالك بن عوف» نفسه وحيدًا شريدًا بعد أن كان قائدًا مُمَكَّنًا.. لقد وجدَ نفسه بلا مالٍ ولا ثروةٍ، وكذلك بلا قبيلةٍ ولا عُزْوَةٍ، وفوق ذلك فهو لاجئ عند قبيلة أخرى - قبيلة ثقيف - لا يأمَنُها على نفسه..!!

لقد كان في أشدِّ حالات الانكسار التي من الممكن أن يتعرض لها قائد.

وبينما هو في هذه الحالة المؤسفة المخزية.. كان هناك من يفكر في أمره!!

إنه رسول الله ﷺ..!!

لقد سأل رسول الله ﷺ عن مالك بن عوف، وإلى أيِّ شيءٍ صار، فقال قومه: إنه في الطائف في حصون منيعة يخشى على نفسه.. فقال ﷺ في روعته المعهودة: **«أخبروا مالكًا إن أتاني مسلمًا رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل»**[1]!!

هل يمكن أن يتخيل ذلك أحد..؟!

أهذا هو التعامل المتوَقَّع من قائد منتصر مع زعيم الجيش المعادي له، المهزوم أمامه؟!

إن عموم القادة في العالم ليتلذذون ويستمتعون بمحاكمة ومعاقبة وإذلال زعماء أعدائهم.. أما أن يَرْفُقَ الزعيم المنتصر بزعيم معادٍ له، ويرقُّ له، ويبذل له، ويعطيه بسخاء.. فهذا ما لا يَسْتَوْعِبُ فهمَه قادةُ العالم!!

ووجد مالك بن عوف في كلمات رسول الله ﷺ الإنقاذ له من أزمته، فأسرع مُقبلًا على رسول الله ﷺ، وأعلن إسلامه بين يديه، فَقَبِلَهُ ﷺ، دون قيد ولا شرط، ولم يُعَنِّفْهُ، ولم يَلُمْهُ..

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٧٤.

ولم يستفسر منه عن شيء!!

بل إن رسول الله ﷺ فعل ما هو أعظم من ذلك وأرقى..!! لقد أعاد مالك بن عوف ﷺ، زعيمًا مرة أخرى على هوازن، ولم يقل إن هذا القائد صاحب الإمكانيات الجبارة قد يُجمِّع الناس من جديد لحربي، وقد يُظهر إسلامًا لفترة ثم ينقلب عليَّ وعلى المسلمين.. إنه لم يفكِّر بعقلية القائد الذي لا يريد منافِسًا إلى جواره، ولكن فكَّر بعقلية الداعية الذي يريد الخير للناس أجمعين! لقد احترم رسول الله ﷺ إمكانيات مالك القيادية، وحفظ له سمعته ومكانته وقيمته، ولم يهدرها كما أُهْدِرَتْ آلاف وملايين الطاقات نتيجة عنجهية وتكبُّر بعض القادة.. ونسي هذا الرسول الأكرم ﷺ ماضي مالك بن عوف في لحظة واحدة، وعامله معاملة القواد المحترمين، وحوَّل جهده من الإفساد في الأرض إلى إصلاحها..

فأيُّ خيرٍ عادَ على المسلمين.. وأيُّ خيرٍ عادَ على هوازن.. وأي خير عاد على مالك بن عوف..؟!!

هل نجد – بعد كل هذا - من يتهم المسلمين بأنهم لا يعترفون بغيرهم أو يحترمون وجودهم؟ وهل في تاريخ غيرنا ما يشابه ولو من بعيد مواقف ذلكم النبي العظيم ﷺ؟!

إن الحقيقة ظاهرة، وإن الأمر واضح، ولكن أكثر الناس لا يعلمون!

ثم إن هذا لم يكن أمرًا نادرًا في حياته ﷺ، بل كان كثيرًا ما يُعيد زعماء القبائل إلى مناصبهم مهما كان عداؤهم شرسًا للمسلمين، فقد أعاد عيينة بن حصن إلى زعامة بني فزارة[1]، مع العلم أنه كان من المحاصِرين للمدينة المنورة أيام الأحزاب، وذلك تحت راية غطفان، وأعاد كذلك العباس بن مرداس إلى زعامة بني سليم[2]، وأعاد الأقرع بن حابس إلى زعامة بني تميم[3]، وأعاد جيفر وعبَّاد إلى زعامة عُمَان[4]، وأعاد باذان إلى زعامة اليمن[5]،

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ١٥٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق ١/ ٢٦٣.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٧٠.

وأعاد المنذر بن ساوى إلى زعامة البحرين[١]، وغيرهم وغيرهم، وحصر ذلك يصعب لشدة تكراره! فما أعظم هذه من سُنَّة، وما أروعها من طريقة!!

المطلب الرابع: الكرم وسخاء العطاء:

اعتدنا كثيرًا أن نرى القواد المنتصرين يأخذون ولا يعطون، بل إن الهدف الرئيسي من الحرب قد يكون حب الأخذ والاستغلال، وهو الهدف البارز الذي رأيناه في الحملات الاستعمارية الشرسة التي عانى منها عالمنا الإسلامي، سواء في القديم أو في الحديث، أما أن نرى القائد المنتصر يحرص على العطاء، بل ويُفَضِّل الناس على نفسه فهذا لا يكون إلا في سيرة رسول الله ﷺ!

ولْنستمتع سويًا به ﷺ وهو يتعامل مع الثروات الهائلة التي جُمعت بعد غزوة حنين، ولْنرى كيف وزَّعها الرسول الكريم ﷺ.

لقد كان أول لقاء في ذلك اليوم العجيب مع أبي سفيان زعيم مكة الأول الذي ظل يحكم مكة ست سنوات متصلة من غزوة بدر، إلى فتح مكة، وهو من أصحاب رءوس الأموال الضخمة في مكة، ومع ذلك فعندما رأى - كما رأى الجميع - الغنائم الهائلة التي لا يحلم بها عربي، قال في لهفة: يا رسول الله، أصبحت أكثر قريش مالاً. فهو يُلَمِّح للرسول بوجود المال الكثير، وكأنه يطلب منه! فتبسم رسول الله ﷺ ولم يتكلم، فلما رأى أبو سفيان أن التلميح غير مجدٍ، قال مُصرِّحًا: أعطني يا رسول الله من هذا المال!

ونحن لا نتعجب من كلام أبي سفيان وتصريحه للرسول بطلبه للمال هكذا تصريحًا، لأن هذه أموال هائلة، وسوف تُوزَّع، فلعله إن لم يُصرِّح وُزِعَت على غيره، وعندها لا ينفع الندم، فقال رسول الله ﷺ في يسر وسهولة: «يَا بِلَالُ زِنْ لأَبِي سُفْيَانَ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً مِنَ الْفِضَّةِ، وَأَعْطُوهُ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ!» فنظر أبو سفيان إلى العطايا وهو لا يصدق نفسه لكثرة الإبل والفضة، فقال دون أن يفكر كثيرًا: ابني يزيد[٢] يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٦٣.

(٢) يزيد بن أبي سفيان أفضل بني أبي سفيان. ويقال له: يزيد الخير، وبعثه النبي ﷺ على صدقات بني فراس، واستعمله أبو بكر الصديق، وولاه عُمر فلسطين، ولما مات استخلف أخاه معاوية، وكان موته في طاعون عمواس ١٨هـ، وقيل: ١٩هـ بعد أن افتتح قيسارية. الإصابة (٩٢٦٤)، الاستيعاب ٤/ ١٣٦٦، أسد الغابة ٤/ ٦٨٨.

في منتهى البساطة: «زِنْ لَهُ يَا بِلَالُ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، وَأَعْطُوهُ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ». فقال أبو سفيان: يا رسول الله، ابني معاوية[١]. فقال رسول الله ﷺ: «زِنْ لَهُ يَا بِلَالُ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، وَأَعْطُوهُ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ».

ذُهِل أبو سفيان، وقال في صدق: إنك الكريم، فداك أبي وأمي، ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيرًا[٢].

ونشعر بالصدق في كلمات أبي سفيان، ما الذي غيَّره؟ وكيف تغير من رجل يشك في نبوة رسول الله ﷺ إلى رجل مؤمن به مادح له؟ وما الذي ثبَّته بعد تردد؟ وما الذي أسعده بعد حزن؟

إنه المال، ولكن ماذا تمثل هذه الأموال إلى جوار هداية إنسان؟ وما هذه الأموال إلى جوار استقرار الدولة الإسلامية؟ وما هذه الأموال إلى جوار تأليف قلوب بني أمية؟ وما هذه الأموال إلى جوار ثبات أهل مكة؟!

نعم إن المال حلو ونضر، ولكنه يتصاغر جدًّا إلى جوار هذه المعاني.

وهذه كانت نظرة رسول الله ﷺ، فهو يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ويعطي وكأن المال لا ينتهي. ولم يكن أبو سفيان الآخذ الوحيد في ذلك اليوم..

جاء حكيم بن حزام[٣]، وهو أيضا من مسلمي الفتح، ودار بينه وبين رسول الله ﷺ حوار عجيب!

---

(١) معاوية بن أبي سفيان، أسلم يوم الفتح وروي أنه أسلم يوم القضية، وهو من كتاب الوحي، ولاه عمر الشام بعد موت أخيه يزيد، وأقره عثمان إلى موته، ثم كانت الفتنة بينه وبين سيدنا علي، ثم آلت إليه الخلافة بعد موته وتنازل الحسن بن علي عنها، ومات ٦٠هـ. الإصابة (٨٠٦٧)، أسد الغابة ٤/ ٤١٦، الاستيعاب ٣/ ٤٧٠.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٤٠٧، ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٢٧٠.

(٣) حكيم بن حزام القرشي ابن أخي السيدة خديجة، ولد في الكعبة، وكان عاقلاً سريًّا فاضلاً تقيًّا سيدًا بماله غنيًّا، ولد قبل عام الفيل بـ ١٣ سنة، وقيل بـ ١٢ سنة، أسلم يوم الفتح، وعاش في الجاهلية ٦٠ سنة، ومثلها في الإسلام، وتوفي بالمدينة سنة ٥٤هـ. الإصابة (١٧٩٥)، أسد الغابة ١/ ٥٩٧، الاستيعاب ١/ ٤١٧.

يقول حكيم بن حزام ﷺ: سألت رسول الله ﷺ، فأعطاني مائة من الإبل، ثم سألته، فأعطاني مائة ثانية، ثم سألته، فأعطاني مائة ثالثة!

لقد أعطاه رسول الله ﷺ ثلاثمائة من الإبل، ثم قال له بعد أن رآه يريد المزيد: «يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ- يعني بغير شرط ولا إلحاح- بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ وَتَشَوُّفٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»[1].

وسمع حكيم بن حزام هذا الدرس، وفَقِهَ مرادَ رسول الله ﷺ، فأسرع برد المائة الثانية، والثالثة، وأخذ المائة الأولى فقط، ثم قال في صدق: يا رسول الله والذي بعثك بالحق، لا أرزأ أحدًا من بعدك يا رسول الله، حتى أموت.

وسبحان الله! كان حكيم بن حزام صادقًا في قسمه، فما كان يأخذ من أحد شيئًا أبدًا، حتى أنه كان يرفض العطاء الذي يستحقه من أبي بكر، ثم من عمر بعد ذلك!

وكما وزَّع رسول الله ﷺ على هؤلاء وزَّع على غيرهم، فأعطى سهيل بن عمرو ﷺ، وأعطى الحارث بن هشام أخا أبي جهل، وأعطى النضير بن الحارث، وأعطى غيرهم من زعماء مكة[2]. ثم تجاوز رسول الله ﷺ أهل مكة إلى غيرها، فأعطى عيينة بن حصن زعيم قبيلة بني فزارة مائة من الإبل، وأعطى الأقرع بن حابس زعيم بني تميم مائة من الإبل، وكذلك أعطى عباس بن مرداس زعيم قبيلة سُليم خمسين ناقة ثم زاده إِلَى مِائَةٍ[3].

وإذا كان كل هذا العطاء في كفَّة، فعطاؤه لصفوان بن أمية في كفَّة وحده!!

وموقفه ﷺ مع صفوان يحتاج إلى وقفة وتحليل.

---

(١) البخاري: كتاب الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه (٢٩٧٤)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى (١٠٣٤)، والترمذي (٢٤٦٣)، والنسائي (٢٥٣١)، وأحمد (١٥٦١٢)، والدارمي (٢٧٥٠)، وابن حبان (٣٢٢٠)، والطبراني في الكبير (٣٠٧٩).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٥/ ١٦٩.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٥/ ١٦٩- ١٧١.

لقد مرَّ بنا في هذا البحث أن رسول الله ﷺ كان قد عفا عن صفوان بن أمية، وهو كما ذكرنا من كبار زعماء مكة، وكان من أشد الناس حربًا لرسول الله ﷺ - وأعطى له مهلة أربعة شهور للتفكير في أمر الإسلام، وفي أثناء هذه المهلة، وكان صفوان ما زال مشركًا، قرر رسول الله ﷺ الخروج لملاقاة التجمع الكبير لهوازن في حُنَيْن، واحتاج رسول الله ﷺ إلى بعض الدروع للقتال، وكان صفوان من كبار تجار السلاح في مكة ويملك عددًا وفيرًا منها، ومع أنه كان مهزومًا مقهورًا في ذلك الوقت، ومع أنه كان لا يزال على شركه، ومع أن تاريخه شديد السواد مع المسلمين، ومع أن وجود السلاح في يده يُمثِّل خطورة على الجيش المسلم، مع كل هذه الاعتبارات إلا أن الرسول ﷺ طلب منه هذه الدروع على سبيل الاستعارة! حتى أن صفوان دهش من استعارته للدروع وهو منتصر متمكن، فسأله ليستفسر: أغَصْبٌ يا محمد؟ فقال: «لَا بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ»[1]. لقد أخذها منه على سبيل الاستعارة، وبالثمن، ثم هو يضمن إن فُقِدَت أو تلف منها شيء أن يعوضه عنها!! ولم يستغل ضعفه، وقِلَّةَ أعوانه، وإسلام مكة كلها تقريبًا إلا هو! ولم يصادر سلاحه تشككًا في نياته!!

ولابد أن نتساءل: هل في تاريخ الأمم مثل هذه المواقف؟!

وخرج صفوان مع المسلمين إلى حنين ليرعى أسلحته، وانتصر المسلمون انتصارًا مجيدًا، ووزَّع رسول الله ﷺ الغنائم كما رأينا، وأعطى عطاءً نادرًا، وكل هؤلاء الذين أخذوا الأموال الغزيرة كانوا كفارًا منذ أيام، وكانوا جميعًا أصدقاء ومقربين إلى صفوان، ولكنهم أسلموا فعاد عليهم إسلامهم بهذه الثروة الهائلة، ومن بعيد وقف صفوان بن أمية متحسِّرًا، فهو ما يزال من المشركين، وليس له إلا إيجار السلاح.. ولكنْ حَدَثَ في لحظةٍ ما أذهل صفوان، وأذهل المشاهدين للموقف والسامعين عنه، وسيظلُّ مذهلًا للناس إلى يوم القيامة!!

---

(١) أبو داود (٣٥٦٢)، وأحمد (١٥٣٣٧)، (٢٧٦٧٧)، والبيهقي (١١٢٥٧)، والحاكم (٢٣٠١)، وهو حسن الشواهد، ويشهد له ما جاء في حديث عبد الرحمن بن جابر عن أبيه، والذي أخرجه الحاكم (٤٣٦٩)، والبيهقي (١١٢٥٧). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وهو كما قالا فالحديث صحيح، ويشهد له أيضًا ما جاء في حديث ابن عباس بنفس اللفظ والذي أخرجه الحاكم (٢٣٠١)، وقال: صحيح على شرط مسلم. ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

لقد نادى رسولُ الله ﷺ صفوانَ بن أمية، وأعطاه مائة من الإبل[1]، كما أعطى زعماء مكة المسلمين!!

أيتوقع إنسان - أيا كان كرمه أو سخاؤه - أن يحدث منه مثل هذا..؟!

إن صفوان ما زال مشركًا لا يعترف بنبوة رسول الله ﷺ !!

ولم تكن ذلك نهاية الموقف!

لقد وجد رسول الله ﷺ أن صفوان ما زال واقفًا، ينظر إلى شِعْبٍ من شِعاب حُنين، قد مُلِئ إبلًا وشياه، وقد بَدَتْ عليه علامات الانبهار والتعجب من كثرة الأنعام، فقال له ﷺ في رِقَّة: «أَبَا وَهْبٍ، يُعْجِبُكَ هَذَا الشِّعْبُ؟».. قال صفوان في صراحة شديدة: نَعَمْ.

إنه لا يستطيع أن يترفع وينكر.. إن المنظر مبهر حقًّا!!

قال الرسول ﷺ في بساطة وكأنه يتنازل عن جمل أو جملين: «هُوَ لَكَ وَمَا فِيهِ»[2]!! وفي رواية مسلم أنه أعطاه مائَةً مِنَ النَّعَمِ ثُمَّ مِائَةً ثُمَّ مِائَةً[3]!!

أذهلت المفاجأة صفوان، ووضحت أمام عينيه الحقيقة التي ظلت غائبة عنه سنين طويلة، ولم يجد نفسه إلا قائلا: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله!!

وأسلم صفوان في مكانه!!

يقول صفوان بن أمية: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ، وأعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى صار أحبَّ الناس إليّ[4]!!

أيُّ خير أصاب صفوان ﷺ..!! وأيُّ خير تحقق لقبيلة بني جُمَح عندما أسلم زعيمها..!!

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ٤٤٩.

(٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٢٥٣ - ٤٣٤.

(٣) مسلم: كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا، وكثرة عطائه (٢٣١٣)، والبيهقي (١٢٩٦٥).

(٤) المصدر السابق.

وأيُّ خير تحقق لمكة..!! بل وأيُّ خير تحقق للمسلمين، وقد أضيفت إليهم قوة الزعيم المكي المشهور صفوان بن أمية، والذي حسن إسلامه بعد ذلك، وصار من المجاهدين في سبيل الله..؟!

إن كل هذا الخير قد تحقق بوادٍ من الإبل والشياه!

وما هي قيمة هذه الإبل والشياه؟!

إن الدنيا بكاملها - وليست الإبل والشياه فقط - تفنى وتزول، ولكن الذي لا يزول هو نعيم الجنة، وكم من البشر سيُخلَّد في الجنة؛ لأنه أُعْطي ذات يوم مجموعة من الإبل والشياه!

أليس هذا فهمًا راقيًا من رسول الله ﷺ لحقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة وحقيقة الغنائم وحقيقة البشر؟

أليس هذا تقديرًا صائبًا من الرسول الحكيم ﷺ في هذه المقارنة السريعة التي عقدها؟!

الأغنام في مقابل الإسلام..!! والدنيا في مقابل الآخرة!

لقد وجد الرسول ﷺ أن الأغنام - مهما كثرت - ثمن زهيد جدًا للإسلام، فهانت عليه، بل هانت عليه الدنيا بكاملها، فأعطاها دون تردد، فالدنيا عنده لا تعدل جناح بعوضة، والدنيا عنده قطرة في يَمٍّ واسع، والدنيا عنده أهون من جَدْيٍ أَسَكَّ[1] مَيِّتٍ، ولم يكن هذا كلاما نظريًا فلسفيًا، وإنما كان حقيقة رآها كل المعاصرين له ﷺ بعيونهم، كان واقعًا في حياته، وحياة الصحابة ﷺ، وحياة من عاملهم من المسلمين وغير المسلمين..

ولم يتبق في يده شيء لنفسه ﷺ !!

لم يتبق ما يُعَوِّضُ به فقر السنين، وانقضاء العمر، وقد بلغ الستين من عمره بل تجاوزها!

لم يحتفظ لنفسه بشيء، ورأى الناس منه ما جعل عقولهم تطيش، وأفئدتهم تضطرب، فانطلق الأعرابُ يزدحمون عليه ﷺ يطلبون المال والأنعام لأنفسهم قبل أن تنفد، حتى اضطروه ﷺ - وهو الزعيم المنتصر، والقائد الأعلى - أن يلجأ إلى شجرة، وانتزع الأعراب

---

(١) أسكّ: صغير الأذنين، وهو عيب في الجدي.

رداءه، فقال في أدبٍ ورفقٍ، ولينٍ يليق به كنبي، ويجدر به كمُعَلِّم: «أَيُّهَا النَّاسُ، رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ لَكُمْ عِنْدِي عَدَدَ شَجَرِ تِهَامَةَ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ عَلَيْكُمْ، ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلًا، وَلا جَبَانًا، وَلا كَذَّابًا»(١).

وصدق ﷺ.. فما كان بخيلًا، ولا جبانًا، ولا كذابًا..

المطلب الخامس: التواضع عند النصر:

ولعل هذه من أصعب الأمور تحقيقًا في مثل هذا المقام!

إن النصر - تلقائيًا - يورِث في النفس زهوًا وفخارًا، وقد يقود - وهذا كثير - إلى غرور وتكبُّر، وراجعوا صور الزعماء وهم يدخلون المدن والدول المهزومة، أو وهم يُلْقون على مسامع الناس خطب النصر، أو وهم يقابلون وفدًا أو زعيمًا من الدولة التي كُسِرت وهُزِمت.. إن من قواعد البروتوكول هنا أن يشمخ الزعيم المنتصر بأنفه، وأن يرفع رأسه، وأن يجلس والناس وقوفٌ حوله، وأن يُسلِّم عليه الناس فلا يلتفت إليهم!!

هذا هو بروتوكول المنتصرين من عامة القادة في العالم..

لكن رسول الله ﷺ كان شيئًا آخر!!

لقد كان رسول الله ﷺ يعلم أن النصر الذي حققه ليس من عنده، ولا من عند أحد من البشر، بل من عند الله ﷻ.. يقول تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦]، ويقول: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٠]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا، ثم إن الله الذي وهب النصر قادرٌ على نزعه، وإعطائه لقوم آخرين، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا التكبر والعُجْب؟! من هذا المنطلق كان رسول الله ﷺ متواضعًا في كل شئون حياته، بل إنه كان يُظهر التواضع بصورة أكبر عند مواطن النصر، لكي يُرسِّخ عند المسلمين والعالمين أن

---

(١) البخاري عن جبير بن مطعم: كتاب الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم (٢٩٧٩)، وابن حبان (٤٨٢٠)، ومالك: عن عمرو بن شعيب (٩٧٧).

الناصر هو الله ﷻ، وهذا المنهج الراقي أفرز لنا مواقف أعجب من الخيال!!

لننظر إلى موقف من مواقفه ﷺ مع أحد رجال مكة المنهزمين بعد موقعة بدر الكبرى. لقد كانت هذه الموقعة بين ثلاثمائة مسلم يزيدون قليلًا، وألف من كفار مكة، وتحقق النصر المؤزَّر للمسلمين، وأي قائد - غير رسول الله ﷺ - سيعيش أكثر أيامه فخرًا وتيهًا لانتصاره بالقليل على الكثير، ولكن موقفنا لم يكن على هذه الصورة.. لقد جاء عمير بن وهب، وهو من كبار زعماء مكة، بزعم أنه يريد أن يفك أسر ابنه وهب، والذي أُسِر في بدر.. كان هذا هو الهدف المعلن من الزيارة، بينما الهدف الحقيقي كان قتل رسول الله ﷺ!! فقد كانت مؤامرة قرشية خبيثة بين هذا الرجل وصفوان بن أمية. ومع أن الرجل غير مأمون، ومع أنه جاء في موقف ظاهره ذلَّة، وهو طلب فكُّ الأسير، ومع أن الرسول ﷺ قد علم عن طريق الوحي بالمؤامرة، مع كل هذه الأمور إلا أن رسول الله ﷺ لم يستغل الموقف ليذلَّ عميرًا أو يُحقِّر من شأنه، ولم يستغل الموقف ليظهر له ولأهل مكة عظمة المنتصرين، بل كان على عكس ذلك تمامًا..

لقد شَحَذَ عمير سيفه ونقعه في السُّمِّ، ثم انطلق إلى المدينة، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب ﷺ: عدو الله عمير ما جاء إلا لشر. ثم دخل عمر على النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحًا سيفه، قال: «فَأَدْخِلْهُ عَلَيَّ»، فأقبل عمر إلى عمير فلَبَّبَهُ[1] بحَمَالة سيفه، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به.

إن هذا الذي فعله عمر هو أقل القليل في أمور الحيطة والحذر، وإلا فلا يسمح لمثل هذا أن يأتي ليدخل هكذا على قائد الدولة، ودون تفتيش أو رقابة. لكن رسول الله ﷺ كان له موقف آخر!

لقد قال رسول الله ﷺ: «أَرْسِلْهُ يَا عُمَرُ، أُدْنُ يَا عُمَيْرُ»، فدنا وقال: أَنْعِمُوا صباحًا، فقال النبي ﷺ: «قَدْ أَكْرَمَنَا اللهُ بِتَحِيَّةٍ خَيْرٍ مِنْ تَحِيَّتِكَ يَا عُمَيْرُ بِالسَّلَامِ تَحِيَّةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ». ثم قال: «ما

---

(١) أي قيَّده بحمالة السيف من عند رقبته.

جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه. قال: «فَمَا بَالُ السَّيْفِ فِي عُنُقِكَ؟» قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئًا ؟ قال: «اُصْدُقْنِي، مَا الَّذِي جِئْتَ لَهُ؟» قال: ما جئت إلا لذلك. قال: «بَلْ قَعَدْتَ أَنْتَ وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي الْحِجْرِ، فَذَكَرْتُمَا أَصْحَابَ الْقَلِيبِ مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ قُلْتَ: لَوْلَا دَيْنٌ عَلَيَّ وَعِيَالٌ عِنْدِي لَخَرَجْتُ حَتَّى أَقْتُلَ مُحَمَّدًا، فَتَحَمَّلَ لَكَ صَفْوَانُ بِدَيْنِكَ وَعِيَالِكَ، عَلَى أَنْ تَقْتُلَنِي لَهُ وَاللهُ حَائِلٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ». قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم تشهد شهادة الحق. فقال رسول الله ﷺ: «فَقِّهُوا أَخَاكُمْ فِي دِينِهِ، وَأَقْرِئُوهُ الْقُرْآنَ، وَأَطْلِقُوا لَهُ أَسِيرَهُ، فَفَعَلُوا»[1].

ما أروع هذا التواضع !

إنه يطلب من عُمر أن يطلقه حرًا، ثم يطلب من عمير أن يقترب منه مع علمه بنواياه الخطيرة، ثم يعلن له أن تحية الإسلام هي السلام، فالإسلام دين سلام للعالمين، ولا يذكُره بحرب بدر، ثم يحقق معه تحقيقًا هادئًا غير متعنِّت يستفسر فيه عن سبب الزيارة، ثم يكشف له بهدوء عن نواياه الدفينة، دون انفعال ولا تهور ولا غضب..

هل يتعامل قائد في العالم مع رجل يدبِّر لاغتياله بهذه الصورة؟!

ثم إن عميرًا أسلم بعد أن أطلعه رسول الله ﷺ على أمور لا تُعرَف إلا بوحي، فقَبِل منه الرسول ﷺ ذلك مباشرة دون تشدد، ولم يتهمه بالتحايل حتى ينجو من العقاب، بل قال للصحابة: فقِّهوا «أخاكم» في الدين، فقد جعله في لحظة واحدة أخًا للمسلمين، ثمَّ تفضَّل أكثر وأكثر وأطلق له أسيره بغير فداء، مع أن الأسير لم يُسْلِم بعد، ومع أن الأمر كله يحتمل أن يكون - في عُرْف عامة القواد - مجرد تمثيلية لإطلاق الأسير، ثم لن يلبث عمير عند عودته إلى مكة أن يترك الإسلام، ويعود إلى دينه القديم.. إن رسول الله ﷺ لم يفترض مثل هذه الافتراضات، ولكنه تعامل مع عمير بمنتهى التواضع وسلامة الصدر، مما قد لا يستوعبه

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٢١٣.

قائد من قواد زماننا أو أي زمان!

وما قلناه عن لقاء عمير ﷺ يُقال عن لقاءات كثيرة، غير أنه لا ينبغي أن يفوتنا ونحن نتحدث عن تواضعه ﷺ بعد النصر أن نتحدث عن دخوله مكة المكرمة فاتحًا بعد هجرةٍ وإخراجٍ منها اقترب من ثماني سنوات كاملة! إن النفس التي تتواضع وهي تنتصر على قوم ظلموا وبطشوا وتكبَّروا وتجبَّروا لنفس طيبة طاهرة حقًّا!!

لقد كان دخول رسول الله ﷺ مكة دخولًا عجيبًا، وبكل تأكيد فإنه ليس له مثيل في الدنيا!

لقد كان باستطاعته أن يبيد مكة بكلمة واحدة، وكان باستطاعته أن يشفي صدور المؤمنين بإهلاك الكافرين، وكان باستطاعته أن يسخر منهم، ويستهزئ بهم، ويُذكِّرهم بأذيتهم له، واضطهادهم لأصحابه..

كان باستطاعته أن يفعل الكثير، ولكنه ما فعل شيئًا مما يتوقعه عامة الناس..

يقول أنس ﷺ: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشعًا[1].

إنه لا يتواضع في كلماته فقط، بل في شكله الخارجي، ومظهره الذي يراه الجميع من المسلمين والكافرين، ثم كانت كلماته الرقيقة - والتي مرت بنا في هذا البحث - حيث أطلق الجميع بقوله البديع: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ[2]».

أن الموقف لا يحتاج لتعليق، وإن الصورة لتُغْني عن الكلام!

إن هذا هو رسولنا ﷺ، فأين مثيله في العالمين؟!

* * *

---

(١) الحاكم (٤٣٦٥)، وقال: صحيح على شرط مسلم. ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤١١، ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٥٦، السهيلي: الروض الأنف ٤/ ١٧٠، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٥٧٠، وكذلك ابن حجر: فتح الباري ٨/ ١٨.

المطلب السادس: وفاءه ﷺ بالوعد:

الكثير من المنتصرين تنسيهم نشوة النصر ما قطعوه على أنفسهم من عهود، وما أطلقوه من وعود، ولو كانت قبيل النصر بقليل! لكن رسول الله ﷺ لم يكن من هذا النوع..

روى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولُ الله ﷺ قال يَوْمَ الطَّائِفِ[1]: «مَنْ خَرَجَ إِلَيْنَا مِنَ الْعَبِيدِ فَهُوَ حُرٌّ»، فَخَرَجَ عَبِيدٌ مِنَ الْعَبِيدِ فِيهِمْ أَبُو بَكْرَةَ[2]، فَأَعْتَقَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ[3]. إن ضعف العبيد لم يكن دافعًا رسول الله ﷺ أبدًا لخُلْف الوعد، بل إنه اعتبر كلماته هذه ميثاق شرف لازم التحقيق، حتى إن لم تكن هناك جهة دنيوية تتولى الحساب والمساءلة. ثم إن هذا الموقف يعكس لنا منهج رسول الله ﷺ في قضية العبيد والأسرى. إنه لا يريدهم للسخرة أو لاستعمالهم فيما يعود على المسلمين بالنفع، إنما يريد لهم الحرية والانطلاق من القيود، ورفض الذلِّ والضيم، وهذا ما يبغيه الإسلام لكل إنسان مسلمًا كان أو غير مسلم.

ولم يكن رسول الله ﷺ يلتزم بما قطعه على نفسه من عهود فقط، بل كان ملتزمًا كذلك بما تعارف الناس عليه من حقوق، حتى لو كان هذا التعارف من أيام الجاهلية! وفي موقفه مع عثمان بن طلحة[4] رضي الله عنه دليل على هذا المعنى.

لقد تعارفت قريش على أن مفتاح الكعبة لا يكون إلا بيد قبيلة بني عبد الدار، وذلك منذ أن أعطى قُصَيٌّ - أحد أجداد رسول الله ﷺ - هذا المفتاح إلى ابنه عبد الدار، وقال له: لا

---

(١) كان حصار الطائف بعد غزوة حنين في العام الثامن من الهجرة.

(٢) نفيع بن مسروح ويقال: نفيع بن الحارث بن كلدة، وكان أبو بكرة من عبيد الحارث بن كلدة فاستلحقه وهو ممن غلبت عليه كنيته، تدلى من حصن الطائف ببكرة ونزل إلى رسول الله ﷺ، فكناه رسول الله أبا بكرة. سكن أبو بكرة البصرة، ومات بها في سنة ٥١ هـ وكان ممن اعتزل يوم الجمل. الإصابة (٨٧٩٢).

(٣) أحمد (٢٢٢٩)، واللفظ له، والبيهقي في سننه الكبرى (١٨٦٢٢)، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ١٦٠.

(٤) عثمان بن طلحة بن أبي طلحة القرشي العبدري، قُتِل أبوه وعمه وأربعة من إخوته يوم أُحُد كفارًا، وقد شهد عثمان فتح مكة، وأعطاه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة. وتوفي في أول خلافة معاوية سنة ٤٢هـ. وقيل: إنه قُتل يوم أجنادين. الاستيعاب ٣/ ١٥٢، الإصابة: ترجمة (٥٤٤١)، أسد الغابة ٣/ ٤٧٣.

يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له[1]، ومنذ ذلك اليوم والجميع يتعارف على ذلك، ومع أن هذا القانون كان من أيام الجاهلية إلا أن رسول الله ﷺ كان يُقِرُّه. وعلى ذلك فقد انتهى هذا المفتاح إلى عثمان بن طلحة العبدري بصفته سيد بني عبد الدار، وفي يوم من أيام مكة قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة - وكان عثمان آنذاك مشركًا - أراد رسول الله ﷺ أن يدخل الكعبة، فحدث موقف لا تألفه قريش! ونترك عثمان بن طلحة يصوِّر لنا هذا الموقف.

يقول عثمان بن طلحة: كنا نفتحُ الكعبةَ في الجاهلية يومَ الاثنين، والخميس، فأقبلَ رسولُ الله ﷺ يومًا يُريد أن يدخُلَ الكعبة مع الناس، فأغلظتُ له، ونِلتُ منه، فحلمَ عنِّي، ثم قال: «يَا عُثْمَانُ لَعَلَّكَ سَتَرَى هَذَا الْمِفْتَاحَ يَوْمًا بِيَدِي أَضَعُهُ حَيْثُ شِئْتُ، فَقُلْتُ: لَقَدْ هَلَكَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَئِذٍ وَذَلَّتْ. فَقَالَ: بَلْ عَمَرَتْ وَعَزَّتْ يَوْمَئِذٍ، وَدَخَلَ الْكَعْبَةَ فَوَقَعَتْ كَلِمَتُهُ مِنِّي مَوْقِعًا ظَنَنْتُ يَوْمَئِذٍ أَنَّ الأَمْرَ سَيَصِيرُ إِلَى مَا قَالَ»[2]!

ومرَّت الأيام، وأسلم عثمان بن طلحة ﷺ قبيل فتح مكة بشهور قليلة[3]، ثم كان فتح مكة، وأراد رسول الله ﷺ أن يدخل الكعبة، فدعا عثمان بنَ طلحة ﷺ، فأخذ منه مفتاحَ الكعبة، فأمر بها فَفُتِحت، فدخلها رسول الله ﷺ، وصلى بداخلها، وأزال ما في باطنها من صور، ثم خرج وجلس في المسجد، فقام إليه عليٌّ ﷺ، ومفتاحُ الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله؛ اجمَعْ لنا الحِجَابَة مع السِّقَاية صلَّى الله عليك[4].

إن عليًا ﷺ في هذا المقام يرى أن القوة أصبحت في يد رسول الله ﷺ الهاشمي، فتخيَّل أنه ﷺ يقبل بنقل شرف حجابة الكعبة مع شرف السقاية إلى بني هاشم، فيكون شرفًا لهم أبد الدهر، لكن رسول الله ﷺ قال في وفاء نادر: «أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ؟»، فدُعِيَ له، فقال له:

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٢٦١.

(٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٢٤٠، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٤٧.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤/ ٢٥٢.

(٤) ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٤٧.

«هَاكَ مِفْتَاحَكَ يا عُثْمَانُ، اليَوْمُ يَوْمُ بِرٍّ وَوَفَاء»[1]. ثم قال له: «خُذُوها خَالِدَةً تَالِدَةً لا يَنْزِعُها مِنْكُم إلاَّ ظَالِمٌ، يا عُثمانُ؛ إِنَّ اللهَ اسْتَأْمَنَكُم عَلَى بَيْتِهِ، فَكُلُوا مِمَّا يَصِلُ إِلَيْكُم مِنْ هذا البَيْت بالمَعْرُوف»، قال: فلما ولَّيتُ، ناداني، فرجَعْتُ إليه فقال: «أَلَمْ يَكُنِ الَّذي قُلْتُ لَكَ؟»، قال: فذكرتُ قولَه لي بمكة قبل الهجرة: «لَعَلَّك سَتَرَى هَذَا الْـمِفْتَاحَ يَوْمًا بِيَدِي أَضَعُهُ حَيْثُ شِئْتَ»، فقلتُ: بلَى أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الله[2].

إنه لموقف نادر حقًّا أن يلتزم قائد منتصر بأعرافٍ صيغت في زمان قديم، ليس له هو دخل فيها، ولم يأخذ على نفسه عهدًا بتطبيقها، ولكنه لا يستغل قوته وانتصاره لمصلحة شخصية، أو لتنفيذ رغبة عائلية، بل يرعى حقوق الناس بصرف النظر عن ضعفهم أو ظروفهم!

إن هذه - حقيقةً - لأبهى صور الوفاء!

***

(١) ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٤٧.

(٢) المصدر السابق.



المبحث الثاني
أخلاقه ﷺ عند عدم تحقيق النصر

لم يخرج العرب للسلب والنهب، وإنما خرجوا لنشر دين محمد، ونشر المثل العليا(١)

لا يوجد من ينتصر على الدوام!

والله ﷻ من رحمته جعل هناك بعض المواقف في حياة رسول الله ﷺ لا يستطيع فيها أن يُحقق النصر! ووجه الرحمة في ذلك أن رسول الله ﷺ علَّمنا ماذا نفعل في مثل هذه المواقف، ولو كانت حياته ﷺ كلها انتصارات ما وجدنا قدوة في حال هزيمتنا، ولقد مرَّت به ﷺ مواقف عصيبة في السيرة النبوية تعامل معها بأسلوب فريد، ولعل أهم ما يميز هذا التعامل أنه لم يخرج أبدًا عن الطابع الأخلاقي الراقي الذي كان يتصف به رسول الله ﷺ في كل أحواله، وسوف نقوم في هذا المبحث بالتعليق على بعض مواقفه وردود فعله ﷺ عند عدم تحقيق النصر في حرب من الحروب. ولن نذكر هنا شيئًا خاصًا بفترة مكة المكرمة - على صعوبتها وتعدد أزماتها - لأنها لم يكن بها حربٌ بالمعنى المفهوم، بل إن رسول الله ﷺ كان قد أُمِرَ بعدم القتال في هذه الفترة، ولم يُسمح له بالحرب إلا بعد الهجرة إلى المدينة، ومن ثم فإن فترة مكة تخرج عن إطار هذا البحث الخاص بأخلاق الحروب.

وسوف يكون تناولنا لهذا الموضوع - بإذن الله - من خلال المطالب الآتية:

---

(١) هليار بلوك، مستشرق فرنسي.

المطلب الأول: أخلاقه بعد غزوة أحد:

تُعدُّ أزمة أُحُد من أشدِّ الأزمات التي مرَّت برسول الله ﷺ في حياته، لدرجة أن الله ﷻ سمَّاها «مصيبة»! قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـٰذَا﴾ [آل عمران:١٦٥]، وعادة ما يخرج الإنسان عن شعوره عند المصائب الكبرى، ولكن رسول الله ﷺ كان مسيطرًا تمامًا على كل أحاسيسه ومشاعره، فخرج لنا سلوكه وردُّ فعله على الصورة الراقية التي اعتدنا، ولم نر منه ما يخالف منهجه الأخلاقي في الحياة.

يروي أُبيُّ بن كعب ﷺ: أنه لما كان يوم أُحُدٍ أُصيب (أي استشهد) من الأنصار أربعة وستون رجلًا، ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة، فَمَثَّلُوا بهم؛ فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا مثل هذا لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ[1]، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] فقال رجل: «لا قريش بعد اليوم!».. فقال رسول الله ﷺ: «كُفُّوا عَنِ الْقَوْمِ إِلَّا أَرْبَعَةً»[2].

فمع شدة مصاب يوم أحد، ومع شدة ألم رسول الله ﷺ إلا أنه يطبق شرع الله ﷻ، فلا يسمح بتجاوز، ولا يقبل بتعدٍّ، ولا يتمناه. أما ما روي عن سبب نزول الآية السابقة من أن الرسول ﷺ قال عندما رأى حمزة ﷺ مُمَثَّلًا به يوم أحد: «لأُمَثِّلَنَّ بسبعين منهم»[3] فقد ضعَّفه ابن حجر في الفتح[4]، وكذلك ضعَّفه غيره، ويعارضه الحديث السابق الذي يذكر أن الآية نزلت عند فتح مكة وليس في أحد، كما أنه ليس من طبيعة الرسول ﷺ أن يخرج عن شعوره، أو يتكلم بعاطفته دون عقله، وحتى إنْ صَحَّ الحديث فيُحمل على أنه كان هاجسًا عارضًا ما

---

(١) أي: لنزيدن في القتل عن هذا العدد.

(٢) الترمذي (٣١٢٩) عن أبي بن كعب، وابن حبان (٤٨٧)، والحاكم (٣٣٦٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٧٠٤)، والنسائي في سننه الكبرى (١١٢٧٩)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: حسن صحيح الإسناد.

(٣) الحاكم (٤٨٩٤)، وقال الذهبي في التلخيص: «صالح» واهٍ، وهو من رواة الحديث. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار والطبراني، وفيه صالح بن بشير المري وهو ضعيف. وقال الألباني: ضعيف. السلسلة الضعيفة (٥٥٠).

(٤) ابن حجر: فتح الباري ٧/ ٣٧١.

لبث أن انهار وتلاشى أمام الآية الكريمة، فقد كان ﷺ وقَّافًا عند كتاب الله، لا يأخذ قرارًا في شيء، ثم يرى ما هو أفضل إلا ترك الشيء الأول وفعل ما يراه أعدل وأجمل.. قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ»**[1].

لقد كان يوم أحد يومًا عصيبًا حقًّا، وتخيَّل رسول الله ﷺ وهو يتفطَّر ألمًا لرؤية أجساد أصحابه ممزقة على أرض المعركة، ثم إنه قد أُصيب شخصيًا، وجُرِح في كل موضع من جسده، حتى كان لا يقوى على القيام في صلاة الظهر فصلى جالسًا، وتفجَّرت الدماء من وجهه ﷺ، وبُذلت محاولات مضنية لوقف النزيف، ثم حوصر الرسول ﷺ وبعض أصحابه في الجبل..

إنها لحظة من أشد لحظات حياته ﷺ شدة وقسوة..

في هذا الموقف الصعب يفعل ما لا يتخيله أحد أبدًا!! في هذا الجو من الألم والحزن والضيق إذا به ﷺ يمسح الدم عن وجهه ويقول: **«رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»**[2]!!

سبحان الله!! أبعد كل هذا العناء يدعو لهم؟! إنه لم ينس مهمته كداعية، ووظيفته كرسول، إنه يعاملهم معاملة الأب الحنون الذي يرى ابنه عاقًّا ومنحرفًا ومؤذيًا له وللمجتمع، فيرفع يده ليدعو له لا ليدعو عليه.

إنه - كما وَصَفَ ربُّنا - رحمةٌ للعالمين!!

* * *

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه (١٦٥٠)،عن أبي هريرة، ومالك في الموطأ برواية محمد بن الحسن الشيباني (٧٥٢)، وأبو داود (٣٢٧٤)، والترمذي (١٣٥٠)، والنسائي (٣٧٨١)، وابن ماجه (٢١٠٨)، وأحمد (٨٧١٩).

(٢) البخاري: كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عرَّض الذمي بسب النبي ﷺ ولم يصرح، نحو قوله: السام عليكم (٦٥٣٠)، ورواه مسلم في الجهاد والسير: باب غزوة أحد (١٧٩٢)، وابن ماجه (٤٠٢٥) وأحمد (٤٠٥٧). انظر: فتح الباري ١٢/ ٢٨٢.

المطلب الثاني: أخلاقه ﷺ بعد حادث بئر معونة:

هذا من أشنع مواقف السيرة النبوية!

لقد غدر فريق من المشركين بالمسلمين في شهر صفر من السنة الرابعة من الهجرة، وقُتِل في هذا الحادث سبعون صحابيًّا بغدر عامر بن الطفيل[1]، ومن ورائه عدة فروع من قبيلة بني سُليم هي عُصية ورِعل وذَكوان[2]..

سبعون شهيدًا في يوم واحد، وبعد شهور قليلة من مصيبة أُحُد، وليس هذا فقط بل إن هؤلاء الشهداء كانوا من أفضل الدعاة إلى الله في المسلمين، وكانوا يحفظون ما نزل من القرآن، ولذلك كانوا يُعرفون بالقراء، فهي خسارة نوعية فادحة! لقد كانت كارثة بكل المقاييس!

ووصل الأسى والحزن برسول الله ﷺ أن مكث شهرًا كاملًا يدعو على هؤلاء الغادرين، وهذا ليس أمرًا معتادًا في حياته ﷺ، بل لعلها المرة الوحيدة التي وصل فيها حزنه إلى هذه الدرجة، ولم ينج من هذه الكارثة إلا صحابي واحد هو عمرو بن أمية الضمريُّ[3] رضي الله عنه، وكان عامر بن الطفيل قد أعتقه لرقبة كانت على أمه.

وأثناء عودة عمرو بن أمية إلى المدينة المنورة التقى برجلين من مشركي بني عامر، وهي فرع من فروع بني سليم، والتي قامت بقتل الصحابة السبعين، فرأى عمرو أنَّ قتلهما يُعد ثأرًا لأصحابه، فقتلهما بالفعل، ثم فوجئ بوجود عهد لهما من رسول الله ﷺ بالأمان، فعاد إلى الرسول ﷺ وحكى له القصة، فماذا كان رد فعله ﷺ؟!

---

(١) عامر بن الطفيل من زعماء قبيلة بني عامر، رفض الإسلام، وهدد رسول الله ﷺ بالحرب، فدعا عليه رسول الله ﷺ، وكان هو الذي غدر بالمسلمين في حادثة بئر معونة؛ مما أدى إلى استشهاد سبعين من الصحابة، وقد مات بدعوة رسول الله ﷺ.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ١٣٨، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٥٢.

(٣) عمرو بن أمية الضمري بعثه النبي ﷺ عينًا إلى قريش، فحمل خبيبًا من الخشبة التي صلب عليها. وأرسله إلى النجاشي وكيلاً فعقد له على أم حبيبة بنت أبي سفيان. وهو من مهاجرة الحبشة ثم هاجر إلى المدينة، وأول مشاهده بئر معونة وأسرته بنو عامر يومئذ، وتوفي قبل الستين. الإصابة (٥٧٦٥)، أسد الغابة ٣/ ٦٨٩.

لقد تناسى ﷺ أحزانه تمامًا، وحكَّم دينه وعقله، ولم يُحَكِّم عاطفته وهواه.. لقد قال لعمرو بن أمية في عدل نادر، وفي وفاء عجيب: «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لَأَدِيَنَّهُمَا!»[1].

لقد قرَّر رسول الله ﷺ أن يدفع الدية لأهلهما!!

لم يقل رسول الله ﷺ: لقد خان الآخرون العهد وقتلوا سبعين، فمِن حقي أن أخون العهد أنا الآخر وأقتل رجلين.. إنه لا يأخذ أحدًا بجريرة أحد.. الرجلان العامريان لم يخطئا، ولم يرتكبا ذنبًا يستحق القتل، ومعهما عهد من رسول الله ﷺ فلا يجب أبدًا أن يُقتلا مهما كانت الظروف! ولذلك قرَّر أن يدفع ديتهما!

ولم يكن قرار دفع الدية هذا قرارًا سهلًا، فَدِيَةٌ كبيرةٌ كهذه لا تُجْمَع بسهولة، فقد كانت المدينة تمر بأزمة اقتصادية كبيرة، وحالة شديدة من الفقر، وخاصة أن هذه الأحداث تقع - كما ذكرنا - بعد غزوة أحد بشهور، ومن ثم فهناك صعوبة كبيرة في تجميع القيمة المطلوبة لدفع الدية، وسوف يحتاج رسول الله ﷺ أن يتعاون مع اليهود بموجب الاتفاقية التي بينهما لجمع الدية اللازمة، وقد يدخل في أزمة مع اليهود بسبب هذا المال المطلوب..

إنها أزمات مركبة ومتعددة، فليس العامل النفسي والقلبي هو الذي يؤثر على الموقف فقط، ولكن العامل الاقتصادي والسياسي أيضًا، ومع ذلك، ومع كل هذه المعوِّقات، فإن الرسول ﷺ حرص على أداء الدية، وبالفعل توجه إلى بني النضير ليسألهم المساهمة في الدية كما قضى الاتفاق الذي بين المسلمين واليهود، وكانت هذه الزيارة من رسول الله ﷺ إلى بني النضير سببًا في غزوة بني النضير كما هو معلوم في السيرة[2].

إن كل هذه المساعي والجهود التي ذكرنا كانت لدفع دية رجلين قتلهما عن طريق الخطأ رجلٌ مسلمٌ أفلت منذ سويعات قليلة من حادث غدر قُتل فيه سبعون من الصحابة!!

أهناك في العالم - القديم والحديث - عدلٌ على هذا المستوى؟! وهل هناك من يدَّعِي بعد

---

(١) الزيلعي: نصب الراية ٤/ ٣٩٦، ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٨٥.

(٢) البخاري: كتاب المغازي: باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم في دية الرجلين، وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ. الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٨٣، ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٨٤.

كل ذلك أن الرسول ﷺ كان لا يعترف أو لا يحترم أو لا يعدل مع غير المسلمين؟!

إن ما نرويه في هذه الصفحات لَيُعَدُّ في حسابات الكثير من الناس ضربًا من الخيال، أو لونًا من ألوان الأساطير، ولكن الإسلام يحقق فعلًا على أرض الواقع ما لا يمكن تَخَيُّلُهُ في الأحلام والأمنيات..

المطلب الثالث: أخلاقه ﷺ عند أسوار الطائف:

حربٌ شرسة تلك التي حدثت بين رسول الله ﷺ وأهل الطائف في العام الثامن من الهجرة، والطائف هي ثاني أعظم مدينة في الجزيرة العربية بعد مكة، وبها قبيلة ثقيف، وهي من أهم القبائل العربية.. ولكي نستوعب مدى السمو الأخلاقي الذي كان عليه رسول الله ﷺ، لابد من العودة إلى قصته ﷺ مع الطائف من البداية. فقد ذهب إليهم رسول الله ﷺ في العام العاشر من البعثة، بعد وفاة أبي طالب؛ ليدعوهم إلى الإسلام، ويستثير فيهم شهامة العرب ونجدة الشرفاء، فكيف استقبلوه؟! لقد استقبلوه بما لم يتخيله ﷺ من السخرية والاستهزاء! ولقد تحدث سادتهم معه بدرجة من السفاهة يندر أن توجد في سادة قوم! فقد قال له عبد ياليل بن عمرو: إنه سيمرط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسله!! وقال مسعود: أما وجد الله أحدًا غيرك؟! وقال حبيب: والله لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولًا لأَنْتَ أعظم خطرًا من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كُنْتَ تَكْذِبُ على الله ما ينبغي أن أكلمك[2]!!

ومع ذلك مكث رسول الله ﷺ عشرة أيام[3] يدعو في الطائف، فما ترك أحدًا إلا كلّمه في الإسلام، ورغم ذلك فقد اجتمعت المدينة بكاملها على تكذيبه، ثم قالوا له في اليوم العاشر: اخرج من بلادنا!! ثم أغرَوْا به سفهاءهم وغِلْمَانَهُمْ، فَصَفُّوا أَنْفُسَهُمْ صفين خارج الطائف، وأرغموه ﷺ وصاحبه زيد بن حارثة[4] ﷺ على المرور بين الصفين، وجعلوا

---

(١) سيمرط: سيقطع.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٦٧.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢١٢.

(٤) زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، مولى رسول الله ﷺ، أول من أسلم من الموالي، تزوج بأم أيمن والدة ابنه أسامة ثم تزوج بزينب بنت جحش. استشهد بمؤتة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة، وكان أميرًا على الجيش. انظر: الاستيعاب ٢/ ١١٤، أسد الغابة ٢/ ١٤٠، الإصابة الترجمة (٢٨٨٥).

يقذفونهما بالحجارة، حتى سالت الدماء من قدميه الشريفتين، وشُجَّتْ رأسُ صاحبه زيد!! وانطلق الرسول ﷺ ومعه زيد ﷺ يعدوان، والسفهاء وراءهما بالسباب والحجارة، حتى أرغموهما على دخول حائط[1] لعتبة وشيبة ابني ربيعة! ثم انطلق رسول الله ﷺ إلى مكة وهو لا يدري كيف سيدخلها، وقد تنكَّر له أهلها، ويصور لنا رسولُ الله ﷺ حاله ونفسيته فيقول: «**فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ**»[2]. إنها أشد المواقف صعوبة على نفسه ﷺ مطلقًا..

في هذا الموقف العصيب يقول ﷺ: «**فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، وَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[3]!!

وهذا أيضًا من أعجب مواقف التاريخ!!

إن الله ﷻ أرسل جبريل ﵇ ومعه ملك الجبال؛ ليأتمر بأمر رسول الله ﷺ، وليدعوه صراحةً إلى الموافقة على إهلاك القوم، وفي إرسال ملك الجبال نفسه إشارة واضحة إلى أن الله ﷻ لن يعتب على رسوله إذا طلب إهلاك القوم، ومع ذلك فهلاك الناس على الشرك لا يَسُرُّ رسول الله ﷺ!! إن له مهمَّة أصيلة واضحة، وهي استنقاذ الناس من الجحيم، والناس لا تدري، وتتجه إلى هاويتها مسرعة، والرسول ﷺ أشدُّ حرصًا عليهم من أنفسهم، فيتهالك

---

(١) حديقة.

(٢) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٠٥٩)، ورواه مسلم في الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥). وقرن الثعالب: هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد، وهو على مرحلتين من مكة.

(٣) التخريج السابق نفسه، واللفظ هنا لمسلم.

أعصابه سريعًا، ويأخذ قراره دون تردد: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ، مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

هل تملك أمة من الأمم هذا التاريخ؟!

هل يعرف المسلمون الثروات الهائلة الكامنة بين بطون الصفحات، والتي شَرَحَتْ بالتفصيل كلَّ لحظة من لحظات حياة سيِّد البشر رسول الله ﷺ..؟!

وتمرُّ الأيام، وتظلُّ ثقيف على كفرها.. لقد قاومت كثيرًا، وصدَّت عن سبيل الله كثيرًا، واشتركت مع هوازن في الحرب ضد رسول الله ﷺ في موقعة حنين، وكانت حريصة كل الحرص على إبادة جماعية للمسلمين، ولكن الموقعة انتهت بهزيمتهم وفرارهم إلى مدينتهم الطائف، وذهب إليها رسول الله ﷺ، وحاصرها حصارًا شديدًا مُدَّةَ شهر كامل، لكنه لم يتمكن من فتحها لمناعة حصونها وقوة مقاتليها، فقرَّر بواقعية أن ينسحب ويتركها، وحزن الصحابة لذلك، وقالوا: «يا رسول الله، أحرقتْنا نبال ثقيف، فادع الله عليهم، فرد ردًّا عجيبًا! لقد قال: «**اللهم اهد ثقيفًا**»[1]!!

بعد كل هذه المعاناة والتعب يكون رد فعله ﷺ: «**اللهم اهد ثقيفًا**»..!!

نعم.. اللهم اهد ثقيفًا.. واهد كل البشر..

إن من فَقِهَ منهجَ حياته ﷺ وعَلِمَ الأهدافَ السامية التي عاش من أجلها، وأدرك عظمة أخلاقه، ونُبل صفاته، وصفاء سريرته، ونقاء قلبه.. من علم كل ذلك فلن يستغرب أفعاله، ولن يتعجب من مواقفه ﷺ..

لقد أدرك قِصَرَ الحياةِ وسُرْعَتَهَا، وعَلِم قيمة الجنة وعظمتها، وفَقِهَ عذاب النار وقسوته، فوهب حياته بكاملها لهداية البشر أجمعين، وما رأى حقًّا لنفسه؛ فما فكَّر قَطُّ في ثأرٍ لذاته، أو انتقام لكيانه..!!

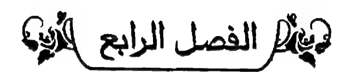
إنه رسول الله ﷺ!!

نسأل الله ﷻ أن يحشرنا في زمرته ﷺ وأن يجمعنا تحت لوائه..

---

(١) الترمذي (٣٩٤٢)، وقال: حديث حسن صحيح. وأحمد (١٤٧٤٣)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي على شرط مسلم.





أخلاق الرسول ﷺ في زمن الهدنة بعد الحرب

المبحث الأول
المعاهدات في الإسلام

أصبح محمد أحد الزعماء
العالميين السياسيين العظام[1]

المطلب الأول: تعريفات مهمة

العهد في اللغة:

العَهْدُ: الأمانُ، واليمينُ، والذِمَّةُ، والحِفاظُ. وقد عَهِدْتُ إليه أي أوصيته. ومنه اشتُقَّ العَهْدُ الذي يكتب للوُلاةِ. وتقول: عليَّ عَهْدُ الله لأفعلنَّ كذا[2]. والعهد أيضًا: الوفاء، وفي التنزيل: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢] أي: من وفاء[3]..

تعريف المعاهدة اصطلاحيًّا:

هي عقد العهد بين الفريقين على شروط يلتزمونها، وهي موادعة المسلمين المشركين

(١) مايكل هارت، عالم أمريكي صاحب كتاب (الخالدون مائة وأعظمهم محمد ﷺ).
(٢) محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي: مختار الصحاح ١/ ٤٦٧.
(٣) جمال الدين بن منظور: لسان العرب، مادة عهد ٣/ ٣١١.

سنين معلومة.. وقال الكاساني[١]: الموادعة وهي المعاهدة، والصلح على ترك القتال، يقال: توادع الفريقان أي تعاهدوا على أن لا يغزو كل واحد منهما صاحبه[٢]. وقال ابن قدامة: «ومعنى الهدنة، أن يعقد لأهل الحرب عقدًا على ترك القتال مدة، بعوض وبغير عوض.. وتسمى مهادنة وموادعة ومعاهدة..»[٣].

المطلب الثاني: مشروعية المعاهدات:

الأدلة على مشروعية المعاهدات كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ الله إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١]، فهذا أمر من الله تعالى يوجب الوفاء بالعهود والمواثيق. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [النساء: ٩٠] ففي الآية بيان وتقرير بعقد المعاهدة والوفاء بها.

ومن السنة نجد أمثلة كثيرة تؤكد مشروعية المعاهدات في الإسلام منها: عَقدُه ﷺ الكثير من المعاهدات بينه وبين أعدائه ومنها: وثيقة المدينة فهي من أنفس العقود وأحقها بالنظر والتقدير، وهي تعد نبراسًا للمسلمين في أصول العلاقات الدولية بينهم وبين مخالفيهم، وكذلك صلح الحديبية، وأيضًا موادعته لكثير من القبائل مثل بني ضمرة، وبني مدلج، وكذلك إقراره ﷺ لحلف الفضول في الجاهلية، وقد تم هذا الحلف في بيت عبد الله بن جدعان في مكة. قال ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْت فِي دَارِ عَبْدِ الله بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبَّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْت»[٤].

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَلَّمَا خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ إِلَّا قَالَ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا

---

(١) الإمام علاء الدين بن مسعود بن الكاساني. من أهم مؤلفاته كتابه العظيم في الفقه (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع) والذي يتميز باللغة السهلة، وإيراد الشواهد الحديثية لما يورده من الأحكام الفقهية. توفي سنة ٥٨٧ هـ.

(٢) الكاساني: بدائع الصنائع ٦/ ٧٥.

(٣) ابن قدامة المقدسي: المغني في الفقه ٢١/ ١١٩ .

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ١١٣، ورواه البيهقي في سننه (١٢٨٥٩)، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ١٢٩، وابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٣٣٣، وقال السهيلي: والأصل في تخصيصه قوله ﷺ: «ولو دعيت به اليوم لأجبت»، يريد: لو قال قائل من المظلومين: يا لحلف الفضول لأجبت. وذلك أن الإسلام إنما جاء بإقامة الحق ونصرة المظلومين، فلم يزدد به هذا الحلف إلا قوة. انظر: الروض الأنف ١/ ٦٦.

عَهْدَ لَهُ»[١]. ويقول كذلك: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ»[٢].

المطلب الثالث: الشروط التي يجب توافرها في المعاهدات:

يشترط في العهود التي يجب احترامها والوفاء بها، الشروط الآتية:

١ - ألا تخالف حكمًا من الأحكام الشرعية المتفق عليها. يقول الرسول ﷺ: «كُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ الله[٣] فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرْطٍ»[٤].

٢ - أن تكون عن رضا واختيار، فإن الإكراه يسلب الإرادة، ولا احترام لعقد لم تتوفر فيه حريتها.

٣ - أن تكون بيّنة واضحة، لا لبس فيها ولا غموض حتى لا تؤوّل تأويلًا يكون مثارًا للاختلاف عند التطبيق[٥].

المطلب الرابع: وجوب الوفاء بالعهد:

أكدت الآيات القرآنية وأحاديث الرسول ﷺ على وجوب الوفاء بالعهد ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] وقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ الله أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ الله إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١] وأيضًا: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال ﷻ: ﴿وَكَانَ عَهْدُ الله مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥] والكثير من الآيات يشير إلى هذا المعنى العظيم..

---

(١) الحديث أخرجه أحمد (١٢٤٠٦)، والإسناد حسن لأجل أبي هلال وهو محمد بن سليم الراسبي، ونقوه على لين فيه، وحسنه كذلك الهيثمي في المجمع وذكر الخلاف فيه، والحديث عند ابن حبان (٤٧) موارد الظمآن، والبيهقي (١٨٦٣١)، والحديث في المشكاة (٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٧٩).

(٢) البخاري: كتاب الفتن، باب إذا قال عند القوم شيئًا ثم خرج فقال بخلافه (٦٦٩٤)، ومسلم في كتاب الجهاد باب تحريم الغدر (١٧٣٨)، واللفظ له، والترمذي (٢١٩١)، وأحمد (٥٣٧٨).

(٣) أي: حكم الله.

(٤) البخاري: كتاب الشروط، باب المكاتب وما لا يحل من الشروط التي تخالف كتاب الله (٢٥٨٤)، ومسلم: كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق (١٥٠٤)، وابن ماجه (٢٥٢١)، واللفظ له عن السيدة عائشة ﵂، والنسائي (٣٤٥١)، وأحمد (٢٥٨٢٧)، وابن حبان(٤٢٧٢).

(٥) السيد سابق: فقه السنة ٢/ ٧٠٢.

وأما أحاديث الرسول ﷺ في هذا الأمر فهي كثيرة أيضًا نذكر منها:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»[1]. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ**»[2]. وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[3]. وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ؛ فَلَا يَشُدُّ عُقْدَةً وَلَا يَحُلُّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ**»[4].

ويوضح الشيخ محمود شلتوت أن «الوفاء بالمعاهدة واجب ديني، يُسأل عنه المسلم فيما بينه وبين الله، ويكون الإخلال بها غدرًا وخيانة»[5].

* * *

(١) البخاري: كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر (٣٠٠٧)، والترمذي (٢٦٣٢)، وابن حبان (٢٥٥).

(٢) البخاري: كتاب الجزية والموادعة، باب ذمة المسلمين وجوارهم واحدة يسعى بها أدناهم (٣٠٠١)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها برقم (١٣٧٠)، وأحمد في مسنده (١٠٣٧)، وابن حبان (٣٧١٧).

(٣) البخاري: كتاب الفتن، باب إذا قال عند القوم شيئًا ثم خرج فقال بخلافه (٦٦٩٤)، ومسلم في كتاب الجهاد، باب تحريم الغدر (١٧٣٨)، واللفظ له، والترمذي (٢١٩١)، وأحمد (٥٣٧٨).

(٤) أبو داود(٢٧٥٩)، والترمذي (١٥٨٠)، وأحمد(١٧٠٥٦)، وقال الألباني: صحيح. السلسلة الصحيحة (٢٣٥٧).

(٥) شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، ص٤٥٧.

المبحث الثاني
تطبيقات عملية لأخلاقه ﷺ أثناء الهدنة

كان محمد المثل الأعلى في الاستقامة[1]

لم تكن فكرة التعاهد والتفاوض والتعايش مع المشركين بعيدة عن ذهن الرسول ﷺ ولا غريبة عليه، وهذا قد يستغربه كثير من المحللين؛ لأن الأيديولوجية المشركة مختلفة تمام الاختلاف عن العقيدة الإسلامية، ومن ثم يصبح مفهوم التعايش بين الطائفتين مستحيلًا في أذهان الكثيرين.

لكن واقع حياة رسول الله ﷺ يشير إلى رغبته الصادقة في التعايش السلمي مع من حوله من الطوائف على اختلاف عقائدهم، حتى يصل الأمر إلى التعايش مع أولئك الذين يسجدون للأصنام من دون الله، أو يعبدون نجمًا أو شجرًا أو غير ذلك.. ومن أهم صور هذا التعايش السلمي المنشود: عقدُ المعاهدات والمواثيق، بل والتحالف أحيانًا في سبيل تحقيق المصلحة في قضية مشتركة. وهذا الفكر القائم على حب السلام والرغبة فيه، لم يكن نتيجة رؤية ويلات الحروب، أو مصائب المعارك؛ إنما هو فكر أصيل حرص عليه رسول الله ﷺ من أول يوم صارت له فيه دولة.

وسنتناول - بإذن الله - في هذا المبحث طرفًا من معاهدات الرسول ﷺ مع غير المسلمين، والتي تمت بعد عدد من الحروب (خريطة ٧)، وبما أن هذا البحث يتناول أخلاقه ﷺ في الحروب فلن يتم تناول المعاهدات التي تمت في ظروف غير حربية على الرغم من نفاستها وعظم قدرها، وعلى هذا فلن نتحدث مثلًا عن معاهداته مع يهود المدينة لأنها تمت ابتداءً ودون قتال سابق، كذا لن نتناول معاهدته مع نصارى نجران - على روعتها - لذات السبب.

---

(١) كليمان هوار، مستشرق فرنسي.

ومن هنا سيكون الحديث في هذا المبحث من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: معاهدته ﷺ مع المشركين حول المدينة.

المطلب الثاني: معاهدته ﷺ مع مشركي قريش (صلح الحديبية).

المطلب الثالث: معاهداته ﷺ مع قبائل الجزيرة العربية الأخرى.

المطلب الرابع: معاهدته ﷺ مع يهود خيبر.

المطلب الخامس: معاهداته ﷺ مع القبائل النصرانية في شمال الجزيرة العربية.



خريطة رقم (٧)

القبائل التي عقد معها الرسول معاهدات

المطلب الأول: معاهدته ﷺ مع المشركين حول المدينة:

كان المركز الاستراتيجي للمدينة المنورة، ووجودها على خطوط التجارة الرئيسية في الجزيرة العربية، ووجود قوى تجارية كبرى في داخلها كاليهود وكرءوس الأوس والخزرج، كان كل ذلك داعيًا لقبائل كثيرة أن تستوطن المناطق القريبة من هذه المدينة العريقة. وكانت كل هذه القبائل – بلا استثناء – تدين بالوثنية، وتعبد الأصنام من دون الله، كما أن جلَّ هذه القبائل كان يعيش على السلب والنهب وقطع الطريق على القوافل والإغارة على الضعفاء، وهم الذين يُعرفون بالأعراب، وكانوا بعيدين كل البعد عن التحضر والمدنية، حتى قال الله في حقهم: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧]. وجاءت آيات أخرى كثيرة تعدد مساوئهم ومشاكلهم، ليس المجال يسمح بسردها.

وفور هجرة رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة بدأ هؤلاء الأعراب يتربصون بالمسلمين الدوائر، فهم يرونهم قلة مستضعفة فقيرة، كما أنهم مطاردون من أعتى قوة في الجزيرة وهي قريش، فلو تعاونوا مع قريش ضدهم لكان أمر الإغارة عليهم ميسورًا سهلًا. وقد لعبت قريش على هذا الوتر، وحاولت من جانبها أن تستميل هذه القبائل لحرب المسلمين(١)، ومن ثَمَّ أصبح الموقف منذرًا بعواقب خطيرة.

وعلى الناحية الأخرى كان رسول الله ﷺ مشغولًا بصراعه مع قريش، ولا يريد أن يفتح جبهات جديدة للصراع هنا وهناك، خاصَّة وهو يخرج بين الحين والأخرى لاعتراض قوافل قريش المارَّة بالقرب من المدينة، لذلك آثر رسول الله ﷺ أن يعقد المعاهدات والأحلاف مع هذه القبائل المحيطة بالمدينة، فيتجنب أذاهم، ويأمن من اتحادهم مع قريش، ويتفرغ هو لأمور المدينة ولحرب قريش، مع الأخذ في الاعتبار أن هذه المعاهدات عقدت بينما كانت هذه القبائل مستمرة في عبادتها للأصنام، مما يوضح قدرة المسلمين على قبول الآخر، وعلى التعايش معه ما دام مسالمًا.

---

(١) الدكتور عماد الدين خليل: دراسة في السيرة النبوية ص١٧٠.

ولقد أوردت كتب السيرة كنوزًا عدة من أمثال هذه المعاهدات والأحلاف، وكان منها على سبيل المثال المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع بني ضمرة[١]، وكان على رأسهم آنذاك «مخشي بن عمرو الضمري»، وفيها - كما تقول الرواية[٢] - وادعهم رسول الله ﷺ، وانظر إلى هذه الكلمة: (الموادعة)[٣]، وما تحمله من معاني السلم والسكينة والهدوء والأمان.. وكان نصُّ المعاهدة كما يلي: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ لِبَنِي ضَمْرَةَ فَإِنَّهُمْ آمِنُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ لَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ رَامَهُمْ إِلَّا أَنْ يُحَارِبُوا فِي دِينِ اللهِ مَا بَلَّ بَحْرٌ صُوفَةً[٤] وَإِنَّ النَّبِيَّ إِذَا دَعَاهُمْ لِنَصْرِهِ أَجَابُوهُ»[٥]. وكانت هذه الموادعة في صفر سنة (٢هـ)[٦]، أي بعد أقل من عام من هجرة الرسول ﷺ مما يوضح وجود هذا الفكر التعايشي من بداية نشأة الدولة الإسلامية..

وكذلك وادع الرسول ﷺ بني مدلج في منطقة ينبع، وذلك في جمادى الأولى من السنة الثانية من الهجرة[٧].

وفعل نفس الشيء أيضًا مع قبائل جهينة، وهي قبائل كبيرة تسكن في الشمال الغربي للمدينة المنورة[٨].

لقد حاول رسول الله ﷺ أن يعيش هو والمسلمون في جو هادئ مسالم مع من يجاورونهم من القبائل والبطون، ولم يسعَ لقتال قط، بل كان دائمًا مؤثِرًا السلم على الحرب، والوفاق على الشقاق..

---

(١) قبيلة بني ضمرة: من القبائل العربية من بطون عدنان، والتي تسكن في منطقة ودان غرب المدينة المنورة.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٣٥.

(٣) الموادعة: المصالَحَةُ والمُهَايَلَةُ. انظر: لسان العرب ٣/ ٤٣٩، وتاج العروس ١/ ٢٣٦٦، ومختار الصحاح ١/ ٧٤٠.

(٤) كناية عن التأبيد.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٧٥.

(٦) ابن حبان: السيرة النبوية ١/ ١٥١، وابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٣٥.

(٧) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٤٣.

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٧٢.

المطلب الثاني: معاهدته ﷺ مع قريش (صلح الحديبية):

وإذا كانت المعاهدات السابقة وغيرها تتشابه مع بعضها البعض من حيث النصوص والأهداف والنتائج المترتبة عليها، فإن هناك معاهدة مهمة تختلف عن تلك المعاهدات جميعًا، وتحتاج منا إلى وقفة وتحليل، تلك هي معاهدة «الحديبية». وهذه المعاهدة تُعد من أهم المعاهدات، ليس في تاريخ رسول الله ﷺ فقط، وإنما في كل التاريخ الإسلامي، بل والإنساني بصفة عامة؛ وذلك للآثار الهائلة التي ترتبت على هذه المعاهدة.. ولشدة أهميتها فسنفصل فيها قليلًا، وذلك من خلال النقاط الآتية:

الطريق إلى صلح الحديبية:

لسنا في هذا البحث بصدد تحليل كل جزئيات المعاهدة ولا آثارها، ولكنا سنقف فقط على ما يشير إلى فكر رسول الله ﷺ التصالحي، ورغبته الأكيدة في العيش في سلام مع كل البشر، حتى مع من أذاقوه وأذاقوا أصحابه العذاب ألوانًا.. ولكي نفهم مدى سماحة الفكر الإسلامي وحبه للسلام.. ولكي نقدر مدى عظمة الخُلُق النبوي وسموِّه لابد من مراجعة سريعة لقصة قريش مع رسول الله ﷺ والمسلمين..

إن القصة - حقيقةً - ليست بخافية على أحد..

إنها قصة الظلم والقهر في أبشع صوره..

إنها قصة مصادرة الآراء، والفتنة في الدين والعقيدة..

إنها قصة البطش واستكبار القوة..

تسعة عشر عامًا كاملة من التعامل بين رسول الله ﷺ وقريش سبقت صلح الحديبية، والذي كان في أواخر العام السادس من الهجرة[1].. وهذه السنوات الطويلة انقسمت في الأساس إلى مرحلتين رئيسيتين، هما: مرحلة مكة ومرحلة المدينة..

أما مرحلة مكة فلم يكن للمسلمين فيها دولة، بل لم يكن مشروعًا لهم أصلًا أن يدافعوا

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ٢٧٥.

عن أنفسهم بالسلاح أو بالقتال.. فكان العدوان من جانب واحد، وكان القهر والبطش والتعذيب في كل لحظات فترة مكة تقريبًا، وتعددت صور هذا البطش من إيذاء باللسان إلى إيذاء بالسياط والسنان، ومن حصار في الشعب إلى طرد من الديار، ومن سرقة للأموال إلى إزهاق للأرواح..

لقد كانت فترة أليمة حقًّا في تاريخ الإنسانية..

ثم هاجر رسول الله ﷺ - مضطرًا - إلى المدينة المنورة، وهاجر أصحابه معه، وتركوا كل شيء وراء ظهورهم.. تركوا الأهل والعشيرة، وتركوا الأموال والثروات، وتركوا الديار والأعمال، وتركوا الذكريات والعلاقات.. لقد تركوا كل شيء، ويمَّموا شطر المدينة المنورة..

ولم يكن هذا الخروج من مكة ليصرف قريشًا عن متابعة الأذى والاضطهاد للمسلمين، فقد توالت المراسلات بين مشركي قريش ومشركي المدينة، وكذلك بين مشركي قريش ويهود المدينة، كما تم ذلك أيضًا مع الأعراب حول المدينة.. كل هذا بهدف حصار المسلمين والتضييق عليهم في أعمالهم ومعاشهم وإقامتهم..

ودارت مناوشات عديدة بين الطرفين الكافر والمسلم، ليس المجال يسمح بتتبعها، غير أن الصدام كان في أقصى وأقسى درجاته في ثلاث مواقع متتالية.. بدر وأحد والأحزاب..

وكما قال ربنا: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فكان يوم بدر للمسلمين، وكان يوم أحد للمشركين، والحرب سجال.. ثم كانت غزوة الأحزاب الفاصلة، حيث استطاعت قريش أن تجمع عشرة آلاف مقاتل من أبنائها، ومن القبائل المتحالفة معها وعلى رأسها «غطفان»، وذلك بهدف استئصال المسلمين من جذورهم، وتدمير المدينة المنورة على رءوس أهلها..

لقد كان أخطر تجمع عرفته الجزيرة العربية حتى هذه اللحظة..

وترك هذا التجمع آثارًا شتى في نفوس الصحابة ﷺ، فهم مع شدة إيمانهم بالله، وقوة يقينهم في النصر إلا أن الخوف الفطري تسلل إلى قلوبهم، وإن لم يكن مانعًا لهم عن الصمود والمواجهة. يوضح ذلك رب العالمين، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فيقول:

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

واستمرت تلك الأزمة شهرًا كاملًا[١]، والمسلمون في أشد حالات الخوف والجوع والبرد كما يصور حذيفة بن اليمان[٢] ﷺ في روايته لقصة الأحزاب[٣]، وازدادت الكارثة ضراوة بخيانة بني قريظة كما هو معروف، وكان المسلمون قاب قوسين أو أدنى من النهاية والفناء..

ثم أذن الله ﷻ للغمة أن تنكشف، وللأحزاب أن يرحلوا، وللمسلمين أن يخرجوا من أزمتهم فائزين منتصرين.. وبدأت كفة الصراع تميل بوضوح لصالح المسلمين، وعبر عن ذلك رسول الله ﷺ بقوله الموفق والعميق: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ»[٤].

لقد ضعفت شوكة المشركين بعد هذه الموقعة، وزالت هيبتها في الجزيرة العربية، وتضاءل عدد حلفائها، ومن ثَمَّ أخذ نجمها في الأفول، وبدأت دورتها في الحياة تتجه إلى السقوط..

والمسلمون على الجانب الآخر قويت شوكتهم، وعزَّ جانبهم، وقدَّر قُوَّتَهُمْ وشأنَهُمْ القاصي والداني.. وقد ساعد على تأكيد هذه الصورة أن الرسول ﷺ أخرج (بعد غزوة الأحزاب في أواخر العام الخامس من الهجرة، وكذلك في العام السادس الهجري) عدَّةَ بُعُوثٍ وسرايا تهدف إلى توطيد الأمن في الجزيرة، وعقاب من تعدَّى على المسلمين، حتى وصلت

---

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ١٨٠، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٨٤، الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٩٤.

(٢) حذيفة بن اليمان: من كبار الصحابة، وقد بعثه رسول الله ﷺ يوم الخندق ينظر إلى قريش فجاءه بخبرهم، معروف بصاحب سر رسول الله ﷺ. شهد أُحُدًا وشهد نهاوند، وكان فتح همذان والري والدينور على يده، ومات سنة ٣٦هـ. انظر: الاستيعاب ١/ ٣٩٣، أسد الغابة ١/ ٥٣٢، الإصابة الترجمة (١٦٤٣).

(٣) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (١٧٨٨)، ورواه ابن حبان في صحيحه (٧١٢٥).

(٤) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٣٨٨٤)، وأحمد (١٨٣٣٤)، والطيالسي (١٢٨٩)، والطبراني في الكبير (٦٤٨٤)، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ١٣٣ عن سليمان بن صرد.

غزواته وسراياه إلى مشارف العراق والشام كما حدث في دومة الجندل [١].

كان هذا هو الوضع في أواخر العام السادس من الهجرة.

في هذه الأجواء سيتم صلح الحديبية، ولن تَسْتَوْعِبَ عظمة أخلاق الرسول ﷺ وحُبَّه للسلام، إلا بدراسة الخلفية التي مررنا بها، فلا ينكر أحد أن نفسية المسلمين تجاه المشركين في مكة لابد أن تكون قد بلغت أشد حالات الحنق والغيظ والكراهية، فهذه تسعَ عشرةَ سنةً كاملة من الظلم والعداوة كما رأينا، كما أن مشاعر الانتقام لا بد أن تكون متأججة الآن، وبخاصة بعد توفر القوة في أيدي المسلمين، وانسحاب البساط من تحت أقدام المشركين.

هذا هو الوضع المتوقع.

لكننا مع كل ذلك سنشاهد من رسول الله ﷺ سلوكًا وأداءً لا يمكن تفسيره إلا بأنه سلوكُ رسولٍ من عند الله تعالى.. وإلا بأنه ﷺ قد بُعِثَ رحمةً للعالمين.. إذ كيف يكون اتساع الصدر إلى هذه الدرجة مع كل ما مر بنا من آلام سببها المشركون للمسلمين؟! وما لم نذكره - ولا شك - أكثر وأعظم!!

لقد رأى رسول الله ﷺ في الرؤيا أنه يذهب إلى مكة هو وأصحابه معتمرين.. ومكة الآن في أيدي المشركين، والمشركون الآن ضعفاء نسبيًا، والمسلمون في قوة متزايدة، فهل يجهِّز جيشًا، ويذهب إلى مكة ليقوم بالعمرة تحت حماية السلاح؟ أم هل يغزو مكة فيقتلَ مَن يقتلُ، ويَأسِرَ مَن يَأسِرُ، ويردَّ الأموال المسلوبة، والديار المنهوبة؟ هل يستعدي القبائل المختلفة، والحلفاء من هنا وهناك على القرشيين، وينزل فيستبيح بيضتهم [٢]، ويُذهب هيبتهم، ويُشَتِّتَ شَمْلَهُمْ، ويُفَرِّقَ جَمْعَهُمْ؟!

إن شيئًا من هذا لم يخطر على بال رسول الله ﷺ، إنما فَكَّرَ أن يذهب إلى عقر دار المشركين

---

(١) دومة الجندل: حصن وقرى بين نجد وبلاد الشام قرب تبوك. والحصن هو حصن أُكيدر الكندي. انظر: الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٢٤٥.

(٢) أي: يستأصلهم ويهلكهم جميعهم. والبيضة أصل القوم ومُجْتَمعُهم، فبَيْضَةُ الدار وسطها ومعظمها. انظر: لسان العرب ٧/ ١٢٢.

في سكينة وسلام ليؤدي مناسك العمرة التي أُرِيَهَا في الرؤيا، ثم يعود إلى المدينة المنورة دون قتال ولا نزال..

هذا ما فَكَّرَ فيه حقيقةً، وطبَّقه على أرض الواقع بكل وسيلة ممكنة، ولم ينظر مطلقًا إلى أن ميزان القوى أصبح يميل لصالح المسلمين، ولم ينظر إلى أن المسلمين مظلومون سنوات وسنوات، ولم ينظر إلى التاريخ الحربي الطويل الذي دفع فيه المسلمون أثمانًا غالية وتضحيات هائلة، ولم ينظر إلى عشرات الشهداء الأحباب الذين سقطوا بسيوف ورماح القرشيين. لم ينظر إلى كل ذلك، إنما نظر فقط إلى أنه من «المحتمل» أن توجد فرصة - ولو ضئيلة - لإقامة جسور التفاهم والتعايش والتصالح مع مشركي مكة، حتى وهم على شركهم!!

نظر رسول الله ﷺ إلى الأمر بأرقى نظرة حضارية يمكن أن يتخيلها إنسان.

إنه لا يريد لعدوِّه أن يفنى أو ينهار، ولا يريد لعدوِّه أن تسيل دماؤه، أو أن تُدَمَّرَ دياره.. إنما يريد أن يتعايش معه في سلام ووئام.. ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].. فلنتصالح، ولنتفق على حسن الجوار، حتى وإن اختلفت العقائد، وصار الفرق بينها كما بين السماء والأرض، أو أبعد..

ولأجل تطبيق هذا المعنى النبيل، فإنه ﷺ قد أخذ من التدابير والاحتياطات ما يضمن له وصول هذا الشعور السلمي إلى القرشيين. فهو لا يريد القتال فعلًا، ولا يوجد مكان في قلبه لما يسمِّيه الناس «الانتقام»!

ماذا فعل رسول الله ﷺ؟!

لقد خرج ﷺ من المدينة على رأس ألف وأربعمائة[1] من الصحابة الكرام ﷺ، ولم يُخرِج بكل طاقة المدينة المنورة، والتي كانت تزيد على ثلاثة آلاف يوم الأحزاب، ثم إنه لم يخرج إلا بسيف المسافر فقط، وساق أمامه الهَدْيَ[2] الكثير ليثبت للجميع أنه ما ذهب إلا للعمرة،

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة (١٨٥٦).

(٢) الهدي: ما تهدى إلى الحرم من النعم وغيرها، انظر: محمد بن أبي الفتح الحنبلي: المطلع ١/ ٢٠٤.

وعند ذي الحليفة[١] أحرم، وأحرم معه كل الصحابة، وانطلقوا في التلبية طوال الطريق[٢].

إنها مظاهرة إيمانية رائعة لا تخطئها عين، ولا تخفى على جاسوس.. إن الغرض أن تعرف قريش وحلفاؤها أن الرسول ﷺ لا يريد الحرب، وإنما جاء للعمرة، وقد تعامل رسول الله ﷺ مع الأمر في منتهى سلامة النية، وحسن المقصد، فلم يرسل من صحابته إلى مكة مَن يفاوض، أو مَن يهدد أو يتوعد، إنما سار على القانون العام للجزيرة العربية، بل القانون الحاكم لقريش ذاتها، والذي يعطي الحق لأي إنسان أن يَحُجَّ البيت الحرام أو يعتمر، بل كانت قريش تتيه على غيرها من القبائل أنها ترعى زوار البيت الحرام وتخدمهم وتسقيهم.

وأرسل رسول الله ﷺ عينًا له تكشف الطريق، وتعرف هل ستتفهَّم قريش موقف المسلمين السلمي، ورغبتهم الشرعية والطبيعية في زيارة البيت الحرام، أم أنها ستتكبر وتطغى، وتخالف أعرافها وأعراف الجزيرة العربية فتمنع المسلمين من العمرة؟! وكان هذا العين هو بشر بن سفيان الخزاعي[٣].. الذي ما لبث أن عاد إلى رسول الله ﷺ يحمل الأخبار السيئة! قال بشر: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، خرجت على العوذ المطافيل[٤]، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عُنْوَةً أبدًا، وهذا خالد ابن الوليد[٥] في خيلهم قدموا إلى «كراع الغميم[٦]»[٧].

---

(١) ذُو الحُلَيْفَةِ: موضع على مقدار ستة أميال من المدينة مما يلي مكة، وهو ميقات للمدينة والشام. كان منزل رسول الله ﷺ إذا خرج من المدينة لحج أو عمرة. انظر: معجم ما استعجم ١/ ٤٦٤، معجم البلدان ٢/ ٢٩٥، المصباح المنير ص ١٤٦.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٩٥.

(٣) هو الذي بعثه النبي ﷺ إلى بني كعب ليستنفرهم لغزو مكة، وبعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني كعب من خزاعة. انظر: الإصابة ١/ ٢٢٦.

(٤) العوذ المطافيل: يريد النساء والصبيان. والعُوذُ في الأصل جمع عائذ، والعُوذ: الإبل التي وَضَعَت أولادها حَدِيثًا. انظر: لسان العرب ٣/ ٤٩٨.

(٥) وكان آنذاك مشركًا.

(٦) كُراعُ الغَمِيم: موضع معروف بناحية الحجاز بين مكة والمدينة، والغميم وادٍ، والكُرَاعُ جبل. انظر: لسان العرب ٨/ ٣٠٦، معجم ما استعجم ٣/ ٩٥٦.

(٧) مسند الإمام أحمد (١٨٩٣٠).

إن قريشًا - وكذلك طلاب الدنيا - لا يريدون في الأرض سلامًا ولا أمنًا.. وإن وصل الأمر إلى أن يكسروا هم بأنفسهم قوانينهم وشرائعهم!!

لكن رسول الله ﷺ لم يُستَفَزّ بذلك، إنما قال في هدوء: «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ! لَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الْحَرْبُ.. مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ؛ فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ»[1].

انظر إلى المنطق الرائع، والسلاسة في العرض والوضوح في الرؤية..

إنه يعيب على قريش تشوقها المستمر للحرب، وعنادها الذي لا ينقطع، ثم يقول في حكمة بالغة: إنها لو رضيت بمسالمتي وترك الحرب معي، والاكتفاء فقط بانتظار ما تسفر عنه حرب بقية العرب لي لكانت النتيجة إحدى ثلاث: إما أن ينتصر عليّ العرب، ويتحقق مراد قريش دون جهد تبذله، وإما أن تكتشف قريش عظمة الإسلام فتُسلم دون حرب، ودون فقد قتلى أو أموال، وإما أن يستمر القرشيون على كفرهم فيقاتلوني بعد ذلك وقد أنهكتني الحرب، وما زالت بهم قوة!

إن الرأي السليم، والمنطق الحكيم لابد وأن يدفع قريشًا للتصالح مع ابنها البارّ رسول الله ﷺ، لكن قريشًا في ذلك الوقت كانت تتبع هواها وشياطينها، ومِن ثَمَّ آثرت الحرب على السلام، وهذه قمة السفاهة والحماقة..

ومع كل هذه الرغبة المكية في الحرب واستمرار العداء إلا أن الرسول ﷺ لم تغب عنه الرؤية السِلْمِيَّة، لقد اكتشف مكان خالد بن الوليد، ومِنْ ثم أشار على المسلمين باتخاذ طريق آخر وعر أشار عليه به رجل من أسلم[2]، وبذلك تجنب - ولو مؤقتًا - الصدام مع المشركين، ولم يكن هذا من خوف أَلَمَّ به ﷺ فالذي يخاف من جيش لا يقترب من قاعدته الأصلية - وهي مكة - إنما كان ذلك ليتفادى الحرب قدر استطاعته[3].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ٢٧٦.

(٣) محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ص١٨٦، ١٨٧.

ووصل رسول الله ﷺ بالمعتمرين إلى الحديبية[١]، وأسرع خالد بن الوليد بفرقته إلى أهل مكة ليحذرهم..

وعند الحديبية حدث أمر عجيب.. لقد وقفت ناقة رسول الله ﷺ، وامتنعت عن السير، فحاول الناس زجرها بقولهم: «حل.. حل..»[٢] إلا أنها أصرت على الوقوف! فقال الناس: «خلأت القصواء!»[٣]، فقال رسول الله ﷺ: **«مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»**[٤].

لقد أعلن رسول الله ﷺ نهجه السلمي، وتوجهه التصالحي بأوضح صورة ممكنة.. لقد أقسم أنه سيقبل بأي خطة تُعظَّم فيها حرمات الله، ويقصد بذلك أي خطة تحفظ البلد الحرام، وتحفظ الدماء، وتحفظ الأعراض، حتى لو كان فيها شيء من التنازل، كما سيتبين بعد ذلك من الأحداث..

هذا هو منهجه ﷺ، وهذا هو فكره بخصوص التعايش مع المخالفين له في العقيدة، بل والمحاربين له، والمانعين إياه من دخول البيت..

وقريش ما زالت في غَيِّهَا تَعْمَهُ!!

مفاوضات صلح الحديبية:

لقد بعثت قريش الرسل إلى رسول الله ﷺ تترى، وهدفهم جميعًا هو التخويف والإرهاب، ومحاولة الصد عن البيت الحرام دون قيد أو شرط.. لكن كل ذلك ما كان لِيَسْتَفِزَّ

---

(١) الحديبية: هي قرية سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها الصحابة، بينها وبين مكة مرحلة. وفي الحديث أنها بئر، وبعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم. وعند مالك بن أنس أنها جميعها من الحرم. انظر: معجم البلدان ٢/ ٦٣، معجم ما استعجم ص٢٢١.

(٢) كلمة تُقال عند زجر الدابة.

(٣) خلأت: أي امتنعت عن المشي. والقصواء هي ناقة رسول الله ﷺ.

(٤) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، ورواه ابن حبان في صحيحه (٤٨٧٢)، والطبراني في المعجم الكبير (١٣)، وعبد الرزاق في مصنفه ٥/ ٣٣٢.

رسول الله ﷺ، بل إنه في صراحة أعلن لبديل بن ورقاء الخزاعي[١] - وهو أول الرسل الذين جاءوه من قريش - أنه يريد الصلح والمعاهدة.. فقال: «إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا[٢]، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ»[٣].

إنه يستخدم أكثر من وسيلة لِتَجَنُّبِ القتال، ولِطَلَبِ الصُّلح والموادعة.. فهو يصرح بذلك في البداية: «إنا لم نجئ لقتال أحد».. ثم يوضح السبب الشرعي والقانوني للقدوم: «ولكنا جئنا معتمرين». ثم ينصح قريشًا ألا تُبَدِّدَ طاقتها في حروب متكررة: «وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ». ثم يطلب الصلح صراحةً: «فإن شاءوا مادَدْتُهُمْ مُدَّةً». وهو عرض صريح منه ﷺ للصلح مع قريش.. ومن هنا أجاز الفقهاء أن يبدأ المسلم بعرض الصلح، حتى إن ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم «زاد المعاد» أحصى من الفوائد الفقهية لصلح الحديبية: «جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه»[٤].

ثم توالت الرسل، وجاء عروة بن مسعود الثقفي[٥]، وقال له رسول الله ﷺ نحوًا مما قاله لبديل، وبعد حوار طويل عاد إلى أهل مكة مقتنعًا برؤية رسول الله ﷺ للأمور، فقال لهم: «وإنه - أي رسول الله ﷺ - عرض عليكم خطة رُشْدٍ فاقبَلُوهَا»[٦]. لكن قريشًا رفضت

---

(١) بديل بن ورقاء الخزاعي، أسلم يوم فتح مكة. وذكر ابن إسحاق أن قريشًا يوم فتح مكة لجئوا إلى داره ودار مولاه رافع. وشهد بديل وابنه عبد الله حنينًا والطائف وتبوك، وكان بديل من كبار مسلمة الفتح، وقيل: أسلم قبل الفتح. انظر: الاستيعاب ١/ ٢٣٥، أسد الغابة ١/ ٢٣٦، الإصابة الترجمة (٦١١).

(٢) جَمُّوا: استراحوا من جهد الحرب.

(٣) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، وابن حبان في صحيحه (٤٨٧٢)، والطبراني في الكبير (١٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٨٥٨٧).

(٤) ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٢٦٧.

(٥) عروة بن مسعود بن ثقيف، ممن أرسلته قريش إلى النبي ﷺ يوم الحديبية، أعلن إسلامه أمام قومه، ودعاهم إلى الإسلام، فرموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله، وقيل له: ما ترى في دمك؟ فقال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليّ. انظر: الاستيعاب ٣/ ١٧٦، الإصابة، الترجمة (٥٥٢٧).

(٦) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، ورواه ابن حبان في صحيحه (٤٨٧٢)، والطبراني في المعجم الكبير (١٣)، وعبد الرزاق في مصنفه ٥/ ٣٣٢

اقتراح عروة، وأرسلت رسولًا ثالثًا هو الحليس بن علقمة[1]، فبعث رسول الله ﷺ في وجهه الهَدْيَ، وقد كان من قوم يعظِّمُونها، واستقبله المسلمون بالتلبية، فعاد متأثِّرًا بما رآه، ناصحًا قريش أن تترك المسلمين يعتمرون.. ولكن قريشًا رفضت للمرة الثالثة، وأرسلت «مكرز بن حفص»[2]، فلم يصل إلى نتيجة أخرى..

ثم حاولت مجموعة من شباب مكة أن يوقفوا هذه المباحثات، كرهًا منهم للصلح ورفضًا لدخول رسول الله ﷺ إلى مكة معتمرًا، فقامت هذه المجموعة، وعددها ثمانون بالإغارة على المسلمين في الحديبية لإشعال الحرب الفعلية، فماذا حدث؟! يروي أنس بن مالك ﷺ أن ثمانين رجلًا من أهل مكة هبطوا على الرسول ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غِرَّةَ[3] النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سِلْمًا، فاستحياهم[4]، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤][5].

فهؤلاء ثمانون مغامرًا أرادوا إفساد أي محاولة للصلح، فماذا فعل رسول الله ﷺ؟! لقد أطلقهم جميعًا بغير فداء؛ وذلك إثباتًا لحسن النوايا، وسلامة الصدر.

ثم قرر ﷺ أن يُرسل رسولًا إلى قريش؛ لعرض وجهة النظر الإسلامية، وبعد محاورات بين المسلمين تم اختيار عثمان بن عفان ﷺ ليكون سفيرًا للمسلمين إلى داخل مكة، وبالفعل دخل عثمان ﷺ إلى البلد الحرام، ودارت بينه وبينهم مفاوضات، ولكن هذه المفاوضات

---

(١) الحليس بن علقمة الحارثي، بن عبد مناة بن كنانة: سيد الأحابيش يوم أحد، وكان مع مشركي قريش. انظر: الأعلام ٢/ ٢٧٠، ابن ماكولا: الإكمال ٢/ ٤٩٧.

(٢) مكرز بن حفص بن عامر القرشي، ذكره ابن حبان في الصحابة، وذكره المرزباني في معجم الشعراء ووصفه بأنه جاهلي، ومعناه أنه لم يسلم، وإلا فقد ذكر هو أنه أدرك الإسلام، وقدم المدينة بعد الهجرة لما أسر سهيل بن عمرو يوم بدر فافتداه. انظر: الإصابة الترجمة رقم (٨١٩٣)، الثقات لابن حبان ١/ ٢٩٧.

(٣) غِرَّة: بغتة.

(٤) استحياهم: أسرهم.

(٥) مسلم: في كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: «وهو الذي كف أيديهم عنكم» (١٨٠٨)، وأبو داود (٢٦٨٨)، وأحمد (١٤١٢٢)، والبيهقي في الكبرى (١٢٦١١).

طالت دون نتيجة حتى مرت عدة أيام، وأشيع أن عثمان ﷺ قد قُتِل، وقتل السفراء جريمة لا تغتفر، وهو إعلان حرب رسمي، وهنا اضْطُرَّ رسول الله ﷺ اضطرارًا إلى القيام بها عُرِفَ في التاريخ ببيعة الرضوان حيث بايع الصحابة على عدم الفرار[1]، ومِنْ ثَمَّ أصبح القتال وشيكًا جدًّا، لولا أن عثمان ظهر في هذه اللحظة، وثبت أن الأمر كان مجرد إشاعة، فهدأت النفوس واستراحت، ثم ظهر رسول جديد من قِبَل قريش هو سهيل بن عمرو.

لقد أصر رسول الله ﷺ على الصلح بكل طريقة، وقريش - كما نرى - تأبى، إلا أن قريشًا في النهاية بدأت تتراجع، وكان بداية هذا التراجع هو إرسال سهيل بن عمرو، وهو قياديٌّ كبير في مكة، ومشهور بالدبلوماسية والقدرة على التحاور، وليس حادًّا في طباعه كبقية الزعماء الآخرين، حتى إن رسول الله ﷺ عندما رآه قال: «قد سَهُلَ لكم مِنْ أَمْرِكُمْ»[2]، وبالفعل.. وكما توقع ﷺ، فقد أراد سهيل أن يُتِم الصلح بين قريش والمسلمين، ولكنه أظهر في أثناء الصلح تشددًا وتعنتًا، بينما ظهرت في بنود الصلح وطريقة كتابته مرونة الرسول ﷺ ورغبته الأكيدة في الصلح.

ولنراجع الرواية التي شرحت موقف كتابة المعاهدة لندرك مدى رغبة رسول الله ﷺ في إقرار المعاهدة..

فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لا نَكْتُبُهَا إِلاَّ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ..» ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ..» فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللهِ إِنِّي

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة (١٨٥٦-١٨٥٨)، ورواه الترمذي (١٥٩١)، والنسائي في السنن (٤١٥٨)، وأحمد في المسند (١٤٨٦٥)، وابن حبان (٤٥٥١)، والحديث عن جابر بن عبد الله، ورواه أيضًا معقل بن يسار.

(٢) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، وابن حبان (٤٨٧٢)، والطبراني في الكبير (١٣)، والبيهقي في الكبرى (١٨٥٨٧).

لَرَسُولُ الله وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي.. اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله..» (قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ ﷺ: لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله إِلا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا.) فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَنَطُوفَ بِهِ» فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَالله لا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا. قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ الله! كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟! فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ». قَالَ: فَوَالله إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَجِزْهُ لِي» قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ، قَالَ: «بَلَى فَافْعَلْ» قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ... قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا؟! أَلا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟! وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الله»[1].

فالرسول ﷺ - كما رأينا - يتنازل عن كتابة البسملة كاملة في أول العهد، ويتنازل عن كتابة وصف نفسه بالرسالة، ويَقْبَلُ أن يعود من هذا العام فلا يطوف بالبيت، ويقبل أن يَرُدَّ من جاءه مسلمًا من أهل مكة إذا طلب أولياؤه ذلك.. بل ويتفاقم الأمر جدًا عندما يأتي أبو جندل بن سهيل بن عمرو ﷺ، وهو في حالة شديدة من الإعياء والإجهاد والمعاناة يطلب النصرة من المسلمين، فيطلبه رسول الله ﷺ من سهيل بن عمرو - وهو أبو أبي جندل - فيرفض سهيل، ويُعَلِّقُ نجاح المفاوضات بكاملها على أخذه لهذا الفتى المسلم المعذَّب، وأمام مخاطر فشل المعاهدة يوافق رسول الله ﷺ، من أجل أن يتم الصلح برغم كل ما نراه من أزمات ومعوقات، وبرغم اعتراض كثير من الصحابة، وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب ﷺ.. ويتحقق ما يريده رسول الله ﷺ، وتوقع المعاهدة من نسختين يحتفظ كل من الطرفين بنسخة عنده[2].

---

(١) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٢٥٨١)، وابن حبان (٤٨٧٢)، والطبراني في الكبير (١٣)، والبيهقي في الكبرى (١٨٥٨٧).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٩٧.

ومن الجدير بالذكر أن بنود المعاهدة شملت أيضًا: وضع الحرب بين الفريقين لمدة عشر سنين[١]، وأن القبيلة التي تريد الانضمام إلى طرف من الطرفين فلها ذلك، وتجرى عليها أحكام المعاهدة، وقد انضمت قبيلة خزاعة إلى حلف رسول الله ﷺ، بينما انضمت قبيلة بني بكر إلى حلف قريش.

وبعد أن تمت المعاهدة، ورضي الطرفان، أرادت من جديد مجموعة من شباب قريش المتحمسين أن يفسدوا هذا الصلح، فقاموا بعملية إغارة جديدة على المسلمين، ولكن المسلمين استطاعوا بفضل الله أن يمسكوا بسبعين منهم على رأسهم رجل يقال له: مكرز، كما أمسك سلمة بن الأكوع رضي الله عنه بأربعة آخرين، ومع ذلك، فإن رسول الله ﷺ قد عفا عنهم جميعًا بغير فداء![٢]

خلاصة القول في هذه النقطة أن رسول الله ﷺ تغلب على معوقات كثيرة جدًا لكي يتم الصلح في النهاية، ولكي يُمَهِّدَ لفترة تعايش سلمي في الجزيرة العربية، تنعم فيها الأطراف المسلمة والمشركة بالأمان والسلام.

التطبيقات العملية لبنود صلح الحديبية:

يأتي في تحليلنا لهذه المعاهدات مع المشركين ما هو أَهَمُّ من بنودها وكيفية صياغتها.. وهو التطبيق الفعلي لهذه المعاهدات، فكم من المعاهدات كُتِبَتْ في التاريخ، وكم من المواثيق عُقِدَت، ثم صارت مع مرور الأيام حبرًا على ورق، ولم يعد هناك أي معنى لوجودها أو لعقدها..

إن أروع ما في معاهدات رسول الله ﷺ هو الجانب العملي التطبيقي الذي تلا كتابة هذه المعاهدات.. إنك سترى في حياته ﷺ مع من عاهدهم كل معاني التآلف والعدل والتراحم والبر والعدل والوفاء..

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ٢٨٤، الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٢٣، ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ١٦٠.

(٢) القصة في صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها (١٨٠٧).

إنه يكفي للدلالة على هذا الوفاء في التعاهد أن نذكر قصة أبي بصير ﷺ.. فقد جاء أبو بصير[١] - وهو رجل من قريش دخل في الإسلام - إلى المدينة المنورة بعد فترة وجيزة من كتابة صلح الحديبية، وكان يريد أن ينضم إلى الصف المسلم فرارًا بدينه من أهل الكفر بمكة، ولكن القرشيين أرسلوا في طلبه رجلين إلى رسول الله ﷺ، فقالا له: العهد الذي جَعَلْتَ لنا، فدفعه إلى الرجلين[٢].. أرأيت مثل هذا الوفاء؟! إنه يردُّ مسلمًا جاءه إلى المدينة المنورة، والمدينة أحوج ما تكون إلى الرجال والجند، والرجل مسلم قد يُفْتَنُ في دينه ويُعَذَّب، ومع ذلك يردُّهُ لأن بنود المعاهدة نصت على ذلك، وليس له إلا الوفاء..

وقد تعجب أبو بصير ﷺ نفسه من رد فعل الرسول ﷺ، فقال متسائلًا: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟! قال ﷺ: **«يا أبا بصير، انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فَرَجًا ومَخْرَجًا»**[٣].

إن الوفاء بالعهد ليس اختيارًا من الاختيارات عند المسلمين.. إنه واجب لازم، وفريضة حتمية..

واستلم الرجلان القرشيان أبا بصير ﷺ بالفعل، وفي الطريق إلى مكة استطاع أن يحتال عليهما، فقتل واحدًا منهما، وفَرَّ الآخر!! تُرى.. إلى أين يفر المشرك الآخر؟!

لقد فر إلى المسجد النبوي!! فر إلى رسول الله ﷺ!! فر إلى الرجل الذي يعلم أنه سيجد عنده الأمان والسلام، حتى ولو كان الذي يطارده مسلمًا، وحتى ولو كان هو من الكافرين!

إنها آية من الآيات!!

---

(١) عتبة بن أسيد الثقفي، من المستضعفين بمكة، فر مع من أسلموا بعد الحديبية إلى سيف البحر لما أسلمه النبي ﷺ لقاصد قريش، فكانوا يؤذون قريشًا في تجارتهم، فرغبت قريش من النبي ﷺ أن يؤويهم إليه ليستريحوا منهم ففعل، فكتب النبي ﷺ إليهم فجاءه كتاب النبي وهو يموت، فصلى عليه أبو جندل ودفنه مكانه. الاستيعاب ٣/ ١٤٥، أسد الغابة ٣/ ٤٥٤ الإصابة (٥٣٩٨).

(٢) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، وابن حبان في صحيحه (٤٨٧٢)، والطبراني في الكبير (١٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٨٥٨٧).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ٢٩١.

دخل الرجل المشرك المسجد النبوي يعدو، فلما رآه رسول الله ﷺ أشفق عليه، وقال: «لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا»، فلما انتهى الرجل إلى النبي ﷺ قال: قُتل صاحبي، وإني لمقتول!! فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد - والله - أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، قال النبي ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ! مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»[1]. أي أن هذا الرجل سيشعل حربًا لو كان معه رجال.. فلما سمع أبو بصير ﷺ هذه الكلمات أدرك أن الرسول ﷺ سيردُّه إلى المشركين لكي لا تشتعل الحرب، فخرج من المدينة مسرعًا، حتى أتى منطقة سِيف البحر[2]، وعسكر هناك، وبدأ يقطع الطريق على قوافل قريش، وقريش لا تقدر عليه، ولا تستطيع أن تلوم رسول الله ﷺ؛ لأنه ليس تحت سيطرته، وسمع بمكانه مسلمون آخرون في مكة، فقرروا أن يلتحقوا به ليكونوا له عونًا على قطع الطريق على قوافل مكة، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو، ولحق به سبعون آخرون من المسلمين الذين لا يستطيعون اللحاق بالمدينة لشروط المعاهدة، ولا يستطيعون البقاء في مكة لتعذيب الكفار لهم، وازدادت حدة الصدام بشدة بين هذه المجموعة المسلمة وبين قوافل قريش.. حتى اضطُرَّت قريش أخيرًا إلى أن تذهب إلى رسول الله ﷺ، وترجوه أن يُلْحِقَ هؤلاء به[3]، ولأن الرسول ﷺ يريد حقيقةً أن يتعايش في سلام مع مَنْ حوله من المشركين فإنه قبل بذلك، وضمَّهم إليه، ولو شاء لتركهم يُنَغِّصون على قريش حياتها، ويُضعفون قوتها، ويستنْزِفون ثرواتها، ولكنه كان يتعامل مع قريش في صفاء نفس لا يدركه إلا من عرف رسول الله ﷺ.

وبعد إلغاء هذا البند من المعاهدة نعمت المنطقة بسلام حقيقي، وحرص رسول الله ﷺ على تجنُّب إيذاء قريش بأي صورة من الصور؛ حتى يضمن استمرار المعاهدة لأطول فترة

---

(١) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٢٥٨١)، وابن حبان في صحيحه (٤٨٧٢)، والطبراني في الكبير (١٣)، والبيهقي في الكبرى (١٨٥٨٧).

(٢) سِيف البحر: أي ساحله، وكان طريق أهل مكة إذا قصدوا الشام. وقال ابن حجر: وهو يحاذي المدينة إلى جهة الساحل. انظر: فتح الباري ٨/ ٢٨٣.

(٣) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٢٥٨١)، وابن حبان في صحيحه (٤٨٧٢)، والطبراني في الكبير (١٣)، والبيهقي في الكبرى (١٨٥٨٧).

ممكنة، ولعل ما يُثبِتُ هذا الأمان الفعلي ما رواه البخاري ومسلم أن أبا سفيان كان في تجارة إلى الشام بعد زمان الحديبية، ودار بينه وبين هرقل حوار طويل سأله فيه هرقلُ عن رسول الله ﷺ، وعن صفته وعن أخلاقه[١].. فهذا أبو سفيان وتجار معه يسافرون في أمان إلى الشام مع أن طرق التجارة تمر بالمدينة، وتخوض في أعماق الصحراء في أماكن كثيرة تحت سيطرة المسلمين، لكنه الوفاء الذي لا حَدَّ له.. وقد كان من أسئلة هرقل المباشرة لأبي سفيان وهو يسأل عن رسول الله ﷺ أن قال: هل يغدر؟ قال أبو سفيان: لا، ونحن منه في مُدَّةٍ، لا ندري ما هو صانع فيها[٢].

فأبو سفيان مع كونه مشركًا في ذلك الوقت، ومعاديًا للرسول ﷺ، وكارهًا له، وغير مقتنع بنبوته إلا أنه في هذا الجانب لا يستطيع أن يقول غير الحقيقة، فوفاء الرسول ﷺ ظاهر لا جدال فيه، كما يتضح من حوار أبي سفيان مع هرقل.. لقد دار هذا الحوار في أعقاب صلح الحديبية وقُبَيْلَ فتح مكة، مما يؤكد مدى الأمن الذي توفَّر لقوافل قريش، ومدى الوفاء الذي كان عليه المسلمون..

وعلى الرغم من تصاعد قوة المسلمين العسكرية بشكل لافت للنظر، وعلى الرغم من الانتصارات المتكررة هنا هناك، وبخاصة انتصار المسلمين على يهود خيبر، وعلى الرغم من عالمية الإسلام في تلك الفترة، ومراسلة زعماء وملوك العالم ودعوتهم للإسلام، على الرغم من كل هذا التقدم والتفوق إلا أن المسلمين ما فكَّروا في غزو مكة أو إيذاء أهلها، وما فكَّروا حتى في استرداد أموالهم المسلوبة هناك لأنهم ملتزمون تمامًا بعهدهم.

ولقد مرت الأيام سريعًا، وجاء الوقت المحدد للعمرة المتفق عليها في صلح الحديبية،

---

(١) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (١٧٧٣)، وأبو داود (٥١٣٦)، والترمذي (٢٧١٧)، والطبراني في الكبير (٧٢٧٢)، وعبد الرزاق (٩٧٢٤)، والبيهقي في الكبرى (١٨٣٨٨)، والنسائي في الكبرى (١١٠٦٤).

(٢) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (١٧٧٣)، وأبو داود مختصرًا (٥١٣٦)، والترمذي (٢٧١٧)، والطبراني في الكبير (٧٢٧٢)، وعبد الرزاق (٩٧٢٤)، والبيهقي في الكبرى (١٨٣٨٨)، والنسائي في الكبرى (١١٠٦٤).

وهي العمرة التي تمت في أواخر العام السابع من الهجرة وعُرِفَتْ بعمرة القضاء[١].

وخرج رسول الله ﷺ في ألفين من أصحابه، وحمل معه سلاحًا كثيفًا، لكنه وضع كل هذا السلاح خارج مكة، وفاءً لعهده مع قريش، وترك معه محمد بن مسلمة[٢] في مائتي فارس لحمايته، ودخل هو وبقية الصحابة لأداء العمرة بالسيوف في أغمادها كما وَعَدَ.. وكان الاتفاق على أن تُخلِيَ قريشٌ مكة بكاملها للمسلمين مدة ثلاثة أيام كاملة لأداء مناسك العمرة، وقد تم ذلك، ووقف المشركون على رءوس الجبال المحيطة يشاهدون مناسك العمرة طِبْقًا للشرع الإسلامي..

وتمت العمرة المباركة، ومرَّت الأيام الثلاثة بسرعة، وفي آخرها تزوج رسول الله ﷺ من ميمونة بنت الحارث العامرية الهلالية[٣] رضي الله عنها، وهي خالة خالد بن الوليد من كبار زعماء قريش وأخت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، وهذا الزواج بُعْدٌ سياسي واضح؛ فخالد بن الوليد ليس قائدًا هامشيًا في مكة، بل هو أعظم قُوَّادها العسكريين مُطلقًا، وكان من الواضح أن حدَّة طباع خالد قد خَفَّتْ مع المسلمين جدًا بعد وقعة الحديبية، لما رآه من أحوالهم، ومن إحساسه أنهم مؤيدون بقوة خارقة لا يعرفها، حتى إنه يوم الحديبية يصف جيش المسلمين بقوله: «إن القوم ممنوعون»[٤].

لقد غَيَّرَت الأحداث نفسية وسلوك خالد بن الوليد، وزواج رسول الله ﷺ من خالته سوف يُقَرِّبُ منه أكثر وأكثر، ولو حدث وأسلم خالد فإن هذه ستكون إحدى الضربات

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٥/ ١٧، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣١٥.

(٢) محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا تبوك؛ لأن الرسول ﷺ استخلفه على المدينة فيها، واستعمله عمر بن الخطاب على صدقات جهينة، وكان صاحب العمال أيام عمر. مات بالمدينة (سنة ٤٦ أو ٤٧هـ). انظر: الاستيعاب ٣/ ٤٣٣، أسد الغابة ٤/ ٣١٨، الإصابة: الترجمة (٧٨٠٥).

(٣) ميمونة بنت الحارث العامرية الهلالية زوج النبي ﷺ، تزوجها سنة ٧هـ، توفيت (٥١هـ) بسَرَف في الموضع الذي بنى بها فيه رسولُ الله ﷺ، وصلى عليها ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: أسد الغابة ٦/ ٢٧٥، الإصابة، الترجمة (١١٧٧٢).

(٤) البداية والنهاية ٤/ ٢٦٨.

القاضية للكفر وللكافرين، وسبحان الله! فقد أسلم خالد ﷺ بعد شهور قليلة من عمرة القضاء مُثْبِتًا بذلك عمق نظرة رسول الله ﷺ.

وبعد انتهاء الأيام الثلاثة المحددة للعمرة جاء سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى موفدين من قِبَل قريش لحث الرسول ﷺ وأصحابه على الخروج؛ فقالوا له بغلظة: إنه قد انقضى أجلك؛ فاخرج عنا، فأراد ﷺ أن يتلطف معهم بالرغم من جفائهم، فقال لهم: «وما عليكم لو تركتموني فأعرست[1] بين أظهركم، وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه؟»[2].

لقد أراد رسول الله ﷺ أن يكون طبيعيًا تمامًا في تعامله معهم، بل أراد أن يكون ودودًا كريمًا مضيافًا يدعوهم إلى طعامه وشرابه واحتفاله بعُرسه، متناسيًا تمامًا تاريخهم الأسود معه..

أراد كل ذلك، وأرادوا هم غير ذلك!!

لقد رَدُّوا عليه في جفاء الأعراب: لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا![3]

ورغم هذه المعاملة الجافة، ورغم قوة المسلمين وضعف الكافرين، فإن رسول الله ﷺ احترم عهده وميثاقه، وخرج دون مماطلة، وانطلق دون تباطؤ إلى المدينة المنورة..

وكان رسول الله ﷺ لا ينهى المسلمين عن استقبال ذويهم من المشركين، واستضافتهم في المدينة، وقبول هداياهم، كما حدث مع أسماء بنت أبي بكر ﷺ عندما سألت رسول الله ﷺ عن صلة أمها المشركة، فقال لها ﷺ بإيجاز بليغ: «صِلِيهَا»[4].

بل حدث منه ﷺ ما هو أعظم وأجَلُّ مِن هَذا!! فعندما أسلم «ثمامة بن أثال» ﷺ - وكان من سادات بني حنيفة، ومن كبار تجار القمح فيها - أقسم ألا تصل حبة حنطة منه إلى

---

(١) أعرست: أتممت العرس على ميمونة ﷺ.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٤٣، وابن هشام: السيرة النبوية ٥/ ٢٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) البخاري: كتاب الهبة وفضلها، باب الهدية للمشركين (٢٤٧٧، ٥٦٣٤، ٣٠١٢) ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين (١٠٠٣)، وأبو داود (١٦٦٨)، وأحمد (٢٦٩٦٠).

المشركين في مكة؛ لأنهم آذوا رسول الله ﷺ، إلا أن يأذن رسول الله ﷺ قال ثمامة: لا وَالله لا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ(١). وبلغ الجهد بقريش، فمكة - كما هو معروف - بلاد جبلية صحراوية ليس فيها إمكانيات الزراعة، وتعتمد اعتمادًا كليًا على ما كان يأتيها من ثمامة بن أثال ﷺ. وصمدت مكة حينًا، ولكنها ما لبثت أن انهارت، وأسرعت تجري إلى المدينة المنورة، متنازلة عن كبريائها وغطرستها، راجية من رسول الله ﷺ أن يأذن لثمامة بن أثال في أن يبيع لهم الحنطة. قال زعماء مكة لرسول الله ﷺ: «إنك تأمر بصلة الرحم». فكتب رسول الله ﷺ إلى ثمامة أن يُخَلِّيَ بينهم وبين الحمل إليهم!(٢)

وهذا والله من عجائب السيرة النبوية!!

إن الذي فعله ثمامة بن أثال ﷺ ليس فيه خطأ شرعي حتى يُنْهَى عنه، وليس مخالفًا للأعراف حتى يُمنع منه، فمن ذا الذي يبيع ويشتري بنفس راضية مع مَن ظلَمه وقهَره وبطش به وحاربه الأعوام تلو الأعوام؟!! وما فعله ثمامة تضحية كبيرة بثروات عظيمة كدليل على صدق إيمانه، وما فعله ثمامة سيؤثر سلبًا على كفار مكة فتخف حدة جيوشهم، وتضعف قوتهم، بل قد يفكرون في الإسلام.. هذا الدين الذي دخله الآن القاصي والداني، وهذا الدين الذي أعزَّه الله، وكثَّر أتباعَه، وبسط له الأرض هنا وهناك..

كل ذلك كان من الممكن أن يحدث نتيجة المقاطعة الاقتصادية التي قام بها ثمامة بن أثال ﷺ، لكن رسول الله ﷺ لم ينظر إلى كل هذه المصالح، إنه لم ينظر بعين السياسي الذي ينتهز الفرص، إنما ينظر بعين الداعية الذي يرجو الهُدى للعالمين، ونظر بعين الواصل الذي يريد أن يصل رحمه، حتى وإن كانت هذه الرحم تقطعه.

لقد قال ﷺ من قبل كلامًا أغلى من الذهب، وكانت حياته تطبيقًا واقعيًا لكل كلمة قالها.. لقد قال قبل ذلك: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْـمُكَافِئِ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا

---

(١) البخاري: في كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال (٤١١٤)، ومسلم: في الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه (١٧٦٤)، وأحمد (٩٨٣٢)، وابن حبان (١٢٣٩).

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ٩٢، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ٥٥٠.

قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»[١].

لقد كانت حاله كذلك مع مشركي مكة في أثناء عهده لهم..

ولَمَّا جاءه فرسان مكة وقوادها ليعلنوا إسلامهم بين يديه، استقبلهم أعظم استقبال، ورحَّب بهم أجمل ترحيب.. لقد جاءه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة ليعلنوا إسلامهم بعد شهور قليلة من عمرة القضاء، وقيل في شهر صفر من السنة الثامنة من الهجرة[٢]، فما ذكَّرهم أبدًا بتاريخهم العدائي معه، بل قال ﷺ لصحابته يُعلِي من شأن هؤلاء العظماء: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**»[٣].

ولما جلسوا إليه ﷺ ترك فيهم رسول الله ﷺ انطباعًا جميلًا لا يُنْسَى، وانظروا إلى كلمات خالد بن الوليد ﵁ وهو يصف هذه اللحظة الرائعة.. يقول خالد: «فأُخْبِرَ بنا رسولُ الله ﷺ، فَسُرَّ بِنَا، فَلَبِسْتُ من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ، فلقيني أخي[٤]؛ فقال: أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أُخْبِرَ بك، فَسُرَّ بقدومك، وهو ينتظركم، فأسرعت المشي، فطلعت عليه، فما زال يتبسم إليَّ، حتى وقفت عليه، فسلَّمت عليه بالنبوة، فقال: «**الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلًا رجوت ألا يُسْلِمَكَ إلا إلى الخير**»، قلت: يا رسول الله، قد رأيتَ ما كنتُ أشهد من تلك المواطن[٥] عليك معاندًا عن الحق، فادعُ الله أن يغفرها لي، فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله**»، قلت: يا رسول الله، على ذلك؟ قال: «**اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيل الله**» قال خالد: وتقدم عثمان

---

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ (٥٦٤٥)، وأبو داود (١٦٩٧)، والترمذي (١٩٠٨)، وأحمد (٦٥٢٤)، وابن حبان (٤٤٥)، والطبراني في الأوسط (٦٦٢٣)، والبزار (٢٣٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٩٥٣)، وفي سننه الكبرى (١٢٩٩٨)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٠٢ عن عبد الله بن عمرو).

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٤٦، ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ٢٣٩.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٨، ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٦٣.

(٤) الوليد بن الوليد القرشي المخزومي، أسر يوم بدر كافرًا، أسلم بعد أن افتدى من الأسر حتى لا يظن أنه جزع من الأسر. فحبسه أهله بمكة، فكان النبي ﷺ يدعو له في القنوت، ثم أفلت من إسارهم ولحق برسول الله ﷺ، وشهد عمرة القضاء. الاستيعاب ٣/ ١١٨، الإصابة ترجمة (٩١٥٠)، أسد الغابة ٤/ ٦٥٤.

(٥) أشهرها: أُحُد والأحزاب والحديبية.

وعمرو، فبايعا رسول الله ﷺ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمان، فوالله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما حَزَبه[1].

والموقف أروع من أي تعليق!!

فهذا سرور، وهذا ابتسام، وهذا ثناء على خالد، وهذا دعاء بالمغفرة على كل ما كان منه، وهذا تقديم وتعظيم وتكريم لزعيم طالما حاربه وقاد الجيوش ضده!!

هذا هو سلوكه الراقي ﷺ، وهو سلوك ملازم له في كل أحواله مهما كانت الظروف والملابسات.

المطلب الثالث: معاهداته ﷺ مع قبائل الجزيرة العربية الأخرى

لقد كان تعامل رسول الله ﷺ مع قريش في حال معاهدتهم أرقى من أن يوصف، وأجَلَّ من أن يُحاط بعظمته، ولم يكن ذلك بدافع الرَّحِم فقط، بل كان سلوكًا طبيعيًا له ﷺ مع كل المعاهدين له، وقد فعل مثل هذا مع كل القبائل التي عاهدته وأبى أن يخالف عهدًا، أو أن ينقض ميثاقًا في أي لحظة من لحظات حياته.

لقد كان رسول الله ﷺ مطبقًا للإسلام في سلوكه هذا الذي وصفنا، وكان طائعًا لربه الذي أمره بحفظ العهود، واحترام المواثيق، ولم يكن هذا خاصًا بمرحلة معينة أو ظروف خاصة، إنما ظل معه إلى آخر حياته، وها هي سورة التوبة تنزل في أخريات حياته ﷺ لتعلن له ولكل المسلمين، بل لكل العالمين، أن إتمام العهد إلى آخره شيمة كل مسلم صادق..

يقول تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣، ٤].

هذا هو الدين الذي ندين به!

---

(١) انظر: البيهقي: دلائل النبوة ٤/ ٣٤٩-٣٥٢، وابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٦٨ - ٢٦٩.

إنه أمر إلهي مباشر لنا ولعامة المسلمين أن نُتِمَّ العهود، وأن نوفِّي بالعقود، مع أنها عُقِدَتْ مع مشركين ما زالوا يسجدون لأصنامهم، ويشركون بربهم.. لكنَّ هذا هو أمر الإله الذي يشركون به!

ألا ما أعظمه من إله.. وما أَجَلَّه من رب!

ويأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ؓ أن يقرأ هذه الآيات على كل الحجيج بشتى طوائفهم، وذلك في العام التاسع من الهجرة[1]، وكان يحج في هذا العام مسلمون ومشركون من شتى قبائل الجزيرة العربية..

إنه الإعلان العام الذي لا استثناء فيه، والحكم الثابت الذي لا نسخ له، يقول تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، ويقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨، وكذلك المعارج: ٣٢]، ويقول كذلك: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧] ، ويقول: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ويقول أيضًا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧]، ويقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

والأمر أوسع من أن يُستقصَى، وأكبر من أن يُحصَى!

هذا ديننا.. وهذا رسولنا ﷺ..

وما أحسب أن هناك شرعًا ولا قانونًا في الأرض حض أتباعه، وحث مطبِّقيه على رعاية حقوق الآخرين كما فعل هذا الدين العظيم «الإسلام»، وكما أمر النبي الكريم رسول الله ﷺ..

قد قامت الحجة وظهرت البينة..

* * *

---

(١) البخاري: كتاب التفسير، باب سورة براءة التوبة (٤٣٧٩)، والنسائي (٢٩٥٨)، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٣١٠.

المطلب الرابع: معاهدته ﷺ مع يهود خيبر

تعتبر معاهدات الرسول ﷺ مع اليهود سواء في المدينة، أو خارجها صورة شديدة الأهمية من المعاهدات النبوية؛ وذلك لاتساع دائرة احتكاكهم بدولة الإسلام على عهده ﷺ، إلى جانب ما انتهت إليه أغلب هذه المعاهدات من غدر الطرف اليهودي؛ برغم اتصال الوفاء النبوي العظيم.. مما يعطينا اليوم صورة مشرقة للثبات الأخلاقي عند المسلمين، وعلى رأسهم أسوتهم وقدوتهم رسول الله ﷺ.

ولقد عاهد رسول الله ﷺ في فترات حياته المختلفة كل اليهود بالجزيرة العربية، فعاهد يهود المدينة، ومنهم ذوو الأصول العربية الذين تهوَّدوا بعد اختلاطهم باليهود، كيهود بني عوف وغيرهم، وكلها فروع من قبيلتي الأوس والخزرج، ممن ورد ذكر قبائلهم في عهد المدينة الشهير الذي أبرمه ﷺ معهم عقب هجرته إلى المدينة، ومنهم القبائل اليهودية الثلاث المشهورة: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وقد كان هؤلاء ينتسبون عرقيًا إلى اليهود، كما عاهد يهود خيبر ومَن إليهم، ولم يعاهدهم الرسول ﷺ إلا بعد أن انتصر على معظمهم في غزوة خيبر مطلع العام السابع الهجري، وكما ذكرت قبل ذلك فإنه لكون هذا البحث يتناول أخلاق الحروب، فلن يتم التعليق على المعاهدات التي تمَّت في ظروف غير حربية، مما لا يصح أن يُطلق عليها معاهدات هدنة، وعلى ذلك فلن نتناول في هذا البحث المختصر إلا معاهدته مع يهود خيبر، فقد تمَّت في أعقاب حرب شرسة، وفيها من وضوح الأخلاق النبوية ما لا يخفى على مُنصف!

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون وقلاع ومزارع، وهي تقع على بُعد ثمانين ميلًا شمال المدينة، وكانت على مدار سنوات عديدة تمثّل منطلقًا للكثير من المؤامرات اليهودية الموجهة ضد المسلمين في المدينة المنورة، ولأهمية المعاهدة معهم فإننا سنفصِّل قليلًا في تاريخ علاقة خيبر برسول الله ﷺ.

لم يكن هناك أي عداء أو تحرّش حربي من المسلمين ضد يهود خيبر، بل على العكس من ذلك كانت الدعوة من رسول الله ﷺ لهم، ومراسلتهم من خلال كتاب رسول الله ﷺ إليهم، والذي يدعوهم فيه إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ويذكّرهم ببعض ما عندهم في

التوراة، وقد ذكر ابن إسحاق ذلك عن ابن عباس قال: وكتب رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ صاحب موسى وأخيه والمصدق لما جاء به موسى: ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة، وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩] وإني أنشدكم بالله، وأنشدكم بما أنزل عليكم، وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله؛ إلا أخبرتموني: هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم، قد تبين الرشد من الغي، فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه[1].

ومع أن الرسول ﷺ لم يدخل في صراع أو حرب مع خيبر؛ إلا أن هذه المدينة كانت ملاذًا آمنا ومستقرًا معروفًا لمن يريد التخطيط لهدم الدولة الإسلامية وتقويض بنيانها، فقد لجأ إليها سلامُ بن أبي الحقيق المعروف بأبي رافع، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وهم من أشراف بني النضير[2]، ومن ألدّ أعداء المسلمين، ومن الذين أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة بعدما اقترفوا من الجرائم الكثير والكثير. وإن مجرد إيواء هذه القيادات من الأعداء لهو جريمة كبرى ضد الدولة الإسلامية، كما أنه تحدٍّ واضح للإسلام وللرسول ﷺ، خاصَّة أن هذا اللجوء لم يكن لمجرد العيش والاستقرار بين أهل خيبر؛ وإنما كان لإشعال نيران الحرب ضد المسلمين، وتجميع من حولهم على قلب رجل واحد لاستئصال شأفة المسلمين، ولاقتلاع المدينة من جذورها.

وقد بدأ يهود بني النضير المقيمين بخيبر، ومن معهم من يهود خيبر وزعمائها بتأليب

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٤٤، وفي سند الرواية رجل مجهول.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ١٤٥.

المجتمع القَبَلي على المسلمين.. فخرجت مجموعة من يهود خيبر ويهود بني النضير لتجميع الأحزاب المشركة بهدف حصار المسلمين، فتوجهوا أولاً إلى قريش لإغرائها بحرب المسلمين وأن هذه فرصة لجمع كل القبائل لقتال المسلمين، ومما قالوه لمشركي قريش: إنا سنكون معكم حتى نستأصله[1]، وبدأت قريش في تجميع المقاتلين فتجمع أربعة آلاف مقاتل، ثم انتقل اليهود من قريش إلى غطفان لإغرائهم بقتال المسلمين، وتخوّفت غطفان من حرب المسلمين رغم أنهم قبائل كثيرة وقوية، فقام اليهود بإغراء غطفان بالأموال، ورغم بخل اليهود بالمال إلا أنهم عند الصدّ عن سبيل الله ومحاربة الإسلام ينفقون ببذخ، فقد عاهد اليهود غطفان على أن تكون لهم ثمار خيبر لمدة عام، والمعروف أن ثمار خيبر كانت كثيرة، فضحُّوا بكل هذا من أجل حرب المسلمين، وإلحاق الأذى بهم، ووافقت قبائل غطفان بعد أن أغراهم اليهود بالمال على أن يعملوا على تجميع ستة آلاف مقاتل، فيكون مجموع الأحزاب عشرة آلاف مقاتل، كان ليهود خيبر - كما نرى - الدور الأكبر في تجميعهم لغزو المدينة.

ولو تمّ للأحزاب ما أرادوا لأُبيد شعب المدينة عن آخره، عدا يهود بني قريظة - بالطبع - لتعاونهم مع الأحزاب، وخيانتهم للمسلمين.

كانت خيبر - إذن - تمثّل بؤرة خطرٍ عظيمٍ على المسلمين، فعلى الرغم من أن المسلمين لم يقتربوا منها بسوء، إلا أنها كانت دائمًا على عداء تام للرسول ﷺ وللمسلمين، مما جعل هناك ضرورة ملحّة لتأديبهم، ومحاسبتهم على بعض ما اقترفوا من جرائم في حق الدولة الإسلامية. فلما تفرّغ الرسول ﷺ من أمر قريش بصلح الحديبية التفت إلى يهود خيبر، فحاصرهم وقاتلهم حتى نزلوا على رأيه ﷺ، ولم يكن يهود خيبر ليستسلموا سريعًا، فهم يملكون الحصون العظيمة التي يستطيعون من خلالها توفير الحماية لهم، ومواجهة من يقاتلهم مدةً طويلة، كما أظهروا ألوانًا من الصمود والشراسة في القتال، وأظهروا الكبر والعناد ضد المسلمين. وبعد معارك عديدة وحصار لحصونهم الواحد تلو الآخر طلب اليهود أن ينزلوا على الصلح، وأن يتفاوضوا مع رسول الله ﷺ، وقبل ﷺ منهم ذلك، وكانت خلاصة الأمر

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢١٤ .

أن تم التصالح على حقن دمائهم، ودماء كل من في الحصون من المقاتلة والذرية والنساء، وعلى أن يتركوا خلفهم الديار والسلاح والأموال والذهب والفضة ويخرجوا دون شيء، كما اشترط الرسول ﷺ في هذه المعاهدة عليهم شرطا هاما فقال: «وَبَرِئَتْ مِنْكُمْ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ ﷺ إِنْ كَتَمْتُونِي شَيْئًا»[1]. أي لو أن أحدًا من اليهود أخفى شيئًا من الأموال فللرسول ﷺ أن يقتله بهذا الإخفاء[2]. وقبل اليهود هذا الصلح، وبدءوا في الخروج من خيبر، وقد حقن الرسول ﷺ دماءهم جميعًا بهذا الصلح، وذلك رغم ما قدَّمت أيديهم من سوء، ولم يقتل إلا من برزت خيانته، كما وقع لكنانة بن أبي الحقيق[3].

إلى هذا الحدّ كان الأمر كله بيد المسلمين، وليس أمام اليهود اختيار غير الخروج، ومع ذلك ولرغبة رسول الله ﷺ في التعايش السلمي مع الآخر؛ قَبِلَ بطرح جديد قدّمه اليهود..

لقد طلب اليهود من الرسول ﷺ أن يزرعوا هذه الأرض مناصفة مع المسلمين، ففي البخاري عن عبد الله ﷺ قال: أعطى رسول الله ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها[4].

وكان هذا الصلح بمثابة الإحسان التام من قِبَل رسول الله ﷺ ليهود خيبر، وإنقاذًا لهم من الخروج إلى الصحراء، فقد كانت المعاهدة الأولى تنصّ على إجلائهم تاركين خلفهم كل شيء.

وقد جرت الحياة بصورة طبيعية مع أهل خيبر، الذين ظلوا في أعمالهم يقومون بها بحرية تامة، ولم تُؤثَر أي مواقف تدلّ على تعنُّت المسلمين مع يهود خيبر؛ برغم الاختلاط الواضح

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد ٣ / ٢٨٣.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٣ / ٣٧٧، زاد المعاد ٣/ ١٢٩، ٣/ ٢٨٩، ٢٩٠.

(٣) أخبر الرسول ﷺ من أحد اليهود أن كنانة بن أبي الحقيق قد أخفى مالاً، فأُتي به، فقال له ﷺ: «هَلْ أَخْفَيْتَ مَالاً؟» فقال: لا. فقال ﷺ: «أَرَأَيْتَ إِنْ وَجَدْنَاهُ عِنْدَكَ أَأَقْتُلُكَ؟!» قال: نعم. فأمر ﷺ بالبحث في أرضه، فوجدوا كنزًا كبيرًا من المال، وقُتل كنانة بن أبي نتيجة خيانته للعهد مع المسلمين. تاريخ الطبري ٢/ ١٣٨. المحقق

(٤) البخاري: كتاب المغازي، باب معاملة النبي ﷺ أهل خيبر (٢٥٧١)، والبيهقي: في الكبرى (١١٤١٠)، والنسائي (٤٦٦٤)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٨٠.

والمستمرّ لفترة كبيرة نظرًا لطبيعة العمل الذي يربط بين الفريقين، مما يدل على إحسان المسلمين وسُمُوِّ أخلاقهم مع يهود خيبر.. فعن خالد بن الوليد ﷺ قال: غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر، فأسرع الناس في حظائر يهود، فقال: يَا خَالِدُ، نَادِ فِي النَّاسِ أَنَّ الصَّلَاةَ جَامِعَةٌ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُسْلِمٌ فَفَعَلْتُ، فَقَامَ فِي النَّاسِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَا بَالُكُمْ أَسْرَعْتُمْ فِي حَظَائِرِ يَهُودَ، أَلَا لَا تَحِلُّ أَمْوَالُ الْمُعَاهَدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا»[١]..

وعلى الرغم من حرص الرسول ﷺ الدائم على الوفاء لليهود بعهدهم إلا أنه قد ظهرت منهم عدة مخالفات، بدأت - كما بينَّا قبل ذلك - بمحاولة قتله ﷺ، ومع ذلك فقد تجاوز عنهم، بل وتعامل معهم بمنتهى الرفق والحلم والعدل، إلى درجة قد لا يستوعبها سياسيو الزمان الذي نعيش فيه الآن!

ومع أن الفارق كان ضخمًا في القوة بين الطرفين لصالح المسلمين، ومع أن المسلمين كانوا في ازدياد دائم، إلا أن ذلك لم يدفع رسول الله ﷺ إلى الجور عليهم في تقسيم الثمار، بل كانت القسمة تتم وفق المعاهدة تمامًا، بل إن المخالفة أتت من جانب اليهود، فقد أرسل رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة ﷺ ليتولَّى تقسيم الثمار، فحاولوا رشوته[٢] ليقسم لهم، فلما رفض اعترضوا على قسمته، واتهموه بالظلم، فقال كلمته المشهورة: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللهِ ﷺ وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللهِ وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ قَدْ خَرَصْتُ[٣] عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَدْ أَخَذْنَا فَاخْرُجُوا عَنَّا[٤]. فالظلم غير مسموح به حتى وإن كان الحَكَمُ بين رسول الله ﷺ أحب الناس إلى قلب ابن رواحة ﷺ، واليهود أبغض

---

(١) رواه أحمد (١٦٨٦٤)، وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٧٠٣).

(٢) البيهقي: السنن الكبرى ٤/ ١٢٢.

(٣) خرصت: حزرت. والخَرْصُ: حَزْرُ ما على النخل من الرُّطَبِ تمرًا. انظر: لسان العرب ٧/ ٢١.

(٤) مالك برواية يحيى الليثي (١٣٨٨)، وبرواية محمد بن أبي الحسن (٨٣٠)، وأحمد (١٤٩٩٦)، والطبراني في الكبير (١٢٠٦٢)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٤/ ٢١٩.

الناس إليه..

وأعظم من ذلك ما رواه سهل بن أبي حَثْمَةَ ﷺ من أَنَّ نَفَرًا مِنْ قَوْمِهِ انْطَلَقُوا إِلَى خَيْبَرَ، فَتَفَرَّقُوا فِيهَا، وَوَجَدُوا أَحَدَهُمْ قَتِيلًا، وَقَالُوا لِلَّذِي وُجِدَ فِيهِمْ: قَدْ قَتَلْتُمْ صَاحِبَنَا. قَالُوا: مَا قَتَلْنَا وَلا عَلِمْنَا قَاتِلًا، فَانْطَلَقُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، انْطَلَقْنَا إِلَى خَيْبَرَ فَوَجَدْنَا أَحَدَنَا قَتِيلًا، فَقَالَ: «الْكُبْرَ الْكُبْرَ[1]»، فَقَالَ لَهُمْ: تَأْتُونَ بِالْبَيِّنَةِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ؟ قَالُوا: مَا لَنَا بَيِّنَةٌ!! قَالَ: فَيَحْلِفُونَ؟ قَالُوا: لا نَرْضَى بِأَيْمَانِ الْيَهُودِ» فَكَرِهَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُبْطِلَ دَمَهُ، فَوَدَاهُ مِائَةً مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ[2].

فهذه - والله - قصة عجيبة!!

لقد تمت هذه القصة في زمن الصلح مع يهود خيبر، وذلك كما جاء في رواية مسلم «وهي يومئذ صلح»، وهذا يعني أن القصة تمت بعد هزيمة اليهود في خيبر، وقبولهم الصُّلْحَ مع رسول الله ﷺ، أي أن اليهود كانوا في موقف ضعف، والمسلمين في موضع قوة، ويستطيع المسلمون أن يفرضوا رأيهم بالقوة إن أرادوا..

وفي هذه الظروف قُتل أنصاري خزرجي اسمه عبد الله بن سهل ﷺ، كما في رواية مسلم، وتم هذا القتل في أرض اليهود، والاحتمال الأكبر والأعظم أن يكون القاتل من اليهود.. ومع ذلك فليس هناك بينة على هذا الظن، والأمر في مجال الشك والظن، وهذا لا يُفلح في الدعوى؛ ولذلك لم يعاقب رسول الله ﷺ اليهود بأي صورة من صور العقاب، بل عرض فقط أن يحلفوا على أنهم لم يفعلوا!!

وقد أُسقط في يد الأنصار؛ لعلمهم أن اليهود لا يبالون بحلف كاذب، وعلموا أن حقهم سيضيع، لكن الرسول ﷺ لم يتأثر حكمه بحزن الأنصار، ولا رغبتهم غير المؤيدة بدليل، فرفض أن يُغرِّم اليهود دية، أو أن يقتل منهم أحدًا، أو أن يُنزِل عليهم أي صورة من صور

---

(١) الكبر الكبر: أي قدموا في الكلام أكبركم. انظر: صحيح البخاري ٦/ ٢٥٢٨.

(٢) البخاري: كتاب الديات، باب القسامة (٦٥٠٢)، وهذا لفظه، ومسلم في كتب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب القسامة (١٦٦٩)، وأبو داود (٤٥٢٣)، والنسائي (٤٧١٩).

العقاب، فشعر الأنصار بالغُبن؛ كونهم لم يُعَوَّضُوا عن قتيلهم، وهنا يقوم رسول الله ﷺ بما لا يتخيله أحد، فقد تولى بنفسه دفع الدية من أموال المسلمين لكي يُهدِّئ من روع الأنصار، ودون أن يظلم اليهود، فلتتحمل الدولة الإسلامية العبء في سبيل ألا يُطَبَّقَ حَدٌّ فيه شُبْهَةٌ على يهود!

يقول العلامة الإمام النووي[١] تعليقًا على هذا الحدث: «إنما وداه رسول الله ﷺ -أي دفع ديته- قطعًا للنزاع، وإصلاحًا لذات البين»[٢]. إنه ﷺ يريد أن يُغلق الباب تمامًا؛ فيُنسي الأنصارَ هذه القضية بعد أخذ الدية.. ويأمن اليهودُ من أي تعدٍّ عليهم انتقامًا للقتيل..

ألا ما أروع هذا الموقف وأعجبه!!

فهل هناك مثل هذا الرُّقِيِّ في التعامل!! وهل هناك من يتَّبع هذه القيم في علاقاته مع المخالف له!! وإن شئتم المقارنة فعودوا لما فعله الصليبيون عند سقوط الأندلس، وما فعله الرومان عند سقوط أورشليم في أيديهم...

وبضدها تتميز الأشياء!!

المطلب الخامس: معاهداته ﷺ مع القبائل النصرانية في شمال الجزيرة العربية:

على الرغم من أهمية معاهدة رسول الله ﷺ مع نصارى نجران، إلا أن هذه المعاهدة لم تتم في ظروف حربية، ولذلك لن يتم تناولها في هذا البحث، وسنقصر الحديث هنا عن معاهداته ﷺ مع نصارى القبائل التي تقطن شمال الجزيرة العربية، وذلك لوجود تاريخ حربي طويل معها، فتصلح لإبراز الأخلاق النبوية في مجال الحروب، وسيتم التعليق هنا على ثلاث معاهدات كما يلي:

---

(١) هو محيي الدين أبو زكريا النووي (٦٣١ - ٦٧٦هـ)، كبير الفقهاء في زمانه، ينسب إلى نوى من قرى حوران. اعتنى بالتصنيف فجمع شيئًا كثيرًا، ومما أكمله: شرح مسلم، والروضة، ومما لم يكمله: شرح المهذب الذي سماه المجموع. انظر: طبقات الشافعية ١/ ٩٨، والأعلام ٨/ ١٤٩، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٧٨.

(٢) النووي: شرح صحيح مسلم ١١/ ١٤٧.

أولاً: معاهدته ﷺ مع دومة الجندل:

تقع (دُومة الجندل) على طريق الشام قريبًا من تبوك، وبينها وبين المدينة قريب من (٤٥٠ كم).. وقد اتَّصل منذ سنوات عداؤها للمسلمين، واشتركت في الجموع المتألِّبة على دولة الإسلام، ولعل وراء ذلك العداء بعض الدوافع منها تبعيَّتها للدولة البيزنطيَّة ولاءً وديانةً، فقد كان عامة أهل تلك المنطقة يدينون بالنصرانية، ومنها كذلك انتماء أهل دومة الجندل إلى بطون قحطانية، مما يساعد على اندفاعهم عرقيًّا لعداء المسلمين الذين يتَّبعون نبيًّا عدنانيًّا ﷺ (وخاصة مع تأصُّل اعتبارات التعصب القَبَلي في ذلك الوقت).

وعلى كلٍ فقد اهتمَّ رسول الله ﷺ بسَلِّ ما في صدور أهل دومة الجندل من ضغائن، واهتم بإقرار السلام بينه وبينهم منذ وقت مبكِّر، فأرسل عبدَ الرحمنِ بن عوف ﷺ في العام السادس من الهجرة على رأس سريَّة إلى دُومة الجندل؛ ليدعو فرع «بني كلب» إلى الإسلام، وهي السريَّة التي انتهت بإسلام ملكهم «الأصبغ بن عمرو الكلبي» مع خَلْقٍ كثير من قومه، وبقاء طائفة منهم على النصرانيَّة مع الرضا بالجزية، كما تزوَّج ابن عوف ﷺ «تماضر بنت الأصبغ» عملًا بوصية النبي ﷺ[1]. وهنا يبدو لنا حرص الرسول ﷺ على إحلال السلام والوئام مع هذه القبيلة وغيرها من قبائل العرب، فهو يرسل إليهم من يدعوهم، لا من يسفك دماءهم، وعندما أسلم ملكهم، عمل على تقوية أواصر الصداقة بينه وبين المسلمين من خلال نصيحته ﷺ لابن عوف ﷺ بأن يتزوج ابنة سيد القوم، ليعلم الرجل أن إسلامه لم يزده إلا عزًّا، بمصاهرته لقائد الجيش الإسلامي، وأحد العشرة المُبَشرين بالجنة، وهذه الطريقة تفتح الباب أمام كل الزعامات النصرانية للتفكير في الإسلام، أو على الأقل في مسالمة المسلمين.

لكن مع هذا التقدير من المسلمين لنصارى المنطقة الشمالية، والتي تضم دومة الجندل حدثت عدة مخالفات خطيرة من هؤلاء النصارى، وكانت هذه المخالفات على النحو التالي:

١ - أرسل الرسول ﷺ رسالة مع الحارث بن عمير الأزدي إلى هرقل إمبراطور الروم، وقيل: إلى صاحب بُصرَى، ولكن عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني؛ فأوثقه

---

(١) ابن سعد: الطبقات ٢/ ٨٩، ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ٣٠٧، ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ١٣٩.

رباطًا، ثم قدَّمه، فضرب عنقه.

٢- في أعقاب مقتل الحارث بن عمير الأزدي؛ جهَّز رسول الله ﷺ جيش مؤتة الشهير من ثلاثة آلاف مقاتل، وسمع العدو بخروج جيش المسلمين؛ فتجمعت الجموع الهائلة: مائة ألف من الروم، ومائة ألف من نصارى العرب الذين تجمعوا من بطون كثيرة من قبائل: بهراء ولخم وجذام وبلي[1].. وكلها فروع قحطانية تنتمي لقضاعة وغيرها، وتتشاطر النسب وبنوة العم مع فروع أخرى تسكن دومة الجندل مثل السَّكونيين من بني كِنْدة.

٣- تحالف هذه القبائل مع الروم الذين تجمعوا في العام التاسع من الهجرة للهجوم على المدينة المنورة؛ مما دفع النبي ﷺ إلى الخروج لهم في تبوك، وعلى الرغم من قلة عدد المسلمين بالمقارنة بأعداد الرومان الهائلة؛ إلا أن الله ﷻ ألقى الرعب في قلوب الرومان، فتراجعوا إلى الشمال تاركين وراءهم مناطق نفوذهم وحلفاءهم العرب (وفيهم من أهل دومة الجندل) الذين ملأت هيبةُ المسلمين قلوبهم..

لذا لن نتعجب عندما نعلم أن رسول الله ﷺ لم يضيِّع فرصة تواجده في تبوك في هذا الوقت؛ فبعث سيف الله المسلول: خالد بن الوليد ﷺ إلى ملك دومة الجندل «**أُكَيْدِر بْن عَبْدِ المَلِك السَّكونيّ**» وكان نصرانيًّا، وأمر خالدًا وجنوده قائلًا: «**إِنْ قَدرتُمْ عَلَى أَخْذِهِ فَخُذُوه وَلَا تَقْتُلُوه، وَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَى أَخْذِه فَاقْتُلُوه**»[2].. فأسره خالد ﷺ بالفعل، فلما أُتِيَ به إلى النبي ﷺ سجد أُكَيْدر لرسول الله ﷺ، فأومأ إليه النبي ﷺ بيده: «لا.. لا..» مرَّتين[3].. وصالحه على الجزية، وحقن دمه، وخلَّى سبيله بعد أن كتب له كتابًا. وليس عندنا نص صحيح يُورِد ما جاء في هذا الكتاب، وإن كان قد ورد أنه ﷺ صالحه على الجزية مما يثبت أنه لم يسلم، وهذا الأمر وإن كان يختلف عليه بعض المؤرخين إلا أن عامة أهل السير والمغازي والمحققين يذكرون أن

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٤١، ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٤٣٠.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب السير باب عدد السرية (٨٨٣٦).

(٣) المتقي الهندي: كنز العمال بحاشية المسند ٤/ ١٨٩.

أُكيدر لم يُسلم البتة[1]. إلا أن اللافت للنظر بكل يقين هو ذلك الكرم البالغ الذي تعامل به رسول الله ﷺ مع أكيدر عندما وقع في يده أسيرًا بعد تاريخ طويل من العداء والتحريض كما رأينا، فلم يُذِلَّ ﷺ كرامتَه، ولم يَرْضَ منه السجود بين يديه.. بل حقن دمه، واحترم زعامته، وصالحه صلحًا يحترم فيه المسلمون مصلحة أكيدر وقومه احترامًا بالغًا.

إن قبول رسول الله ﷺ بالصلح بعدما أَسَر أُكيدر يدل دلالة قاطعة على حبه ﷺ للسلام؛ فالرجل في يده، ويستطيع قتله، أو التنكيل به، أو إبقاءه أسيرًا واسترقاقه، وجعله مُثْلَةً لقومه وللملوك العرب كافة، كما كان يفعل الفُرْسُ والروم، ولكن الرسول ﷺ يريد أن تحيا الجزيرة العربية والعالم أجمع في ظل السلام والوئام بعيدًا عن الحروب؛ لذا فقد قبل بإجراء الصلح مع ملكٍ مهزوم أسير.. وقد أثَّر هذا كثيرًا في نفس أكيدر وتعددت الروايات الصحيحة التي تذكر صورًا من تودُّد أكيدر، إلى النبي ﷺ، ففي البخاري عن أنس ﷺ أن أكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ[2]، وروى مسلم في صحيحه عن عليّ ﷺ أن أُكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ ثوب حرير فأعطاه عليًّا؛ فقال: «شَقِّقْهُ خُمُرًا بين الفَوَاطِمِ»[3].

وقد حافظ النبي ﷺ - كعادته - على ذلك العهد، ولم يسمح بارتكاب ما ينقضه؛ فلم تهاجِم سريةٌ من المسلمين هذه البلاد مرةً أخرى، بل إن هذه البلاد أصبحت مرتكزًا لانطلاق الجيوش الإسلامية المتجهة لغزو الروم في عهد الصِّدِّيق أبي بكرٍ ﷺ.

ثانيًا: معاهدته ﷺ مع يُحَنَّة بن رؤبة:

كان من أصداء قدوم أكيدر دومة الجندل على رسول الله ﷺ بتبوك، وما أظهره الرسول

---

(١) ابن حجر في الإصابة ١/ ١٢٥.

(٢) البخاري: كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية من المشركين (٢٤٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل سعد بن معاذ ﷺ (٢٤٦٩)، والترمذي (٣٨٤٧)، وأحمد (١٠٧٧)، وأبو يعلى (٤٣٧).

(٣) مسلم: باب تحريم استعمال إناء الذهب (٣٨٦٣)، واللفظ له. وابن ماجه (٣٥٩٦)، والطبراني في الكبير (٨٨٧) وابن أبي شيبة (٢٤٦٤٧). وأما الفواطم، فقال الهروي والأزهري والجمهور: إنهن ثلاث: فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وفاطمة بنت أسد، وهي أم علي بن أبي طالب ﷺ، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي، وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٧/ ١٥٢.

ﷺ من عفوٍ وحُبٍّ للسلام وحقن الدماء؛ أن أتاه «يُحَنَّة بن رؤبة» ملك أَيْلة[١] وما حولها، وكان هو الآخر نصرانيًا، فقدم على رسول الله ﷺ وهو في تبوك.. وقد روى جابر ﷺ: رأيت يُحَنَّة بن رؤبة يوم أتى النبيَّ ﷺ وعليه صليب من ذهب وهو معقود الناصية، فلما رأى النبيَّ ﷺ كفَّر وأومأ برأسه (أي: طأطأ رأسه خضوعًا ووضع يده على صدره)، فأومأ إليه النبي ﷺ: «ارفَع رَأْسَكَ»، وصالحه يومئذٍ وكساه بُردًا يمانيًّا..[٢].

إن ما قابل به النبي ﷺ يُحَنَّة لدليل على رغبته ﷺ في إبرام الصلح بالشكل الذي يحفظ كرامة الآخر؛ فقد جاء الرجل مرتديًا صليبًا، ولم يعنِّفه رسول الله ﷺ، أو يأمره بخلعه، لكي لا يشعر الرجل أنه في حضرة هرقل مثلًا، بل أمره الرسول ﷺ برفع الرأس؛ دليلًا على رفعة شأنه عند المسلمين؛ فيعلم الرجل أن الصلح مع المسلمين الأقوياء المنتصرين على الروم ليس مذلَّةً ينبغي له ولقومه أن ينقضوه عندما تسنح لهم فرصة، بل هو عهد صادق مع قوم أوفياء يحترمون الآخر، فينبغي الإسراع بإبرام هذا العهد، والعَضُّ عليه بالنواجذ.

وقد كان نص الصلح كما يلي: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.. هَذِهِ أَمَنَةٌ مِنَ اللهِ، وَمُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللهِ لِيُحَنَّةَ بْنِ رُؤْبَةَ وَأَهْلِ أَيْلَةَ، سُفُنُهُمْ وَسَيَّارَتُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ لَهُمْ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَهْلِ الْيَمَنِ، وَأَهْلِ الْبَحْرِ، فَمَنْ أَحْدَثَ مِنْهُمْ حَدَثًا فَإِنَّهُ لَا يَحُولُ مَالُهُ دُونَ نَفْسِهِ.. وَإِنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ النَّاسِ.. وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ أَنْ يُمْنَعُوا مَاءً يَرِدُونَهُ، وَلَا طَرِيقًا يُرِيدُونَهُ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ»[٣]..

والملاحظ هنا أن الرسول ﷺ أعطى الأمان لسفنهم وسيارتهم في البر والبحر، والرسول ﷺ والمسلمون هم خير من يوفي بعهده، والمعروف أن آيلة على ساحل البحر الأحمر، ولابد أن قومه أو جزءًا منهم على الأقل يعملون بالصيد، والمسلمون حتى هذا الوقت لم يستخدموا البحر إلا في الهجرة إلى الحبشة؛ فالبحر لديهم مجهول، وهم ليسوا بارعين في الإبحار فيه،

---

(١) أيلة: هي قرية أم الرشراش المصرية على ساحل البحر الأحمر، والتي يحتلها اليهود، وسمَّوها: إيلات.

(٢) انظر البيهقي: السنن الكبرى ٩/ ١٨٥، وانظر أيضًا: الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٥/ ٤٦٠.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٥٢٥، ٥٢٦، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٢٥٨، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٤٦٦.

ومعنى هذا أن الرسول ﷺ يُحمِّل نفسه والمسلمين عبئًا خطيرًا ثقيلًا وهو حماية أهل آيلة في البحر، وهذا يقتضي استعداد الرسول ﷺ لبناء أسطول بحري وتجهيزه متى حصل اعتداء على أهل آيلة، وفي ذلك من الجهد والإنفاق الضخم والمخاطرة ما فيه. لقد تحمل الرسول ﷺ كل هذا العبء من أجل أن يعيش المسلمون مع من حولهم في أمان وسلام.

كما نلاحظ أن الرسول ﷺ تكفَّل بالسماح لهم بورود كل ماءٍ تعودوا على وروده، وهذا يقتضي - ليس عدم منع المسلمين لهم فقط، بل - محاربة أي عدو آخر يحاول منعهم عن مصادر المياه، وهذا جهد ضخم، وحِمْل جسيم يتحمله ﷺ والمسلمون من أجل إقرار السلام في هذه المنطقة مع قومٍ لا يؤمنون بالإسلام، ولا بنبيه ﷺ.

ثالثًا: المعاهدات مع أهل جرباء[1] وأذرح[2]:

وبالمثل عامل رسول الله ﷺ نصارى جرباء وأذرح فقد جاء في كتابه ﷺ لهم: «هذا كتاب من محمدٍ النبي لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله ومحمد، وأن عليهم مائة دينارٍ في كل رجبٍ وافيةً طيبةً، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين»[3].

إن رسول الله ﷺ يتحمَّل هنا مسئوليات ضخمة في توفير الأمان لقبائل ضعيفة، قليلة العَدَد، هزيلة الغَنَاء عن المسلمين مقابل مبلغ زهيد لا يساوي شيئًا؛ وذلك من أجل ضمان السلام مع كل من يحيط بالمسلمين.

* * *

(١) الجرباء: موضع من أعمال عمان بالبلقاء قرب جبال السراة من ناحية الحجاز، وهي قريبة من أذرح.

(٢) أذرح: مدينة بالبلقاء بين مَعَان وبطرة، وهي اليوم من مدن شرقي الأردن شمالي مدينة معان.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٩٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ٣٠.

المبحث الثالث
ماذا لو نُقضت المعاهدة أو كان نقضها متوقعًا؟!

**كان النبي من مهرة القواد،
وكان سياسيًا محنكًا[1]**

كما تبين لنا في الصفحات السابقة حرص رسول الله ﷺ على إتمام المعاهدة وإنفاذها على أفضل ما يكون، وكان الوفاء شيمته في كل معاهداته مع غير المسلمين على الرغم من المخالفات الكثيرة التي اقترفها معاهدوه، ولكن ماذا يحدث لو نَقَض غير المسلم المعاهدة نقضًا صريحًا، وترتب على هذا النقض آثار جسيمة؟ وماذا لو ظهرت قرائن وأدلة تؤكد أن العدو يسعى إلى نقض المعاهدة؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة الخطيرة ستكون - بإذن الله - من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: نقض غير المسلم للمعاهدة:

الذي عليه العرف في العالم أجمع أنه إذا نَقَضَ طرفٌ ما المعاهدة فإن الطرف الآخر يصبح في حلٍّ مما جاء في هذه المعاهدة، وعليه فلا يُنكَر عليه أن يقاتِل دفاعًا عن حقوقه، أو تأديبًا لمن نكث عهده.

والغريب الذي نراه في السيرة النبوية أنه مع حرص رسول الله ﷺ على الوفاء بكل معاهداته، إلا أن غالب من تعاهدوا معه نقضوا عهدهم بصورة من الصور! وهذا هو الفارق الجليُّ الواضح بين دين السماء وأديان الأرض، وبين أخلاق رسول الله ﷺ وأخلاق من خالفوه وحاربوه.

لقد تعاهد رسول الله ﷺ - كما بينَّا - مع المشركين واليهود والنصارى، وتم نقض العهد من قِبَل المشركين واليهود في حياته ﷺ، أما نصارى دومة الجندل فقد نقضوا العهد بعد وفاته

---

(١) ول ديورانت، مؤرخ أمريكي.

ﷺ، ليتحقق بذلك قول ربنا: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:١٠٠]. ولأن البحث يتناول الأخلاق النبوية، أي يقتصر على فترة السيرة، فلن نتحدث عن نقض دومة الجندل للعهد، وسنكتفي بالحديث عن نقض اليهود والمشركين لعهودهم.

أولاً: نقض اليهود للمعاهدة:

كما هو معلوم ومشهور تمت معاهدة كبيرة بين رسول الله ﷺ ويهود المدينة بعد أيام أو شهور قليلة من هجرته ﷺ، وكانت بنود المعاهدة كثيرة وتنص في مجملها على التعايش السلمي بين الطرفين، وعلى نصرة المظلوم، وعلى الدفاع المشترك عن المدينة إذا تعرضت لهجوم، وخاصة من قريش، وعلى التكافل في أمر الديات والأزمات، إلى غير ذلك من أمر تكفل العيش في سلام للطرفين، ولقد حرص رسول الله ﷺ على التعامل بالحسنى مع اليهود بكل طاقته إلى الدرجة التي وصلت إلى التهادي وعيادة المرضى والمشاركة في المجالس والبيع والشراء وغير ذلك من أمور الحياة الطبيعية.

وعلى الرغم من هذا التعامل النبيل من ناحيته ﷺ إلا أن اليهود تنكَّروا لكل ذلك، وأخذوا في ارتكاب الحماقات تلو الحماقات! لقد تطاولوا على الله ﷻ وعلى كتابه، وكذلك على الرسول ﷺ، وطعنوا في عموم الأنبياء، وأثاروا الشبهات ليلبِّسوا على المسلمين دينهم، وأجَّجوا الفتن بين المسلمين ليحدث الصراع بينهم، وغير ذلك من أمر الفتنة والكيد. إنه ليس يعنينا في هذا المجال أن نقوم بحصر كل ما افتعله اليهود من أزمات، وكل ما أحدثوه من مخالفات؛ على الرغم مما تقدم ذكره من حسن معاملة الرسول ﷺ لهم، ومن حرصه الدائم ﷺ على تقديم الودّ والجدال بالتي هي أحسن، ومراعاة حقوق الجوار. ولو بقي حال اليهود على ما هو عليه لكان الأمر محتملًا ومقبولًا؛ ولكنهم تطاولوا أكثر من ذلك، وما زادهم حلم رسول الله ﷺ إلا جهلًا، وما زادهم رفقه إلا شدة وعنفًا؛ حتى طَفَّ الصاع، وثَقُل الحمل، وبلغ السيل الزُّبى، وارتكبوا من الأمور ما لا يمكن احتماله، ومن ثَمَّ كان هذا نقضًا صريحًا للمعاهدة، يتعذر معه صفح، ويستحيل حياله تجاهل..

لقد خالفت بنو قينقاع مخالفات جسيمة، بدأت برفع مستوى العداء جدًّا بعد انتصار

المسلمين على المشركين في موقعة بدر، حتى وقفوا يصرِّحون لرسول الله ﷺ أنهم راغبون في حربه، غير خائفين من لقائه عسكريًا. لقد قالوا له، والحقد يأكل قلوبهم لانتصاره ﷺ على قريش: «يَا مُحَمَّدُ لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا»[1]. هكذا يصرِّحون برغبتهم في الحرب والمواجهة، مع أنه كان الأجدر بهم أن يفرحوا بانتصار المسلمين على أهل مكة، فأهل مكة وثنيون، والمسلمون أقرب لليهود منهم، كما أن هناك معاهدة وتحالف بين المسلمين واليهود، ونصر المسلمين يضيف إلى قوة المدينة، وبالتالي إلى قوة اليهود، لكن أفئدتهم المريضة دفعتهم إلى هذا التهور، غير عابئين بما قد يسفر عنه من نتائج وخيمة. ثم تزايد الأمر وتفاقم مع بني قينقاع حين راود بعض تجارهم امرأة مسلمة على كشف وجهها، ثم تحايل جمعٌ منهم على كشف عورتها، فلما صرخت المرأة المسلمة هبَّ لنجدتها رجل مسلم، فقتل التاجر اليهودي، فاجتمع التجار اليهود وقتلوا المسلم، ثم ذهبوا يتحصنون في قلاعهم[2]!

ماذا يجب أن يفعل أي قائد في العالم إزاء هذه التعديات؟!

إن السكوت عليها لهو الهوان الذي لا يقبله حر، ولا ترضاه نفس أبية.

لقد قامت الحرب بين المسلمين ويهود بني قينقاع كما أراد اليهود منذ أيام، فقد كانت موقعة بني قينقاع بعد بدر بأقل من أسبوعين[3]، وانتصر المسلمون، وكادوا أن يقتلوا رجال بني قينقاع لولا أن شفع فيهم عبد الله بن أبي ابن سلول، وكان حليفهم قبل إسلامه، ولم تكن قد ظهرت عليه بعد علامات النفاق بوضوح، فقَبِل رسول الله ﷺ شفاعته، واكتفى بإجلائهم عن المدينة إلى الشام[4].

ومع كل هذا التطاول من بني قينقاع إلا أن رسول الله ﷺ لم يأخذ بني النضير ولا بني قريظة بجريرة بني قينقاع، بل ظل على معاملته الحسنة لهم، ولكن اليهود لم يفقهوا الدرس

---

(١) أبو داود (٣٠٠١)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٨٤٠٩)، وقال الألباني: ضعيف الإسناد.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية (٣/ ٣١٤).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٣١٥).

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٢/ ٢٩).

الذي أخذته بنو قينقاع، واستمروا في تطاولهم على الله ورسوله والمؤمنين، حتى وصل الأمر إلى قمته عندما دبَّرت بنو النضير محاولة لقتل رسول الله ﷺ عن طريق إلقاء حجر فوق رأسه[1]، ونجا رسول الله ﷺ من محاولة القتل، فكانت الحرب التي أُجليت بنو النضير على إثرها من المدينة المنورة.

أما بنو قريظة فقد كانت محاولتهم أشد عنفًا وضراوةً، وكانت تهدف إلى قتل واستباحة كل مَنْ في المدينة! وذلك بالتعاون مع قريش والأحزاب لسحق كل المسلمين، كما فصَّلنا آنفًا في مكان سابق في هذا البحث.

إن هذا الجرائم ما كان يستقيم - بأي حال من الأحوال - أن يُسكَتَ عنها، أو يُتغاضَى عن عقاب مرتكبيها.. إنها جرائم حرب من الطراز الأول، ولا تختلف أعراف العالم أجمع في الحكم عليها، ومِن ثَمَّ كان خروج رسول الله ﷺ لقتالهم جميعًا، القبيلة تلو الأخرى.

إن المتتبع للسلوك النبوي في التعامل مع اليهود في أثناء زمن المعاهدة، ليجد أوسع درجات كظم الغيظ، بل البرّ والإحسان، لكنَّ النفوس المريضة أبت إلا أن تبحث عن صِدامٍ ونِزَال، ورفضت حياة الأمن والسلام.. وكما قال الأولون: «على نفسها جنت براقش!!»[2].

ثانيًا: نقض المشركين لصلح الحديبية:

بعد كل الوفاء الذي رأيناه من رسول الله ﷺ في تعامله مع قريش أثناء الهدنة، وبعد كل هذا الحرص على استمرار المعاهدة إلى المدة التي تم الاتفاق عليها، حدثت من جانب المشركين الجريمة الكبرى، والخيانة العظمى!!

لقد حالفت بنو بكر - وهي القبيلة التي حالفت قريشًا بعد صلح الحديبية ومن ثَمَّ تجري عليها أحكام الصلح كاملة - لقد خالفت الميثاق، ونقضت العهد، وقتلت رجالًا من قبيلة

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٥٧، ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٠١.

(٢) مثلٌ يضرب لمن يعمل عملاً يرجع ضرره إليه. ومما قيل في أصل هذا المثل: أن براقش كانت كلبة لقوم من العرب، فأُغير عليهم فهربوا ومعهم براقش، فاتبع القوم آثارهم بنباح براقش، فهجموا عليهم وأوقعوا بهم. وأصل المثل: «أهلها» بدلاً من «نفسها»، ولكنه اشتهر بالأخيرة. انظر: الميداني: مجمع الأمثال ص٢٠٢، والزمخشري: المستقصى في أمثال العرب ص١١٤، والأمثال لابن سلاّم ص٦٣.

خزاعة المتحالفة مع الرسول ﷺ، بل لم تكتف بهذا القتل، ولكن تتبعتهم إلى داخل الحرم المكي، واستمرت في عملية القتل هناك! ثم إن قريشًا لم تقف موقفًا محايدًا في القضية، ولكنها قامت بما هو أشنع من الحياد[1]، إذ أَمَدَّتْ بني بكر بالسلاح، بل وقاتلت معهم في داخل الحرم![2]. فالجريمة مُرَكَّبة، والمخالفة عظيمة، فليس هذا قتيلًا واحدًا قد يُبَرَّرُ قتله أو يُعتَذَرُ عنه، إنها هم عدد كبير من القتلى، بلغ في بعض الروايات عشرين قتيلًا[3]، ثم إن قريشًا شاركت في عملية القتل في تهوُّرٍ ليس له معنى أبدًا غير الكيد لحلفاء المسلمين، وفوق كل ذلك لقد لاذ رجال خزاعة بالحرم المكي الآمن، فاستمرت بنو بكر - وقريش معها - في عملية القتل مخالفين بذلك كل الأعراف والقوانين.. إنها لجريمة شنيعة حقًّا!!

واستنصرت خزاعة رسولَ الله ﷺ، وكان لابد من موقف جريء عادل تجاه هذه القبيلة المظلومة، وكان لابد من موقف حازم إزاء هذا النقض الصريح للمعاهدة، ومن ثَمَّ كان قرار رسول الله ﷺ بفتح مكة ونصرة خزاعة.. وليس هناك لوم من أي نوع على رسول الله ﷺ في هذا القرار الذي اتخذه، بل إن قريشًا نفسها لم تدَّعِ أبدًا أن رسول الله ﷺ قد خان العهد بقراره الذي اتخذه؛ لأنها تعلم أنها هي التي نقضت العهد وليس هو..

وحتى بعد هذا القرار الذي اتخذه رسول الله ﷺ فإنه لم يغدر بزعماء مكة مع سهولة أن يفعل ذلك، بل إن كبير مكة وزعيمها الأول أبا سفيان قد جاء إلى المدينة المنورة محاولًا أن يطيل مدة العقد، ويخرج من هذه الأزمة، فوجدناه يتجول في أنحاء المدينة المنورة، ويروح هنا وهناك، ويخاطب هذا وذاك، يفعل كل ذلك وهو آمن لا يخشى على نفسه، ولا يخاف من أن يُقتل غيلة، أو يُتخذ رهينة، أو يُؤذى بشيء، مع العلم أنه قام بزيارته هذه إلى المدينة وحيدًا دون حماية من أهله، ولا حراسة من جنده!

إن الموقف عظيم فعلًا، وإن الحدث جلل.

---

(١) كان يجب على قريش أن تقف في وجه حليفتها «بني بكر»؛ لتُظهر حرصها على استمرار المعاهدة.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٦/ ٢٨٥، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٥٢٦، الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٥٣.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ١٣٤.

هل من الممكن أن يذهب زعيم دولة بنفسه إلى دولة بينها وبينه صراعات وحروب، ويتجول هكذا بحرية، وهو آمن على نفسه وماله؟ وخاصة أن هذه الزيارة تأتي بعد نقض صريح للعهد مع الدولة التي يزورها؟!

هل يمكن أن يحدث ذلك في أي مكان في العالم؟!

إنه حدث في زمان رسولنا ﷺ!

بل إن قادة الإسلام كانوا حريصين على حماية أبي سفيان في بلدهم من مجرد الإيذاء المعنوي باللسان، وليس الحماية من الإيذاء البدني فقط. فها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه الوزير الأول لرسول الله ﷺ، وأعظم شخصية في المدينة - بل وفي الإسلام - بعد نبي الله ﷺ، ها هو يقف مدافعًا عن أبي سفيان من أن يصاب بسوء بألسنة المسلمين، مع أن هؤلاء المسلمين عُذِّبوا وقُهِروا على يد أبي سفيان وأتباعه قبل ذلك.. يروي عَائِذ بن عَمْرٍو[1] رضي الله عنه أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلالٍ فِي نَفَرٍ فَقَالُوا: وَاللهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَأْخَذَهَا! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟![2]

إن أبا بكر رضي الله عنه في هذا الموقف لم ينظر إلى ما لاقاه صهيب[3] رضي الله عنه، ولا إلى ما لاقاه بلال[4] رضي الله عنه من عذاب وقهر على يد المشركين في مكة، بل نظر إلى واجب الضيافة، ونظر إلى معاهدة الصلح التي بين الطرفين، ونظر إلى الرحم التي بينهم.. نظر إلى

---

(١) عائذ بن عمرو بن هلال المزني: كان ممن بايع بيعة الرضوان تحت الشجرة، وكان من صالحي الصحابة. سكن البصرة وابتنى بها دارًا، وتوفي أيام يزيد بن معاوية. انظر: الاستيعاب ٢/ ٣٤٨، الإصابة الترجمة (٤٤٤٧).

(٢) مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم (٢٥٠٤)، وأحمد (٢٠٦٥٩)، والنسائي (٨٢٧٧)، والطبراني (٢٨).

(٣) صهيب بن سنان الرومي: يُعرف بذلك؛ لأنه أخذ لغة الروم إذ سَبَوْهُ وهو صغير. يُكَنَّى أبا يحيى، وهو من العرب من النمر بن قاسط. أسلم مبكرًا، وهاجر إلى المدينة بعد أن ترك ماله لقريش. مات بالمدينة سنة ٨٨هـ، ودفن بالبقيع. انظر: الاستيعاب ٢/ ٢٨٢، أسد الغابة ٢/ ٤٣٣، الإصابة، الترجمة (٤١٠٣).

(٤) بلال بن رباح كان عبدًا في الجاهلية لأمية بن خلف، ثم أعتقه الصديق، وكان من السابقين إلى الإسلام، وهو مؤذن رسول الله ﷺ، شهد سائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، وأوذي كثيرًا في مكة، مات بدمشق (٢٠هـ) وهو ابن ٦٣ سنة. انظر: الاستيعاب ١/ ٢٥٨، أسد الغابة ١/ ٢٨٣، الإصابة الترجمة (٧٣٢).

كل ذلك، فكان هذا رد فعله ﷺ.

فهل بعد كل هذا الفكر السلْمي، والوفاء النبوي النادر يدَّعي أحد أن رسول الله ﷺ يتعامل بالعنف، ويحب الحرب؟! إن المنصف حقيقةً لن يُرهَق كثيرًا ولا قليلًا في البحث في السيرة عن مواطن حبه ﷺ للسلام، وإيثاره للرفق، فهذه - والله - واضحة بارزة كالشمس في وضح النهار، وما ذكرناه ليس إلا أمثلة معدودة، وإلا فحصر ذلك يحتاج إلى أسفار ضخمة، ومجلدات هائلة، فيا خيبة مَن غفلت عينه عن رؤية عظمته ﷺ، ويا خسارة مَن ذهب عمره دون أن يعرفه!!

المطلب الثاني: الخوف من نقض المعاهدة:

ظهر جليًّا من خلال ما سبق حرصُ المسلمين الشديد على تجنب القتال وتجنب أسبابه، بل والأخذُ بظاهر ما يقوله الأعداء إن أظهروا السلم، ولو كانوا يُبطِنون الغدر والخيانة، ولكن ماذا لو تيقَّن المسلمون أن عدوهم يسعى سعيًا حثيثًا لنقض المعاهدة، كثبوت تحالفات عسكرية، أوعقد تحالفات معينة، أو غير ذلك من أمور تشير إلى قرب نقض المعاهدة من طرف العدو؟ إن سكوت المسلمين قد يؤدي إلى كارثة عسكرية، وضياع للبلاد والعباد، وفي ذات الوقت فالمسلمون لا يريدون البدء بالنقض، فماذا عليهم أن يفعلوا؟

إن المسلمين في هذه الحالة، وقد اضطرُّوا للحرب؛ فإنهم لا يندفعون إليها دون ضوابط، بل يلفتوا أنظار عدوهم بوضوح إلى أنهم سيحاربون؛ لكيلا يرتكبوا ما يُوصَف بالغدر والخيانة، وهذا ما يُعرف في الشريعة «بالنبذ». يقول تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]. والمنابذة في اللغة: الإلقاء والطرح، قال الراغب الأصفهاني[1]: النبذ إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به، وهي في الاصطلاح:

---

(١) الحسين بن محمد، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) من الحكماء العلماء، سكن بغداد، واشتهر حتى كان يُقرن بالإمام الغزالي. من كتبه: الذريعة إلى مكارم الشريعة، والأخلاق، وجامع التفاسير، وغيره. توفي سنة ٥٠٢هـ. الأعلام ٢/ ٢٥٥، معجم المؤلفين ٤/ ٥٩.

تخيّر كل واحدٍ من الفريقين الحرب[١]. فمعنى الآية إذن: وإن كان بينك وبين قوم هدنة خفت منهم نقضًا للعهد فلا تبادر إلى النقض حتى تلقي إليهم أنك قد نقضت ما بينك وبينهم فيكونوا معك في علم النقض والعود إلى الحرب مستويين[٢]. وحقيقة ما يجري في المنابذة أن يكون بين فريقين مختلفين عهدٌ وهدنةٌ بعد القتال، ثم يريدان نقض ذلك العهد، فينبذ كل فريق منهما إلى صاحبه العهد الذي تعاهدا عليه. وقال ابن قدامة: يعني أعلمهم بنقض عهدهم، حتى تصير أنت وهم سواء في العلم، ولا يكفي وقوع ذلك في قبوله، حتى يكون عن أمارة تدل على ما خافه. ولا يجوز أن يبدأهم بقتال ولا غارة قبل إعلامهم بنقض العهد؛ للآية، ولأنهم آمنون منه بحكم العهد، فلا يجوز قتلهم، ولا أخذ مالهم[٣]. قال القرطبي رحمه الله: قال علماؤنا – رحمة الله عليهم: إنما كان الغدر في حق الإمام أعظم وأفحش منه في غيره لما في ذلك من المفسدة، فإنهم إذا غدروا، وعُلِمَ ذلك منهم، ولم ينبذوا بالعهد؛ لم يأمنهم العدو على عهد ولا صلح، فتشتد شوكته ويعظم ضرره، ويكون ذلك منفرًا عن الدخول في الدين، وموجبا لذم أئمة المسلمين[٤]. وذهب المالكية[٥]، والشافعية[٦]، وجمهور الفقهاء إلى أن الهدنة عقد لازم لا يجوز نقضه، إلا إذا وجدت خيانة أو غدر من العدو، بقيام أماراتٍ تدل عليه، وإن لم توجد فيجب الوفاء لهم بالعهد. وقال الخطابي: العهد الذي بين المسلمين وبين العدو ليس بعقد لازم لا يجوز القتال قبل انقضاء مدته، ولكن لا يجوز أن يفعل ذلك إلا بعد الإعلام به والإنذار فيه[٧]، واستدل على ذلك بحديث سليم بن عامر أنه قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على

---

(١) الرازي: مختار الصحاح ص٦٤٢، الراغب الأصفهاني: المفردات ص٤٨٠.

(٢) ابن منظور: لسان العرب ٣/ ٥١٢، وبهذا المعنى قال أهل التأويل، انظر ابن جرير: تفسير الطبري ١٠/ ٢٦، وتفسير البغوي (٦٤٥٢)، وتفسير ابن كثير ٢/ ٣٢٠.

(٣) ابن قدامة: المغني ١٣/ ١٥٨.

(٤) انظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣٩٢، ٣٩٣.

(٥) شرح منح الجليل ١/ ٧٦٦، والخرشي علي خليل: ٣/ ١٥١.

(٦) الحاوي الكبير ١٤/ ٣٨٠، والمجموع ٢١/ ١٣.

(٧) معالم السنن بحاشية سنن أبي داود ٣/ ١٩٠.

فرس أو برذون[١]؛ وهو يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر؛ فنظروا فإذا عمرو بن عبسة[٢]، فأرسل إليه معاوية فسأله، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَشُدُّ عُقْدَةً وَلَا يَحُلُّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ بالناسِ»[٣].

وبهذا نعلم أن المنابذة مرحلة تأتي بعد المعاهدة، وذلك بإعلان نقضها عند توقع الغدر[٤].

والحق أن هذه الآية معجزة في سموّ الحكم الذي اشتملت عليه؛ لأن طبيعة القوانين البشرية أنها ترتقي برقي الإنسان الذي يضعها، أما هذه الآية؛ فقد جاءت بحكم غاية في السمو والرقي، وقد نزلت بعد غزوة بدرٍ، أي بعد فرض القتال بفترة وجيزة؛ مما يبين أن الحكم المتضمَّن فيها هو حكم ربَّاني، خاصةً وأنه جاء بعد نصر مؤزَّر، يجعل الماديين ومن لا صلة لهم بالله يتيهون فخرًا وكبرياءً، وبطشًا بالآخرين.

تمثُّل خلق النبذ على سواء في النبي ﷺ:

تمثَّل هذا الخلق العظيم في النبي ﷺ كسائر الأخلاق القرآنية التي تمثلها، فكانت ماثلة للناس برأي العين، حتى شهد له بذلك أعداؤه قبل أصدقائه، ومرت بنا قصة مساءلة هرقل لأبي سفيان عن صفاته وأخلاقه ﷺ كان من أسئلته له قوله: فهل يغدر؟ فأجابه أبو سفيان بقوله: لا. ثم قال له هرقل: وسألتك: هل يغدر؟ فقلت: لا، وكذلك الرسل لا تغدر[٥]. وأبو

---

(١) البِرْذَوْنُ: الدابة والأُنثى بِرْذَوْنَةٌ وجَمْعُه بَراذِينُ، والبراذين من الخَيْلِ ما كان من غير نِتاج العِرابِ. انظر: لسان العرب ١٣/ ٥١.

(٢) عمرو بن عبسة بن عامر السلمي، يكنى أبا نجيح، أسلم قديمًا أول الإسلام، وكان يقال: هو ربع الإسلام. ثم رجع إلى بلاده فأقام بها إلى أن هاجر بعد خيبر وقبل الفتح فشهده. ويقال: إنه كان أخا أبي ذر لأمه. انظر: الاستيعاب ٣/ ٢٧١، أسد الغابة ٣/ ٧٤٧، الإصابة الترجمة (٥٩٠٣).

(٣) أبو داود في كتاب الجهاد، باب: في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إلى عدوه ليقرب نحوًا منهم فيغير بعد المدة عليهم (٢٧٥٩)، والترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء في الغدر (١٥٨٠)، وقال: حسن صحيح. وأحمد (١٧٠٥٦)، والطيالسي (١١٥٥)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٣٥٧).

(٤) الدكتور أحمد بن عبد العزيز الحداد: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة ٣/ ١٣٦٦.

(٥) المرجع السابق ٣/ ١٣٦٧.

سفيان هنا يقر بهذا الخلق العظيم كغيره من الأخلاق العظيمة التي كان الرسول ﷺ يتحلّى بها، ولم يستطع أن ينكر هذه الحقيقة وهو عدو له حينئذٍ - والفضل ما شهدت به الأعداء - وكان ذلك دليلًا من دلائل نبوته التي عرفه هرقل بها كما يعلمه من أخلاق النبيين.

لذلك لم يكن ﷺ وهو قائد المسلمين يغدر بمعاهديه ولا يخونهم ولا يتربص بهم الدوائر قط كما كان يفعل أعداؤه به، وإنما كان إذا بدا له من أمرهم شيءٌ من خيانة أو خديعة أو مكر، نابذهم على سواء حتى يكونوا على بصيرة من أمره وأمرهم، وذلك كنبذه ﷺ ما للمشركين من معاهدة في العام التاسع (للمشركين عامة)؛ فنبذ ما لهم من العهد العام في الموادعة، وحج البيت الحرام وهم على شركهم وعادتهم، ونبذ العهود الخاصة التي كان قد أبرمها مع بعض القبائل العربية، لما علم ما كان منهم من محاولات لنقض ما عاهدوا اللهَ عليه ورسولَه، ومع ذلك فلم يبغتهم بهذه المنابذة بل أعطاهم فرصة كبيرة مدتها أربعة أشهر كاملة ليختاروا لأنفسهم ما أرادوا من الدخول في الإسلام، أو التأهب للقتال، أما من وفَّى بما عاهد عليه من أهل العهود الخاصة، بأن لم يظهروا خيانة ولا غدرًا ولا مراوغة، فقد التزم لهم بالوفاء بمعاهداتهم حتى ينتهي أجلها[1].

ويدل على ما سبق أيضًا الكثير من آيات القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال ﷻ: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، وقال سبحانه: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، بل إن الأمر يذهب أبعد من ذلك حين نجد القرآن الكريم يوجه المسلمين إلى أمر في غاية العجب، وفي غاية العظمة أيضًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]؛ فلا تُنصَر تلك الفئةُ على المعاهدين من الكفار، مما يبين أن الله ﷻ جعل حق الميثاق فوق حق الأخوة الإسلامية، فأوجب احترام عهد

(١) الدكتور أحمد بن عبد العزيز الحداد: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة ٣/ ١٣٦٨، ١٣٦٩.

المُعاهِد غير المسلم، إن تعارض مع واجب نُصرة المسلم الذي يعيش وسط المشركين[1].

فهذه الآية التي ذكرت طريقة التعامل مع غير المسلمين إذا نقضوا العهود وغيرها من الآيات الكريمة تؤكد لنا بوضوح حرص الإسلام على تجنب القتال قدر المستطاع، والوفاء الكامل بالعهود والمواثيق، فمتى نقض المشركون عهودهم فلا يصح مباغتتهم بالحرب؛ بل لا بد من إعلامهم وهو ما سبق وأشرنا إليه بالنَّبْذ.

إن الإسلام يُوجِد مساحاتٍ شاسعةً من الفرص أمام غير المسلمين حتى يعودوا إلى رشدهم، ويؤبوا إلى صوابهم؛ تجنبًا لصدام يكرهه الشرع الإسلامي، وحقنًا لدماء يحرص الشرع على إبقائها نابضةً بالحياة معمِّرةً لها، ولكن عندما تأبى إرادة البشر وجحودهم إلا أن تدخل في صدامٍ مع الحقِّ وأهله يأتي التشريع الإسلامي ليضع مجموعة من الأخلاق تحكم سيرَ المسلمين في حروبهم مع غيرهم، وهو ما لا يرقى إليه أي قانون من قوانين الأرض، وشتان بين قانون وضعه إنسان وشرع أبدعه وأحكمه رب العالمين!!

* * *

(١) الدكتور وهبة الزحيلي: آثار الحرب في الفقه الإسلامي ص١٤١.

الفصل الخامس

دبلوماسية الرسول ﷺ

من أروع المجالات التي برزت فيها أخلاق الرسول ﷺ مجال التعامل مع زعماء الأعداء ورسلهم.. إن الاختلاف في الرأي، بل أحيانًا التصارع بالسلاح لم يكن ليخرجه أبدًا عن أخلاق النبوة التي اتصف بها. لقد نقلت لنا كتب السيرة الموثَّقة كنوزًا هائلة في فنون التعامل وجمال الحوار، وإن القلم ليعجز حقيقةً عن وصف اتساع صدره، ورقة طبعه، وهو يتعامل مع رجال تلوثت أيديهم وسياطهم بدماء المسلمين، أو تلوثت ألسنتهم بكلمات لا تتفق مع الفطرة السليمة. إن مَن مَلَكَ أعصابه ولسانه في مثل هذه المحاورات لجدير أن يكون قدوة في الأخلاق، ومعيارًا للقيم والآداب. وسنتحدث - إن شاء الله – في هذا الفصل من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: روعةُ الدبلوماسية أمرٌ إلهي!

المبحث الثاني: دبلوماسية النبي ﷺ مع الزعماء

المبحث الثالث: دبلوماسية النبي ﷺ مع الرسل

المبحث الأول
روعةُ الدبلوماسية أمرٌ إلهي!

إن هذا الرجل هو رسول الله حقًّا[1]

لعل العجب من روعة دبلوماسية رسول الله ﷺ، وكمال أخلاقه يزول عندما نعلم أن هذه الأخلاق السامية ما هي إلا جزء لا يتجزأ من دين الإسلام، وأمر واضح تمام الوضوح من رب العالمين ﷻ. إن الله ﷻ علَّمنا أن نحسن الحوار مع مَن خالفنا، وألا نُجَرّ أبدًا إلى سفاسف الأمور، أو مساوئ الأخلاق مهما كانت الظروف، وللنظر إلى التوجيهات الربانية الراقية التي تهدي إلى هذا الطريق. يقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٦].

إن رسول الله ﷺ يعلم على وجه اليقين أنه على الحق والهدى، ومع ذلك أمره الله في تحاوره مع المشركين أن يقول لهم: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. إنها الأرضية المشتركة التي نقف عليها.. أحدنا على حق والآخر على باطل، فلنتناقش ولنتحاور حتى نصل إلى الحقيقة الغائبة.. إنها طريقة الحوار المثلى، وغاية الأدب، ومنتهى سموّ الأخلاق. ثم يعلِّمه الله أن يخاطبهم في أدب جم فيقول لهم: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾!!

إنه ينسب لفظ «الجُرْم» إلى نفسه، وهو عادة يأتي في الأخطاء والزَّلات، وينسب لفظ «العمل» لهم، وهو يحتمل الصلاح أو الفساد. ثم إنه يُسلِّم الأمر كله لله ﷻ، فيقول: إن الله ﷻ سيجمع بيننا جميعًا يوم القيامة، ويحكم بيننا بالحق الذي يراه، فنعرف ساعتها من الذي

---

(١) الدكتور م. ج. دُرّاني، مفكر إنجليزي كان قسيسًا ثم أسلم.

أصاب ومن الذي أخطأ.. إنها أرقى وسيلة ممكنة من وسائل التحاور، لا تحمل أي صورة من صور العصبية والتَّزمُّت، إنها فيها كل الأدب، وكل التقدير للطرف الآخر. ومثل هذا يقال على ما جاء في القرآن محدِّدًا طريقة الحوار مع أهل الكتاب. قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

يا لَروعةَ الأسلوب! إنه لا يطلب منا أن نتحاور مع أهل الكتاب بأسلوبٍ حَسنٍ فقط، بل يطلب منَّا دائمًا أن نبحث عن الأسلوب الأحسن والأفضل والأجمل..

هل هناك في تشريعات الأرض، وفي أقوال الفلاسفة ما يقترب من هذا الجمال الأخلاقي؟!

ثم انظر إلى تقريب العقول وترقيق القلوب، حين يقول: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. إنه يبعث في أهل الكتاب هِمَّة التعاون والتآلف لا التنافر والتباغض، إنَّ إلهنا واحد، وقد أنزل إلينا وإليكم كُتبًا كريمة نؤمن بها جميعًا، فلماذا الشقاق والخلاف؟!

وعلى هذا النسق راجِع الآيات القرآنية لتستمتع بالكنوز الأخلاقية..

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ويقول تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وحَصْر مثل هذه الآيات يصعب لكثرتها.. وسبحان الذي جمَّل هذا الشرع وأتقنه، حتى خرج إلينا على صورة يعجز البيان عن وصفها!

* * *

المبحث الثاني
دبلوماسية النبي ﷺ مع الزعماء

كـــان محمـــد يعفـــو عنـــد المقدرة[١]

إذا كانت أحكام الإسلام رائعة في منطقها وشكلها وصياغتها، فإن الأروع من ذلك أنها بكاملها قابلة تمامًا للتطبيق الفعلي في حياة الناس، ولقد كانت حياته ﷺ خير دليل على صلاحية هذا المنهج الرباني تُحْكَم حياة البشر. ولننظر إلى هذه القواعد المثالية في تعامله ﷺ مع زعماء الأعداء، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: حسن الاستماع إلى رأيهم:

كان رسول الله ﷺ يستمع إلى مخالفيه بل يُنصت، حتى لو كانت عروضهم غير مقبولة عقلًا أو شرعًا، فكان يعطيهم فرصة الكلام والتعبير عن الرأي؛ لتتاح له بعد ذلك فرصة الكلام وشرح ما يدعو إليه..

انظر إلى هذا المثال الرائع في التحاور مع زعماء المشركين، وذلك عندما دار حوار راقٍ بينه ﷺ وبين عتبة بن ربيعة[٢] من كبار سادة قريش.. يقول عتبة بن ربيعة وهو يساوم رسول الله ﷺ على ترك الإسلام: «يا ابن أخي، إنك منَّا حيث قد علمت من السِّطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به مَن مضى مِن آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها

---

(١) مارسيل بوازار.

(٢) عتبة بن ربيعة من حكماء قريش، وكان سببًا في إنهاء حرب الفجار، إلا أنه اتبع هواه ولم يسلم، وكان ممن آذى النبي ﷺ وأصحابه إيذاءً شديدًا، وضرب أبا بكر يومًا ضربًا شديدًا، حتى إن بني تيم (قبيلة أبي بكر) قالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة. قُتل كافرًا في بدر ومعه ابنه الوليد، وأخوه شيبة.

لعلك تقبل منها بعضها»؛ فقال له رسول الله ﷺ: «قُلْ يَا أَبَا الوليد أسمعْ». قال: «يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا؛ حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدناك علينا؛ حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإنْ كنت تريد به مُلكًا ملَّكناك علينا، وإنْ كان هذا الذي يأتيك رِئيًا تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئك منه؛ فإنَّه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوى منه».

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال ﷺ: «فاسمعْ مني». قال: أفعل. فقرأ ﷺ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم ۞ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۞ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ١-٥]. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك». فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: «نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به». فلما جلس إليهم قالوا: «ما وراءك يا أبا الوليد؟» قال: «ورائي أني قد سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشِّعْر ولا بالسِّحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني، واجعلوها بي، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليَكُونَنَّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأٌ عظيم، فإن تُصِبْهُ العرب فقد كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وإن يظهر على العرب فمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وعِزُّه عِزُّكُمْ، وكنتم أسعدَ الناس به»، قالوا: «سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه!!» قال: «هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم»[1].

---

(١) مسند أبي يعلى (١٨١٨)، وابن هشام في السيرة (١/ ٢٩٣-٢٩٤)، والبيهقي في الدلائل (١/ ٢٣١،٢٣٠)، وأبو نعيم في الدلائل (١٨٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٤/ ٢٩٥-٢٩٦)، وعبد ابن حميد في المنتخب (١١٢٣)، والحاكم (٢/ ٢٥٣)، وصححه ووافقه الذهبي. انظر: المطالب العالية (٤٢٨٥). وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩-٢٠): رواه أبو يعلى، وفيه الأجلح الكندي، وثَّقه ابن معين وغيره، وضعَّفه النسائي وغيره؛ فهو حسن الحديث إن شاء الله، وبقية رجال الحديث ثقات.

وهذا الحوار في غاية الأهمية؛ ويعتبر دستورًا في الدبلوماسية والتفاوض، فعلى الرغم من أن عتبة بن ربيعة كان قد قدَّم كلامه بمجموعة من التهم الموجهة لرسول الله ﷺ إلا أن رسول الله ﷺ ظل على هدوء أعصابه، ولم ينفعل، إنما واصل الاستماع في أدب واحترام، وعندما قال عتبة إنه سيعرض أمورًا على رسول الله ﷺ قَبل ذلك، بل قال: قل يا «أبا الوليد» اسمع.. فهو يُكَنِّيه بِكُنْيَتِهِ، أي يُناديه بأحب الأسماء إليه ويلاطفه ويرقق قلبه، ولما عرض عتبة ابن ربيعة الأمور التي جاء بها لم يقاطعه النبي ﷺ مع سفاهة العروض وتفاهتها، بل إنه صبر حتى النهاية وقال في أدب رفيع: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم.. قال ﷺ: فاستمع مني..

لقد أعطى رسول الله ﷺ الفرصة كاملة لعتبة لكي يتكلم ويعرض وجهة نظره، وبعد انتهائه تمامًا بدأ هو في الكلام؛ ليضرب لنا بذلك أروع الأمثلة في التحاور مع الآخرين، وإن كانوا مخالفين تمامًا في العقيدة والدين.

المطلب الثاني: مدح الزعماء والقادة والثناء عليهم !!

لم يكن رسول الله ﷺ يقتصر على التودد والملاطفة والرقة في الخطاب لزعماء الأعداء، بل كان يتجاوز ذلك إلى ثناءٍ ومدحٍ لهم، وذلك من باب «أنزلوا الناس منازلهم»!!

فها هو ﷺ يمدح سهيل بن عمرو وهو حينذاك من قادة المشركين حين جاءه يفاوضه في صلح الحديبية، ويقول للمسلمين: «لقد سَهُلَ أمركم»[1]؛ لما يعلمه من سهولة أمر سهيل بن عمرو وحسن طباعه..

واستمع إليه ﷺ وهو يتكلم عن خالد بن الوليد قبل إسلامه. وكان ذلك في العام السابع من الهجرة، أي بعد عدة مواقع حربية كان خالد بن الوليد فيها على رأس الجيوش المشركة، ومن أهمها غزوة أحد، وغزوة الأحزاب، ووقعة الحديبية.. يقول رسول الله ﷺ للوليد بن الوليد أخي خالد بن الوليد - وكان الوليد مسلمًا حينذاك: «أين خالد؟» (يعني لماذا لم يُسلِمْ خالد؟) فقال الوليد: يأتي به الله، فقال ﷺ: «ما مثلُه جَهِلَ الإسلام، ولو كان جعل

---

(١) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٥٨١)

نكايته وجِدّه مع المسلمين على المشركين كان خيرًا له، ولقدَّمناه على غيره»[1].

فمع الذكريات الأليمة المرتبطة بخالد بن الوليد - وبخاصة مصيبة أحد إلا أن الرسول ﷺ لا يمتنع من الثناء على عقله، ويتعجب من كَوْنِه لم يدرك قيمة الإسلام مع شدة ذكائه وحكمته، ثم إنه يُثني على خبرته العسكرية وإمكانياته القتالية الفَذَّة، فيعلن أنه لو انضم للمسلمين فسوف يُقَدِّمُهُ على غيره من السابقين إلى الإسلام؛ وذلك لقناعة الرسول ﷺ بمواهبه المتميزة في الحروب والمعارك. وليس سهلًا مطلقًا على قائد أن يَمْدَح زعيمًا معاديًا له إلا إذا كان على درجة كبيرة من الأخلاق والحكمة والنزاهة..

ثم ها هو ﷺ يمدح أخلاق زعماء مشركين رفضوا الدخول في دينه، ولم يقبلوا أن ينصروه!! ولماذا؟! لأنه رأى بعين حيادية أن لهم أخلاقًا عظيمة في بعض الجوانب فامتدحها، على الرغم من غياب الأخلاق الحسنة في جوانب أخرى.. إنهم بنو شيبان الذين يسكنون في شمال شرق الجزيرة العربية على أطراف العراق، ويتحالفون مع دولة فارس العظمى آنذاك.. لقد عرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام فاستحسنوا أمره جدًّا، وكانت ردودهم عليه في غاية الأدب، ولكنهم رفضوا صراحةً أن يدخلوا في الإسلام؛ خوفًا من كسرى فارس، ومع أن الأخلاق السلبية في الموقف كثيرة، ومن الممكن أن يُطْعن بها في شرف القوم، كغياب الحكمة وبُعْدِ النظر، وعدم القدرة على إدراك قيمة الدين الإسلامي، وكأخلاق الجُبْنِ والخوف من كسرى، وعدم نصرة المظلوم، والتردد وغياب الحسم والحزم... هذه كلها أخلاق سلبية كان من الممكن أن يُعَلِّق عليها رسول الله ﷺ؛ إلا أنه أغفل عمدًا الحديث عن كل هذه السلبيات، وانطلق يمدح أخلاقًا أخرى إيجابية رآها.

لقد قال ﷺ: «**مَا أَسَأْتُمْ فِي الرَّدِّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ دِينَ اللهِ لَنْ يَنْصُرَهُ إِلَّا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يُورِثَكُمُ اللهُ أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَيُفْرِشَكُمْ نِسَاءَهُمْ أَتُسَبِّحُونَ اللهَ وَتُقَدِّسُونَهُ فَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ شَرِيكٍ: اللَّهُمَّ لَكَ ذَا، فَتَلَا**

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ٢٩٣.

رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ ثُمَّ نَهَضَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخَذَ بِيَدَيَّ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ يَا أَبَا حَسَنٍ أَيَّةُ أَخْلَاقٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا أَشْرَفَهَا بِهَا يَدْفَعُ اللهُ بَأْسَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ وَبِهَا يَتَحَاجَزُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ»[(١)].

لقد ترك رسول الله ﷺ التعليق على الأخلاق السلبية، ولم يقل لبني شيبان: أنتم فاقدون للمروءة والنجدة.. إنما احترم أخلاقهم الإيجابية، وفي مقدمتها الصدق، إذ إنه من الخطر الشديد أن يقبل القوم الإسلام ثم يتركوه بعد ذلك، فحَسَنٌ جدًا أن يُفْصِحُوا عن خوفهم وقلقهم من البداية، ثم إنهم كانوا في غاية الأدب في التعبير عن رفضهم للدعوة، وقدَّر الرسول ﷺ لهم ذلك، وفوق ذلك فهم متواضعون غيرُ متكبِّرين يُعْلِنُونَ أنهم سيتنازلون عن رأيهم، ويدخلون في دين الإسلام إن ظهر أمر هذا الدين على مُلْكِ فارس وغيرها. إن هذا الموقف منه ﷺ ليُعْتَبر من المواقف المحورية التي يجب أن يتمثَّلها المسلمون في حوارهم مع غير المسلمين. إنه لا يمتنع عن ذِكْرِ محاسنهم وفضائلهم دون كذب ولا رياء، إنما يذكر الحق الذي رآه، وفي هذا إحقاق للحق، وفي الوقت نفسه ترقيق لقلوب المخالفين والمعارضين مما يجعل خلافهم مع المسلمين أقلَّ حدة وأضعف شوكة.

ومن الأمثلة العظيمة أيضًا التي تدل على احترام رسول الله ﷺ لزعماء غير المسلمين ما كان يقوله ﷺ، ويحرص على تكراره من ثناء ومديح للنجاشي ملك الحبشة.. فإنَّه ما تردد ﷺ أن يقول صراحةً: «إن بها مَلِكًا لا يُظْلَمُ عنده أحدٌ، وهي أرضُ صدقٍ»[(٢)]. إنه يمدح الملك النصراني بشيء هو فيه فعلًا، ولابد لكل إنسان من شيء إيجابي فيه يستحق المدح، ولكن ليس كل الناس قادرين على إبراز الحُسْنِ عند غيرهم، بل يعتقد بعض قاصري الفهم من المسلمين أنه يجب ترك الثناء على غير المسلمين خوفًا من أن يكون هذا نوعًا من الموالاة أو التودد المرفوض. ولابد أن نأخذ في الاعتبار أن النصرانية التي كانت في الحبشة آنذاك كانت نصرانية

---

(١) البيهقي في الدلائل (٢/ ٤٢٢-٤٢٧)، وأبو نعيم في الدلائل ١/ ٢٣٧-٢٤٢، وأشار إليه ابن كثير في البداية والنهاية ٣/ ١٦٤، ١٦٥. والآية ٤٦ من سورة الأحزاب.

(٢) مسند أحمد (١٨٣٠٤)، ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٦٤.

محرَّفة كأي مكان في الدنيا، وظهر ذلك في موقف البطارقة من كلام (جعفر بن أبي طالب)[1] ﷺ عن المسيح ﷺ، ومع ذلك فهذا التحريف لم يمنع رسول الله ﷺ من ذكر محاسنهم والثناء على فضائلهم.

ولم يكن هذا السلوك من رسول الله ﷺ تجاه زعماء غير المسلمين سلوكًا عابرًا في حياته، وإنما كان أصلًا من الأصول التي يحتكم إليها ﷺ في كل تعاملاته معهم، ويظهر هذا جليًّا في رسائله ﷺ إلى ملوك الأرض وزعمائها، فهو لم يختص واحدًا دون الآخر باحترام أو توقير، وإنما عاملهم جميعًا بمنتهى الدبلوماسية، وبأعلى درجات الأخلاق بصرف النظر عن مللهم ونحلهم: فقد كان مِنْهُمُ النصارى، ومنهم المجوس، ومنهم عبدة الأوثان، كما أنه لم ينظر إلى أعراقهم.. بل عظَّم الجميع من عرب ومن عجم..

لقد أرسل رسول الله ﷺ عدة رسائل إلى ملوك الأرض (خريطة ٨)، (صورة ١١) حينذاك دعاهم فيها إلى الإسلام، وكان اللافت للنظر أنه في كل رسائله كان يصف الملك أو الزعيم بالعظمة، ولم يتحرَّجْ من وصف رجل غير مسلم منحرف العقيدة بهذا الوصف..

يقول ﷺ في رسالته إلى قيصر الروم: «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم...»[2].

ويقول كذلك في رسالته إلى كسرى فارس: «من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس...»[3].

---

(١) هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب، أشبه الناس خُلقًا وخَلقًا برسول الله ﷺ، وهو أخو علي ﷺ، هاجر إلى أرض الحبشة، وقدم منها على رسول الله ﷺ حين فتح خيبر، وكان أحد القواد الثلاثة في غزوة مؤتة، وقد استشهد فيها. انظر: الإصابة، الترجمة (١١٦٨).

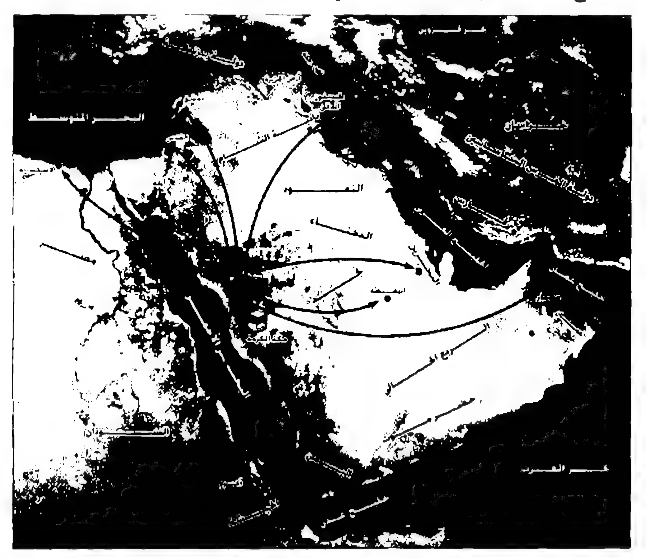
(٢) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب حديث لأبي سفيان عند هرقل (٧)، صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣)، والترمذي (٢٧١٨)، وسنن أبي داود (٥١٣٦)، ومسند أحمد (١/ ٢٦٣).

(٣) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٣٤٧، الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٣٢، ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٦٩.

ويقول في رسالته إلى المقوقس زعيم مصر: «من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط...»(١).

وإلى النجاشي زعيم الحبشة: «هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم، عظيم الحبشة...»(٢).

وهكذا كانت رسائله ﷺ تفيض احترامًا وتقديرًا على الرغم من اختلاف العقيدة والعرق مع من يراسلهم، فالتعامل الأخلاقي تعامل إنساني لا يرتبط بأرض أو زمان.



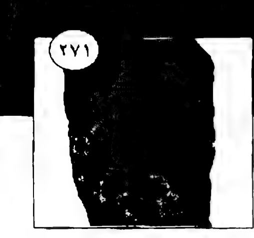
خريطة رقم (٨)

رسائل الرسول إلى عظماء الأرض

---

(١) انظر مشكل الآثار ١١/ ١٣٦، وأخرجه البزار في مسنده (١٩٤٥) من كشف الأستار وسنده جيد.

(٢) السير والمغازي لابن إسحاق، نص رواية يونس بن بكير، قطعة المغرب ص٢٢٨، وقد اقتبسه الحاكم في المستدرك ٢/ ٦٣٣، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٠٨.

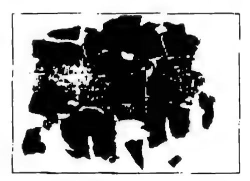

إلى كسرى عظيم فارس

رسائل الرسول ﷺ

إلى ملوك الأرض


إلى هرقل عظيم الروم


إلى المقوقس عظيم القبط


إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين


إلى النجاشي عظيم الحبشة


إلى مسيلمة الكذاب



صورة رقم (١١)

المطلب الثالث: عدم التشفي في قادة الأعداء عند انكسارهم!

وهذا خلق عجيب من أخلاقه العظيمة ﷺ!

فكل إنسان ذاق ظلمًا، أو شعر بألم، يتمنى في قرارة نفسه أن يرى هذا الذي أذاقه الظلم وأشعره بالألم يذوق من نفس الكأس التي أذاقها له. إن هذا شعور فطري غريزي عند كل الناس، حتى قال ربنا في كتابه وهو يصف فوائد القتال في سبيل الله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، فجعل شفاء صدور المؤمنين أحد الفوائد المهمة للمقاتل، لكن رسول الله ﷺ كان طرازًا فريدًا من البشر، فكان لا يحب أن يرى عدوه منكسرًا، ولا ذليلًا، بل كان يرفع من همَّته، ويشجعه، وينزله مكانته، ويعطيه، وكأنه أحد المقربين إليه!! ولنأخذ مثالين فقط على هذا الأمر، فالمجال لا يتسع للتفصيل.

أولاً: أخلاقه ﷺ مع عدي بن حاتم زعيم قبيلة طيء:

كانت قبيلة طيء من القبائل التي قاومت الإسلام بشدة، ولفترة طويلة، وقد كان ها من الخلفيات ما يجعل قبولها للدخول في الدين الجديد «الإسلام» صعبًا، فقد كانت من فروع ربيعة القحطانية[1]، وهم فرع بعيد جدًا عن فروع قريش العدنانية، ومن ثم فالحساسية القَبَلِيَّة بينها وبين قريش كانت على أشدِّ ما يكون، وكان لقبيلة طيء صنمها الخاص بها واسمه: «الفِلْس »، وكان الناس يزورونه من أماكن بعيدة.. ثم إن فريقًا منهم تَنَصَّرَ ويَمَّمَ وجهه شطر الدولة الرومانية، فحالفها وتعاون معها، فتجمعت بذلك عدة عوامل تمنع هذه القبيلة من قبول فكرة الإسلام: أمور قبلية، وأمور عقائدية، فضلا عن موالاتهم للدولة الأولى في العالم وهي الدولة الرومانية..

فإذا أضفت إلى كل ذلك أنهم كانوا من القبائل القوية التي تبسط سيطرتها على مساحات شاسعة في الجزيرة؛ حتى لم يكن يأمن أحد على سفره إلى العراق أو الشام إلا بموافقةِ وقبولِ

---

(١) تنقسم القبائل العربية إلى قسمين كبيرين هما قحطان وعدنان، فمن فروع عدنان: ثقيف، وبنو كلاب، وبنو بكر بن وائل، ومن فروع قحطان: بجيلة، وبنو طيء. انظر: جمهرة أنساب العرب.

من رجال قبيلة طيء.. إذا أضفت ذلك علمت أن تفكيرهم في الإسلام سيكون متأخرًا جدًّا.

ثم تدرك مدى عداوتها للإسلام حين تعلم أنَّ من أبنائها «كعب بن الأشرف» الزعيم اليهودي المشهور، الذي ناصب المسلمين العداء في كل مكان؛ فقد كان أبوه من طيء، وأمُّه من بني النضير، ولما اشتدَّ كيدُه للمسلمين وألَّب عليهم الجزيرة العربية بكاملها أمر رسول الله ﷺ بقتله، فقُتل، وفقدت طيء بمقتله رمزًا مهمًا من رموزها بين العرب.

لقد كان على رأس هذه القبيلة العزيزة «عدي بن حاتم الطائي[1]»، وهو ابن الزعيم العربي الشهير: «حاتم الطائي»، والذي كان مضربًا للمثل في الكرم وحسن الضيافة.. وقد شعر «عدي بن حاتم» أن البساط يُسْحَبُ من تحت أقدامه، وأن مكانته تَهتَزُّ في الجزيرة العربية؛ فحقد حقدًا شديدًا على رسول الله ﷺ حتى يقول: «بُعث رسولُ الله ﷺ حين بُعث، فكرهته أشد ما كَرِهْتُ شيئًا قط»[2].

ومرَّت الأيام، وفُتِحَتْ مكة، وآمن أهلها، وأسلمت هوازن، وأرسل رسول الله ﷺ السرايا هنا وهناك تَهْدِمُ الأصنام التي تُعْبَدُ من دون الله، وكان من السرايا التي أرسلها ﷺ سرية علي بن أبي طالب ﷺ إلى قبيلة طيء لهدم صنم الفَلْس، وقاومت طيء مقاومة شديدة.. ثم إنهم فَرُّوا في كلِّ مكانٍ، وأُسِرَ بعضُهم، وفَرَّ عدي بن حاتم إلى حلفائه من ملوك الشام، وأُسِرَتْ أخته، ولكن رسول الله ﷺ مَنَّ عليها بغير فداء، فانطلقت إلى الشام تدعو أخاها إلى القدوم على رسول الله ﷺ وقالت له: «لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، ائته راغبًا، أو راهبًا»[3]!!

وكان عدي بن حاتم قد كره حياته كلاجئ في غير بلاده. ولنترك له الأمر ليُصَوِّرَ حاله حينئذ..

---

(١) عدي بن حاتم الطائي ابن الجواد المشهور حاتم الطائي، أسلم في سنة تسع، وقيل سنة عشر، وثبت على إسلامه في الردة، وأحضر صدقة قومه إلى أبي بكر وشهد فتح العراق، ثم سكن الكوفة وشهد صفين مع علي. انظر الإصابة الترجمة(٥٤٧٦)، أسد الغابة٣/ ٥٠٤.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٥٠٤، الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ٣٥٤.

(٣) انظر: الإمام أحمد (١٩٤٠٠)، وابن حبان (٧٢٠٦)، والطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٨٧.

يقول عدي: «فكرهت مكاني الذي أنا فيه، حتى كنت له أشد كراهية له مني من حيث جئت، فقلت: لآتينَّ هذا الرجل، فوالله إن كان صادقًا فلأسمعنَّ منه، وإن كان كاذبًا ما هو بضائري»[1].

وجاء عدي بن حاتم إلى المدينة المنورة، وهو في هذه الحالة المنكسرة، وهو في هذا الضعف الذي لا يَخفَى على أحد، فماذا فعل معه رسول الله ﷺ؟!

يقول عدي: فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ في المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال: من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم. فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لَقِيَته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلًا تكلمه في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك! ثم أكمل عدي: ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل في بيته تناول وسادة في أدم محشوة ليفًا فقذفها إليَّ، فقال: اجلس على هذه. قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: بل أنت، فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ بالأرض! قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك[2]!!

وصدق عدي - وهو الذي خَبِر الملوك وعرفهم - فليس هذا سلوك الملوك!

إنه ﷺ لم يعلِّق تعليقًا سلبيًا على حرب عدي السابقة له، ولم يقل له ما الذي جاء بك بعد فرارك؟ ولم يقل له أين حلفاؤك من الرومان؟ بل لم يسأله ماذا تريد؟! لقد أخذه ببساطة عجيبة إلى بيته دون أن يؤمِّن الطرق، أو يصفَّ الحرس، وفي طريقه إلى البيت وقف يتحدث مع امرأة عجوز في تواضع عجيب، ثم أدخله بيته المتواضع جدًّا، والذي لم يكن فيه إلا وسادة واحدة بسيطة، فقدَّمها رسول الله ﷺ لعدي ليجلس عليها، فاستحيا عدي، وقال: بل أنت، لكن رسول الله ﷺ أصر على جلوس الزعيم الطائي عدي بن حاتم، وجلس هو على الأرض!!!

---

(١) أحمد (١٨٢٨٦) وإسناده حسن، والحاكم (٨٥٨٢)، وابن حبان (٦٦٧٩)، وأخرج البخاري جزءًا من هذا الحديث، وهو المتعلق ببشريات الرسول ﷺ لعدي عن الحيرة وكنوز كسرى وفيض المال في المناقب، باب علامات النبوة (٣٤٠٠).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٥/ ٢٧٧، ابن القيم: زاد المعاد ٢/ ١٦٣.

ما أروع سيرتك يا خير البرية!

ثم يقول عدي بن حاتم: «قال لي رسول الله ﷺ: «أعدي بن حاتم، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، ثَلاثًا».. قُلْتُ: إِنِّي عَلَى دِينٍ.. قَالَ: «أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ.. فَقُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي؟..! قَالَ: «نَعَمْ، أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ؟ وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ؟» قُلْتُ: بَلَى.. قَالَ: «فَإِنَّ هَذَا لا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ.» قَالَ: فَلَمْ يَعْدُ أَنْ قَالَهَا فَتَوَاضَعْتُ لَهَا. فَقَالَ ﷺ: «أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ؛ تَقُولُ: إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ، وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ، وَقَدْ رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ. أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ؟».. قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا. قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ، وَلَيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى ابْنِ هُرْمُزَ.» قُلْتُ: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟..!! قَالَ: «نَعَمْ، كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ، وَلَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ»[١]!!

هكذا وفي بساطة شديدة قَبِل رسول الله ﷺ هذا القائد الكبير، والزعيم المعروف في صفوف المسلمين، ولم يقل في نفسه، لعله يحرِّك جموعَ طيء ضد الإسلام، ولم يذكر حربه للمسلمين، ولا كرهه لهم، إنما تعامل معه في منتهى الحلم والرفق والتقدير..

وقد قال عديٌّ ﷺ بعد ذلك: فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ؛ لأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ قَالَهَا!!

ثانيًا: أخلاقه ﷺ مع عبد ياليل بن عمرو زعيم قبيلة ثقيف:

وهذه - والله - شخصية عجيبة، ما توقَّع أحدٌ قطُّ أن يُحْسِنَ إليها رسول الله ﷺ؛ فقد تركت هذه الشخصية جروحًا عميقة في نفسه ﷺ لعدة سنوات، بل إنه عندما أتى للقاء رسول الله ﷺ لم يأته راغبًا في الإسلام كما أتى الآخرون، إنما جاء يجادل ويناور!!

إنها شخصية من أهم الشخصيات في الجزيرة العربية بكاملها!! إنه «عبد ياليل بن عمرو

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٩٣٩٧).

الثقفي».. زعيم قبيلة ثقيف المشهورة!! وتاريخه مع رسول الله ﷺ شديد السواد!!

وتبدأ قصته مع رسول الله ﷺ عندما أُغْلِقَتْ أبوابُ الدعوة في مكة بعد وفاة أبي طالب عمِّ النبي ﷺ، فانطلق الرسول ﷺ إلى مدينة الطائف؛ ليدعو قبيلة ثقيف إلى الله، لعلها تقف موقفًا مشرِّفًا معه، فالتقى مع زعماء ثقيف، وكانوا ثلاثة على رأسهم «عبد ياليل بن عمرو»، وعرض عليهم الأمر، فوجد منهم ما لم يتخيله من الجحود والإنكار والصد عن سبيل الله، بل وجد منهم السخرية والاستهزاء والاستخفاف- كما مرَّ بنا - حتى قال زعيمهم «عبد ياليل بن عمرو»: إنه ليمرط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسله[2]!! ثم كان من هذا الزعيم وأصحابه ما يَعرف الجميع من حثٍّ للغلمان والسفهاء أن يطاردوا رسول الله ﷺ وصاحبه زيد بن حارثة ﷺ بالحجارة والسباب، حتى أخرجوهما تمامًا من منطقة الطائف..

إن هذا الموقف السفيه لمن أشدِّ مواقف الدعوة ألمًا على نفس رسول الله ﷺ.. وظلَّ الوضع على هذه الصورة القاتمة لسنوات متصلة.. فلم يؤمن أحد من ثقيف إلا أقل القليل، بل لعلَّه لم يؤمن منهم قبل الفتح إلا الصحابيَ الجليل «المغيرة بن شعبة»[3] ﷺ.

وفي العام الثامن من الهجرة قامت ثقيف بالتحالف مع هوازن لتكوين حزب ضخم يهدف إلى استئصال المسلمين، وذلك في موقعة حُنين، ولكنهم هُزِموا بفضل الله، وبعد هزيمتهم فرَّت جيوشهم إلى حصونهم في الطائف، فحاصرهم رسول الله ﷺ لمدة شهر كامل[4]، ولكنه لم يقدر على إخراجهم من الحصون، ومن ثَمَّ غادر المنطقة دون أن يفتح الطائف.. وكانت هذه صدمة للصحابة ﷺ، لكن رسول الله ﷺ هَوَّنَ عليهم الأمر، بل دعا لثقيف بالهداية كما تقدم بنا في هذا البحث. ولكن تفاقم أمر ثقيف عندما قَتَلت زعيمَها

(١) يمرط: يمزق.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١/ ٥٥٤.

(٣) المغيرة بن شعبة بن مسعود الثقفي، أسلم عام الخندق، وقدم مهاجرًا، وقيل: إن أول مشاهده الحديبية. روى عن الشعبي أنه قال: دهاة العرب أربعة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد. توفي بالكوفة سنة ٥٠ هـ. الاستيعاب

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٧١.

«عروة بن مسعود» ﷺ، عندما أسلم ودعاهم إلى الإسلام، فأثَّر ذلك جدًا في رسول الله ﷺ..

ومرَّت الأيام، وفي رمضان من العام التاسع من الهجرة وجدت قبيلة ثقيف أن قوة المسلمين أصبحت هي القوة الأولى في الجزيرة العربية، وبخاصة بعد فرار الجيوش الرومانية منها في تبوك، ففكَّرت أن تأتي المدينة لتبايع على الإسلام!! وكان واضحًا من كلامهم وترتيبهم أنهم ما جاءوا حُبًا للإسلام، ولا اقتناعًا به، ولكن لرؤيتهم أنهم لا طاقة لهم بحرب المسلمين، ومن ثَمَّ كوَّنوا وفدًا يُحاور ويفاوض رسول الله ﷺ، ليصل معه إلى أفضل ما يمكن أن يصلوا إليه، وجعلوا على رأس هذا الوفد «عبد ياليل بن عمرو» الزعيم القديم الذي سَخِرَ في يومٍ ما من رسول الله ﷺ سخريةً شديدة، ولكن دارت الأيام دورتها، وجاء زعيم ثقيف منكسرًا أمام الرسول العظيم ﷺ، الذي مُكِّن له في الأرض، وأصبح في مركز القوة..

وبرغم كل هذا التاريخ الأسود استقبل رسول الله ﷺ وفد ثقيف - وعلى رأسه «عبد ياليل» - خير استقبال، ولم يُذَكِّرْهُمْ بماضيهم أبدًا، ولم يقل لهم شيئًا عن سخريتهم منه يوم ذهب إليهم ﷺ طالبًا نصرتهم، ولم يقل: هذه بتلك، أو: اليومَ باليومِ الذي سخرتم فيه مني.. بل قابلهم ﷺ بالترحاب وبالبسمة وبالكرم وبالضيافة وبالهدية.. بل جلس معهم يستمع لمفاوضاتهم ومقترحاتهم التي كانت في غاية السفاهة، ومع ذلك لم ينفعل عليهم، أو يغضب منهم، بل ناقشهم في هدوء، وتكلَّم معهم في رَوِيَّة!!

لقد طلبوا أن يُسْلِموا ولكن بشروط منها: أن يأذن لهم في الربا والزنا وفي الخمر، وأن يُعْفَوْا من الصلاة، وأن تُتْرَكَ لهم اللات[1] دون أن تُكسر..[2]!!

لقد كانت مطالب سفيهة تدل على عدم فقهٍ لمعنى الإسلام، ومع سفاهة تلك المطالب إلا أن الرسول ﷺ لم يفقد أعصابه أو يتركهم، إنما أخذ يُفَسِّرُ لهم ويشرح، ورفض مطالبهم هذه في منتهى الأدب، وبأسلوب يَغْلِبُ عليه الرفق واللين، وكان يُحاورهم كل ليلة بعد

---

(١) اللات: اسْمُ صَنَم كان لِثَقِيف بالطَّائف. انظر: لسان العرب ٢/ ٨٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٣٣، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٣٠٦.

صلاة العشاء، ويُكثر من الحديث معهم، وكان قد ضرب لهم قُبَّة (خيمة) في المسجد النبوي[١] تكريمًا لهم، وتعظيمًا لقَدْرِهم.. هذا مع أنهم لم يُسلموا بعد..

وفي نهاية الأمر، قَبِلَ وفد ثقيف بالإسلام كاملًا دون انتقاص ولا تفريط، ودخلت بعد ذلك قبيلة ثقيف في الإسلام، وكانت من أكثر الناس ثباتًا على الإسلام حتى في زمان الردة..

وليس من شكٍّ أن رسول الله ﷺ لو سلك معهم مسلكًا عنيفًا، أو أظهر فيهم تشفيًا وشماتة لكانت حالهم غير هذه الحال، ولأصبحوا حَجَرَ عَثْرَةٍ في طريق الأمن والأمان في الجزيرة العربية كلها، ولكنه ﷺ يُعَلِّمُنَا ما دأب على تذكيرنا به حين قال: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»[٢].

ولقد رأينا الخير الواسع الذي عمَّ الجزيرة بكاملها، بل عمَّ العالم بهذا النهج الذي انتهجه في التعامل مع الناس، وفي التعامل مع المخالفين له، والمعترضين عليه، والطاعنين فيه، والساخرين منه، وقد صدق ﷺ حين وصف قيمة الرفق بقوله المختصر المبدع: «**من يُحرَم الرفق يُحرَم الخير**»[٣].

وصلِّ اللهم وسلِّمْ وبارِكْ على مَنْ عَلَّمَ الناسَ الخيرَ، وهَداهم إلى الرُّشد.. رسول الله محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه وسلِّم.

* * *

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٣١٣.

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله (٥٦٧٨)، مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق (٢٥٩٣)، واللفظ له، والترمذي (٢٧٠١)، وابن ماجه (٣٦٨٩)، وأحمد (٢٤١٣٧) بلفظ: إن الله يحب الرفق في الأمر كله، وابن حبان (٥٥٢) عن عائشة ﵂، وأبو داود (٤٨٠٧) عن عبد الله ابن مغفل.

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق (٢٥٩٢)، ورواه أبو داود (٤٨٠٩)، وابن ماجه (٣٦٨٧)، وأحمد (١٩٢٢٩)، وابن حبان في صحيحه (٥٤٨) عن جرير بن عبد الله البجلي.

المبحث الثالث

دبلوماسية النبي ﷺ مع الرسل

كــان محمــد رجــل دولــة
حكيمًا، ورجل إدارة بارعًا[١]

كان رسول الله ﷺ يعتبر أن تقدير رسل الزعماء هو تقدير لملوكهم ودولهم وقبائلهم، ولذلك كان رسول الله ﷺ يُكْرِم هؤلاء الرسل بصورة قد يستغربها كثير من الناس، خاصَّة وأنهم أحيانًا كانوا يحملون رسائل غير مهذَّبة، ولكنه كان لا يُحمِّلهم وزر هذه الرسائل، فما هم إلا حاملين لها، وحتى إن ظهر من بعضهم أخطاء فإنه كان يعتبر سفارتهم واقية لهم من العقاب، فلا يتعرض لهم بشيء.

وسوف نتناول هذا الموضوع - بإذن الله - من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: حسن الضيافة وتحميل الهدايا:

لقد كان رسول الله ﷺ يكرم كل الوفود التي تأتي إلى المدينة المنورة بصرف النظر عن الموقف السياسي والديني الذي يُتَوَقَّع من هذه الوفود، وكان للنبي ﷺ اهتمام بالوفود، استقبالًا وضيافةً وتجمُّلًا وجوائز.. فكان يُجري عليهم الضيافة، ويُحسن استقبالهم، ويسائلهم ويتردد عليهم، ويلبس أحسن الثياب لاستقبالهم[٢].

وكان قد خصص بعض الديار لاستقبالهم كما جاء في استقباله لوفد سلامان[٣]؛ حيث

---

(١) مونتجمري وات، مستشرق إنجليزي.

(٢) فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي ص٩٥.

(٣) يقول حبيب بن عمرو السلاماني: قدمنا وفدَ سلامان على رسول الله ﷺ ونحن سبعة؛ فصادفنا رسول الله ﷺ خارجًا من المسجد إلى جنازة دُعِيَ إليها؛ فقلنا: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليكم، من أنتم؟» قلنا: نحن من سلامان، قدمنا لنبايعك على الإسلام، ونحن على من وراءنا من قومنا. فالتفت إلى ثوبان غلامه فقال: «أنزل هؤلاء الوفد حيث ينزل الوفد». فلما صلى الظهر جلس بين المنبر وبيته، فتقدمنا إليه فسألناه عن أمر الصلاة وشرائع الإسلام، وعن الرقى، وأسلمنا وأعطى كل رجل منا خمس أواقٍ، ورجعنا إلى بلادنا، وذلك في شوال سنة عشر. انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٣٣٢.

قال لثوبان: «أنزل هؤلاء الوفد حيث ينزل الوفد»[١]، فوضح أن هناك دارًا مخصصة لهذا الأمر، وورد أن هذه الدار كانت لرملة بنت الحارث النجارية[٢] رضي الله عنها كما حدث مع وفود كلاب ومحارب وعذرة وعبد قيس وتغلب وغسان وغيرهم[٣]. وكان من عادته ﷺ أن يُحمِّلَ هذه الوفود بالهدايا والجوائز، وكثيرًا ما تكون هذه الجوائز من الفضة[٤].

ولقد بلغ من اهتمام رسول الله ﷺ بالوفود التي تأتي المدينة المنورة على اختلاف أديانها ومعتقداتها أن أوصى بهم وهو في اللحظات الأخيرة من حياته، فكان مما قاله ﷺ في آخر وصاياه: «وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ»[٥]. و«أجيزوهم»: بمعنى أعطوهم، والجائزة هي العَطِيَّة[٦].

المطلب الثاني: عدم تحميل رسل الأعداء وزر ما في الرسالة:

إن من أعجب المواقف في هذا السياق ما حدث منه ﷺ مع رسل كسرى عندما جاءوه في المدينة المنورة.. وكان رسول الله ﷺ قد أرسل رسالة إلى كسرى فارس يدعوه فيها إلى الإسلام، وغضب كسرى فارس من هذه الرسالة، وشَقَّها، وأرسل إلى عامله على اليمن ليأتي له برسول الله ﷺ!! ويحسن بنا لنَفْقَهَ طريقة رسول الله ﷺ في تعامله مع الرسل - في هذه الظروف الصعبة -- أن نعرض للرواية من أولها...

من مرسل يزيد بن حبيب[٧] رحمه الله قال: «بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (١/ ٣٣٢)

(٢) رملة بنت الحارث الأنصارية النَّجَّارية من المبايعات، وقد حُبِسَ بنو قريظة في دارها، لما حكم فيهم سعد بن معاذ، وبيتها كان ينزل فيه وفود النبي ﷺ. انظر: أُسْد الغابة: ٦/ ١١٩، والإصابة (١١١٧٧).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى (١/ ٣٠٠ - ٣٤٨).

(٤) انظر: المصدر السابق، الصفحات نفسها.

(٥) البخاري: كتاب الجهاد والسِّيَر، باب جوائز الوفد (٢٨٨٨)، عن ابن عباس رضى الله عنهما، ومسلم كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٦٣٧)، وأبو داود (٣٠٢٩).

(٦) ابن حجر: فتح الباري (٨/ ١٣٥).

(٧) يزيد بن حبيب من التابعين روى عن عقبة بن عامر الجهني وغيره. قال محمد بن سعد: يزيد بن حبيب مولى لبني عامر بن لؤي من قريش، وكان ثقة كثير الحديث. مات سنة ثمان وعشرين ومائة. انظر الأعلام للزركلي ٦/ ٣٢.

حذافة[1] ﷺ إلى كسرى بن هرمز ملك فارس، وكتب معه: «بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبدُه ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر مَنْ كان حيًا، ويحِقَّ القول على الكافرين، فأَسْلِمْ تَسْلَمْ، فإن أَبَيْتَ فإنَّ إثم المجوس عليك». قال: فلما قرأه شقَّه وقال: يكتب إليَّ هذا وهو عبدي؟! قال: ثم كتب كسرى إلى باذان، وهو على اليمن، أن ابعثْ إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جَلْدَيْن، فليأتياني به، فبعث باذان قهرمانه، وهو (بابويه) وكان كاتبًا حاسبًا بكتاب فارس، وبعث معه رجلًا من الفرس يقال له: خرخسرة، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، وقال لبابويه: ائْتِ بلد هذا الرجل، وكلِّمه، وَأْتِنِي بخبره، فخرجا حتى قدما الطائف، فوجدا رجالًا من قريش بنجب من أرض الطائف فسألاهم عنه، فقالوا: هو بالمدينة، واستبشروا بهما، وفرحوا، وقال بعضهم لبعض: أبشروا، فقد نصب له كسرى ملك الملوك.. كُفِيتُمُ الرجل!

فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ، فكلمه بابويه؛ فقال: إنَّ شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك، ويَكْفِهِ عنك، وإن أبيت فهو من قد علمت؛ فهو مُهْلِكُك، ومُهْلِكُ قومك، ومخرِّب بلادك، ودخلا على رسول الله ﷺ، وقد حلقا لحاهما، وأعفيا شواربهما، فكره ﷺ النظر إليهما، ثم أقبل عليهما، فقال: «ويلكما، من أمركما بهذا»؟.. قالا: أمرنا بهذا ربنا - يعنيان كسرى - فقال رسول الله ﷺ: «لكن ربي قد أمرني بإعفاء لحيتي وقَصِّ شاربي، ثم قال لهما: ارجعا حتى تأتياني غدًا».

قال: وأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله،

---

(١) عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي القرشي، أسلم قديمًا، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، وشهد بدرًا. أسره الروم في زمن عمر بن الخطاب ﷺ فأرادوه على الكفر، فعصمه الله حتى أنجاه منهم، وأنجى به أسرى المسلمين يومئذ. انظر الإصابة الترجمة (٤٦٢٠)، والاستيعاب ٢/ ٢٦٨، وأسد الغابة ٣/ ١٠٦.

في شهر كذا وكذا، في ليلة كذا وكذا، قال: فدعاهما فأخبرهما، فقالا: هل تدري ما تقول؟! إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا، أفنكتب عنك بهذا، ونخبر الملك؟ قال: «نعم، أخبراه ذلك عني، وقولا له: «إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ مُلْكُ كسرى، وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له: إنك إن أسلمت أعطيتُك ما تحت يديك، ومَلَّكتُك على قومك من الأبناء».

ثم أعطى خرخسرة منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك؛ فخرجا من عنده حتى قدما على باذان، فأخبراه الخبر، فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبيًّا كما يقول، وليكونَنَّ ما قد قال، فلَئِنْ كان هذا حقًّا فهو نبي مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا، فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه: «أما بعد فإني قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضبًا لفارس؛ لما كان استحلَّ من قتل أشرافهم وتجميرهم في ثغورهم، فإذا جاءك كتابي هذا فَخُذْ لِيَ الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تُهِجْهُ حتى يأتيك أمري فيه».

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول. فأَسْلَمَ، وأسلمت الأبناء معه من فارس من كان منهم باليمن، وقال: وقد قال بابويه لباذان: ما كَلَّمْتُ رجلًا قَطُّ أَهْيَبَ عندي منه، فقال له باذان: هل معه شُرُط (شرطة)؟ قال: لا[1].

في هذا الموقف العظيم نجد من أخلاق النبوة في تعامله مع رسل الأعداء ما نعجز عن وصفه أو بيانه!!

فهذان رسولا كسرى قد جاءا إلى رسول الله ﷺ في عقر داره في المدينة المنورة ليأخذاه إلى كسرى فارس، وكان كلامهما في منتهى الصلف والغرور، تمامًا كزعيمهما كسرى، ومع ذلك فلم يخرج رسول الله ﷺ عن هدوئه وأدبه ورقة طباعه، بل أخبرهما بمنتهى الموضوعية والثقة عن خبر السماء الذي أتاه، ثم أخبرهما أن يُبَلِّغَا باذان عامل اليمن من قِبَلِ كسرى أنه إن أسلم أعطاه رسول الله ﷺ ما تحت يده، ثم زاد فوق ذلك الاحترام احترامًا أعظم وأكرم، فأعطى

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك (٣/ ٩٠، ٩١)، ابن كثير: السيرة النبوية (٣/ ٥٠٨-٥١٠) نقلاً عن ابن جرير.

أحد الرسولين هدية قيمة عبارة عن مِنْطَقَة (حزام) فيها ذهب وفضة!!

إن هذا الأسلوب الدبلوماسي الراقي في التعامل مع المخالفين في العقيدة والدين، والمخالفين في الموقف السياسي، بل والمخالفين في السمات الأخلاقية والطباع الإنسانية لأمْرٌ يدعو حقيقة للتوقف والتدبر والانتباه.. فليس هناك قانون يُرْغِم قائدًا أن يتعامل بهذا اللطف مع رجل يهدده ويتوعده، ولكنها الرقابة الداخلية في نفس رسول الله ﷺ والتي تضبط كل انفعالاته بضوابط الشرع وأوامر الله تعالى.. وليس هذا النُّبْل إلا في شريعة الإسلام.. وشَتَّان بين من يراقب ربه في كل حركة أو سَكْنَةٍ في حياته، ومن يعيش تابعًا لهواه، طائعًا لشهواته.. إنه الفرق بين المشرق والمغرب!

المطلب الثالث: هدوء الأعصاب، والسيطرة على النفس:

أحيانًا يتعمد بعض الرسل استفزاز الزعماء الذين يحملون إليهم الرسائل، فيقع الزعيم في خطأ قد يُحمِّل قومه وبلده خسائر كبيرة، ولكن رسول الله ﷺ لم يكن من هذا النوع الذي يُستفَز، أو يثور، أو يغضب! لقد كان آية من آيات الهدوء والرفق والسكينة!

ولنقف وقفة مع استقباله لعروة بن مسعود الثقفي – وكان آنذاك مشركًا – عندما جاءه مرسلًا من قريش قبيل صلح الحديبية، وكان رسول الله ﷺ - كما هو معلوم – قد جاء للعمرة، ولم يجئ لقتال، ولا يريده، وقد صرَّح بهذا قبل ذلك لبديل بن ورقاء الخزاعي، والذي نقل هذا الكلام بدوره إلى قريش، وعرفه عروة بن مسعود، وجاء كرسول يحمل رسالة تهديدية من قريش تُنذر رسول الله ﷺ بحرب لا طاقة له بها!

ولنترك المسور بن مخرمة[1] ﷺ يصف لنا هذا الموقف الفريد..

يقول المسور: فَأَتَاهُ (أي عروة بن مسعود الثقفي) فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ

---

(١) المسور بن مخرمة القرشي: قبض النبي ﷺ وهو ابن ثماني سنين، وسمع منه، وكان فقيهًا ومن أهل العلم، وظل في المدينة حتى قبض عثمان، ثم عاش في مكة حتى قوتل ابن الزبير فأصابه حجر من المنجنيق وهو يصلي في الحجر فقتله في ربيع الأول سنة ٦٤ هـ. الإصابة (٧٩٩٣)، أسد الغابة ٤/ ٣٨٢، الاستيعاب ٣/ ٤٥٥.

نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ (أي أنه لم يجئ لقتال)، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ؟ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى فَإِنِّي وَاللهِ لَأَرَى وُجُوهًا وَإِنِّي لَأَرَى أَوْبَاشًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ"[1].

وانظر إلى الاستفزاز!

إنه يتجاهل تمامًا ما قاله رسول الله ﷺ من أنه لم يأت لقتال، ويتهمه بأنه قد جاء لاستئصال قومه، ويُقلِّل جدًا من شأن الرسول ﷺ ويستقبح فعله، ويقول أنه قد أتى عملًا منكرًا لم يفعله أحد من العرب قبله، ثم هو يُهدِّد ويُخوِّف، بأن قريشًا لا طاقة لأحد بها، بل إنه في سبيل ذلك لا يتردد أن يسبَّ الصحابة الكرام، ويصفهم بالأوباش، ويتهمهم بالجبن وسرعة الفرار!

ماذا يفعل أيُّ زعيم في العالم لو كان في موقف رسول الله ﷺ؟!

يكفي أن ندرك أن هذا الكلام قد استفز أبا بكر الصديق رضي الله عنه – وهو المشهور بالرفق واللين والسماحة والأدب – حتى خرج عن أعصابه، وسبَّ عروة سبَّة منكرة، ما أحسب أنه رضي الله عنه كررها في حياته قط!

ومع ذلك ظلَّ رسول الله ﷺ على هدوء أعصابه، فلم ينفعل، وكأنه لم يسمع سخافات عروة!!

ولكن عروة لم ييأس، بل استمر في الحديث، محاولًا الاستفزاز بطريقة جديدة! يقول المسور: وَجَعَلَ أي عروة يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ"[2]. لقد كان عروة مُصِرًّا على استفزاز رسول الله ﷺ، فكرَّر الإمساك بلحيته ليستثيره، ولكن رسول الله ﷺ لم يخرج عن هدوئه، بل إن الذي كان يخرج عن أعصابه ويضرب على يد عروة ليمنعه عن لحية رسول

---

(١) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١).
(٢) المصدر السابق نفسه.

الله ﷺ كان المغيرة بن شعبة ﷺ! وهذا عجيب! لأن عروة بن مسعود الثقفي هو عم المغيرة ابن شعبة الثقفي وسيد قومه، ولو كان هناك أحدٌ يصبر على أفعال عروة فإنه يجب أن يكون المغيرة لقرابته منه، بل لعل الصحابة ﷺ صبروا على هذا الاستفزاز احترامًا للمغيرة ﷺ، أما المغيرة ﷺ فقد وجد هذا تطاولًا غير مقبول من عمه، ولذلك كان يهوي بنعل السيف على يد عروة كلما أمسك بلحية رسول الله ﷺ!

لقد كان رسول الله ﷺ يتعامل مع رسل الأعداء كأرقى ما تكون المعاملة، ولم يكن ذلك عن ضعف أو خوف – حاش لله – بل كان عن ثقة في النفس، وقبل ذلك اتباع للشرع، وطاعة لرب العالمين.

المطلب الرابع: التغاضي عن أخطاء الرسل ولو كانت كبيرة:

من هذا مثلًا ما رأيناه منه ﷺ وهو يتحدث مع رسولَيْ مسيلمة الكذاب، فهذان الرسولان جهرا بأنهما يؤمنان بمسيلمة الكذاب، ويتبعانه في دينه، وهذا يعني أنهما من المرتدين الذين تحل دماؤهم، وقد قال ﷺ: **«لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»**[1].

فهذا حكم الذي ارتدَّ عن دينه وترك الجماعة، وهذان لم يرتدا فقط، ولم يكتفيا بترك الجماعة، ولكنهما يقومان بفتنة الناس، والدعوة إلى اتباع مسيلمة، بل جاءا يساومان رسول الله ﷺ على اقتسام النبوة أو تبادلها، فلو سار الإنسان مع هواه، ونظر في المصالح دون مراعاة للشرع ولا لمطلق العدل، لكان قتلهما أمرًا هينًا متوقعًا.. لكن رسول الله ﷺ في هذا الموقف العجيب يحفظ دماءهما؛ لأنهما من الرسل، والرسل – عُرْفًا – لا تُقتل، والشرع يقرُّ ذلك العرفَ ويؤكده. لقد قال رسول الله ﷺ مخاطبًا الرسولَين المرتدَّين: **«أَمَا وَاللهِ لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا**

---

(١) البخاري: كتاب الديات: باب قول الله تعالى: أن النفس بالنفس (٦٤٨٤)، عن عبد الله بن مسعود، ومسلم في القسامة: باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦) واللفظ له، وأبو داود (٤٣٥٢)، والترمذي (١٤٠٢)، والنسائي (٤٠٥٧)، وأحمد (٤٣٧)، وابن حبان (٤٤٠٨)، والحاكم (٨٠٢٨).

تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا»[(١)].

إن رِدَّةَ هذين الرسولين وكفرهما وخطورة أمرهما لم تدفعه ﷺ إلى ظلمهما أو إلى التعدي عليهما، بل أَمَّنَهُمَا في منتهى الرقي، وعاش مؤكِّدًا على هذا المنهج القويم حتى مع مخالفة أعدائه له، بل إن مسيلمة الكذاب نفسه لما ظفر بأحد رسل المسلمين وهو حبيب بن زيد[(٢)] ﷺ قطعه عضوًا عضوًا، حتى لقي حبيبٌ ربَّهُ شهيدًا؛ لتظهر الصورة أكثر وأكثر، وليعرف الجميع الفرق الشاسع بين المنهج الإسلامي والمناهج الأخرى، وليدرك كل مُطَّلِع المسافات الهائلة بين قانون السماء وقوانين الأرض.

المطلب الخامس: موقف أغرب من الخيال!

يقولَ أبو رَافِعٍ[(٣)] ﷺ: بَعَثَتْنِي قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ أُلْقِيَ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامُ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله إِنِّي وَالله لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَدًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ، وَلَا أَحْبِسُ الْبُرُدَ، وَلَكِنِ ارْجِعْ فَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِكَ الَّذِي فِي نَفْسِكَ الْآنَ فَارْجِعْ»[(٤)]. قَالَ فَذَهَبْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَسْلَمْتُ.

إن هناك ألف مبرر للاحتفاظ بهذا الرسول بعد أن طلب هو بنفسه ذلك مختارًا غير مُكْرَه، فقد يُفتن في دينه عند قريش، كما أن عدم عودته ستؤثر سلبًا - ولا شك - على قريش، فوق أنه هو الذي اختار، وهو رجل حر بالغ له صلاحية أن يأخذ قراراته بنفسه، ثم نحن في

---

(١) أبو داود (٢٧٦١)، والحاكم (٢٦٣٢)، وقال: صحيح على شرط مسلم. ولم يخرِّجاه، وأحمد (١٦٠٣٢)، وقال الألباني: حسن. صحيح الجامع (١٣٣٩).

(٢) حبيب بن زيد الأنصاري النجَّاري، بعثه الرسول ﷺ إلى مسيلمة الكذاب باليمامة، فكان مسيلمة إذا قال له: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم. وإذا قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: أنا أصم لا أسمع! حتى قُتِلَ شهيدًا. انظر: الإصابة ترجمة (١٥٨٠)، والطبقات الكبرى ١/ ٣٢٨، وأسد الغابة ١/ ٥٠٤.

(٣) أبو رافع القبطي مولى رسول الله ﷺ، كان مولى للعباس بن عبد المطلب ووهبه للنبي ﷺ، وأعتقه لما بشره بإسلام العباس، وكان إسلام أبي رافع قبل بدر ولم يشهدها. وشهد أُحدًا وما بعدها، والمحفوظ أنه أسلم لما بشر العباس بانتصار الرسول ﷺ في خيبر. ومات قبل سيدنا عثمان بيسير. وقيل في خلافة علي ﷺ.

(٤) أبو داود (٢٧٥٨)، وأحمد (٢٣٩٠٨)، وابن حبان (٤٨٧٧)، والحاكم (٦٥٣٨)، والطبراني في الكبير (٩٦٣)، والنسائي في سننه الكبرى (٨٦٧٤)، وقال الألباني: صحيح. السلسلة الصحيحة (٧٠٢).

حالة حرب، وما أكثر جرائم قريش في حق المسلمين، وحتى لو كان إبقاؤه مستهجنًا فما أكثر الأمور المستهجنة التي فعلتها قريش فلتكن المعاملة بالمثل هي القانون!! قل كل ذلك أو أكثر، فإن رسول الله ﷺ لا يأخذ به! إنه لا يَخيس العهد، أي لا يخون العهد، ولا يحبس البُرُد، أي لا يحبس الرسل، لأن في ذلك مخالفة للعرف، وقد بَنَت قريشٌ حساباتها على عودة الرسول إليها، فإذا حبسه رسول الله ﷺ كان ذلك في مقام الخيانة، حتى وإن لم يأخذ رسول الله ﷺ على نفسه عهدًا بإعادته!!

وما أحسب أن أحدًا من الزعماء في العالم يفقه – فضلًا أن يُطبِّق – مثل هذه الأخلاق!!

* * *

الباب الثالث

أخلاق الرسول ﷺ مع الأسرى

الأسرى في الاصطلاح: «هم المقاتلون من الكفار إذا ظَفَرَ المسلمون بأسْرِهِم أحياء»[١].

وهذا التعريف يخص حالة الحرب فقط، لكن بتتبع استعمالات الفقهاء لهذا اللفظ يتبين أنهم يطلقونه على كل من يُظفَر بهم من المقاتلين ومَنْ في حُكمِهم، ويُؤخَذون أثناء الحرب أو في نهايتها، أو من غير حرب فعلية، ما دام العَداءُ قائمًا والحرب محتملة، ويطلق الفقهاء لفظ الأسير أيضًا على من يظفر به المسلمون من الحربيين إذا دخلوا دار الإسلام بغير أمان، وعلى من يظفرون به من المرتدين عند مقاتلتهم لنا، كما يطلقون لفظ الأسير على المسلم الذي ظفر به العدو[٢].

وسوف نتناول – إن شاء الله – هذا الباب من خلال الفصول الآتية:

الفصل الأول: أخلاق التعامل مع الأسرى قبل الإسلام

الفصل الثاني: أخلاق الرسول ﷺ في تعامله مع الأسرى

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٦٧.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٥٥، وابن رشد: بداية المجتهد ١/ ٥٠٦.

الفصل الأول

أخلاق التعامل مع الأسرى قبل الإسلام

نظرًا لِقِدَمِ الحرب واشتعالها بين بني البشر كثيرًا، كان لا بُدَّ أن يصبح أحد الأطراف غالبًا والآخر مغلوبًا، وهذا الغالب يستولي على ما للمغلوب، بل وعلى المغلوب نفسه إن استطاع ذلك، وعلى زوجته وأولاده أيضًا، وهو ما يُسَمَّى بالأَسْرِ والسَّبْي. وفي هذه الحالة يصبح الأسير فاقدًا لحريته، يتبع آسِرَه، ولا يملك من أمر نفسه شيئًا؛ لذا يتوقف مدى العناية التي يحصل عليها الأسير على ضميرِ ودِينِ وأخلاقِ آسِرِه.

وقد تعددت وتنوعت أساليب التعامل مع الأسرى من ديانة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، ومن زمن إلى آخر، وإن كان الذي يغلب على الجميع – قبل ظهور الإسلام – هو القسوة والبطش والظلم.



المبحث الأول
تعامل اليهود مع أسرى الحرب

قام محمد بإصلاح العباد
وتهذيبهم عن الفساد وهدايتهم
إلى الدين الصحيح[١]

يعتقد اليهود أنهم أرقى الشعوب، وأنهم يتميَّزون عن سائر الأجناس، كما يعتقدون أنَّ تميُّزهم هذا إنما هو نعمة من الرب قد وهبها لهم، وقد جاء في سِفرِ التثنية من التوراة المحرَّفة: «أنتم أولاد الرب إلهكم؛ لأنكم شعب مقدس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لكي تكون له شعبًا خاصًا فوق جميع الشعوب على وجه الأرض»[٢]. وانطلاقا من هذه النظرة يعتقد اليهود أن الوسيلة المُثلَى لتحقيق وعد الرب لهم باسترقاق شعوب الأرض هي الحرب.

ومن هنا كانت حروب اليهود ضد غيرهم حروبًا تدميرية، والهدف منها الإبادة للبشر أو استعبادهم وإذلالهم، كما مرَّ بنا قبل ذلك في هذا البحث، وحتى إذا عقد اليهود الصلح مع أعدائهم، فإنهم بهذا الصلح يستعبدون عدوهم ويستبيحون أرضه، ولا يكون لهم من هذا الصلح إلا اسمه فقط لا حقيقته، وقد جاء في سِفرِ التثنية: «حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح؛ فإنْ أجابتك على الصلح، وفتحت لك... فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويُستعبد لك.. وإنْ لم تسالمك بل عملت معك حربًا، فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك؛ فاضرب جميع ذكورها بحد السيف...»[٣].

وكما يكون اليهود في حروبهم وحوشًا وسيلتهم التسخير وغايتهم التدمير؛ فإنهم كذلك في أعقاب الحروب ينهبون الغنائم، ولا يخضعون لقاعدةٍ في الأسر والسبي: «إذا

---

(١) دوزيه، مستشرق فرنسي.

(٢) العهد القديم، سفر التثنية، إصحاح ١٤.

(٣) العهد القديم، سفر التثنية، إصحاح ٢٠.

خرجت لمحاربة أعدائك، ودفعهم الرب إلهك إلى يدك، وسبيت منهم سبيًا، ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة، والتصقت بها، واتخذتها لك زوجة؛ فحين تُدخِلُها إلى بيتك تحلق رأسها، وتقلم أظافرها، وتنزع ثياب سبيها عنها»[١].

وهكذا كان اليهود يتعاملون مع أسراهم، مما يُنْبِئ عن نفسية ملأها الحقد على الغير، واستبدَّ بها حب الإفساد في الأرض، فكان هذا هو منهجها في التعامل مع أسرى الحرب.

* * *

(١) العهد القديم، سفر التثنية، إصحاح ٢٠، وراجع أيضًا الدكتور عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية ص ٣٨، ٣٩.

المبحث الثاني
تعامل القوى العالمية الكبرى مع أسرى الحرب

إننا أهل أوربا بجميع مفاهيمنا لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد[(١)]

لم يختلف وضع الدول العالمية عن سابقه في تعاملهم مع الأسرى؛ إذ كان مصير الأسير أن يُذبح أو يُقدَّم قرابين للآلهة، ثم رُئِيَ بعد ذلك الانتفاع بهم، فحَلَّ الاسترقاق محل القتل، وصار الأسرى يُستعبدون، ويتخذون للبيع والشراء!!

ومن أمثلة الأمم التي عاملت الأسرى بقسوة لا هوادة فيها: الفرس والإغريق؛ فقد كانوا يُنكِّلون بأسراهم، ويعرضونهم للتعذيب والصلب والقتل[(٢)].

ونتيجة هذه الحروب الشرسة فقد كثر عدد الأسرى لدى الدولة الرومانية، ولم يكن لهم إذا نجوا من القتل إلا مصير واحد هو الاسترقاق، فانقسم المجتمع الروماني بذلك إلى أحرار وهم السادة، ولقد منح القانون الروماني للمالك الحق في إماتة عبده أو استحيائه، وكَثُرَ الرقيق في عهدهم حتى ذكر بعض مؤرخيهم أن الأرقاء في الممالك الرومانية يبلغون ثلاثة أمثال الأحرار[(٣)]. وكان الرقيق لا يتمتعون بأية حقوق، بل مصيرهم في أيدي سادتهم، كما أنهم ليس لهم أي احترام وسط المجتمع، لدرجة أن الفيلسوف أفلاطون نفسه صاحب فكرة المدينة الفاضلة كان يرى أنه يجب ألا يُعطَى العبيدُ حقَّ المواطنة[(٤)]!!

---

(١) جوهان فولف جانج جوته، شاعر وأديب ألماني شهير.

(٢) العميد محمد سعد الدين زكي: الحرب والسلام ص٢٠٥، عبد العزيز علي جميع وزميلاه: قانون الحرب ص ٢٠٨، د. عبد المنعم البدراوي: القانون الروماني ص٦٦، نقلاً عن د. عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية ص٩١.

(٣) أحمد أمين: فجر الإسلام ص٨٨ .

(٤) أحمد أمين: فجر الإسلام ص ٨٨. وانظر أيضًا صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص٤٦٦ .

أما العجيب فهو أن الرومان كانوا يستخدمونهم أيضًا كوسائل للترفيه والتسلية؛ فكانوا يضعون هؤلاء الأسرى مع الوحوش المفترسة في أقفاص مغلقة، بينما يستمتع الأمراء بمشاهدة الوحوش وهي تفترسهم[١]!!

وفي الهند كان الأسير يقع ضمن الطبقة الرابعة والأخيرة في تقسيم طبقات المجتمع عندهم، وهي طبقة شودر، وهم المنبوذون، والذين هم أَحَطُّ من البهائم، وأذل من الكلاب، ويصرح القانون بأنه من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة (طبقة الكهنة والحكام) دون أجر!! وكفَّارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والبومة مثل كفارة قتل الشودر سواء بسواء[٢]!!

* * *

(١) محمد قطب: شبهات حول الإسلام ص ٤٠. وانظر د/ عبد الله ناصح علوان: الرق في الإسلام ص ١٣، ١٤ بتصرف. وانظر أيضًا أرسطو: كتاب السياسة، ترجمة أحمد لطفي السيد ص١٠٢، ١٠٣، ١٠٦ بتصرف.

(٢) الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٧٥.

المبحث الثالث
تعامل القبائل العربية مع أسرى الحرب

لقـد وُفِّـق محمـد إلى خلـق العـرب خلقًـا جديـدًا ونقلـهم مـن الظلمات إلى النور[١]

ما فَتِئَت الحرب تشتعل بين حين وآخر بين القبائل العربية بدافع العصبية والقَبَلية، ومما لا شك فيه أنه كان لهذه الحروب المستمرة نتائج وبيلة على الفريق المنهزم، وذلك لما يترتب على الهزيمة من سبي النساء والذرية والرجال إن قُدِر عليهم، وقد يتم قتلهم، أو استرقاقهم وبيعهم عبيدًا، ولم يكن هناك ما يُسَمَّى بالمنِّ عليهم أو إطلاق سراحهم دون مقابل. فقد كانت تلك الحروب تمثل أحد الروافد الأساسية لتجارة العبيد التي كانت إحدى دعامات الاقتصاد في الجزيرة العربية[٢]، وقد استمرت هذه الحروب بين القبائل العربية حتى جاء الإسلام، ومن أشهر هذه الحروب حرب الأوس والخزرج في المدينة، وبكر وخُزَاعة قُرْبَ مكة وغيرها.

وقد أدت هذه السياسة المجحفة إلى استرقاق أعداد هائلة من البشر، كان منهم طاقات عقلية جبارة، ولكن للأسف ضُيِّعت هذه الطاقات وبُدِّدت تحت وطأة الأسر وذلِّه، حتى جاء الإسلام وحرَّر هذه الطاقات، ومن أمثلة هؤلاء بلال بن رباح الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وسالم مولى أبي حذيفة، وزيد بن حارثة، وعامر بن فهيرة، وغيرهم وغيرهم.. لقد عطِّلت هذه الطاقات – على عِظَمِها – فترات طويلة، حتى ظهر الإسلام، فصاروا بعد ذلك قادة العالم وأئمته.

* * *

(١) الليدي إيفلين كوبولد، شاعرة إنجليزية.

(٢) د. شوكت محمد عليان: دراسات في الحضارة الإسلامية ص١٣٠.

الفصل الثاني

أخلاق الرسول ﷺ
في تعامله مع الأسرى

لم يخرج رسول الله ﷺ عن طبيعته الأخلاقية أبدًا في أيِّ أمر من أمور حياته، لذا لم يكن مستغرَبًا أن يتعامل مع أسرى الدولة الإسلامية بنفس الأخلاق النبيلة، والآداب الرفيعة، ولم ينظر إليهم مطلقًا على أنهم كانوا حريصين منذ لحظات على قتله وقتل أصحابه، بل تعامل معهم بطريقة قد تفوق تعامل عموم الناس مع أقاربهم وذوي أرحامهم.

ولعل روعة الأخلاق النبوية تتضح بصورة أكبر إذا قارناها بتعامل الأمم الأخرى مع الأسرى بصفة عامة، وبأسرى المسلمين بصفة خاصة، وقد ذكرنا في الفصل السابق صورًا من هذا التعامل البشع، والتاريخ يذخر بمثل هذه الصور المتدنية، بل – وللأسف الشديد – ما زال هذا التعامل المتردي أخلاقيًا هو الذي نراه في واقعنا على الرغم من كل القوانين والتشريعات التي وُضعت لحماية إنسانية الأسرى. إن الحقيقة التي يجب أن نفقهها أنه إذا لم يتوافر لهذه القوانين والمعاهدات الغطاء والوازع الأخلاقي الكافي، فإنها لن تعدو أن تكون حبرًا على ورق.. ولعل العالم قد تابع ما كشفه فيلم وثائقي جديد عرضته القناة الأولى بالتلفزيون الإسرائيلي بتاريخ ٢٥ فبراير ٢٠٠٧م عن فضيحة أخلاقية، تمثلت في قيام الجيش الإسرائيلي بقتل ٢٥٠ أسيرًا مصريًا في شبه جزيرة سيناء عقب انتهاء القتال في حرب يونيو عام ١٩٦٧م، والمخزي في تصرف القوات الإسرائيلية أن الجنود المصريين كانوا قد استسلموا بعد نفاذ ذخيرتهم، فما وجه الخطورة التي دفعت القوات الإسرائيلية لقتلهم!! وكان القتل للجنود المصريين بأوامر مباشرة من القائد بنيامين بن إليعازر (وزير البنى التحتية الإسرائيلي

الحالي)، وكانت الأوامر تقتضي قتل الجنود المصريين حتى بعد استسلامهم[١]!! وما رأيناه في تليفزيون اليهود هو نفسه الذي حدث في أفغانستان على يد القوات الأمريكية، حيث قامت هذه القوات باقتياد ٨٠٠ مقاتل من طالبان بعد استسلامهم إلى معتقل قلعة جانجي في أفغانستان، ثم أمرت الطيران الحربي بقصف المعتقل مما خلف مئات الجثث المتفحمة، كما قامت القوات الأمريكية أيضًا بشحن ٣٠٠٠ أسير أفغاني في حاويات نقل مغلقة بحجة نقلهم إلى سجن شبرقان بأفغانستان، وتركتهم في العربات المغلقة في الصحراء وهم مقيدون ومعصوبو الأعين لمدة أربعة أيام؛ مبتكرة طريقة جديدة للقتل البشع[٢]!! وليس الذي حدث بعد ذلك في معسكرات اعتقال الأسرى في جوانتانامو وسجن أبي غريب[٣] بخافٍ على أحد، ويكفي أن نعرف أن منظمة العفو الدولية قد كشفت عن وجود أطفال محتجزين في القاعدة البحرية للولايات المتحدة في خليج جوانتانامو، والذين وصل عددهم إلى ٦٠٠ طفل معتقل أكبرهم لم يتجاوز الخامسة عشر من عمره، وأنه قد يمر على الطفل منهم عام كامل لا يعلم أحد عنه شيئًا ولا عن مكانهم سواء من أسرهم أو حتى من محاميهم[٤]!! فهل يدعي أحدٌ أن البشرية قد وصلت إلى الرقي المطلوب مع كل هذه المظاهر المؤسفة؟!

إن النقلة النوعية الحقيقية التي شهدتها البشرية كانت عند نزول الرسالة الإسلامية على رسول الله ﷺ، وكانت في تطبيقه الرائع لكل البنود الأخلاقية التي جاءت في حق الأسرى، وهي كثيرة جدًا كما سنرى، ولعلنا في هذه الصفحات المختَصَرة نحاول أن نضع أيدينا على طرف من هذه التعاملات الراقية، وسوف يكون حديثنا من خلال عدة مباحث كما يلي:

* * *

---

(١) جريدة المصريون الإلكترونية بتاريخ ٢٧- فبراير ٢٠٠٧م. الرابط الإلكتروني:
www.almesryoon.com/ShowDetails.asp?NewID=31042

(٢) د. محمد الحسيني إسماعيل: الإسلام والغرب ص ١٦٢، ١٦٣ بتصرف.

(٣) د. راغب السرجاني: التعذيب في سجون الحرية ٢٦، ٢٧.

(٤) جزء من رسالة موجهة للرئيس الأمريكي مبعوثة من منظمة العفو الدولية بتاريخ ٢٤ أبريل ٢٠٠٣، ومنشورة على موقع المنظمة على شبكة الإنترنت، بعنوان: رسالة إلى الرئيس جورج و. بوش.

المبحث الأول
مبدأ العفو عن الأسرى

كان العفو جوهرة أخرى بالغة الإشعاع في شخصية الرسول[١]

على الرغم من شيوع الرق والاستعباد في أيام الجاهلية، وفي الفترات التي عاصرت ظهور الدين الإسلامي، إلا أن رسول الله ﷺ جاء بمنهج جديد تمامًا على العالم آنذاك، فقد جاء بفكر رفيق يدعو إلى إعتاق العبيد، وفك الأسرى، والزهد في الاحتفاظ بهم، وهو ما لم يكن معروفًا في هذه الآونة البتة، بل إنه غير معروف في زماننا الآن! وإلا فمن ذا الذي يخبرنا عن دولة تحثُّ رعاياها على إطلاق الأسرى هكذا بغير فداء؟!

هذا هو الفكر الذي جاء به رسول الرحمة ﷺ، وما أكثر الأقوال التي قالها في هذا المعنى، وما أكثر النصائح التي وجَّهها إلى أمته يدعوها ليس فقط إلى عتق الأسرى بل إلى بذل الجهد في ذلك، حتى أصبح هذا العتق قُرْبةً إلى الله ﷻ، يفعله المسلم لينال به رضاه سبحانه!

قال رسول الله ﷺ: «فُكُّوا الْعَانِيَ[٢]، وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ وَعُودُوا الْمَرِيضَ»[٣]. وسأله رجل يومًا فقال: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ أَعْتِقِ النَّسَمَةَ وَفُكَّ الرَّقَبَةَ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوَلَيْسَتَا بِوَاحِدَةٍ

(١) لين بول (ستانلي)، مستشرق بريطاني.

(٢) العاني: هو كل من وقع في ذل واستكانة وخضوع، ويُقصد به الأسير.

(٣) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير (٢٨٨١)، وأبو داود (٣١٠٥)، وأحمد (١٩٥٣٥)، والدارمي (٢٤٦٥)، وابن حبان (٣٣٢٤)، والطيالسي (٤٨٩)، والطبراني في الأوسط (٢٥٩٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩١٦٥)، وفي سننه الكبرى (٦٣٦٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٤٩٢).

قَالَ: «لا إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِهَا وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا..»[١]. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ»[٢].

ولم يكن حثُّ الرسول ﷺ على العفو عن الأسرى، والمنّ عليهم أمرًا خياليًّا يُجمِّل به صورة المسلمين؛ بل كان أمرًا واقعيًّا أفرز مجموعة من المواقف يعجز المرء عن استيعاب عظمتها، وأجمل ما فيها أنها لم تكن مواقف عابرة حدثت نتيجة ظروف خاصة، أو تحت ضغوط معينة، إنما كانت منهجًا ثابتًا، وسُنَّة ماضية، وتشريعًا خالدًا استحال أن يجود الزمان بمثله. ولنمر سريعًا على بعض الأمثلة التي تظهر رحمته وعفوه ﷺ عن أسرى أعدائه، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: أسيرا سرية نخلة:

أسر المسلمون في هذه السرية – وكانت في رجب من السنة الثانية من الهجرة – اثنين من المشركين هما أول أسيرين في الإسلام؛ الحَكَم بن كيسان وعثمان بن عبد الله. فأما الأول – الحَكَم – فنظرًا لما وجده من المعاملة الكريمة فإنه أسلم وحَسُنَ إسلامُه، وأقام عند رسول الله حتى استُشهِدَ يوم بئر معونة في السنة الرابعة للهجرة، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرًا..[٣]

ومع أن هذين هما أوَّل أسيرين يظفر المسلمون بهما بعد طول العناء والتعذيب من مشركي مكة الذين ينتسب هم هذان الأسيران؛ إلا أن ذلك لم يكن دافعًا لرسول الله ﷺ أن يمسَّهما بأذى، بل على العكس كان الإكرام والصفح عنهما.

---

(١) أحمد (١٨٦٧٠)، وابن حبان (٣٧٤)، والحاكم (٢٨٦١)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩)، والدارقطني ٢/ ١٣٥، والطيالسي (٧٣٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٣٣٥)، وكذلك في (٢١١٠٢) عن البراء بن عازب. وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ٤/ ٤٣٨، وقال الألباني: صحيح. سننه

(٢) البخاري: كتاب الكفارات والنذور، باب قوله تعالى: «أو تحرير رقبة» (٦٣٣٧)، ومسلم: كتاب العتق، باب فضل العتق (١٥٠٩)، والترمذي (١٥٤١)، وأحمد (١٧٠٦٥) واللفظ له، والنسائي (٣١٤٢)، وابن حبان (٤٣٠٨).

(٣) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٦٦ بتصرف.

ولهذا الموقف دلالات كبيرة جدًا، حيث إنه وضَّح من البداية سياسة الرسول ﷺ في التعامل مع الأسرى، ومع أن هذا كان من الممكن أن يُطَمِّعَ فيه المشركون إلا أنَّها سياسة الرحمة التي لا بديل عنها في الرؤية النبوية، وقد ازداد هذا المعنى رسوخًا عندما رأينا رؤيته ﷺ للتعامل مع أسرى بدر بعد أقل من شهرين من سرية نخلة.

المطلب الثاني: أسرى بدر:

كانت معركة بدر هي المعركة الأولى بين المسلمين والمشركين، وقد تم النصر فيها للمسلمين مع قلة عددهم وعُدَّتهم؛ بل إنهم مع هذا النصر أسروا من المشركين سبعين، واستشار الرسول ﷺ أصحابه ﷺ في شأن هؤلاء الأسرى، وماذا يفعل معهم؟ يحكي ذلك عمر بن الخطاب ﷺ فيقول: قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عَضُدًا، فقال رسول الله: «**ما ترى يا ابن الخطاب؟**» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تُمكِّنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتُمكِّن عليًا من عقيل[1] فيضرب عنقه، وتُمكِّن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوداة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوى الرسول ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ - أي عمر ﷺ - وأخذ منهم الفداء[2].

وعلى الرغم من نزول الآيات بعد هذا الموقف تعاتب النبي ﷺ أنه أخذ بالرفق واللين مع هؤلاء الأسرى في هذا الموقف ﴿**لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٦٨] رغم ذلك؛ لم يكن هذا دافعًا لأن يسيء الرسول ﷺ معاملة هؤلاء الأسرى، أو يُغَيِّر من تعامله معهم بعد أن أخذ قرارًا بإعفائهم من القتل، وقبول الفدية ممن يستطيع منهم، وقد تفاوت مقدار هذه الفدية ونوعها بحسب حالة كل أسير..

فقد أطلق الرسول ﷺ بعض الأسرى كعمرو بن أبي سفيان مقابل أن يطلق المشركون

---

(١) عقيل بن أبي طالب ﷺ، وهو أخو علي بن أبي طالب ﷺ، وكان عقيل آنذاك مشركًا في جيش الكفار.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤٥٧.

سراح سعد بن النعمان بن أكال ﷺ، الذي أسره أبو سفيان وهو يعتمر[١].

ومن الأسرى من كان يفدي نفسه بالمال، وكان رسول الله ﷺ يراعي الحالة المادية لكل أسير، فمنهم من دفع أربعة آلاف درهم كأبي وداعة، وأبي عزيز واسمه زرارة بن عمير - وهو أخٌ لمصعب بن عمير ﷺ - دفعتها أمه، وكانت صاحبة مال وفير، ومنهم من دفع مائة أوقية كالعباس بن عبد المطلب، ومنهم من دفع ثمانين أوقية كعقيل بن أبي طالب، وقد دفعها له العباس، ودفع بعض الأسرى أربعين أوقية فقط[٢].

أما من لم يكن معه مال، وكان يعرف القراءة والكتابة فكان فداؤه أن يُعَلِّم بعض المسلمين القراءة والكتابة؛ فقد روى ابن عباس قال: كَانَ نَاسٌ مِنَ الْأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِدَاءٌ فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِدَاءَهُمْ أَنْ يُعَلِّمُوا أَوْلَادَ الْأَنْصَارِ[٣].

ومن هؤلاء الأسرى مَن مَنَّ الرسول ﷺ عليه بغير فداء مثل: المطلب بن حنطب، وأبي عزة الشاعر، وصيفي بن أبي رفاعة[٤].

وقد أحسَنَ رسول الله ﷺ أيضًا إلى سهيل بن عمرو مع أنه كان من زعماء قريش المعتبرين، إلا أنه لم يشأ أن يهينه أو يُمثِّل به وإن كان قادرًا على ذلك، وقد أراد عمر بن الخطاب ﷺ نَزْعَ ثنيتي سهيل بن عمرو حتى لا يقوم خطيبًا على الرسول ﷺ في موطن أبدًا، فقال رسول الله ﷺ: «لَا أُمَثِّلُ بِهِ فَيُمَثِّلُ اللهُ بِي وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًّا»[٥].

وكان في الأسرى أيضًا أبو العاص بن الربيع ختن[٦] رسول الله ﷺ على ابنته زينب فبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها عليه حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٣١١.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤/ ١٤.

(٣) أحمد عن ابن عباس (٢٢١٦)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن. وقال الهيثمي: رواه أحمد عن علي بن عاصم، وهو كثير الغلط والخطأ، وقد وثَّقه أحمد. مجمع الزوائد ٤/ ١٧٢.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٣٥٢.

(٥) الحاكم ٣/ ٣١٨، ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٢٠٠.

(٦) خَتَنُ الرجلِ: المُتزوِّجُ بابنته. لسان العرب ١٣/ ١٣٧.

رقَّ لها رقة شديدة، وقال: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا، وَتَرُدُّوا إِلَيْهَا مَتَاعَهَا فَعَلْتُمْ». قالوا: نعم يا رسول الله؛ فأطلقوه، وردوا عليها الذي لها[1]. فكان هذا أيضًا ممن أُطلِقَ بغير فداء.

وكان ﷺ على استعداد لإطلاق الجميع - كما مرَّ بنا في هذا البحث - من دون فداء لو شفع فيهم المطعم بن عدي الزعيم المشرك المعروف، غير أنه كان قد مات، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ كما في البخاري عن جبير بن مطعم ﷺ: أن النبي قال في أسارى بدر: «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»[2]؛ وذلك لأنه اشترك في نقض الصحيفة التي قاطعت بها قريش بني هاشم، وكذلك أجار النبي ﷺ في مكة عند عودته من الطائف.

ومن الواضح أنه تم إطلاق سراح جميع من بقي من أسرى بدر خلال أقل من عام من غزوة بدر، ومما يؤكِّد هذا الأمر أن المشركين في أُحُد لم يتفاوضوا على أيِّ أسرى.

المطلب الثالث: أسرى الحديبية:

وهذا من مواقف الرحمة العجيبة في السيرة!

قال عبد الله بن مغفل المزني ﷺ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ وَكَانَ يَقَعُ مِنْ أَغْصَانِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِعَلِيٍّ ﷺ: اكْتُبْ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَأَخَذَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو بِيَدِهِ فَقَالَ: مَا نَعْرِفُ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اكْتُبْ فِي قَضِيَّتِنَا مَا نَعْرِفُ قَالَ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ فَكَتَبَ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله ﷺ أَهْلَ مَكَّةَ فَأَمْسَكَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو بِيَدِهِ وَقَالَ: لَقَدْ ظَلَمْنَاكَ إِنْ كُنْتَ رَسُولَهُ اكْتُبْ فِي قَضِيَّتِنَا مَا نَعْرِفُ فَقَالَ: اكْتُبْ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَنَا رَسُولُ الله ﷺ فَكَتَبَ،

---

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٣٥١-٣٥٢.

(٢) البخاري: كتاب الخمس، باب ما منَّ النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يُخَمِّس (٢٩٧٠)، وأبو داود (٢٦٨٩)، والطبراني في الكبير (١٥٠٤)، ورواه عبد الرزاق في مصنفه (٩٤٠٠)، ورواه البيهقي في سننه الكبرى (١٢٦١٦) عن محمد بن جبير بن المطعم عن أبيه.

فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا ثَلاثُونَ شَابًّا عَلَيْهِمُ السِّلَاحُ فَثَارُوا فِي وُجُوهِنَا فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخَذَ اللهُ ﷻ بِأَبْصَارِهِمْ فَقَدِمْنَا إِلَيْهِمْ فَأَخَذْنَاهُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَلْ جِئْتُمْ فِي عَهْدِ أَحَدٍ أَوْ هَلْ جَعَلَ لَكُمْ أَحَدٌ أَمَانًا فَقَالُوا: لَا فَخَلَّى سَبِيلَهُمْ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤][(١)].

فهذا عفو في موقف عجيب، فالمسلمون ممنوعون من دخول مكة، وقريش قد أعدَّت العُدَّة لحربهم، ومع ذلك لا يأخذ الرسول ﷺ هؤلاء الأسرى رهينة، بل يمنُّ عليهم بغير فداء، ولا يجعلهم ورقة ضغط على المشركين حتى في هذا الموقف الصعب!

إنها الرحمة في أرقى صورها!

وليس هذا فقط، بل - كما مر بنا - فعل رسول الله ﷺ نفس الموقف مرة ثانية بعد الصلح، مما يؤكد أنها كانت سياسة عامة، وليست مجرد مواقف نادرة!

المطلب الرابع: أسرى مكة وهوازن:

وموقفه من هؤلاء الأسرى مبهر وعجيب، وقد مر بنا تفصيليًا عند الحديث عن أخلاقه ﷺ عند تحقيق النصر.

المطلب الخامس: ثمامة بن أثال:

كان ثمامة بن أثال زعيمًا مشهورًا من زعماء بني حنيفة، وكان قد قرر أن يأتي للمدينة المنورة ليقتل رسول الله ﷺ[(٢)]، فأسره أصحاب النبي ﷺ، وجاءوا به إلى المسجد النبوي، فماذا كان رد فعل رسول الله ﷺ مع من جاء ليقتله؟! إن الرجل الآن أسير، والأسير يجب إحسان معاملته، والقاعدة لا استثناء فيها، ومن ثم قال ﷺ لأصحابه: «أحسنوا إساره»[(٣)]،

---

(١) أحمد (١٦٨٤٦)، والحاكم (٣٧١٦) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في الكبرى (١٢٦١٢)، والنسائي في الكبرى (١١٥١١)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح..

(٢) البيهقي: السنن الكبرى (١٧٨١٠)، ابن حجر: الإصابة ١/ ٣٠٢، ابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٣٣٧.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية: ٦/ ٥١.

وقال أيضًا: «اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه»[١]، فكانوا يقدمون إليه لبن لقحة[٢] الرسول ﷺ.

ثم انظر إلى هذا الحوار الراقي الذي دار بين رسول الله ﷺ والرجل الذي جاء ليقتله، فأصبح أسيرًا:

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟

فَقَالَ: عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

فَتَرَكَهُ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟

قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

فَتَرَكَهُ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى كَانَ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ: مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟

فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ».

فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ يَا مُحَمَّدُ، وَالله مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟

فَبَشَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: أَصَبَوْتَ؟ فَقَالَ: لَا

(١) انظر: ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٨٨.

(٢) لقحة: الناقة الحلوب.

وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَلَا وَالله لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ الله ﷺ[١].

فهذه المعاملة الكريمة من رسول الله ﷺ تركت في نفس ثمامة أثرًا طيبًا إلى درجة أنه غيَّر دينه، وأسلم لله رب العالمين، دون ضغط أو إكراه، بل إن إسلامه وُلِدَ قويًّا إلى الدرجة التي دفعته إلى مقاطعة قريش من أجل أنها تحارب رسول الله ﷺ مضحيًا بذلك بثروة هائلة كانت تأتيه من تجارته معها، ومضحيًا كذلك بعلاقات اجتماعية مهمة مع أشراف قريش.

المطلب السادس: ابنة حاتم الطائي:

أسرت ابنة حاتم الطائي[٢] - وهو الزعيم العربي المشهور - في حرب مع قبيلة طيء، فجُعِلَت في حظيرة بباب المسجد، فمرَّ بها الرسول ﷺ؛ فقامت إليه، وكانت امرأةً جَزْلة[٣]؛ فقالت: يا رسول الله هلك الوالد، وغاب الوافد[٤]، فامْنُنْ عليَّ مَنَّ الله عليك. قال: «ومن وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم. قال: «الفارُّ من الله ورسوله»[٥].

ثم مضى رسول الله ﷺ وتركها، حتى إذا كان الغدُ مَرَّ بها، فقالت له مثل ذلك، فرد عليها مثل ما قال بالأمس. حتى إذا كان بعد الغد مَرَّ بها وقد يَئِسَتْ، فأشار إليها علي بن أبي طالب ﷺ أن قومي فكلميه، ففعلت، فقال رسول الله ﷺ: «**قَدْ فَعَلْت، فَلَا تَعْجَلِي بِخُرُوجٍ حَتَّى تَجِدِي مِنْ قَوْمِك مَنْ يَكُونُ لَهُ ثِقَةً حَتَّى يُبَلِّغَك إِلَى بِلَادِك، ثُمّ آذِنِينِي**». تقول ابنة حاتم الطائي: وأقمت حتى قدم ركب من بلي أو قضاعة، وإنما أريد أن آتي أخي بالشام، فجئتُ؛

---

(١) البخاري: كتاب أبواب المساجد، باب الاغتسال إذا أسلم وربط الأسير أيضًا في المسجد (٤٥٠)، مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه، واللفظ له (١٧٦٤)، وأبو داود (٢٦٧٩)، والنسائي مختصرًا (٧١٢)، وابن خزيمة (٢٥٢). والحنطة: القمح.

(٢) سفانة بنت حاتم الطائي: والدها جواد العرب المشهور حاتم الطائي. انظر الإصابة (١١٢٩١)، أسد الغابة٦/ ١٤٦.

(٣) امرأة جزلة: أي عاقلة.

(٤) غاب الوافد: تعني به أخاها عديًّا، وهو من كان من المفترض أن يَفِدَ عليها باخدمة؛ فلا هو حمى قومه، ولا هو رعاها، ولا هو جاء إلى الرسول ﷺ ليفكَّ أسرها.

(٥) أطلق عليه النبي ﷺ ذلك؛ لأنه هرب من طيء حين إرسال النبي ﷺ سرية إليها.

فقلتُ: يا رسول الله قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقةٌ وبلاغ. قالت: فكساني، وحَمَلَني، وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام[1].

وهنا وقفة مع هذا الموقف العظيم..

نرى بوضوح في هذا الموقف التعامل الإنساني الرحيم من رسول الله ﷺ مع هذه الأسيرة؛ حيث لم يَرْضَ الرسول الكريم ﷺ لها أن تخرج منفردة وحيدة، بل طلب منها ألا تتعجل بالخروج حتى تجد من قومها من يكون ثقة فتسير معه، كما نلاحظ في الموقف أيضًا التعاطف من الصحابة الكرام ﷺ مع الأسرى، فها هو علي بن أبي طالب ﷺ يشير لابنة حاتم الطائي أن تُكلِّم رسول الله ﷺ في الوقت المناسب، حتى يَمُنَّ عليها ويطلق سراحها، وهذا ما تمَّ بالفعل، ثم إنها تشهد بنفسها أن رسول الله ﷺ - لما قدم الوفد الذي وجدت فيها بُغْيَتَها من الأمن والثقة - كساها، وأعطاها ما يحملها، وأعطاها أيضًا نفقةً تكفيها حتى تصل إلى قومها آمنة وفي راحةٍ وسلامة...

وسبحان الذي أدَّب رسولَنا ﷺ؛ فأحسن تأديبه!!

***

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٨٨، ابن هشام: السيرة النبوية ٥/ ٢٧٦، ابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ١٢٣، ١٢٤.

المبحث الثاني
مبدأ حسن المعاملة والرحمة

كان محمد حليمًا رقيق القلب عظيم الإنسانية[1]

الإسلام دين واقعي يتعامل مع الأحداث ومع الواقع، ولا يذهب في تشريعاته مع الخيال أو المثالية غير القابلة للتحقيق، ومن ثَمَّ كان من الطبيعي أن يتعامل مع قضية الأسرى كواقع يفرض نفسه على الحياة، لا أن يتجاهلها، أو يفرض لها حلاً عاطفيًّا غيرَ واقعيٍّ، لذلك فإنه يتعين على المسلمين في بعض الظروف أن يحتفظوا بالأسرى، وأقرب الظروف إلى الذهن أن يكون العدو قد أسر من المسلمين رجالًا يلزَمُ أن نبادلهم بأمثالهم. ولكن لا شك أن طريقة رسول الله ﷺ في التعامل مع الأسرى ليست كما نسمع ونشاهد الآن (صورة ١٢)، و(صورة ١٣)، ولكنها كانت مغايرة تمامًا، فكيف كان رسول الله ﷺ يعامل الأسرى في حال الاحتفاظ بهم؟

لقد كانت القاعدة العامة التي حَثّ عليها الرسول ﷺ في أول غزوة غنم فيها المسلمون أسرى هي: «اسْتَوْصُوا بِهِمْ – أي بِالْأَسْرَى – خَيْرًا»[2].

لكن المهم في الأمر أن هذه المعاملة الحسنة التي أمر بها رسول الله ﷺ للأسرى لم تكن مجرد قوانين نظرية ليس لها تطبيق في واقع الحياة، ولكنَّها تمثلت في مظاهر كثيرة تنبئ عن قلوب ملأتها الرحمة، وعن مشاعر فاضت بالعطف والحنان.

---

(١) إميل درمنغم، مستشرق فرنسي.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٧٧)، وفي الصغير (٤٠٩)، وقال الهيثمي: إسناده حسن من حديث أبي عزيز بن عمير. مجمع الزوائد ٦/ ١١٥.



صورة رقم (١٢)

الأسرى المصريون ١٩٦٧

الأسرى العراقيون

الأسرى الأفغان

صورة رقم (١٣)

إن الفطرة السليمة تأبى التعذيب للنفوس البشرية، بل إنها لا ترضى بتعذيب الحيوان أو الطير، وقد ربَّى الرسول ﷺ صحابته الكرام ﷺ على الرحمة، فقد روى جرير بن عبد الله ﷺ أن رسول الله قال: «مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يُرْحَمْ»[(١)]، فكان الصحابة رضوان الله عليهم نماذج عملية في الرحمة ببني البشر جميعًا مسلمين وغير مسلمين. هذا هو المنطلق الذي كان يتحرك منه رسول الله ﷺ والمسلمون سواء في قضية الأسرى أو في غيرها من القضايا.

وقد ذكرنا قبل ذلك إنكار الرسول ﷺ ضرب غلامي قريش في أحداث بدر وقوله ﷺ: «إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقَا، وَاللهِ إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ..»[(٢)]، مع أن هذين الغلامين اللذين ضُرِبَا من الجيش المعادي - جيش المشركين - ويمدَّان الجيش بالماء.

بل إن شريعة الإسلام تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث تمنع تعذيب الأسير للإدلاء بمعلومات عن العدو، وقد قيل للإمام مالك: أَيُعذَّبُ الأسيرُ إن رُجِيَ أن يدل على عورة العدو؟ قال: ما سمعت بذلك[(٣)].

* * *

(١) البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ (٦٩٤١)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال (٢٣١٩)، والترمذي (١٩٢٢)، وأحمد (١٩١٨٩).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٦١٦، ٦١٧. وانظر الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٤/ ٢٧، والسهيلي: الروض الأنف ٣/ ٥٨ .

(٣) محمد بن يوسف المواق: التاج والإكليل ٣/ ٣٥٣.

المبحث الثالث
راحة الأسير البدنية

إذا بحثنا عن محمد إجماليًا
نجــــده يتصـــف بالرحمــــة
الخالصة[(١)]

إن الناظر لحرص المنهج الإسلامي على راحة الأسير البدنية والصحية ليُدرك - بما لا يدع مجالًا للشك - أن هذا المنهج إلهي، وليس من صُنع البشر! إنه ليس من أحد أرحم بالعباد من الله ﷻ، ومن رحمته أنه أوصى برعاية الأسير حتى لو كان هذا الأسير كافرًا به سبحانه! وقد أبدع رسول الله ﷺ في تطبيق هذا المنهج الإلهي الرحيم فخرجت لنا عدة مواقف نجزم أنها لا توجد في تاريخ أمة غير أمة الإسلام. وسوف يكون حديثنا في هذا المبحث من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: إطعام الأسرى:

قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. في هذه الآية الكريمة من الدستور الإسلامي - القرآن الكريم يحثُّ الله تعالى عباده المؤمنين على الإحسان إلى أسراهم وإطعامهم، ويعِدُهم بذلك النعيمَ في الآخرة، وليس هذا الإحسان في حال توافر المال فقط، بل إن الله يأمر أن يكون هذا الإطعام والإحسان في كل الأحوال، حتى في حال الفقر والاحتياج! وهذا الذي تحمله لنا كلمة «على حبِّه».. يقول ابن كثير: أي يُطعمون الطعام وهم يحبونه ويشتهونه[(٢)]. ثم إن الأروع من ذلك أن الله ﷻ يحثُّ المسلمين على فعل ذلك لا لشيء إلا لله ﷻ، فيقول: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩]، فنحن لا نُكْرِم الأسرى أو نطعمهم لرغبتنا في ثناء معين، أو طلبًا

(١) هنري ماسيه، مستشرق فرنسي.
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٨٤.

للمعاملة بالمثل، أو خوفًا من رقابة محلية أو عالمية، أو لغير ذلك من مصالح الدنيا، إنما نفعل ذلك لأننا نتقرب بهذا الفعل إلى الله ﷻ، ونرجو منه سبحانه المكافأة والجزاء، وهذا يُعطي أمانًا أكثر للأسير، لأن المسلم يُحسن معاملته وهو يعلم أن الله يراقبه، ومادام الله يراقبنا في كل أحوالنا فسوف نُحسن إلى الأسرى في كل تعاملاتنا!

إنها فلسفة إسلامية سماوية راقية ليست في أيٍّ من مناهج الأرض!

قال ابن عباس: أمر رسول الله ﷺ أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء، وهكذا قال سعيد بن جبير، وعطاء، والحسن، وقتادة[1].

ويعلق ابن جريج[2] على نفس الآية فيقول: لم يكن الأسير على عهد رسول الله إلا من المشركين، وقال أبو عبيد: فأرى أن الله قد أثنى على من أحسن إلى أسير المشركين[3].

ولم يكن الصحابة رضوان الله عليهم يُقدِّمون للأسرى ما بقي من طعامهم، بل كانوا ينتقون لهم أجود ما لديهم من طعام، ويجعلونهم يأكلونه عملًا بوصية رسول الله ﷺ بهم، وهاهو أبو عزيز - شقيق مصعب بن عمير ﷺ - يحكي ما حدث يقول: «كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خَصّوْني بالخبز، وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها؛ فأستحي فأردها فيردها عَلَيَّ ما يمسها!

قال ابن هشام: وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث[4]. أي أنه لم يكن شخصية عادية، بل كان من أشد المشركين على المسلمين، فلا يحمل اللواء إلا شجعان القوم وسادتهم! ولكن هذا لم يغير من الأمر شيئًا، لأن الرحمة بالأسير أصل من أصول التعامل لا يجوز التخلي عنه تحت أي ظرف.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٨٤.

(٢) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي (٧٠ - ١٥٠هـ) مولى بني أمية، كان أحد أوعية العلم، وهو أول من صنَّف التصانيف في الحديث. الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٥٢، والأعلام ٤/ ١٦٠.

(٣) البيهقي: شعب الإيمان ٦/ ٥٢٦.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ١٥، ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤٧٥.

المطلب الثاني: كسوة الأسرى:

لم يقتصر المسلمون على إطعام أسراهم من المشركين؛ بل إنهم كانوا يقدمون لهم الملابس أيضًا، وهذا ثابت في الصحيح، فقد جعل البخاري ﷺ بابًا في الصحيح سمّاه: باب الكسوة للأسارى، وذكر فيه أن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أُتِيَ بِأُسَارَى وَأُتِيَ بِالْعَبَّاسِ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثَوْبٌ فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ قَمِيصًا فَوَجَدُوا قَمِيصَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ يَقْدُرُ عَلَيْهِ فَكَسَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُ..»[1] الحديث.

وورد أيضًا أن رسول الله ﷺ أمر لأسرى هوازن بالكساء فقد أمر رجلًا أن يقدم مكة فيشتري للسبي – الأسرى – ثياب المُعَقَّد[2]، فلا يخرج الحرُّ منهم إلا كاسيًا[3].

المطلب الثالث: توفير المأوى لهم:

حتى يتم النظر في شأن الأسرى كان المسلمون يجعلونهم في أحد مكانين؛ إما المسجد وهو أشرف مكان عند المسلمين، وإما بيوت الصحابة ﷺ.

وكان المستهدف من إبقاء الأسرى في المسجد أن يروا أخلاق المسلمين وعبادتهم لعلهم يتأثرون بها، فيدخل الإيمان في قلوبهم، وقد حدث هذا بالفعل مع بعضهم كثمامة بن أثال ﷺ[4].

وأما إبقاء الأسرى في منازل الصحابة ﷺ فكان هذا إكرامًا كبيرًا من المسلمين هؤلاء الأسرى؛ فعن الحسن البصري أن رسول الله ﷺ كان يُؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول: «أَحْسِنْ إليه»، فيكون عنده اليومين والثلاثة، فيؤثره على نفسه[5].

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب كسوة الأسرى (٢٨٤٦)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٨٥٧٠).

(٢) ثياب المعقد: المُعَقَّدُ: ضَرْبٌ من بُرُودِ هَجَر. انظر: تاج العروس ١/ ٢١٣٠.

(٣) البيهقي: دلائل النبوة ٥/ ٢٦٤.

(٤) البخاري: كتاب أبواب المساجد، باب الاغتسال إذا أسلم وربط الأسير أيضًا في المسجد (٤٥٠). ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المنّ عليه (١٧٦٤)، وأبو داود (٢٦٧٩)، والنسائي مختصرًا (٧١٢)، وابن خزيمة (٢٥٢).

(٥) الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٢٩/ ١٥٥، والحديث من مراسيل الحسن البصري.

المبحث الرابع
راحة الأسير النفسية

أي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلما أدرك محمد؟![1]

لم يكن اهتمام رسول الله ﷺ بالأسرى عن طريق راحتهم البدنية فقط، إنما كان يحرص تمام الحرص على راحتهم النفسية كذلك، وهذه مشاعر راقية لم يكن يعرفها أو يسمع عنها أهل زمانهم، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه حتى بعد هذا التطور الكبير في المجتمعات الإنسانية ما زالت البشرية تفتقد مثل هذه المشاعر الفيَّاضة، والأحاسيس المرهفة!

وسوف يكون حديثنا – بإذن الله – في هذا الموضوع من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: الرفق بالأسرى، واللين معهم:

من أخلاق الإسلام البارزة في التعامل مع الأسرى الرفقُ ولين الجانب، حتى يشعروا بالأمن والطمأنينة، وقد كان من أخلاق رسول الله ﷺ أنه كان يردُّ على استفسارات الأسرى، ولا يسأم أو يَمَلُّ من أسئلتهم، مما يُوحِي بسعة صدره، وعمق رحمته ﷺ التي شملت البشر جميعًا...

ففي صحيح مسلم عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «كَانَتْ ثَقِيفُ حُلَفَاءَ لِبَنِي عُقَيْلٍ فَأَسَرَتْ ثَقِيفُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ وَأَسَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ رَجُلًا مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ وَأَصَابُوا مَعَهُ الْعَضْبَاءَ[2] فَأَتَى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ فِي الْوَثَاقِ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ؟

(١) لامارتين، شاعر وأديب فرنسي.

(٢) هي ناقة رسول الله ﷺ.

فَقَالَ: بِمَ أَخَذْتَنِي وَبِمَ أَخَذْتَ سَابِقَةَ الْحَاجِّ؟[(١)]

فَقَالَ: إِعْظَامًا لِذَلِكَ أَخَذْتُكَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ ثَقِيفَ.

ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ فَنَادَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَحِيمًا رَقِيقًا فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ؟

قَالَ: إِنِّي مُسْلِمٌ.

قَالَ: لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ ثُمَّ انْصَرَفَ فَنَادَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ؟

قَالَ: إِنِّي جَائِعٌ فَأَطْعِمْنِي وَظَمْآنُ فَاسْقِنِي، قَالَ: «هَذِهِ حَاجَتُكَ»[(٢)].

فهذا التردد على الرجل كلما نادى عليه ﷺ - وهو القائد الأول للدولة الإسلامية - ومناداته باسمه ﷺ مجردًا يدل على مدى الرحمة والإنسانية التي يحملها الرسول ﷺ في قلبه لكل البشر.

وروى الأسود بن سريع أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِأَسِيرٍ فَقَالَ: اللهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ»[(٣)]، وهذا مما يدل على سماحته ﷺ وعفوه وَصَفْحِهِ، وسعة صدره، وحسن تعامله.

وأعطى رسولُ الله ﷺ لأبي الهيثم بن التيهان أسيرًا، وأمره بالإحسان إليه، فأخذه أبو الهيثم إلى منزله، ثم قال: إن رسول الله ﷺ أوصاني بك خيرًا، فأنت حُرٌّ لوجه الله، ورُوِيَ أنه قال له: «أنت حر لوجه الله، ولك سهم من مالي»[(٤)].

---

(١) سابقة الحاج: أراد بها العضباء؛ فإنها كانت لا تسبق أو لا تكاد تسبق، معروفة بذلك.

(٢) مسلم: كتاب النذر، باب لا وفاء لنذر في معصية الله (١٦٤١)، وأبو داود (٣٣١٦)، وابن حبان (٤٨٥٩)، والشافعي (١٤٩٠)، والدارقطني (٣٧)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٧٨٤٥)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٦٥١.

(٣) أحمد (١٥٦٢٥)، والطبراني في الكبير (٨٤٠) وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني، وفيه محمد بن مصعب، وَثَّقَه أحمد، وضَعَّفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ١٠/ ٣٢٩.

(٤) الإمام البيهقي: شعب الإيمان ٤/ ١٤٦ (٤٦٠٦).

المطلب الثاني: احترام مشاعرهم الإنسانية:

إن الإسلام يرفع من قيمة البشر، ويحترم المشاعر الإنسانية احترامًا كبيرًا، سواء مع المسلمين أو مع غيرهم، وقد وجدنا تطبيقات عملية كثيرة لهذا الأمر في حياة النبي ﷺ، ويظهر هذا الأمر بوضوح في أوقات الشدائد وبعد الحروب خاصة، فنجد النبي ﷺ يوجه أصحابه الكرام توجيهات إنسانية راقية في شأن التعامل مع الأسرى من النساء والأطفال؛ فينهى عن التفريق بين الأم وطفلها؛ فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ ﷺ قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

ولعل القصة التالية تكون خاتمة جميلة لهذا المبحث، حيث تظهر فيها رحمة الرسول ﷺ في أبهى صورها، فقد أتى أبو أُسَيْدٍ الأنصاري[2] ﷺ بسبي من البحرين فَصُفُّوا، فقام رسول الله ﷺ، فنظر إليهم؛ فإذا امرأة تبكي؛ فقال: ما يُبْكِيكِ؟ فقالت: بِيعَ ابني في بني عبس؛ فقال رسول الله ﷺ لأبي أسيد: لَتَرْكَبَنَّ فَلَتَجِيئَنَّ به، فركب أبو أسيد فجاء به[3]!

لقد رق قلب رسول الله ﷺ للمرأة الأسيرة فأرسل أحد جنوده إلى بلد بعيد ليأتي لها بابنها، حتى يهدأ بالها، وتجف دموعها!

ولعل السؤال الأبرز الذي يخطر على بالنا الآن: هل هناك قائد عسكريٌّ في العالم ينتصر في معركة فيشغل نفسه وجنوده بإسعاد امرأة أسيرة بسيطة لا يعرفها أحد؟!!

إن الإجابة التي يعرفها الجميع هي أن ذلك أبدًا لا يكون !!

إلا أن يكون هذا القائد هو محمد رسول الله ﷺ !!

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

---

(١) الترمذي (١٥٦٦)، وقال: حديث حَسَنٌ غريب. وأحمد (٢٣٥٤٦)، والحاكم (٢٣٣٤) وقال: صحيح على شرط مسلم. ولم يخرِّجاه، والطبراني في الكبير (٤٠٨٠)، والبيهقي في الكبرى (١٨٠٨٩)، وقال الألباني: صحيح. صحيح الجامع (٦٤١٢).

(٢) هو عبد الله بن ثابت الأنصاري، وكنيته أبو أسيد، وهو غير أبي أسيد الساعدي، كان يخدم النبي ﷺ، وروى عنه «كلوا الزيت وادهنوا به». أسد الغابة ٥/ ١٣، الإصابة (٩٥٧٣).

(٣) الحاكم (٦١٩٣)، وقال: حديث صحيح الإسناد. ولم يخرِّجاه، ورواه سعيد بن منصور في سننه (٢٦٥٤).

الباب الرابع

رؤية غير المسلمين لأخلاق الحروب

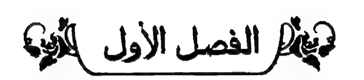
ذكرنا في صفحات سابقة في هذا البحث بعض المبادئ والأفكار لدى الأمم المختلفة بخصوص قضية الحروب وأخلاقها، وفي هذا الباب سنتعرَّض – إن شاء الله – لمواقف عملية تعكس رؤية غير المسلمين للحرب، وتؤكد ما ذكرناه آنفًا من عدوانية المحاربين ودمويتهم إذا غاب عنهم عنصر الدين والخُلُق.

وعلى الطرف الآخر سنذكر بإذن الله بعض الشهادات الصادقة التي أدلى بها دارسون ومحللون غير مسلمين، قرءوا التاريخ الإسلامي وعرفوه فقالوا كلمة حق سطرها التاريخ، تشهد بعظمة التشريع الإسلامي، وعظمة المطبِّقين له، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ.

وعلى هذا فسيأتي هذا الباب في فصلين بإذن الله هما:

الفصل الأول: الحروب غير الإسلامية.. واقع مرير!!

الفصل الثاني: شهادات غير المسلمين على أخلاق الرسول ﷺ وحروبه



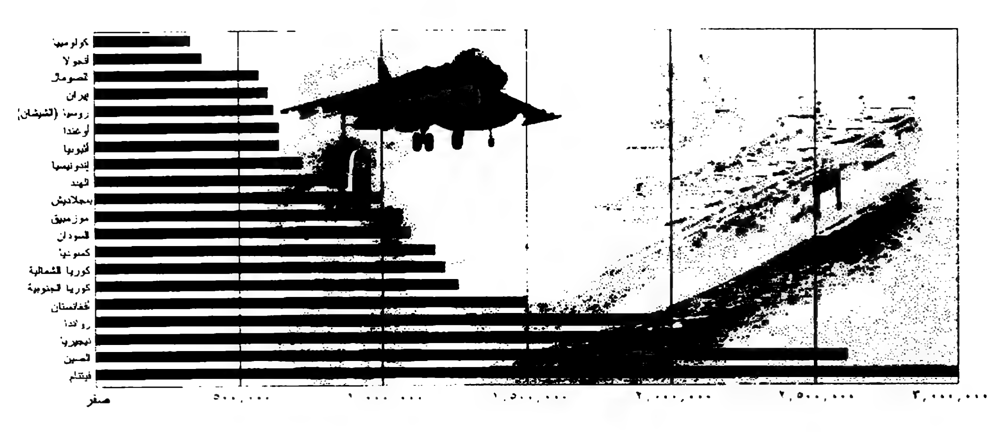
الحروب غير الإسلامية.. واقع مرير!!

وفي الوقت الذي نجد فيه المسلم حريصًا على حسن خلقه، ونجد الوفاء والعدل والرحمة صفات متأصلة في سلوكه حتى في وقت الحرب، نجد العكس تمامًا من كثير من غير المسلمين، فنجد الغدر والظلم والقسوة، وعدم التورع عن الإتيان بأحط السلوكيات، واقتراف الأفعال المشينة في سبيل تحقيق نصر زائف ورخيص تعف عنه النفس السوية، وما أقسى المعاناة التي تعانيها شعوب العالم (شكل ٧) أجمع من جرَّاء هذا الانهيار الأخلاقي في عامة حروب هذا الزمان!

ولنقرأ معًا في هذا الباب صفحات من تاريخ غير المسلمين في حروبهم، وذلك في المبحثين التاليين:

المبحث الأول: حروب غير المسلمين عبر التاريخ.

المبحث الثاني: حروب غير المسلمين المعاصرة.



شكل (٧)

الضحايا نتيجة الحروب ١٩٤٥ ٢٠٠٠

المبحث الأول
حروب غير المسلمين عبر التاريخ

خلّص محمد الأمم من تحجرها، ورفعها إلى سبيل الرُّقي والعمران[(١)].

وسوف يكون الحديث في هذا المبحث منقسمًا إلى مطلبين هما:

المطلب الأول: حروب غير المسلمين ضد المسلمين.

المطلب الثاني: حروب غير المسلمين ضد غير المسلمين.

المطلب الأول: حروب غير المسلمين ضد المسلمين:

وسوف نتناول هذا المطلب من خلال النقاط الآتية:

النقطة الأولى: الحروب الصليبية:

تعد سلسلة الحملات الصليبية التي شنَّها العالم الغربي على العالم الإسلامي من أبرز الأمثلة التاريخية للفساد الخلقي، ولاسيما أنها استخدمت شعارات دينية لتحقيق أهداف دنيوية ضيقة، وتحت شعار تحرير المقدسات قامت بأبشع أعمال السلب والنهب..

لقد بدأت الحرب الصليبية بعد حملة إعلامية كاذبة ومضللة، ولعل أول من وقع في برائنها هم البسطاء من شعب أوروبا الذين تم تجنيدهم باسم نُصرة الدين، والغرض الحقيقي كان خدمة مصالح وأهداف الفئة الحاكمة التي أرادت تغطية فشلها في أمور الحكم عن طريق شغل الشعب بقضية كبيرة براقة..

وقد سجل المؤرخ الأمريكي المعاصر ول ديورانت في سِفره القيم قصة الحضارة، وفي

---

(١) جول لابوم، مستشرق فرنسي.

تأريخه لهذه المرحلة من التاريخ الأوروبي الكثير من مظاهر الكذب الذي بُنِيَت عليه الحملات الصليبية فقال: «كان من الأسباب المباشرة للحروب الصليبية هو رغبة المدن الإيطالية في توسيع ميدان سلطانها التجاري الآخذ في الازدياد، بعد الاستيلاء على صقلية، وأجزاء كبيرة من أسبانيا من تحت سيطرة العالم الإسلامي (٤٥٢هـ- ٤٨٣هـ)، حيث أصبح البحر المتوسط الغربي حرًا للتجارة المسيحية، وعمَّ الرخاء المدن الإيطالية نتيجة هذه التجارة، ومن ثَمَّ أخذت تتطلع للقضاء على نفوذ المسلمين في الجزء الشرقي من البحر المتوسط، وفتح أسواق الشرق الأدنى لبضائع غرب أوروبا، ولسنا نعلم إلى أي حد كان هؤلاء التجار الإيطاليون قريبين من مسامع البابا؟!»[١].

أما عن الأسباب المعلنة للحرب الصليبية فقد أورد ديورانت نص الخطاب الذي ألقاه البابا على مسامع الوفود التي تمَّ جمعها من شتى أنحاء أوروبا، وقد جاء في هذا الخطاب: «يا شعب الفرنجة! شعب الله المحبوب المختار! لقد جاءت من تخوم فلسطين أنباء محزنة تعلن أن جنسًا لعينًا (يقصد المسلمين!) أبعد ما يكون عن الله، قد طغى وبغى في تلك البلاد، بلاد المسيحيين، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق، ولقد ساقوا الأسرى إلى بلادهم، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع التعذيب، وهم يهدمون المذابح في الكنائس بعد أن يدنسوها، على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، كما أن الأرض التي تسكنوها ضيقة وطعامها لا يكفيكم، فاذهبوا وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث، وتملكوها أنتم، إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج»[٢].

وبالفعل تمَّ تجهيز جيش عرمرم وتوجه نحو فلسطين لإنفاذ مهمته المقدسة!!

وضرب الصليبيون الحصار حول القدس مدة أربعين يومًا كاملة حتى سقطت في أيديهم[٣]، فماذا تراهم فعلوا حماة الدين في الأراضي المقدسة؟

---

(١) ديورانت: قصة الحضارة ١٥/ ١٥-١٧.

(٢) المرجع السابق ١٥/ ١٣-١٤.

(٣) المرجع نفسه ١٥/ ٢٤.

يصف المستشرق الفرنسي الشهير جوستاف لوبون سلوك الصليبيين وأخلاقهم بعد احتلالهم القدس قائلًا: «لقد كان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب ﷺ نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون، حيث عقد الصليبيون مؤتمرًا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس، من المسلمين، واليهود، وخوارج النصارى، الذين كان عددهم نحو ستين ألفًا، فأفنوهم عن بَكْرَةِ أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدًا ولا شيخًا!! فقد قطعت رءوس بعضهم، وبقرت بطون بعضهم، وحرق بعضهم في النار، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار!..»[1].

كما أورد المؤرخ ديورانت في كتابه قصة الحضارة شهادة قس يدعى ريموند الإجيلي وكان شاهد عيان على أفعال الصليبيين في القدس فقال: «لقد شاهدنا أشياء عجيبة، إذ قطعت رءوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رميًا بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام، ثم أحرقوا في النار، وكنت ترى في الشوارع أكوام الرءوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل»[2].

النقطة الثانية: إعصار التتار:

نذكر التتار كمثال للقسوة المفرطة، والتجرد من أي مشاعر إنسانية، لقد اجتاحت عاصفة الهمجية التترية أنحاء العالم أجمع، فأتت على الأخضر واليابس، ويكفي أن نذكر من مآسيهم ما فعلوه إثر إسقاطهم عاصمة الخلافة الإسلامية مدينة بغداد (٦٥٦هـ) حيث قتلوا خليفة المسلمين ومعاونيه ومعهم مليون مسلم ما بين رجل وامرأة وطفل وشيخ، لقد استمر التقتيل أربعين يومًا كاملة رغم استسلام المسلمين!! [3]

ويجانب بشاعة التتار في قتلهم وتنكيلهم للبشر وإفسادهم في الأرض يأتي ما فعلوه في

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ٣٢٦، ٣٢٧.

(٢) ديورانت: قصة الحضارة ١٥/ ٢٤، ٢٥.

(٣) د.راغب السرجاني: قصة التتار ص١٥٧.

مكتبة بغداد كدليل على رغبتهم المريضة في القضاء على أي رمز للحضارة والتقدم، لقد كانت مكتبة بغداد أعظم دور العلم على وجه الأرض في ذلك الوقت، واستطاعت الحفاظ على هذه المكانة الرائدة قرابة خمسة قرون متتالية، لقد كانت تحوي ملايين المجلدات في زمان ليس فيه طباعة!! لقد كانت مكتبة بغداد بمثابة جامعة هائلة، حوت خلاصة ما وصل إليه الفكر الإنساني في الدنيا بأسرها، فماذا فعل التتار بهذا العلم؟ لقد حمل التتار الكتب الثمينة وألقوها في نهر دجلة!! حتى تحول لون مياه النهر إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب، وبكل أسف فإن مثل هذه الجرائم متكررة في التاريخ، فقد فعلها الصليبيون في الشام عندما أحرقوا ثلاثة ملايين كتاب في مكتبات طرابلس اللبنانية، وفعلها الصليبيون أيضًا في الأندلس عندما أحرقوا مليون كتاب من مكتبة غرناطة!!

أي فساد وأي إفساد في الأرض[١]!

النقطة الثالثة: سقوط الأندلس:

سقطت الأندلس في يد الأسبان بسقوط آخر معاقلها مملكة غرناطة في ٢ ربيع الأول ٨٩٧هـ، وقد استعصت غرناطة على الغزو العسكري، وصمدت أمام الحصار، وهنا لم يجد الملك الصليبي فرناندو وشريكته إيزابيلا مَلِكَي قشتالة وأرجون أمامها إلا المفاوضات التي انتهت بعقد معاهدة مع محمد بن أبي الحسن ملك غرناطة[٢].. وكانت المعاهدة تنص على تسليم غرناطة مقابل التعهد بعدم المساس بمقدسات المسلمين، وغيرها من الشروط التي تحفظ على المسلمين دينهم وأعراضهم وأموالهم..

لقد تعهد الملكان الكاثوليكيان كتابةً في المعاهدة ما نصه: «أن ملكي قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينها وشرفهما الملكي القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من نصوص، ويوقّعانه باسميهما ويمهرانه بخاتميهما».

ثم تكرر هذا التعهد بعد مرور سنة على تسليم غرناطة بما نصه: «ينبغي على الأمير وسائر

---

(١) د.راغب السرجاني: قصة التتار ١٥٩-١٦٢.

(٢) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص٤٥٤.

عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد، وألا يعمل ضده شيء، أو ينقض منه شيء الآن وإلى الأبد، وأنهما يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي بأن يحافظا ويأمران بالمحافظة على كل ما يحتويه بندًا بندًا إلى الأبد، وقد ذُيِّل هذا التوكيد بتوقيع الملكين، وتوقيع ولدهما وجمع كبير من الأمراء والأحبار والأشراف والعظماء»[١]..

ولكن ما إن مرت بضع سنوات واستقر الأمر للغزاة في ديار المسلمين إلا وظهر الوجه القبيح وبدأ نقض بنود المعاهدة واحدًا تلو الآخر، وحدث تعاون أثيم بين السلطات القشتالية والكنيسة لفرض أمر واقع جديد، وظهرت محاكم التفتيش تبحث عن كل مسلم، وزالت حرمة المسلمين، وأدركهم الهوان والذلة، واستطال عليهم النصارى، وفرضت عليهم المغارم الثقيلة، ثم التعذيب والبطش (صورة ١٤)، وقطع عنهم الأذان في الصوامع، وأجبروهم على الخروج من غرناطة إلى القرى، فخرجوا أذلة صاغرين، ثم بعد ذلك تم إجبار المسلمين على التنصر، حتى صارت الأندلس كلها للنصارى، ولم يبق من يجهر بكلمة التوحيد والأذان، وجعلت في المساجد والمآذن النواقيس والصلبان، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، وإنا لله وإنا إليه راجعون[٢]!!

* * *

(١) عبد الرحمن علي حجي: التاريخ الأندلسي ص٥٦٩.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٥٧٠، ٥٧١.



صورة رقم (١٤)

المطلب الثاني: حروب غير المسلمين ضد غير المسلمين:

وسوف نتناول هذا المطلب من خلال نقطتين هما:

النقطة الأولى: حرب الأفيون:

وهي الحرب التي نشبت بين الصين وبريطانيا ما بين عام ١٨٣٩ - ١٨٤٢م وانتصر فيها البريطانيون، وكانت ذريعة الحرب تتلخص في انزعاج بريطانيا من القيود التي فرضتها الصين على التجارة الخارجية، ومن ثمَّ فقد حظرت الصين استيراد البضائع البريطانية عام ١٨٣٩م مما تسبب في خسائر مالية كبيرة للمملكة البريطانية، وكان من أهم الأسباب التي دفعت الصين لحظر الاستيراد الخارجي هو القضاء على تجارة وتهريب الأفيون المخدر إلى الأراضي الصينية، وكانت بريطانيا هي المصدر الرئيسي لهذا المخدر وكان يجلب عليها أرباحًا طائلة، وقد كانت الصين من أفضل الأسواق أمام التجار البريطانيين، كما أن الصين بعد فرضها للحظر قامت بمصادرة ٢٠,٠٠٠ صندوق من الأفيون كان بحوزة التجار البريطانيين[1]، فما كان من بريطانيا إلا أن اتخذت من هذا العمل ذريعة للحرب على الصين، وأجبرت الصين على عقد معاهدة نانكين معها عام ١٨٤٢م، وقد قضت هذه المعاهدة بفتح الموانئ الصينية أمام السلع البريطانية وفي مقدمتها الأفيون[2]!!

النقطة الثانية: إبادة الهنود الحمر:

بدأت مأساة الهنود الحمر منذ القرن السادس عشر الميلادي، عندما قامت انجلترا بغزو القارة الأمريكية الشمالية، الموطن الأصلي للهنود الحمر، ومن ساعتها وعلى مدار القرون الأربعة الماضية تعرض الهنود الحمر لسلسلة من حروب الإبادة بمختلف الوسائل، فلم يكن القتل بالبارود والسلاح الأبيض فقط، ولكن كان بوسائل بشعة؛ مثل نشر الأمراض القاتلة مثل الجدري والتيفود والحصبة وغيرها!! لقد كان عدد السكان الأصليين في الأمريكتين يبلغ ١٥٠ مليون نسمة، ينتمون إلى أربعمائة قبيلة، أين هم الآن؟ لقد تمت إبادتهم بالكامل ومحي

---

(١) د.إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا الحديث ص٩٠.

(٢) هيثم هلال: موسوعة الحروب ص٣٥٤.

تاريخهم وآثارهم، ولم يبق منهم الآن أكثر من مليون إنسان فقط[1]!!

إن المأساة التي تعرض لها شعب الهنود الحمر ليندى لها جبين البشرية جميعًا، وما تعرضوا له من ظلم وقسوة وعنصرية بغيضة ستظل تركة ثقيلة في عنق الدولة التي قامت على أنقاضهم.

النقطة الثالثة: الحروب بين الكاثوليك والبروتستانت:

هذه حروب طويلة مريرة لن نخوض في تفصيلاتها، ولكن سنذكر مثالًا واحدًا لما كان يحدث فيها، وهو ما عرف في التاريخ بمذبحة باريس، واضعين في الاعتبار أن الطائفتين ينتمون إلى ملّة واحدة هي النصرانية!

بدأت أحداث هذه المذبحة بدعوة الملك تشارلز التاسع لجموع «الهوجونوت» وهم من البروتستانت إلى باريس بدعوى موافقته على زواج زعيمهم من أخت الملك تشارلز شخصيًا، وجاءت بالفعل جموع البروتستانت لحضور حفل الزواج في باريس، وذلك في يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢، وهو يوم عيد القديس «بارثلميو». وفي منتصف الليل دق ناقوس كنيسة (سان جرمان) مؤذنًا ببدء المذبحة، فإذا بأشراف الكاثوليك والحرس الملكي وجموع الجماهير تنقض على بيوت الهوجونوت، وتأتي على مَن بها ذبحًا، فلما أصبح الصباح كانت شوارع باريس تجري بدماء ألفين من النفوس (صورة ١٥).

---

(١) منصور عبد الحكم: الإمبراطورية الأمريكية البداية والنهاية ص٣٣.



صورة رقم (١٥)

وتطايرت أنباء المذبحة المروعة إلى الأقاليم، فإذا بها تستحيل - بدورها - إلى مجزرة تجري بدماء ثمانية آلاف من هؤلاء المساكين، بل قيل: إن هذه المذبحة قد أودت بحياة نيف وعشرين ألفًا.

وقد أثار وقوع هذه المذبحة الغِبطَة والرضا في أوربا المسيحية الكاثوليكية كلها، وانهالت التهاني على تشارلز التاسع بغير حساب!! وكاد البابا جريجوري الثالث عشر يطير من السرور، حتى إنه أمر بسَكِّ أوسمة لتخليد ذكراها توزع على وجوه الشعب، وقد رسمت على هذه الأوسمة صورته، وإلى جانبه ملك يضرب بسيفه أعناق الملحدين، وكتب على هذه الأوسمة (إعدام الملحدين)، وأمر البابا - إلى جانب هذا - بإطلاق المدافع وإقامة القُدَّاس في شتى الكنائس، ودعا الفنانين إلى تصوير مناظر المذبحة على حوائط الفاتيكان، وأرسل تهنئته الخاصة إلى تشارلز.

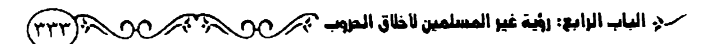
هذه هي أنباء مجزرة سان بارثلميو التي فتك فيها الكاثوليك بإخوانهم البروتستانت[1].

ومن العجيب أن البروتستانت حين قويت شوكتهم فعلوا الشيء نفسه مع الكاثوليك، ولم يكونوا أقل وحشية منهم..[2]

***

(١) الشيخ محمد الغزالي: التعصب بين المسيحية والإسلام ص ٣٢٥، ٣٢٦.

(٢) د/ عبد الودود شلبي: الإسلام وخرافة السيف ص ١٥٥، ١٥٨.



المبحث الثاني
حروب غير المسلمين المعاصرة

إن العالم أحوج ما يكون إلى رجلٍ في تفكير محمد[1]

لم يكن هذا العنف في الحرب، وغياب الأخلاق في التعامل أمرًا خاصًّا بالتاريخ القديم فقط، بل رأيناه في المعارك التي قادها زعماء ما يُسمَّى «بالحضارات» الحديثة أيضًا!! ورأينا ما يُعرف بالمذابح الجماعية (صورة ١٦)، ونعلم أنها محرَّمة في القوانين الدولية، ولكن أين الرقيب الذي يحاسبهم على تعديهم على القانون؟! وأين المهرب من قوة ظالمة لا رادع لها؟!

وسوف نتناول هذه الأحداث - إن شاء الله - من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: حروب ضد المسلمين.

المطلب الثاني: حروب ضد غير المسلمين.

(١) جورج برنارد شو، أديب إنجليزي شهير.



لجماعية المذابح الجماعية المذابح الجماعية المذابح الجماعية المذابح الجماعية

صورة رقم (١٦)

المطلب الأول: حروب ضد المسلمين:

وسوف نتناول هذا المبحث من خلال خمس نقاط وهي:

النقطة الأولى: مأساة الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٣٠ - ١٩٦٢م:

احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م، وحاولت أن تغيّر من هويّة الشعب الجزائري، ولما لم يستجبِ الجزائريون للفَرْنَسَة، وإن كان قد قبلها اليهود الجزائريون، بطشت الحكومة الفرنسية بمسلمي الجزائر، وحاربت لغتهم العربية، كما حاربت الثقافة الإسلامية، حيث قامت بإغلاق المدارس الإسلامية والكتاتيب!!

وقد جاء في تقرير رسمي رفعته لجنة التحقيق الفرنسية إلى الملك شارل العاشر سنة ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م، ما نصه: «كيف يجوز لنا أن نشكو من مقاومة الجزائريين للاحتلال، في وقتٍ قامت فيه فرنسا بتهديم المساجد، وإلغاء القضاء الشرعي، والاستيلاء على أموال الأوقاف، وتعيين الإمام والمفتي الموالين للإدارة الفرنسية؟! لقد أهدرت السلطات الفرنسية حقوق الشعب، وداست مقدساته، وسلبت حرياته، واعتدت على الملكية الفردية، ودنّس جنودها المساجد، ونبشوا القبور، وأعدموا شيوخًا من الصالحين؛ لأنهم تجرءوا على الشفاعة لمواطنيهم»[1]!

كما عملت فرنسا على توطين الفرنسيين في الأراضي الجزائرية ليكونوا عيونًا لها في الأراضي المحتلة، فأعطتهم أفضل الأراضي وأكثرها خصوبة ليشعروا بأهمية ما قُدّم لهم فيكونوا مخلصين لحكومتهم، كما عملوا على إفقار الجزائريين، ونشر المفاسد بينهم، وذلك بالإضافة إلى محاولاتهم المتكررة لإفساد المرأة المسلمة وخلعها من مجتمعها الإسلامي[2].

وابتكرت وسائل جديدة لقهر المسلمين، فقامت بجمع المتمردين ووضعت حولهم الأسلاك الشائكة، ثم تركتهم في الصحراء حتى قضوا جميعًا، تركتهم يعانون الموت البطيء في

---

(١) د/ جمال عبد الهادي محمد مسعود، أ/ علي لبن: المجتمع الإسلامي المعاصر (ب) أفريقيا ص٥٥ - ٥٨ بتصرف.

(٢) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي ٨/ ٥٢٢.

العراء، كما شكلت فرنسا فرقة خاصة مهمتها اغتصاب النساء وقتل الأطفال كنوع مبتكر لأي قرية يشتبه في تمردها[١]..

وأعلن قائد الغزو الفرنسي (روفيجور) عن رغبته في تحويل المساجد إلى كنائس، ثم قال: إنه يلزمه أجمل مسجد في المدينة ليجعل منه معبدًا للمسيح، واختار مسجد القشاوة وأمر على الفور بتحويله إلى كنيسة!! وفي الميعاد المحدد تقدمت إحدى فرق الجيش، وهاجمت المسجد بالفئوس والبلط، وإذا بداخل المسجد (٤٠٠٠ أربعة آلاف) مسلم اعتصموا جميعًا خلف الأبواب دفاعًا عن المسجد، فاندفعت نحوهم القوة العسكرية فدحرتهم بالسناكي والحراب؛ فخرُّوا صرعى وجرحى تحت أرجل الجنود، وقد استمرت هذه المعركة طوال الليل!! ولما انتهى الجنود من هذا المسجد تحولوا إلى مسجد (القصبة) الغني بالذكريات عن الإسلام، ففعلوا به ما فعلوه بالمسجد السابق..!! ثم اصطف الضباط، والجنود بعد ذلك لإقامة قداس ابتهاجًا بهذا الفوز العظيم[٢]!!

ثم قامت الثورة الجزائرية في عام ١٩٥٤م، أي بعد أكثر من مائة عام على الاحتلال!! وبمطلب وحيد وهو الحصول على الاستقلال، فماذا كان رد الفعل الفرنسي المتحضر؟!

لقد تمادت فرنسا في عنادها وشنت على الجزائر حرب إبادة كاملة وتدمير شامل، وأخذت القوات الجوية الفرنسية في دك القرى الجزائرية، وأبيدت قرى بأكلمها، وكان الجيش الفرنسي ينتقم من الأهالي العزل ويثأر من الشيوخ والنساء والأطفال الذين صمموا على الحياة الأبية الحرة، فكم من قرية أحرقت ادعى الفرنسيون أنها كانت ملاذًا للمجاهدين، وكم من مسلم تعرض للتعذيب الوحشي بتهمة مساندة الثوار[٣]!!

النقطة الثانية: مأساة الشيشان:

لا توجد أية صلات تربط ما بين سكان منطقة القوقاز ومنهم الشيشان وبين الروس،

---

(١) هيثم هلال: موسوعة الحروب ص٣٣٧.

(٢) د/ عبد الودود شلبي: لماذا يخافون الإسلام ص١١٣.

(٣) هيثم هلال: موسوعة الحروب ص٣٤٠-٣٥٣.

سواء من الناحية العرقية أو الدينية أو الثقافية، ولكنه الطمع وغرور القوة، حيث تعد منطقة القوقاز عمقًا استراتيجيًا واقتصاديًا لروسيا، وطريقًا يوصلها إلى وسط أسيا ذات الموارد الاقتصادية الهائلة، ومن ثمَّ اتخذت روسيا قرار غزو بلاد القوقاز[١]!!

ومنذ بداية الاحتلال الروسي للشيشان والشعب الشيشاني المسلم يجاهد من أجل أن ينال حريته، ويكون الرد الروسي بمنتهى القسوة واستخدام أبشع الوسائل لقمع المسلمين، وتكرر هذا المشهد كثيرًا في عهد الاتحاد السوفيتي، وحتى بعد تفككه وسقوطه.. ففي عهد الاتحاد الشيوعي السوفيتي تم نفي مئات الألوف من سكان الشيشان إلى كازاخستان وقيرغيزستان، بينما تعرض من بقي من الشيشان للكثير من البطش بإعدام الشيوخ والأئمة وإغلاق المساجد، واستمرت هذه السياسة التعسفية بتهجير أعداد كبيرة من مسلمي الشيشان إلى مناطق روسية، ونقل شعوب روسية إلى الشيشان بهدف إلغاء الهوية القوقازية عن طريق تذويب شعوب القوقاز المسلمة في الشعب الروسي، وأغلقت السلطات الروسية المساجد والمدارس الإسلامية، وصادرت الأوقاف الإسلامية، ومنعت التعليم الديني في المدارس، ومُنع المسلمون من إقامة الشعائر الدينية[٢].

وحتى بعد تفكك الاتحاد السوفيتي عانت الشيشان الكثير حتى حصلت على الاعتراف الروسي بحقها في تقرير مصيرها عام ١٩٩٦م، لقد دفع الشعب الشيشاني ١٠٤,٠٠٠ ضحية من أبنائه معظمهم من النساء والأطفال بعد تعرُّضِهم لعمليات إبادة وحشية على يد الجيش الروسي المدجج بأحدث أنواع الأسلحة[٣]، ورغم هذا الاعتراف بالحق الشيشاني مازالت روسيا حتى الآن -٢٠١٠م- تماطل وتفرض وصايتها على الحكومة الشيشانية!!

النقطة الثالثة: مأساة المسلمين في تركستان الشرقية:

بدأ الاحتلال الصيني لتركستان الشرقية في عام ١٩٤٩م، والسبب الرئيسي للاحتلال

---

(١) د.رأفت غنيمي: تاريخ آسيا الحديث والمعاصر ص٣٧٧.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٣٨١،٣٨٢.

(٣) محمود عبد الرحمن: تاريخ القوقاز ص١٩٣ بتصرف.

الصيني هو الطمع فيما تمتلكه تركستان الشرقية من ثروات طبيعية ضخمة، فهي تمتلك احتياطي نفطي ينافس احتياطي دول الشرق الأوسط، بالإضافة إلى رصيد ضخم من أجود أنواع اليورانيوم في العالم..

بدأت الصين احتلالها للبلاد بمذابح رهيبة، ثم عملت على استقدام مهاجرين صينيين بأعداد ضخمة في عملية احتلال استيطاني واسعة، وذلك للتقليل من عدد أهل البلاد المسلمين، ثم ألغى الصينيون الملكية الفردية، واسترقوا الشعب المسلم، وأعلنوا رسميًا أن الإسلام خارج على القانون ويعاقب كل من اعتنقه، وألغوا المؤسسات الدينية وهدموا أبنيتها، كما اتخذوا من المساجد أندية ومقاهي لجنود الاحتلال، وألغوا تدريس اللغة التركية والتاريخ الإسلامي من المدارس والمعاهد العليا، واستبدلوها بتاريخ الصين واللغة الصينية وتعاليم ماوتسي تونج، وأصبح المسلمون مجبرين على التزاوج مع الصينيين، والعامل المسلم مجبر على العمل ١٨ ساعة يوميًا في ظروف قاسية[١]..

وقامت الصين بتقسيم تركستان الشرقية، وغيرت اسمه إلى إقليم شينجيانج، وعندما ثار الشعب التركستاني المسلم استخدمت الصين أبشع الوسائل لقمعه، ونكلت بالمعارضين وقتلتهم، حتى بلغ عدد القتلى من المعارضين المدنيين ١٠٠,٠٠٠ مسلم، وذلك فقط فيما بين عامي ١٩٤٩ - ١٩٥٣م، كما قامت الحكومة الصينية بقتل ٧٥,٠٠٠ آخرين في عام ١٩٦٦م، ورغم كل هذا العناد والتجبر الصيني مازال الشعب التركستاني المسلم يجاهد للحصول على حقه[٢].

النقطة الرابعة: مأساة المسلمين في البلقان:

يُعد ما حدث للمسلمين في منطقة البلقان وما واجهوه من ظلم وقهر على يد الصرب النصارى علامة بارزة على الانحدار الخلقي الذي أصاب نصارى هذه المنطقة، بل وأوروبا بكاملها نظرًا لتغافلها وصمتها المريب إزاء ما تعرض له المسلمون في هذه المنطقة من حروب بهدف إبادتهم وطردهم من موطنهم الذي ولدوا ونشأوا فيه لا لشيء إلا لكونهم مسلمين.

---

(١) د. محمد حرب: الإسلام في آسيا الوسطى والبلقان ص١٤١، ١٤٢.

(٢) المرجع السابق نفسه ص١٧٣.

إن صمت الدول الأوروبية حيال سلسلة الجرائم التي تعرض لها المسلمون في هذه المنطقة إنما هي وصمة وسقطة أخلاقية كشفت عن النظرة العنصرية البغيضة المتأصلة في نفوسهم، وفضحت زيف ما تتشدق به الحضارة الغربية عن العدالة والمساواة وحقوق الإنسان، إنما هي مجرد شعارات جوفاء لا وجود لها على أرض الواقع.

لقد بدأت معاناة المسلمين في منطقة البلقان منذ عام ١٩١٣م عندما بدأت سيطرة الصرب على هذه المنطقة، وهو الوقت الذي شهد نهايات الخلافة العثمانية وتراجع قوتها، وصار المسلمون غرباء في وطنهم، وأصبح الصرب هم أصحاب الديار، وكان الصرب يحلمون بصربنة المنطقة كلها، وتحويل سكانها إلى الديانة النصرانية بالقوة، وفي سبيل تحقيق هذا الحلم لاقى المسلمون الأهوال على أيدي الصرب، ففي عام ١٩٤٥م قام الصرب بذبح ٤٧,٠٠٠ مسلم من سكان إقليم كوسوفا، ثم قام الزعيم اليوجوسلافي الشهير تيتو في عام ١٩٤٦م بإبادة ٢٤,٠٠٠ مسلم، كما ألغت الدولة الشيوعية المحاكم الشرعية، ومنعت الحجاب، مما دفع أربعة ملايين مسلم للهجرة والفرار بدينهم[1].

ثم قام الصرب عام ١٩٩٢م بسلسلة من المذابح للمسلمين في مدينتي البوسنة والهرسك، مما أسفر عن عشرات الآلاف من القتلى[2]، وإمعانًا في القهر شرع الجنود الصرب في اغتصاب نساء المسلمين، وقد قدَّرت الأمم المتحدة عدد ضحايا هذه الجريمة بأنهم ما بين ٢٠,٠٠٠ إلى ٥٠,٠٠٠ امرأة[3]، وقد اعترفت حكومة جمهورية صرب البوسنة أخيرًا في شهر يونيو ٢٠٠٤م بارتكاب أحد أبشع هذه المجازر، وهي مجزرة سربرينتشا (صورة ١٧) والتي حدثت في عام ١٩٩٥ - وراح ضحيتها ثمانية آلاف مسلم تم إعدامهم دفعة واحدة[4]!!

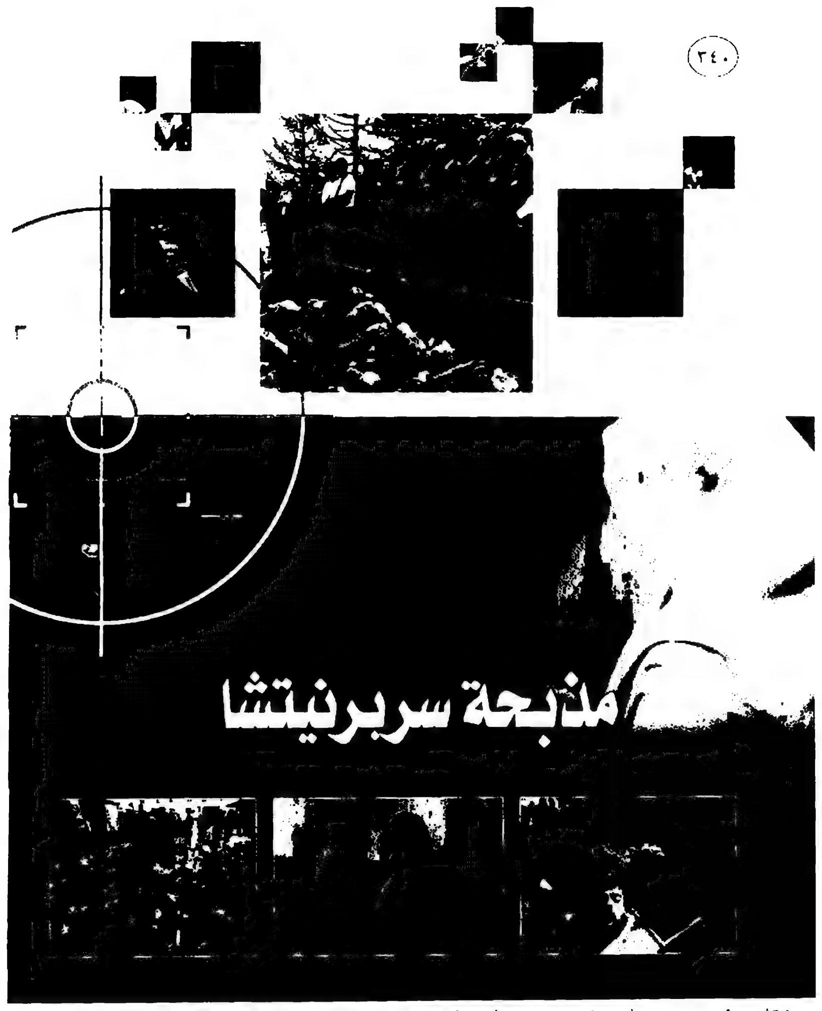
---

(١) محمود شاكر: محنة المسلمين في كوسوفا ص١١٢-١١٨.

(٢) د/ أحمد بن علي تمراز، حسين عمر سباهيتش: جمهورية البوسنة والهرسك قلب أوروبا الإسلامي ص٦٩ - ٧٢.

(٣) تقرير أشكال العنف ضد المرأة ٢٠٠٦م، الجمعية العامة للأمم المتحدة ص٦٠.

(٤) موقع هيئة الإذاعة البريطانية على الإنترنت ١١/ ٦/ ٢٠٠٤م، الرابط الإلكتروني
http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/news/newsid



ربرنيتشا - مذبحة سربرنيتشا - مذبحة سربرنيتشا - مذبحة سربرنيتشا - مذبحة سربرنيتشا -

صورة رقم (١٧)

وليست سربرينتشا إلا مثال من أمثلة كثيرة، ويكفي أن نشير إلى أنه قد تم اكتشاف ثلاثمائة مقبرة جماعية مليئة بجثث المسلمين المشوهة[١]!!

النقطة الخامسة: مأساة المسلمين في فلسطين:

لاقى الفلسطينيون على أيدي المحتلين اليهود العديد من المجازر البشعة بهدف التطهير العرقي، وإفراغ أرض فلسطين من سكانها الأصليين، واستبدالهم باليهود الذين يتم استقدامهم من شتى أنحاء العالم، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف العنصري قام اليهود باستخدام أبشع الوسائل وأكثرها قسوة لإرهاب الشعب الفلسطيني ودفعه للهرب، ولعل القاسم المشترك الواضح في كل الاعتداءات الصهيونية هو التحلل من أي وازع ديني أو أخلاقي أو إنساني..

في عام ١٩٤٨م أقدم اليهود على جريمة أخلاقية بشعة، لقد اقتحموا قرية دير ياسين الفلسطينية، وقاموا بقتل ما لا يقل عن ٢٥ امرأة حامل، وأكثر من ٥٢ طفلًا دون سن العاشرة، بالإضافة إلى تدمير مدرسة أطفال القرية بالكامل وقتل معلمتهم، وقد خلفت هذه المجزرة أكثر من ٢٥٠ شهيدًا، كما قام اليهود بجمع من بقي من النساء على قيد الحياة، وجردوهن من ملابسهن ثم قاموا بالطواف بهن في شوارع الأحياء اليهودية بمدينة القدس[٢]!!

وفي عام ١٩٨٢م قامت القوات الإسرائيلية بقيادة (آريل شارون) الذي عُيِّن رئيس وزراء لإسرائيل لاحقًا، بحصار مخيمي (صبرا وشاتيلا) في جنوب لبنان للاجئين الفلسطينيين، ثم قاموا بعملية بشعة من عمليات التصفية الجسدية الجماعية للمدنيين الفلسطينيين راح ضحيتها ما بين ٣٠٠٠ - ٣٥٠٠ مدني من النساء والشيوخ والأطفال[٣]، كل هؤلاء الضحايا تمت إبادتهم بالأسلحة البيضاء، وفي خلال ٣٦ ساعة فقط[٤]!!

---

(١) هيثم هلال: موسوعة الحروب ص٤٩٤.

(٢) جواد الحمد: المجازر الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني ص١١.

(٣) المرجع السابق نفسه ص٤٦.

(٤) د. طارق محمد السويدان: فلسطين التاريخ المصور ص٣٣٣،٣٣٥.

وفي عام ١٩٩٤م قام عدد من المستوطنين اليهود باقتحام الحرم الإبراهيمي أثناء صلاة الفجر، وهم يحملون الأسلحة الرشاشة والقنابل اليدوية، وقاموا بإطلاق النار على المسلمين المصلين، وقد خلفت هذه المذبحة ٣٥٠ ضحية، ما بين شهيد وجريح، وقد قاموا بهذا الفعل الأثيم تحت حماية القوات الإسرائيلية التي حاصرت المسجد لتمنع النجدة عن المصلين داخل المسجد[1]!!

وتلك كانت مجرد أمثلة مما يتعرض له الشعب الفلسطيني منذ الاحتلال وحتى الآن!!

المطلب الثاني: حروب غير المسلمين ضد غير المسلمين:

لم يكن هذا العنف الذي رأينا اضطهادًا خاصًا بالمسلمين، ولكن كان طبيعة مطردة في كل المعارك، ومع كل الطوائف والعرقيات، حتى رأينا ذلك بين أبناء الدين الواحد، والعرق الواحد! وسوف يتم - بإذن الله - تناول هذا الموضوع من خلال النقاط الآتية:

النقطة الأولى: الحرب العالمية الأولى: (١٩١٤م-١٩١٨م):

تضارب المصالح بين الدول الاستعمارية الكبرى كان هو السبب الرئيسي لاشتعال الحرب العالمية الأولى، وحدث ذلك عندما ظهرت ألمانيا كقوة استعمارية جديدة هددت نفوذ الدول الكبرى التي كانت تهيمن على العالم في هذه الفترة، وانقسمت هذه القوى الاستعمارية إلى فريقين متحاربين، فاشتعل العالم أجمع، وتمَّ جره إلى سلسلة من الحروب المدمرة، ولم يكن لدى الدول الفقيرة والصغيرة أي خيار إلا الانضمام إلى أحد الفريقين، وكانت المعارك قاسية على الأطراف المتحاربة، وظهرت فيها أسلحة جديدة أشد فتكًا!! وانتهت هذه الحرب بهزيمة ألمانيا وحلفائها، وقد قُدِّر عدد القتلى من جميع أنحاء العالم بنحو عشرة ملايين إنسان، وبلغ عدد الجرحى عشرين مليونًا[2]، وقد أنشئت بعد ذلك عصبة الأمم كمحاولة لحل المشاكل بين الدول بالطرق السلمية ولمنع مثل هذه الحروب مستقبلًا، ورغم صواب فكرة إنشاء هيئة دولية لفض المنازعات بين الدول وبالأخص الدول الكبرى، إلا أن الأيام أثبتت أن العلة ليست في وجود مثل هذه الهيئة، وإنما في

---

(١) جواد الحمد: المجازر الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني ص٦٥.

(٢) ماجد اللحام: معجم المعارك الحربية ص٣٦٣.

توافر النوايا الصادقة والمعايير الخلقية التي تدفع هذه الهيئة أولاً إلى أخذ القرارات العادلة، ثم تدفع ثانيًا الدول بكاملها للالتزام بقرارات هذه الهيئة وتنفيذها.

النقطة الثانية: الحرب الأسبانية (١٩٣٦م-١٩٣٩م):

هي حرب أهلية ضارية اندلعت في أسبانيا إثر صراع على السلطة استمر ٣ سنوات، وكانت محصلتها ٦٠٠,٠٠٠ قتيل، منهم ٢١٠,٠٠٠ أعدموا من قبل الأطراف المتنازعة. وقد انتهى هذا الصراع الدامي باستيلاء الجنرال فرانشيسكو فرانكو على مقاليد الحكم في عام ١٩٣٩م ليبدأ فترة حكمه الديكتاتوري والذي استمر لمدة ٣٥ عامًا وانتهى بموته[١].

ويتعجب المرء ويتساءل عن الهدف الذي يستحق أن يقتل ستمائة ألف إنسان من أجله، وما هي الجريرة التي تستوجب إعدام مائتي ألف إنسان!!

النقطة الثالثة: الحرب اليابانية الصينية (١٩٣٧م - ١٩٤٣م):

نشبت هذه الحرب المروعة في الفترة الواقعة بين عام ١٩٣٧م - ١٩٤٣م، حيث احتلت اليابان الصين، ومارست قواتها القسوة والوحشية بلا حساب، وقد بلغ عدد الضحايا الصينيين من القتلى والجرحى والمرضى بسبب غزو اليابان ٥ مليون و٦٢٠ ألف شخص، كما قامت مذابح رهيبة لم يسبق للتاريخ أن عرف مثلها، ومثال ذلك عندما قام الجيش الياباني باحتلال مدينة نانكينج الصينية، حيث قامت القوات اليابانية بقتل الرجال والأطفال واغتصاب النساء، كما تمَّ إعدام المئات من المدنيين والجنود المستسلمين في الميادين العامة[٢]، وذلك بجانب أعمال السلب والنهب لممتلكات الصينيين في هذه المدينة، وقد خلفت هذه المجزرة أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ قتيل صيني، و٢٠,٠٠٠ فتاة وامرأة مغتصبة[٣]!!

النقطة الرابعة: الحرب العالمية الثانية:

في عام ١٩٣٩م بدأت الأحداث المروعة للحرب العالمية الثانية، والتي شارك فيها خمسة عشر

---

(١) د. أحمد كنعان: ذاكرة القرن العشرين ص٩٨.

(٢) كونراد زايتس: الصين ص١٥٨،١٥٧.

(٣) د. هشام عبد الرءوف حسن: تاريخ اليابان الحديث والمعاصر ص٢٤١-٢٤٤.

مليون وستمائة ألف مقاتل، واستمرت زهاء الست سنوات ١٩٣٩ - ١٩٤٥م، وتُعَدُّ هذه الحرب أكثر الحروب دموية على مدار التاريخ، ولقد خسر فيها الجميع، حيث خرجت الولايات المتحدة الأمريكية المنتصرة بحصيلة قتلى بلغت ٢٩٢,٠٠٠ من قواتها المسلحة، وخسر الاتحاد السوفيتي ٧٥٠,٠٠٠ قتيل، وخسرت الصين بمفردها مليونين ومائتي ألف[1]، وبلغ عدد الجرحى ٨٠ مليونًا، بالإضافة إلى ما خلفته الحرب من ملايين لا تحصى ما بين مُعوَّق ومُشرَّد ومفقود!![2].

وللأسف فإن المدقق والباحث وراء الأسباب الحقيقية لقيام هذه الحرب يجد أن الطمع وغرور القوة وغياب الوازع الديني والخلقي من أهم الأسباب التي ألقت بالعالم كله في أتون هذه الحرب المدمرة، وفيما يلي بعض الأمثلة لهذه الحرب المهلكة:

١ - معركة ستالينجراد ١٩٤٢م:

هي إحدى المعارك الحاسمة في الحرب العالمية الثانية، وفيها توجه الألمان لغزو روسيا بجيش مكوَّن من ٣٠٠,٠٠٠ جندي، وسبقت القوات الألمانية إلى مدينة ستالينجراد الروسية ألف طائرة ألمانية دكت المدينة تمامًا وقتلت ٤٠,٠٠٠ مدني، ولكن المدينة قاومت، واستغل الروس دخول الشتاء الروسي القارص لإنهاك القوات الألمانية، وبدأت الكفة تميل ناحية الروس، وبعث قائد القوات الألمانية إلى هتلر يبصره بالوضع الحرج ويستأذنه في الانسحاب، وعاند هتلر ولم يوافق، وطلب من قائده مواصلة الهجوم والصمود حتى آخر جندي وآخر طلقة!! واستطاع الروس محاصرة القوات الألمانية وقطع الإمدادات عنها حتى اضطر الألمان في النهاية للانسحاب بعد أن شارفوا على الهلاك. لقد انخفض عدد الجيش الألماني عند الاستسلام إلى ٩٠,٠٠٠ جندي معظمهم جرحى[3]!!

٢ - الغارات الجوية على ألمانيا (١٩٤٣-١٩٤٥):

بدأت سلسلة هذه الغارات في يناير ١٩٤٣م، وقامت بها الولايات المتحدة الأمريكية

---

(١) هيثم هلال: موسوعة الحروب ص٤٤٥.

(٢) د. أحمد كنعان: ذاكرة القرن العشرين ص٩٩.

(٣) مايكل لي لانتج: المعارك المائة ص٢٧-٣٠.

بالاشتراك مع بريطانيا، وكانت موجهة بشكل مركز على ألمانيا والمدن الخاضعة تحت سيطرتها، وبدأت هذه الغارات متزامنة مع التراجع والارتداد الألماني في العديد من الجبهات والمواقع، واستمرت الغارات حتى سقطت العاصمة الألمانية برلين في الثاني من شهر مايو ١٩٤٥م، وألقت الجيوش الألمانية بسلاحها، وانتحر هتلر في مخبأه العميق الذي شيده تحت دار المستشارية الألمانية، وقد خلفت هذه الغارات قرابة المليون شخص ما بين قتيل وجريح، وكلهم من المدنيين الألمان، كما دمرت هذه الغارات أكثر من ثلاثة ملايين ونصف المليون بيت ومبنى تدميرًا كاملًا، ولم تتوقف هذه الغارات إلا مع سقوط برلين وانهيار المقاومة الألمانية بعد أن صارت معظم مدنها خرابًا[1]!!

٣- مأساة هيروشيما وناجازاكي:

حدثت هذه المأساة في عام ١٩٤٥م، وهي الحلقة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية والتي انتهت باستسلام اليابان، وبدأت أحداث هذه المأساة في صباح يوم ٦ أغسطس ١٩٤٥م حينما ألقت الولايات المتحدة الأمريكية قنبلتها الذرية الأولى على مدينة هيروشيما اليابانية، فمات على الفور ٧٠,٠٠٠ مواطن ياباني، والعجيب أنه بعد ثلاثة أيام فقط ألقت أمريكا القنبلة الثانية على مدينة ناجازاكي، فمات على الفور ٦٠,٠٠٠ مواطن آخر (صورة ١٨)، وقد صرَّحَ مجلس مدينة هيروشيما إن عدد قتلاها ارتفع في سنوات قليلة إلى ٢٣٠,٠٠٠ شخص بسبب ما خلفته القنبلة من إشعاعات، كما وصل عدد الجرحى إلى ١٥٧,٠٠٠ شخص[2]!!

والسؤال الملح الذي يطرح نفسه من الناحية الخلقية والإنسانية هو:

ألم يكن من الممكن تفادي استعمال هذا السلاح الرهيب؟

---

(١) هـ.أ.ل. فِشر: تاريخ أوروبا الحديث ص٧٠٢-٧١٠.

(٢) د. هشام عبد الرءوف حسن: تاريخ اليابان الحديث والمعاصر ص٢٣٨-٢٤٠.



صورة رقم (١٨)

وللإجابة على هذا السؤال يتحتم علينا العودة إلى الأحداث التي واكبت هذه الجريمة الأخلاقية والسقطة الإنسانية، وبالتحديد نعود بالأحداث إلى عام ١٩٤٤م، وهو العام الذي شهد التراجع الياباني، وتفوق جبهة الحلفاء في البر والبحر والجو، ووصلت الغارات الأمريكية إلى العمق الياباني، وسببت دمارًا هائلًا في مدينتي يوكوهاما وأوزاكا، بل وسببت خسائر فادحة في منشآت مدينة طوكيو العاصمة اليابانية! ثم تفاقم حرج الموقف الياباني في مايو ١٩٤٥م باستسلام ألمانيا، وتأكد لليابانيين استحالة النصر، بل وألمحوا للروس عن رغبتهم في وضع نهاية للحرب، وبات من الواضح أن الاستسلام الياباني صار وشيكًا[1]، ومع ذلك أقدمت الولايات المتحدة الأمريكية على إلقاء قنبلتها الذرية على اليابان، بل وأعقبتها بالثانية بعد ثلاثة أيام فقط!!

النقطة الخامسة: حرب فيتنام (١٩٦٤-١٩٧٥):

تبعد فيتنام الشمالية عن الولايات المتحدة الأمريكية آلاف الأميال، ولا تشكل خطرًا عليها من أي نوع، كما إنها لم تتورط في أي شيء يمس الولايات المتحدة من قريب أو من بعيد، ومع ذلك شنت الولايات المتحدة حربًا شاملة ضد فيتنام الشمالية، أسفرت عن مقتل ٣ ملايين فيتناميًا معظمهم من المدنيين، وخلّفت أكثر من ٠٠٠ , ٣٠ معوق، فضلًا عن الدمار الكامل الذي حاق بالمدن الفيتنامية[2]!!

وقد تخلّت الولايات المتحدة عن أخلاق الحروب في سبيل إخضاع فيتنام، وقامت بالعديد من المذابح والانتهاكات في حق المدنيين، وأطلقت جنودها ليعيثوا الفساد في القرى الفيتنامية، يقتلون الحيوانات ويتلفون المحاصيل، وعندما يتذمر القرويون يطلقون عليهم الرصاص ثم يضرمون النار في بيوت القرى المصنوعة من القش[3]!!

وعندما استخدمت المقاومة الفيتنامية الغابات للتخفي قامت الولايات المتحدة

---

(١) هـ.ا.ل.فشر: تاريخ أوروبا الحديث ص٧١١-٧١٣.

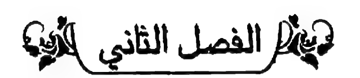
(٢) د.أحمد كنعان: ذاكرة القرن العشرين ص١٠٠.

(٣) د.أمل خليفة: هزيمة أمريكا في فيتنام ص٦٤.

الأمريكية بشن حرب كيمائية على منطقة الغابات الفيتنامية التي تبلغ مساحتها ٤٠ مليون فدان وتقترب من نصف مساحة فيتنام الشمالية، وبالفعل قامت القوات الأمريكية باستخدام المبيدات القاتلة التي أتت على الأخضر واليابس، ودمرت هذه الغابات تمامًا، وظلت آثار هذه المبيدات لسنوات طوال امتدت لما بعد نهاية الحرب، ويكفي أن نعرف أن بعثة الأكاديمية القومية الأمريكية للعلوم قد قامت بزيارة للمنطقة عقب انتهاء الحرب، وذكرت في تقريرها أن منطقة الغابات يلزمها أكثر من مائة عام لكي تعود لسابق عهدها[1]!!

* * *

(١) د.أمل خليفة: هزيمة أمريكا في فيتنام ص٧٢.



شهادات غير المسلمين على أخلاق الرسول ﷺ وحروبه

لقد درس بعض العلماء من غير المسلمين الإسلامَ وحضارته دراسة موضوعية، فأنصفوه وشهدوا له شهادات صدق تظهر أخلاقه العظيمة في الحروب وغيرها، نقدمها للإنسان الغربي الذي ضلَّله الإعلام الغوغائي، عندما شحن عقله ووجدانه «بثقافة الكراهية» للإسلام والمسلمين، داعين الغرب وأبناءه إلى قراءة شهادات هؤلاء العلماء العُدُول عندهم، ليدركوا بأنفسهم أن ما ذكرناه من وقائع وأحداث هي وقائع حقيقية وأحداث صحيحة، أقَرَّ بها المنصفون من غير أبناء الأمة الإسلامية.

وإذا كان استقصاء هذه الشهادات الغربية يحتاج إلى العديد من المجلدات، فإننا نقف - في هذا المقام - عند شهادات نفرٍ من العلماء الغربيين المتميزين، الذين يمثلون عُمُدًا من أعمدة الثقافة الغربية، وحُجَجًا في دراسة الحضارة الغربية والإسلامية جميعًا.. والذين كتبوا في الإسلام دراساتٍ يتعلم منها علماء الإسلام أنفسهم، وهي دراسات حَرِيٌّ بالغربيين أن يتعلموا منها قبل المسلمين[1].

* * *

(١) د/ محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء، ص ٧٥، ٧٦.



شهادة المستشرق الإنجليزي البارز السير «آرنولد توماس»[١]



«إن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق.. إن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى»[٢].

«إن التحول إلى الإسلام عن طريق الإكراه محرم طبقًا لتعاليم القرآن ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] وإن مجرد وجود كثير جدًا من الفرق والجماعات المسيحية في الأقطار التي ظلت قرونًا في ظل الحكم الإسلامي لدليل ثابت على ذلك التسامح الذي نعم به هؤلاء المسيحيون»[٣].

Arnold Walker Thomas

(١) آرنولد توماس: مؤرخ إنجليزي شهير، ومن أعاظم المستشرقين، ولد في عام ١٨٦٤م، وكان عميدًا لمدرسة اللغات الشرقية بلندن سنة ١٩٠٤م، ومن أشهر أعماله كتاب الدعوة إلى الإسلام. وتوفي في عام ١٩٣٠م.

(٢) آرنولد توماس: الدعوة إلى الإسلام ص ١٠٢.

(٣) آرنولد توماس: الدعوة إلى الإسلام ص ٨٨.

شهادة المستشرق الفرنسي الكبير «جوستاف لوبون»[١]



«كان محمد يقابل ضروب الأذى والتعذيب بالصبر وسعة الصدر»[٢].

«عامل محمد قريشًا - الذين ظلوا أعداءً له عشرين سنة - بلطف وحلم، وأنقذهم من ثورة أصحابه بمشقة، مكتفيًا بمسح صور الكعبة وتطهيرها من الأصنام الـ٣٦٠ التي أمر بكبها على وجوهها وظهورها، وبجعل الكعبة معبدًا إسلاميًّا، وما انفك هذا المعبد يكون بيت الإسلام»[٣].

ويصف دخول عمر بن الخطاب بيت المقدس فاتحًا فيقول: «فلما دخل القدس أبدى من التسامح العظيم نحو أهلها ما أمنوا به على دينهم وأموالهم وعاداتهم، ولم يفرض سوى جزية زهيدة عليهم، وأبدى العرب تسامحًا مثل هذا نحو المدن السورية الأخرى كلها، ولم يلبث جميع سكانها أن رضوا بسيادة العرب، واعتنق أكثر أولئك السكان الإسلام بدلًا من النصرانية، وأقبلوا على تعلم اللغة العربية»[٤].

Gustave Le Bon

---

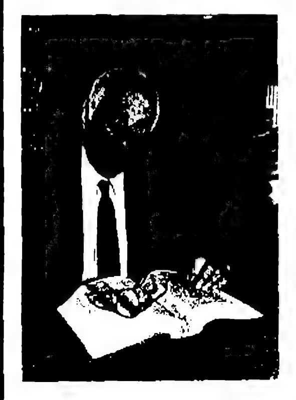
(١) جوستاف لوبون: مستشرق فرنسي وُلد في عام ١٨٤١م، ومن أشهر كتبه «حضارة العرب»، الذي يُعدُّ من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوروبا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية. تُوفي في عام ١٩٣١م.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص١٠٤، ١٠٥.

(٣) المرجع السابق ص١٠٨.

(٤) المرجع السابق ص١٥١.

شهادة المؤرخ اليهودي الإنجليزي الكبير «برنارد لويس»[(١)]



«أما العرب الفاتحون في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، فقد جاءوا بدينهم وأوجدوا نظامَ حكمٍ خاصًّا بهم، لا فرق فيه بين الكنيسة والدولة لكونهما شيئًا واحدًا، والرئيس المطلق لهذا النظام هو الخليفة»[(٢)].

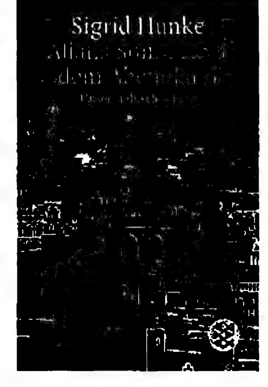
BenardLewis

---

(١) برنارد لويس: عالم إنجليزي شهير، ولد في عام ١٩١٦م، يهودي الأصل، وكان يعيش في أمريكا. عمل أستاذًا للتاريخ الإسلامي في جامعات لندن وكاليفورنيا، وعلى الرغم من عدائه للإسلام إلا أن المدقق يمكنه أن يستشف الحقيقة من بين سطور كتاباته.

(٢) برنارد لويس: السياسة والحرب، دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام، القسم الأول ص ٢٣٢، ٢٣٣ بتصرف. تصنيف شاخت وبوزورث، النسخة المترجمة.

شهادة المستشرقة الألمانية الشهيرة «سيجريد هونكه»[(١)]



«لا إكراه في الدين: تلك هي كلمة القرآن الملزمة، فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامي، وإنما بسط سلطان الله في أرضه، فكان للنصراني أن يظل نصرانيًا، ولليهودي أن يظل يهوديًا كما كانوا من قبل، ولم يمنعهم أحدٌ أن يؤدوا شعائر دينهم، ولم يكن أحد ليُنزل أذى أو ضررًا بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم، وبِيَعِهم وصوامعهم وكنائسهم»[(٢)].

Sirgid Hunke

(١) سيجريد هونكه: مستشرقة ألمانية شهيرة، وُلِدت في عام ١٩١٣م، تخصصت في الدراسات المقارنة بين الحضارات والديانات، وقامت بتدريس الفلسفة وعلم الأديان المقارن وتاريخ القرون الوسطى في العديد من الجامعات.

(٢) سيجريد هونكه: الله ليس كذلك ص٤٠، ٤١.



شهادة «الأنبا جريجوريوس»[١]

«لقد لقيت الأقليات غير المسلمة - والمسيحيون بالذات - في ظل الحكم الإسلامي الذي كانت تتجلَّى فيه روح الإسلام السمحة كل حرية وسلام وأمن في دينها ومالها وعرضها»[٢].

(١) الأنبا جريجوريوس: أسقف البحث العلمي والدراسات العليا اللاهوتية بالكنيسة المصرية. وُلِد في عام ١٩١٩م، وتوفي عام ٢٠٠١.

(٢) عمر بن عبد العزيز: سماحة الإسلام ص٢٨٢.

شهادة المؤرخ الأمريكي الشهير «ول ديورانت»[١]



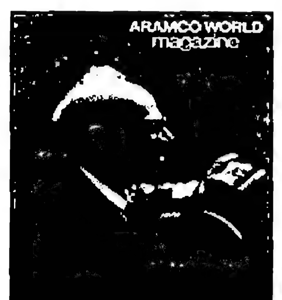
«إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمدًا كان من أعظم عظماء التاريخ»[٢].

Will Durant

(١) ول ديورانت: مؤرخ أمريكي شهير، ولد في عام ١٨٨٥م، ومن أعظم كتبه «قصة الحضارة» في ٤٢ مجلدًا، وقد عكف على تأليفه لمدة خمسة عقود كاملة، وتوفي في عام ١٩٨١م.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣ / ٥٩.

المؤرخ المسيحي اللبناني الشهير «فيليب حتي»[1]



«وتم فتح مكة بعد انقضاء سنتين على صلح الحديبية (في أواخر كانون الثاني سنة ٦٣٠م/ ٨هـ)؛ فدخل محمد الكعبة، وأمر بأصنامها فحُطِّمت، وطُهِّرَ البيتُ الحرام منها وكان عددها على ما قيل: يبلغ ثلاثمائة وستين، وجعل محمد يشير إلى هذه الأصنام بقضيب في يده وهو يقول: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، وأمكنه الله من قريش التي كانت تتآمر عليه، إلا أن محمدًا قدر فعفا، وقلَّما نجد في التاريخ القديم مثالًا للعفو عند المقدرة يعادل هذا المثال»[2].

Philip Hitti

---

(١) فيليب حتي: ولد في عام ١٨٨٦م لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، عمل أستاذًا للتاريخ العربي في الجامعة الأمريكية ببيروت. من مؤلفاته: «أصول الدولة الإسلامية»، «تاريخ العرب»، «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين»، «لبنان في التاريخ».

(٢) فيليب حتي: تاريخ العرب ص١٧٠.

شهادة الزعيم الهندي الكبير «المهاتما غاندي»[١]



«أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر..

لقد أصبحتُ مقتنعًا كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته..

هذه الصفات هي التي مهدت الطريق، وتخطت المصاعب وليس السيف..

بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول وجدت نفسي آسِفًا لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر على حياته العظيمة»[٢].

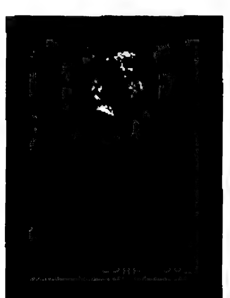
Gandhi

(١) غاندي: الزعيم الهندي الكبير، ولد في عام ١٨٦٩م، وهو مفكر، وله دور بارز على مستوى العالم أجمع، وتوفي في عام ١٩٤٨م.

(٢) من حوار لغاندي لجريدة Young India الهندية، موقع إسلام أون لاين.



شهادة الشاعر الفرنسي المشهور «لامارتين»[1]



"من ذا الذي يجرؤ أن يقارن أيًا من عظماء التاريخ الحديث بالنبي محمد في عبقريته؟ فهؤلاء المشاهير قد صنعوا الأسلحة وسَنُّوا القوانين وأقاموا الإمبراطوريات، فلم يجنوا إلا أمجادًا بالية لم تلبث أن تحطمت بين ظهرانَيْهم".

لكن هذا الرجل محمدًا لم يَقُدِ الجيوش، ويَسِنّ التشريعات، ويُقِم الإمبراطوريات، ويحكم الشعوب، ويُرَوِّض الحكام فقط، وإنما قاد الملايين من الناس فيما كان يُعَدُّ ثلث العالم حينئذٍ. ليس هذا فقط، بل إنه قضى على الأنصاب والأزلام والأديان والأفكار والمعتقدات الباطلة.

بالنظر لكل مقاييس العظمة البشرية، أود أن أتساءل: هل هناك من هو أعظم من النبي محمد؟![2]

Alphonse de Lamartine

---

(١) لامارتين: الشاعر والكاتب الفرنسي الكبير، ولد في عام ١٧٩٠م، وتوفي في عام ١٨٦٩م.

(٢) لامارتين: «تاريخ تركيا»، صفحة ٢٧٦، ٢٧٧ بتصرف.

شهادة المستشرق الإنجليزي الكبير «ألفريد جيوم»[1]

«لقد استُقبِلَ العربُ - في الأغلب - في سوريا ومصر والعراق بترحاب؛ لأنهم قضوا القضاء المبرم على الابتزاز الإمبراطوري، وأنقذوا البِيَع المسيحية المنشقَّة من الضغط الكريه الذي كانت تعانيه من الحكومة المركزية، وبرهنوا بذلك على معرفة بالمشاعر والأحاسيس المحلية أكثر من معرفة الأغراب»[2].

Alfred Guillaume

(١) ألفريد جيوم: مستشرق إنجليزي بارز، ولد في عام ١٨٨٨م، عمل أستاذًا للغات الشرقية في جامعة «درهام» (١٩٣٠- ١٩٤٥م)، وجامعة إستانبول (١٩٤٧- ١٩٥٥م)، وعُرِفَ بإشرافه على العديد من الدراسات والأبحاث الإسلامية، أشهرها (تراث الإسلام)، و(الإسلام)، وتُوُفِّيَ عام ١٩٦٥م.

(٢) جيوم: الفلسفة وعلم الكلام، دراسة منشورة في كتاب «تراث الإسلام» تصنيف أرنولد ص ٣٦٣.

شهادة المؤرخ البلجيكي الشهير «جورج سارتون»[(١)]



«إن الفتوح العربية لم تكن نتيجة صراع بين برابرة جياع وبين سكان مدن أخذوا يتقهقرون في سلم المدنية، بل كانت في الأكثر صراعًا بين دين جديد وثقافة جديدة ناشئة في المحل الأول، ثم بين ثقافات منحلة متعادية قلقة في المحل الثاني».

«لقد سبق لإيمان المسيحي أن تزلزل بالمنازعات اللاهوتية التي امتدت قرونًا عديدة، وبالخرمانات المتبادلة؛ فقاد ذلك إلى استقبال النصارى في الشرق الأوسط جيوش الفاتحين المسلمين على أنها منقذة لهم من استبداد الكنيسة الأرثوذكسية»[(٢)].

George Sarton

(١) جورج سارتون: من أبرز مؤرخي العالم، بلجيكي الأصل. وُلِدَ في عام ١٨٨٤م. حاضر في تاريخ العلم بجامعة واشنطن سنة ١٩١٦م، وهارفارد (١٩١٧ - ١٩٤٩م)، توفي في عام ١٩٥٦م.

(٢) سارتون: الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، النسخة المترجمة ص ٣٢ ـ ٣٤ بتصرف.

الكاتب الإنجليزي الشهير «توماس كارليل»[(١)]



"ويزعم المتعصبون والملحدون أن محمدًا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان. كلا وايم الله، لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القِفَار والفلوات، المتوقد المقلتين العظيم النفس، المملوء رحمةً وخيرًا وحنانًا وبرًّا وحكمةً وحِجًى وإِرْبَةً ونُهًى أفكارٌ غيرُ الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه"[(٢)].

"أرى في محمد آيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال، وأتبين فيه عقلًا راجحًا وعينًا بصيرة، ورجلًا قويًّا عبقريًّا، لو شاء لكان شاعرًا فحلًا، أو فارسًا بطلًا، أو ملكًا جليلًا، أو أي صنف من أصناف البطل"[(٣)].

Thomas Carlyl

---

(١) توماس كارليل: وُلِدَ في عام ١٧٩٥م كاتب إنجليزي معروف. من مؤلفاته كتاب «الأبطال» حيث عقد فيه فصلاً رائعًا عن النبي ﷺ، توفي في عام ١٨٨١م.

(٢) توماس كارليل: الأبطال ص ٦٨، ٦٩.

(٣) المرجع السابق ص٨٢.

شهادة رئيس الوزراء السوري الأسبق «فارس الخوري»[(١)]



«إن محمدًا أعظم عظماء العالم، ولم يَجُدِ الدهر بعد بمثله، والدين الذي جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها»[(٢)].

«عقيدتي ويقيني أنه لا يمكننا محاربة النظريات الهدَّامة التي تهدد كُلاً من المسيحية والإسلام إلا بالإسلام... وأنَّ هذا هو الذي يحدُّ من نشاط الشيوعية، ويقضي عليها القضاء المبرم؛ لأن حقائقه تهزم أباطيلها وتدمرها»..

« أنا مؤمن بالإسلام وبصلاحه لتنظيم أحوال المجتمع العربي، وقوته في الوقوف بوجه كل المبادئ والنظريات الأجنبية مهما بلغ اعتداد القائمين عليها، لقد قلت ولازلت أقول: لا يمكن مكافحة الشيوعية والاشتراكية مكافحة جدية إلا بالإسلام، والإسلام وحده هو القادر على هدمها ودحرها»[(٣)].

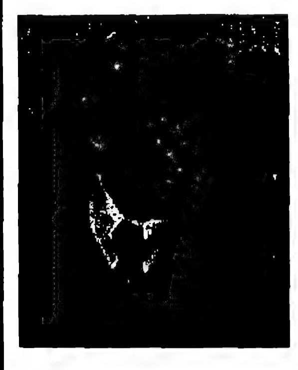
فارس الخوري

(١) فارس الخوري: مفكر وسياسي سوري شهير، ولد في عام ١٨٧٧م، وتولَّى رئاسة مجلس الوزراء في بلاده (١٩٤٤-١٩٤٥، ١٩٥٤-١٩٥٥م). توفي في عام ١٩٦٢م.

(٢) فارس الخوري: نقلاً عن الإسلام والعلم الحديث ص ٦٢.

(٣) د/ يوسف القرضاوي: بينات الحل الإسلامي ص٢١٥- ٢١٦.

شهادة المستشرق الإنجليزي الشهير «مونتجمري وات»[1]



«إني أملٌ أن هذه الدراسة عن حياة محمد يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام من جديد برجل هو أعظم رجال أبناء آدم».

ويقول أيضًا: «إن استعداد هذا الرجل لتحمل الاضطهاد من أجل معتقداته، والطبيعة الأخلاقية السامية لمن آمنوا به واتبعوه واعتبروه سيدًا وقائدًا لهم - إلى جانب عظمة إنجازاته المطلقة - كل ذلك يدل على العدالة والنزاهة المتأصلة في شخصه»[2]

« عندما فتح المسلمون سوريا ومصر رحب بهم السكان باعتبارهم محررين لهم من سطوة اليونانيين (البيزنطيين) الممقوتين»[3].

William Montogmery Watt

---

(١) مونتجمري وات: مستشرق إنجليزي معاصر، محاضر في اللغة العربية وآدابها، عمل عميدًا لقسم الدراسات العربية في جامعة «أدنبرة»، ومن أشهر مؤلفاته: (محمد في مكة) عام ١٩٥٨م، و(محمد النبي ورجل الدولة)، و(الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر) عام ١٩٦٩م.

(٢) مونتجمري وات: محمد في مكة ص٥٢، ٥١٢ بتصرف.

(٣) الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ص ١٨٠، ١٨١.

شهادة المؤرخ الألماني الكبير «آدم متز»(١)



«لقد خلَّت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم، ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج، بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائلَ الميراث، وأكثرَ المنازعات التي تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به»..

«أمرت الشريعة الإسلامية بعدم القسوة في تحصيل الجزية، ونهى الإسلام عن اتباع الأساليب القديمة القاسية من تعذيب، أو تكليف أصحابها ما لا يطيقون، وكانت الجزية تؤخذ مقسطة، وكان يُعفَى من الجزية بمصر جميع الأوربيين والرهبان المتبتلين، من المسيحيين والبطريرك»..

«ومن الأمور التي تعجب لها كثرة عدد العمال، والمتصرفين من غير المسلمين في الدولة الإسلامية»(٢)..

Adam Mez

(١) آدم متز: مؤرخ ألماني شهير وُلِد في عام ١٨٦٩م، وكان يعمل أستاذًا للغات الشرقية بجامعة بازل في سويسرا، ومن أشهر كتبه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري)، وتوفي في عام ١٩١٧م.

(٢) آدم مِتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٧٥، ٨٧.

شهادة الأديب الإنجليزي الكبير «بوسورث سميث»[١]



«لقد كان محمد قائدًا سياسيًا وزعيمًا دينيًا في آنٍ واحد..

لكن لم تكن لديه عجرفة رجال الدين، كما لم تكن لديه فيالق مثل القياصرة، ولم يكن لديه جيوش مجيَّشة أو حرس خاص أو قصر مشيد أو عائد ثابت..

إذا كان لأحد أن يقول أنه حكم بالقدرة الإلهية فإنه محمد؛ لأنه استطاع الإمساك بزمام السلطة دون أن يملك أدواتها، ودون أن يسانده أهلها»[٢].

Bosworth Smith

---

(١) بوسورث سميث: أديب إنجليزي كبير وُلِد في عام ١٨٣٩م، وله بحوث مهمة في التربية، وكذلك في التاريخ، ومن أهم مؤلفاته كتاب «محمد والمحمدية». توفي في عام ١٩٠٨م.

(٢) بوسورث سميث: محمد والمحمدية ص ٩٢.



شهادة المستشرق الأمريكي الكبير
«واشنجتون إيرفنج»[1]



«كانت تصرفات الرسول في أعقاب فتح مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر؛ فقد أبدى رحمةً وشفقةً على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو»[2].

«برغم انتصارات الرسول العسكرية، لم تُثِرْ هذه الانتصارات كبرياءه أو غروره، فقد كان يحارب من أجل الإسلام لا من أجل مصلحة شخصية، وحتى في أَوْجِ مجده حافظ الرسول على بساطته وتواضعه، فكان يكره إذا دخل حجرة على جماعة أن يقوموا له أو يبالغوا في الترحيب به؛ وإن كان قد هدف إلى تكوين دولة عظيمة فإنها كانت دولة الإسلام، وقد حكم فيها بالعدل»[3].

Washington Irving

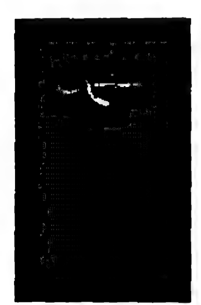
---

(١) واشنجتون إيرفنج: مستشرق أمريكي ولد في نيويورك عام ١٧٨٣م، أولى اهتمامًا كبيرًا لتاريخ المسلمين في الأندلس. من آثاره: «سيرة النبي العربي» مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية ١٨٤٩م، و«فتح غرناطة» ١٨٥٩م وغيرها. توفي في عام ١٨٥٩م.

(٢) واشنجتون إيرفنج: حياة محمد ص ٧٢.

(٣) المرجع السابق ص ٣٠٢، ٣٠٣.

شهادة الكاتبة الإنجليزية الشهيرة « كارين آرمسترونج »[1]



«لم يكن النبي - بعد فتح مكة - يريد الشروع في أعمال ثأر دموية، ولم يفرض على أحد قبول الإسلام، بل لم يشعر أحد أنه تعرض لأي ضغط حتى يدخل في الإسلام، كان محمد لا يريد إرغام الناس بل مصالحتهم».

«لم يكن هدفه من القدوم إلى مكة هو التنكيل بقريش، بل إلغاء دين الشرك الذي خذلهم.. ثم أصدر محمد عفوًا عامًّا».

«كانت الصورة الخيالية التي رسمها سلمان رشدي للرسول صورة رجل بارد المشاعر قاسي القلب يهوى الثأر، وهي أبعد ما تكون عن الحقيقة»[2].

«فنحن إن استطعنا النظر إلى محمد كما ننظر إلى الشخصيات التاريخية العظيمة الأخرى، فمن المؤكد أننا سنراه أحد أعظم العباقرة الذين عرفهم التاريخ»[3].

Karen Armstrong

(١) كارين آرمسترونج: كاتبة بريطانية، مجالها البحث في تاريخ الأديان. كتبت عددًا من الكتب عن الإسلام والأديان المقارنة بشكل عام. وقد تُرجِمَت بعض كتبها إلى اللغة العربية، حيث تحظى بتقدير كبير بين المسلمين؛ لما تتسم به كتبها من تناول متزن واحترام للدين الإسلامي.

(٢) كارين آرمسترونج: سيرة النبي محمد ص ٣٦٢،٣٦٠ بتصرف يسير.

(٣) المرجع السابق ص ٨١.

شهادة المستشرق الإنجليزي الكبير «وليم موير»(١)



«ومن صفات محمد الجديرة بالذِّكر، والحَرِيَّة بالتنويه: الرقة والاحترام اللتان كان يعامل بهما أصحابه؛ فالسماحة والتواضع والرأفة والرقة تغلغلت في نفسه، ورسَّخت محبته عند كل من حوله، وقد عامل حتى ألد أعدائه بكل كرم وسخاء حتى مع أهل مكة، وهم الذين ناصبوه العداء سنين طويلة، وامتنعوا من الدخول في طاعته، كما ظهر حِلمُه وصفحه حتى في حالتي الظفر والانتصار»(٢).

«ومهما يكن هناك من أمر فإن محمدًا أسمى من أن ينتهي إليه الواصف، وخبيرٌ به من أمعن النظر في تاريخه المجيد، وذلك التاريخ الذي ترك محمدًا في طليعة الرسل ومفكري العالم»(٣).

William Muir

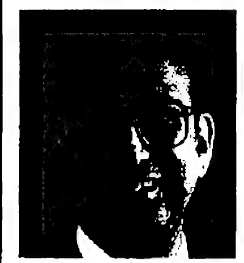
---

(١) وليم موير: مستشرق بريطاني إسكتلندي الأصل، ولد في عام ١٨١٩م، كان مديرًا لجامعة إيدنبرج. من مؤلفاته: شهادة القرآن لكتب أنبياء الرحمن. وصنف بالإنجليزية كتبًا في السيرة النبوية، وتاريخ الخلافة الإسلامية، وتاريخ دولة المماليك في مصر. وله مقالات في شعراء العرب. توفي في عام ١٩٠٥م.

(٢) وليم موير: حياة محمد (نقلاً عن كتاب «بطل الأبطال» لعبد الرحمن عزام ص ٤٤، ٤٥).

(٣) وليم موير: حياة محمد ص ٢٠.

شهادة العالم الأمريكي المعاصر «مايكل هارت»[1]



«إن اختياري محمدًا ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ ربما أدهش كثيرًا من القراء إلى حَدٍّ قد يثير بعض التساؤلات، ولكن في اعتقادي أن محمدًا كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي»[2].

Hart .Michael H

(١) مايكل هارت: هو عالم الفلك والرياضيات والمؤرخ الأمريكي المعاصر، يعمل في هيئة الفضاء الأمريكية، حصل على الدكتوراه في علم الفلك من جامعة برنستون عام ١٩٧٢م. من أشهر كتبه «الخالدون المائة»، وفيه قام بالبحث في التاريخ عن الرجال الذين كان لهم أعظم تأثير على البشر.

(٢) مايكل هارت: المائة الأوائل ص ٢٩.



شهادة الأديب الروسي العالمي «تولستوي»[(١)]



«أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه، وليكون هو أيضًا آخر الأنبياء»[(٢)].

«لم يضغط النبي محمد بأي طريقة على أصحاب الديانات الأخرى ليدخلوا في دينه»[(٣)].

«تحمل النبي محمد عذابات كثيرة في سبيل أن تصل دعوته للجميع وذلك دون أن يشهر سيفًا»[(٤)].

Leo Tolstoy

(١) ليو تولستوي ولد في عام ١٨٢٨ م، وهو أديب روسي كبير، تناول في كتاباته الأدبية مواضيع أخلاقية ودينية واجتماعية. وكان مفكرًا عميق التفكير، وتوفي عام ١٩١٠م.

(٢) نقلاً عن الحسيني الحسيني معدي: الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة ص ٦٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦٨.

(٤) المرجع السابق ص ١٦٨.

شهادة رئيس الوزراء الهندي الأسبق

« جواهر لال نهرو »[١]

«كان محمد كمؤسسي الأديان الأخرى ناقمًا على كثير من العادات والتقاليد التي كانت سائدة في عصره، وكان للدين الذي بشر به بما فيه من سهولة وصراحة وإخاء ومساواة، تجاوب لدى الناس في البلدان المجاورة؛ لأنهم ذاقوا الظلم على يد الملوك الأوتوقراطيين والقساوسة المستبدين. لقد تعب الناس من النظام القديم، وتاقوا إلى نظام جديد، فكان الإسلام فرصتهم الذهبية؛ لأنه أصلح الكثير من أحوالهم ورفع عنهم كابوس الضيم والظلم»[٢].

J.Lal. Nahro

(١) جواهر لال نهرو: ولد عام ١٨٨٩م في مدينة الله آباد بالهند، اعتقل عدة مرات بسبب نشاطه القومي التحرري، وهو أول من تولى رئاسة الوزراء الهندية بعد الاستقلال، وأحد كبار قادة العالم في عصره. له عدة مؤلفات في التاريخ والسياسة وشئون الهند، توفي عام ١٩٦٤م.

(٢) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم ص ٢٧.

الخاتمة

إنَّ هذا البحث ما هو إطلالة قصيرة على قيمةٍ واحدةٍ من قيم الإسلام العظيم، وقفنا أثناءها في إعجاب أمام جانب واحدٍ من سيرة الرسول ﷺ العطرة، لم نستطع فيها أن نبلغ النهاية في أخلاق الرسول ﷺ في الحروب؛ فكيف بمن أراد أن يستقصي مواطن الكمال والجمال في كل جوانب التشريع والسيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام!!

إن هذا لأمر تنوء بحمله الجبال!!

وهذا البحث يضعنا أمام عِدَّة حقائق، هي:

أولاً: أنَّ الدين الإسلامي دين عظيم يحتاج إلى رجالٍ شديدي الإيمان به وبعظمته، على استعداد للبذل من أجله، والعمل من أجل تطبيقه في كل نواحي الحياة، ودعوة العالمين إليه.

إنها مسئولية ضخمة سيضطرُّ المسلمون بسببها إلى مواجهة حملات التشكيك في الإسلام، وإلى العمل من أجل إظهار محاسن الإسلام التي طمسها الجهل والأعداء الذين ما فَتِئُوا يحاربون الإسلام ليل نهار، ولكن ما يعزي هؤلاء الرجال ويُصبِّرهم هو إيمانهم بأن الله ﷻ ناصر دينه ولو كره الكافرون.

ثانيًا: أنَّ بنود التشريع الإسلامي والتطبيق الواقعي لها ليشهدان أن غير المسلمين ما وجدوا في العالم كله ما هو أرحم ولا أعدل ولا أبرُّ من التشريع الإسلامي.. وأنَّ نصارى ويهود العالم لم ينعموا برحمة مثلما نعموا بها في ظل الحكم الإسلامي، ومن ثَمَّ فمن مصلحتهم أن تُطبَّق الشريعة الإسلامية كاملة في بلاد العالم الإسلامي.

إنَّ الإسلام الذي ينهى المسلم عن ظلم غير المسلمين المعاهدين والذميين إنما يضعه تحت خطر العقاب الإلهي إنْ هو أخلَّ بتلك الأوامر، وهذا ما لن يستطيع غير المسلمين الحصول عليه في غير وجود الشريعة الإسلامية؛ أن يصيروا في ذمة الله ورسوله.

إنَّ الرقابة على المسلم في هذا الشأن ذاتية قبل أن تكون رقابة الشرطي والقاضي؛ فإنه كما

يحرص على أداء الصلوات وكافة الطاعات ليدخل الجنة، وينأى بنفسه عن المحرَّمات والكبائر ليجتنب النار؛ فإنه يحرص على العدل والبرّ مع غير المسلمين؛ ليكون مع رسول الله ﷺ لا في مواجهته يحاجُّه نتيجة معصيته له في برٍّ غير المسلمين. ولهذا فإنَّ من أعظم الضمانات لغير المسلمين في المجتمع المسلم أننا - نحن المسلمين - نتعبد لله ﷻ برحمتهم والعدل معهم والإحسان إليهم.. والتاريخ يشهد أنه ما من ظلم وقع على غير المسلمين من بعض الحكام في التاريخ إلا وكان نصيب المسلمين منه أضعافًا مضاعفة؛ فالظالم لا يهتم بديانة المظلوم، بل ربما كانت معاملة الظالم أحيانًا لغير المسلمين أفضل حتى لا يُتَّهم بالتمييز.

ثالثًا: أنَّ الإسلام قد ظُلِم وشُوِّهَ كثيرًا على أيدي خصومه؛ فقد عمل المستشرقون على ترويج القصص التاريخية الكاذبة، والأحاديث الموضوعة، وقاموا بنشر ذلك كله وفق خطة منظمة تحت مسمَّى التحقيق العلمي، والعلم مما فعلوا براء؛ لذا فإن من الواجب على من أراد معرفة الإسلام حقَّ المعرفة أن يتعرَّفه من مصادره الأصيلة، وليس ذلك من أجل مصلحة الإسلام والمسلمين، بل من أجل مصلحة العالم كله؛ فإنَّ الكذب الذي تم ترويجه طوال عشرات ومئات السنين قد وضع غلالةً أمام أعين غير المسلمين تحجبهم عن رؤية محاسن الإسلام كما هي.

إنَّ أهم حلقة في تاريخ البشرية ستظل مفقودة وتائهة من عقول العالم كله: شرقية وغربية نتيجة ما حدث من تزوير، ولن يعرف العالم الحقيقة، ويهتدي إلى الحق إلا بدراسة الإسلام من مصادره الأصيلة.

إن حلقة «الإسلام» ليست حلقة عابرة في سلسلة الإنسانية الطويلة، إنما حلقة مؤثرة أعمق الأثر، لقد حافظْنا على الخير الذي سَبَقَنَا، وطَوَّرْنَاهُ وجَمَّلْنَاهُ..

إن رسولنا ﷺ قال في إيجاز معجز: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»[1]. فالإسلام أقرَّ الأخلاق الكريمة التي وُجِدَتْ قبله، وأضاف إليها وحسَّن وجمَّل وأتقن.. حتى جاءت

---

(١) الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه (٤٢٢١)، وقال: صحيح على شرط مسلم. ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في سننه الكبرى (٢٠٥٧١)، وقال الألباني: صحيح. السلسلة الصحيحة (٤٥).

الشريعة الإسلامية في أعلى درجات السمو الأخلاقي، وحتى صار الرسول الأكرم ﷺ مثلًا أعلى في كل الأخلاق الحميدة، والسمات النبيلة..

إنه ليس في مقدورنا - نحن المسلمين - ولا من وظيفتنا أن نجعل الآخرين مسلمين.. إنما الذي نملكه وأُمِرْنَا به أن نصل برسالتنا إليهم بيضاء نقية، ثم نترك لهم الأمر في حرية تامة.. ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

ونحن على يقين أن هناك يومًا سيحكم فيه ربنا بيننا بالحق، وسيعلم الجميع حينئذٍ، من الذي اتبع الهدى، ومن كان في ضلال مبين.. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

وختامًا.. لا أشك في أن الكثير والكثير مما يجب أن يُضَمَّ إلى هذا البحث لم أُفلح في ضمِّه، إما لضيق الوقت، أو خوفًا من التكرار، أو سهوًا عن حادثة، أو جهلًا بأخرى.. وعذري أنني بشر، ومن طبيعة البشر النقصان.. وما أجمل ما قاله الشافعي ‌‌رحمه الله - وأحب أن أختم به بحثي - وذلك عندما راجع كتابه الرسالة[1] ثمانين مرة، ثم قال لتلميذه المزني[2] في النهاية: «هيه.. أبى الله أن يكون كتابًا صحيحًا غيرُ كتابه»[3].

وصلِّ اللهمَّ وسلِّمْ وبارك على المبعوث رحمة للعالمين..

أ. د. راغب السرجاني

---

(١) كتاب الرسالة هو كتاب أصول الفقه للشافعي، وهو أول كتاب ألف في أصول الفقه بل وفي أصول الحديث أيضًا، وهو كتاب لغة وأدب وثقافة أيضًا، وتكلم فيه الشافعي عن العام والمخصوص والناسخ والمنسوخ والاستحسان وغيرها من أبواب الأصول. وتعتبر كتب أصول الفقه والحديث عالة على هذا الكتاب.

(٢) المزني هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني: كان فقيها عالمًا عابدًا عارفًا بوجوه الجدل، حسن البيان. قال عنه الشافعي، وهو في سن الحداثة: «لو ناظر المزني الشيطان لقطعه». كما قال فيه الشافعي: «ناصر مذهبي». له في مذهب الشافعي كتب كثيرة منها: المختصر، والمختصر الصغير.

(٣) حاشية ابن عابدين: ١/ ٢٩.

المصادر والمراجع(1)

أولاً: القرآن الكريم

ثانيًا: التوراة والإنجيل

ثالثًا: كتب تفاسير القرآن وعلومه

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (٧٧٤هـ): تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- أبو جعفر الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي (ت٣١٠هـ): جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود (ت ٥١٦هـ): معالم التنزيل، تحقيق محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- السيوطي، جلال الدين: لباب النزول لباب النقول في أسباب النزول - دار الكتب العلمية - بيروت.
- الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تصحيح وضبط أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية - بيروت.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت٧٦١هـ): الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(١) المصادر مرتبة ترتيبًا أبجديًا مع تجاهل (ال).

- محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط، دار المعارف، ١٩٩٣م.
- الواحدي النيسابوري: أسباب النزول ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ٢٠٠٠.

رابعًا: كتب السنن والآثار

- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي: المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩.
- ابن حبان، محمد بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ابن خزيمة، محمد بن إسحاق أبو بكر السلمي النيسابوري: صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- أبو بكر، أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، مسند البزار.
- أبو جعفر الطحاوي: مشكل الآثار، دار الكتب العلمية - بيروت.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي: مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤م.
- أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني: المسند، مؤسسة قرطبة - القاهرة.
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي: الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي: الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى ديب البُغَا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا،

مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤ - ١٩٩٤م.

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠.
- الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي: الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن البغدادي: سنن الدارقطني، تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة - بيروت، ١٣٨٦ - ١٩٦٦م.
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد: سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- سليمان بن داود الفارسي البصري الطيالسي: مسند أبي داود الطيالسي، دار المعرفة - بيروت.
- الشافعي، محمد بن إدريس أبو عبد الله: مسند الشافعي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: الروض الداني - المعجم الصغير، تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ - ١٩٨٣م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥هـ.
- عبد الرزاق أبو بكر بن همام الصنعاني: مصنف عبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣.

- القزويني، محمد بن يزيد أبو عبد الله: سنن ابن ماجه، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر – بيروت.
- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني: الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن: المجتبى من السنن، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن: سنن النسائي الكبرى، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ – ١٩٩١م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

خامساً: كتب التخريج وشروح السنة

- الألباني، محمد ناصر الدين: السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف - الرياض.
- الألباني، محمد ناصر الدين: السلسلة الضعيفة، مكتبة المعارف - الرياض.
- الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة الخامسة.
- الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي.
- الذهبي، أحمد بن أحمد أبو عبد الله: الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، تحقيق محمد عوامة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علو – جدة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
- الزيلعي، عبد الله بن يوسف أبو محمد الحنفي: نصب الراية لأحاديث الهداية، تحقيق محمد

يوسف البنوري، دار الحديث - مصر، ١٣٥٧هـ.

- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل الشافعي: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر – بيروت، ١٤١٢هـ.

سادسًا: كتب الفقه

- ابن تيمية، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد الحراني (ت٧٢٨هـ): السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق: محمد الشبراوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ٢٠٠٠م.
- ابن تيمية: الفتاوى الكبرى، تحقيق محمد عطا، دار الكتب العلمية - ٢٠٠٢م.
- ابن قيم الجوزية، الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت٧٥١هـ): أحكام أهل الذمة، تحقيق سيد عمران، دار الحديث- القاهرة - ٢٠٠٣م.
- ابن قدامة، موفق الدين المقدسي: المغني على مختصر الخرقي، ضبط وتصحيح: عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٤م.
- أبو عبيد، القاسم بن سلام: الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ابن رشد، أبو الوليد محمد الأندلسي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق: علي معوض، دار الكتب العلمية - بيروت ٢٠٠٣م.
- ابن عابدين، محمد أمين (ت١٢٥٢هـ): رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، المطبعة العثمانية، ١٣٢٤هـ.
- الخرشي، أبو عبد الله محمد (١١٠١هـ): شرح الخرشي، وهو شرح على المختصر الجليل لأبي ضياء سيدي خليل، مطبعة بولاق – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣١٧هـ.

- الكاساني، علاء الدين أبي بكر بن مسعود الحنفي الملقب بملك العلماء (ت٥٨٧هـ): بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، المطبعة الجمالية - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٢٧ - ١٣٢٨هـ.
- مالك بن أنس: المدونة الكبرى، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- الماوردي، أبو الحسن علي: الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية - ٢٠٠٠م.
- الماوردي، أبو الحسن علي: الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي تحقيق: علي محمد عوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
- المواق، أبو عبد الله سيدي محمد بن يوسف (ت٨٩٧هـ): التاج والإكليل لمختصر خليل، مطبوع على حاشية مواهب الجليل للحطاب.
- النووي، محيي الدين بن شرف: المجموع شرح المهذب للشيرازي، حققه وعلق عليه وأكمله بعد نقصانه: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة.

سابعًا: كتب التاريخ والسيرة

- ابن إسحاق: السير والمغازي - دار الفكر العربي - بيروت.
- ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد الجزري: الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع البصري الزهري (ت ٢٣٠هـ): الطبقات الكبرى، تحقق إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.
- ابن سيد الناس، محمد بن عبد الله بن يحي (ت ٧٣٤هـ): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٤٠٦هـ.
- ابن كثير، الحافظ أبى الفداء إسماعيل (ت ٧٧٤هـ): البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ابن كثير، الحافظ أبى الفداء إسماعيل: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٣٩٦هـ - ١٩٧١م.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك المعافري (ت٢١٣هـ): السيرة النبوية، تحقيق محمد فهمي

السرجاني، المكتبة التوفيقية – القاهرة.

- ابن خلدون، عبد الرحمن المغربي: المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، مطبعة دار الشعب.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، دار الفكر، بيروت ١٩٥٦م.
- أحمد بن علي تمراز، حسين عمر سباهيتش: جمهورية البوسنة والهرسك قلب أوربا الإسلامي، دار الأرض للنشر، الرياض، ١٤١٣ هـ-١٩٩٢م.
- البلاذري، أحمد بن يحيى: أنساب الأشراف، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة الرسالة – بيروت.
- الحلبي، علي بن برهان الدين: السيرة الحلبية، طبعة بيروت.
- حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، مصر، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
- راغب السرجاني: قصة التتار، مؤسسة اقرأ - ٢٠٠٦م.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت.
- رأفت غنيمي، تاريخ آسيا الحديث والمعاصر: عين للدراسات والبحوث الاجتماعية،٢٠٠٤م.
- طارق محمد السويدان: فلسطين التاريخ المصور، الإبداع الفكري، مطابع الخط، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤ م.
- الطبري، محمد بن جرير أبو جعفر: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- عبد الرحمن على الحجي: التاريخ الأندلسي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- عبد العزيز الحميدي: التاريخ الإسلامي، دار الدعوة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- عماد الدين خليل: دراسة في السيرة النبوية، دار النفائس، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

- هشام عبد الرءوف حسن: تاريخ اليابان الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، طبعة ٢٠٠٣م.
- المباركفوري، صفي الرحمن: الرحيق المختوم، دار الوفاء – المنصورة، الطبعة السابعة عشر، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- محمد أبو شهبة: السيرة النبوية، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع.
- محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت ٩٤٢هـ): سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- محمد الغزالي، فقه السيرة: دار الشروق، ٢٠٠٠م.
- محمد أحمد باشميل: غزوة بني قريظة، دار الفكر.
- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة: ط ثالثة، سنة ١٣٨٩.
- محمد رواس قلعة جي: قراءة سياسية في السيرة النبوية، دار النفائس الطبعة الثانية ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م.
- محمود عبد الرحمن: تاريخ القوقاز، دار النفائس، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- المغلطاي، علاء الدين البكجري: الإشارة إلى سيرة سيدنا محمد، تحقيق آسيا كليبان، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ٢٠٠٣م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد: إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة، ١٩٤١م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، القاهرة ١٢٧١هـ.

ثامنًا: كتب التراجم والعلل

- ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد الجزري: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر – بيروت.

- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج (ت ٥٩٧هـ): صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري، ومحمد رواس قلعه جي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ابن حبان: أبو حاتم محمد بن أحمد التميمي البستي: الثقات، تحقيق السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي أبو الفضل (ت ٨٥٢هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف (ت ٤٦٣هـ): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، طبع مع الإصابة، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي (٦٩١ - ٧٥١هـ): زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية.
- بسام العسلي: عمرو بن العاص، دار النفائس - الطبعة التاسعة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء، تحقيق حسين الأسد، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الخامسة، أيار (مايو) ١٩٨٠م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، تحقيق تركي فرحان المصطفى، دار إحياء التراث العربي-بيروت.
- المزي، يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج: تهذيب الكمال، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

تاسعًا: كتب اللغة والمعاجم والبلدان

- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى.
- كحالة، عمر رضا: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- ياقوت بن عبد الله الحموي، أبو عبد الله: معجم البلدان، دار الفكر – بيروت.

عاشرًا: كتب عامة

- أبو الحسن علي الحسني الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة السنة - القاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠.
- أحمد أمين: فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ١٩٦٢م.
- أحمد بن عبد العزيز الحداد: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ١٩٩٩م.
- أحمد الحوفي، سماحة الإسلام، نهضة مصر - القاهرة ١٩٩٨م.
- أحمد سويلم العمري، العلاقات السياسية الدولية في ضوء القانون الدولي العام، مكتبة الأنجلو.
- أحمد كنعان: ذاكرة القرن العشرين، دار النفائس، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- الحسيني الحسيني معدي: الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- أرسطو: كتاب السياسة، ترجمه أحمد لطفي السيد، القاهرة ١٩٤٧م.
- إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا الحديث، مكتبة العبيكان، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- أمل خليفة: هزيمة أمريكا في فيتنام، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.
- أنور الجندي: بماذا انتصر المسلمون، مؤسسة الرسالة – بيروت.

- جواد أحمد: المجازر الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني: مركز دراسات الشرق الأوسط، الطبعة الثالثة، عمان، ٢٠٠٠م.
- حلمي بطرس: الأحوال الشخصية لغير المسلمين.
- راغب السرجاني: التعذيب في سجون الحرية، مؤسسة إقرأ، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
- شوكت محمد عليان: دراسات في الحضارة الإسلامية، دار الشواف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- صبحي الصالح: النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، مطبعة دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨.
- طه حبيشي: رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- ظافر القاسمي: الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام، دار العلم للملايين - بيروت.
- عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، دار نهضة مصر - ١٩٩٨م.
- عباس محمود العقاد: الفلسفة القرآنية، كتاب دار الهلال، مصر، عدد شهر مايو، ١٩٦٢م.
- عبد الرحمن عزام: بطل الأبطال أو أبرز صفات محمد ﷺ، دار الهداية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- عبد الله ناصح علوان: نظام الرق في الإسلام، دار السلام، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، دار الكتاب المصري اللبناني - القاهرة.
- عبد الواحد الفار: أسرى الحرب، عالم الكتب ١٩٧٥م.
- عبد العزيز علي جميع وزميليه: قانون الحرب.
- عمر بن عبد العزيز: سماحة الإسلام، الذهبية للنشر والترجمة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

- عمر رضا كحّالة: العالم الإسلامي، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت.
- فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- القنوجي، صديق بن حسن: أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٧٨م.
- كونراد زايتس: الصين، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- ماجد اللحام: معجم المعارك الحربية: دار الفكر المعاصر، بيروت.
- محمد الحسيني إسماعيل: الإسلام والغرب، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- محمد سعد الدين زكي: الحرب والسلام.
- محمد الصادق عفيفي: الإسلام والعلاقات الدولية، دار الرائد العربي - بيروت.
- محمد حرب، الإسلام في آسيا الوسطى والبلقان: دار البشائر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.
- محمد الغزالي: خلق المسلم، دار الدعوة، الطبعة السادسة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- محمد قطب: شبهات حول الإسلام، دار الشروق -- الطبعة الرابعة والعشرون ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥.
- محمود حمدي زقزوق: حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.

- محمود شاكر: محنة المسلمين في كوسوفا، مكتبة العبيكان، السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق - القاهرة.
- مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، دار الطليعة – بيروت- ١٩٧٩م.
- منصور عبد الحكم: الإمبراطورية الأمريكية البداية والنهاية، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.
- هيثم هلال: موسوعة الحروب، دار المعرفة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
- وهبة الزحيلي: آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دار الفكر – دمشق، ١٩٨١م.
- يوسف القرضاوي: بينات الحل الإسلامي، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣م.

حادي عشر: كتب المستشرقين

- آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م.
- أرنولد-سير. توماس: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م.
- ألفريد جيوم: «الفلسفة وعلم الكلام»، بحث منشور بكتاب (تراث الإسلام) بإشراف آرنولد توماس، ترجمة جرجس فتح الله – بيروت، ١٩٧٣م.
- برنارد لويس: السياسة والحرب، بحث منشور بكتاب (تراث الإسلام) بإشراف آرنولد توماس، ترجمة جرجس فتح الله – بيروت، ١٩٧٣م.
- بوسورث سميث: محمد والمحمدية، لندن، ١٩٤٦م.
- توماس كارليل: الأبطال، ترجمة محمد السباعي، مطبعة مكتبة مصر.
- جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم، دار الجيل، بيروت ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- جورج سيل: الترجمة الإنجليزية لمعاني القرآن، ١٧٣٦م.

- جوستاف لوبون: حضارة العرب، نقله إلى العربية عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
- زيغريد هونكه: الله ليس كذلك، ترجمة: غريب محمد غريب، طبعة القاهرة، ١٩٩٥م.
- زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فاروق بيضون، كمال دسوقي، وراجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري، مطبعة دار صادر بيروت الطبعة العاشرة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- سارتون: الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ترجمة د. عمر فروخ، طبعة بيروت ١٩٥٢م.
- لامارتين: تاريخ الأتراك، طبعة باريس، ١٨٥٤م.
- فيليب حتي وآخرون: تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، الطبعة التاسعة ١٩٩٤م.
- كارين أرمسترونج: محمد، ترجمة: د. فاطمة نصر، كتاب سطور، ١٩٩٨م.
- كونراد زايتس: الصين عودة قوة عالمية: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.
- مايكل لي لاننغ: المعارك مائة، قصة أكبر مائة معركة في التاريخ، ترجمة صادق عبد علي الركابي، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.
- مونتجمري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ٢٠٠١م.
- مونتجمري وات: محمد في مكة، ترجمة شعبان بركات.
- هـ. أ. ل. فِشر: تاريخ أوروبا الحديث، النسخة المعربة، أحمد نجيب هاشم، دار المعارف عام ١٩٩٣م.
- واشنجتون إيرفنج: حياة محمد - ترجمة: على حسنى الخربوطلى، دار المعارف ـ القاهرة.
- ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، د/ عبد الحميد يونس، الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠١م.
- وليم موير: حياة محمد، صدر في لندن، ١٨٥٦-١٨٦١م.

ثاني عشر: المجلات والدوريات

- مجلة الأزهر، عدد ديسمبر ١٩٩٣م.

ثالث عشر: مواقع الإنترنت

- الموسوعة الحرة ويكيبيديا.
- موقع الأمم المتحدة.
- موقع جريدة المصريون الإلكترونية.
- موقع منظمة العفو الدولية.
- موقع وكالة الأنباء السعودية.
- موقع هيئة الإذاعة البريطانية.

* * *


فهارس
الكتاب



فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث



فهرس الأعلام



فهرس الأماكن



فهرس الأعلام المترجم لها

فهرس الكلمات



فهرس الخرائط والأشكال والصور

فهرس الموضوعات

* * *

المؤلف في سطور:

الأستاذ الدكتور راغب السرجاني



الأستاذ الدكتور راغب السرجاني: وُلِدَ عام ١٩٦٤م بمصر، وتخرَّج في كلية الطب جامعة القاهرة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف عام ١٩٨٨م، أتمَّ حفظ القرآن الكريم عام ١٩٩١م. ثم نال درجة الماجستير عام ١٩٩٢م من جامعة القاهرة بتقدير امتياز، ثم الدكتوراه بإشراف مشترك بين مصر وأمريكا عام ١٩٩٨م (في جراحة المسالك البولية والكلى).

- أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.

- رئيس مجلس إدارة مركز الحضارة للدراسات التاريخية بالقاهرة.

-صاحب فكرة موقع قصة الإسلام والمشرف عليه (أكبر موقع للتاريخ الإسلامي) www.islamstory.com.

- باحث ومفكر إسلامي، وله اهتمام خاص بالتاريخ الإسلامي.

- ينطلق مشروعه الفكري «معًا نبني خير أمة» من دراسة التاريخ الإسلامي دراسة دقيقة مستوعبة، تحقق للأمة عدة أهداف؛ منها:

- استنباط عوامل النهضة والاستفادة منها في إعادة بناء الأمة.
- بعث الأمل في نفوس المسلمين، وحثهم على العلم النافع والعمل البناء؛ لتحقيق الهدف.
- تنقية التاريخ الإسلامي وإبراز الوجه الحضاري فيه.

- وعلى مدار سنوات عديدة كانت له إسهامات علمية ودعوية؛ ما بين محاضراتٍ وكتبٍ ومقالاتٍ وتحليلاتٍ؛ عبر رحلاته الدعوية إلى شتى أنحاء العالم.

- صَدَرَ له حتى الآن ٢٧ كتابًا في التاريخ والفكر الإسلامي؛ هي:

١. (ماذا قدم المسلمون للعالم.. إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية): الحائز على جائزة مبارك للدارسات الإسلامية عام ٢٠٠٩م.

٢. (الرحمة في حياة الرسول ﷺ): الحائز على جائزة المركز الأول في مسابقة البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ عام ٢٠٠٧م.
٣. قصة التتار من البداية إلى عين جالوت
٤. قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي
٥. العلم وبناء الأمم - دراسة تأصيلية في بناء الدولة وتنميتها
٦. روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية
٧. أخلاق الحروب
٨. قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية
٩. فلسطين ..واجبات الأمة
١٠. وشهد شاهد من أهلها
١١. رحماء بينهم - قصة التكافل والإغاثة في الحضارة
١٢. بين التاريخ والواقع — أربعة أجزاء
١٣. أمة لن تموت
١٤. رسالة إلى شباب الأمة
١٥. كيف تحافظ على صلاة الفجر
١٦- كيف تحفظ القرآن الكريم
١٧- القراءة منهج حياة
١٨- المقاطعة.. فريضة شرعية وضرورة قومية
١٩- أخي الطبيب قاطع
٢٠- أنت وفلسطين
٢١- فلسطين لن تضيع.. كيف؟
٢٢- لسنا في زمان أبرهة
٢٣- إلا تنصروه ﷺ
٢٤- التعذيب في سجون الحرية
٢٥- رمضان وبناء الأمة
٢٦- الحج ليس للحجاج فقط
٢٧- من يشتري الجنة

- يقدّم عدة برامج وحوارات على الفضائيات والإذاعات المختلفة؛ منها: اقرأ، الرسالة، الحوار، الناس، القدس، المستقبل، العربية، الجزيرة، الجزيرة مباشر، والسودان، وإذاعة أم القيوين. وإذاعة القرآن الكريم بفلسطين والأردن ولبنان والسودان والإمارات، وغيرها.

- له مئات المحاضرات والأشرطة الإسلامية؛ يتحدث فيها عن السيرة النبوية والصحابة، وتاريخ الأندلس، وقصة التتار، وغير ذلك.